الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد لمين دباغين– سطيف2

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة

مقدمة لنيل شهادة

دكتوراه العلوم

التخصص: معجمية وقضايا الدلالة.

إعداد الطالب: محمد زيـان

تداولـــية الحـــوار في الخطاب القـــرآني

حوار أهل الكتاب– أنموذجا.

المشرف: أ.د.خليفة بوجـادي

جامعة محمد لمين دباغين– سطيف2

لجنة المناقشة:

رئيساً	محمد بوادي	أستاذ	جامعة محمد لمين دباغين – سطيف 2.
مشرفاً ومقرراً	خليفة بوجادي	أستاذ	جامعة محمد لمين دباغين – سطيف 2.
ممتحناً	نواري سعودي	أستاذ	جامعة محمد لمين دباغين – سطيف 2.
ممتحناً	الشريف ميهوبي	أستاذ	المركز الجامعي– بريكة.
ممتحناً	ذهبية بورويس	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر– قسنطينة.
ممتحناً	خالد هدنة	أستاذ محاضر (أ)	جامعة محمد لمين دباغين – سطيف 2.

2018م.

﴿ بسم الله الرحـــيم﴾

قال الله سبحانه وتعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: 13).

وقال أيضا:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران: 64).

(صدق الله العظيم).

شكر وعــــــــرفان:

أتقدم بالشّكر الجزيل إلى أستاذي المشرف، على ما تكرم به عليّ من نصائح وتوجيهات وتشجيعات، دفعتني قدما إلى إتمام هذا العمل، ولولاه لما استقام البحث على سوقه، ولبقي مراوحا مكانه.

كما أشكر كل من أمدّني بالعون- ولو بكلمة تحفيزية- من قريب أو بعيد. وأدعو الله العلي القدير أن يبارك في الجميع وأن يجازيهم خير الجزاء إنه سميع مجيب.

الإهــــداء:

إلى روح والدي الطاهرة، تغمّده الله برحمته الواسعة، وأسكنه فسيح جنّاته، الذي أوصاني في صغري، بأن أجعل القراءة هي أمّي وأبي.

إلى التي حملتني وهناً على وهن، ولم تكلّ ولم تملّ، إلى التي لا تعرف الحقد، ولا يعرف الحقدُ إلى قلبها سبيلا، إلى أمّي التي أجد عندها ضالّتي، وأستأنس بدعائها لي في اجتماعي، وفي وحدتي. متّعها الله بالصّحّة والعافية وطول العمر، وجعلها راضية عني.

إلى الطيبة الفاضلة، التي ضحّت من أجلي لأنال هذه المنزلة، إلى من وقفت بجانبي في العسر واليسر، إلى حسنة الدنيا التي اختارها الله لي أن تكون رفيقة دربي، إلى زوجتي أم أولادي، حفظها الله وإياهم.

إلى أبنائي فلذّات أكبادي؛ علي، وسارة، وروميساء، وعلاء الدين، ومحمد عبد الله وعبد الفتاح، وعبد الرؤوف، حفظهم الله ورعاهم، وهداهم إلى ما يحبّ ويرضى.

إلى إخوتي وأخواتي، فتح الله عليهم، ورزقهم من حيث لا يحتسبون.

إلى كل من أحب القرآن، وجعله دليلا يهتدي به في الدّار الفانية، ليفوز برضى الله سبحانه ورضوانه في الدّار الباقية.

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل.

مقـــــــــدمـة

مقـــــــدمة: الإنسان اجتماعي بطبعه، فهو مجبر على التّعامل مع غيره، من أبناء جنسه منهم من يوافقه في الفكر والعقيدة ، ومنهم من يخالفه في ذلك . ولحاجته إلى تبادل المنافع والمصالح مع غيره، يقتضي منه أن يكون محاورا كُفءاً يتمتع بأخلاق الحوار، وتتوفر فيه شروط المحاور الناجح. وإذا كانت حكمة الله قد قضت أن يتعارف الإنسان ويتعاون مع غيره ويتواصل لتتحقق الغاية من الخلق، ويتحقق معنى الأمة الواحدة. فلا مفر من اللقاء والحوار، الذي يؤدي إلى التعارف والجوار والتعايش بين البشر جميعاً .

بالحوار يكسب الإنسان رهان الحياة، ويستفيد من جميع الطاقات والكفاءات، ويرقى بمستواه المادي والفكري والروحي. وبالحوار يكون التغيير نحو الأفضل، وبه تصنع البشرية من التدابر ألفة، ومن الضعف قوة، ومن التخلف تقدما ورقيا، ومن العالم المترامي الأطراف قرية كونية متكافلة ومتعاونة. وصدق الله تعالى في قوله:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:13).

وقع اختيار الباحث على موضوع الحوار في القرآن الكريم، لجملة من الأسباب، منها:

لأنه يعتقد أن القرآن الكريم يعتبر المصدر الأول من المصادر التي تبنى عليها اللغة العربية وتقوم، وقد تناول هذا المصدر موضوع الحوار في ثناياه، فكان أول كتاب دعا إلى الحوار والتعارف، ودعا إلى الأخوة، والدّفع بالتي هي أحسن، وحث على التسامح بعيدا عن الأضغان والأحقاد.

والحوار في القرآن، حوار تربوي وفكري، ليّن وهادف، حجاجي وهادئ . قائم على الحجة والبرهان، ونقض الفكر المخالف بالأدلة الدامغة، دون إقصاء للخصم أو دعوة إلى استئصاله . تاركاً الحرية له ليدافع عن نفسه إذا كان على حقّ، عملاً بقوله تعالى:﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:256).

فلماذا الحوار القرآني؟ ولماذا الحوار مع أهل الكتاب؟. لعله من خلال الحوار القرآني مع أهل الكتاب يمكن الاستفادة من دروس وعبر كثيرة، هي بمثابة رأس المال، نتعامل به في هذه الحياة، التي صار فيها العالم قرية كونية، وصار الاحتكاك مع الأمم الأخرى أمرا واقعا لا مفرّ منه. لذلك اتُّخِذ النموذج الحواري في القرآن الكريم مثالا حيا في كيفية محاورة ومجادلة أهل الكتاب، بما يعود على بني الانسان بالرقي والازدهار، والعيش الكريم في ظل التسامح والتصالح والوئام.

ومن خلال الحوار القرآني تتبين العقدة التي يعاني منها أهل الكتاب، إزاء مواقفهم العدائية للإسلام ، والمسلمين، منذ بعثة الرسول محمد– صلى الله عليه وسلم –وإلى يوم الناس هذا ؟

لقد سعى الباحث من خلال هذا العمل إلى المساهمة في إثراء المكتبة الجامعية بمثل هذه الدراسات القرآنية، لتمكين طالب اللغة العربية من الاستفادة من معينها في الفصاحة والبيان. ومن الغوص في التنقيب عن أسرار القرآن الكريم اللغوية، واكتساب فن التواصل والحوار مع الآخر.

كما هي محاولة منه لمقاربة هذا النص مقاربة تداولية، من شأنها الكشف عن الأغراض والمقاصد التي يهدف إليها، خاصة في الجانب المتعلق بالحوار مع أهل الكتاب. وكذلك الرّقي بالفكر والضمير الإنساني إلى مستويات عالية من الحوار المتحضر البعيد عن التعصب والمراء. فالحوار القرآني يعلم المتحاورين كيفية الارتقاء بأسلوب الحوار ومقاصده من عالم الواقع إلى عالم المثال.

أما الإشكالية التي طرحت في هذا البحث الموسوم ب"تداولية الحوار في الخطاب القرآني، حوار أهل الكتاب-أنموذجا" فتتمثل في الآتي :

- إلى أي مدى يمكن تطبيق المنهج التداولي على النص القرآني، وكيف يمكن استغلال الآليات الإجرائية في ذلك ؟
- ما هي خصائص الحوار القرآني، وما الذي يميزه عن الحوارات البشرية ؟ كيف تعامل القرآن الكريم في حواره مع أهل الكتاب؟ وما أساليبه المتبعة في ذلك؟.
- وكيف يمكننا الاستفادة من الحوار القرآني في انفتاحنا على أهل الكتاب وتقريب وجهات النظر بيننا في ظل التسامح والتعايش والاحترام المتبادل؟.

لقد اعتمد في مقاربة البحث على المنهج الوصفي التفسيري، والمنهج التداولي؛ لأن المنهج التداولي يفتح الباب أمام الدّارس، ليستعين بعلوم معرفية عديدة يستخدمها في القراءة والتحليل. عكس المناهج السابقة الأخرى التي تحصر القارئ في زاوية معينة . فالبنوية مثلا، أعطت الأولوية للنّص. وجاءت "الهرمينيطيقا" بفكرة قتل المؤلف، والمعنى يحدّده القرّاء، وقالت بتعدد القراءات ولا نهائيتها. فلا البنوية حافظت على المعنى، ولا الهرمينيطيقا وصلت إليه .

أما التداولية فقد أفادت من جميع هذه المناهج، وكاملت بينها، وربطت بين جميع الحلقات المشكّلة لسلسلة القراءة والتحليل،انطلاقا من المرسل والمتلقي وصولا إلى القصد والغرض الذي يرمي إليه المتكلم، فأحيت التداولية المؤلّف وأعادت إليه الاعتبار، لفهم المقصود من الكلام، كما اهتمت بدور السياقات المختلفة للكلام، والعلاقة التي تربط بينها وبين أركان دورة الحوار والتخاطب، وبينت مدى ارتباط اللغة بمستعمليها ومبدعيها؛ ففسرت اللغة على أنها أفعال كلامية ذات مقاصد إنجازية، تفهم منها تضمّنا، أو استلزاما، أو اقتضاء، تساعد فيها قرائن مختلفة.

لقد تبين بعد مطالعة الدراسات التي قام بها علماء العربية الأوائل على النّص القرآني–وخصوصا المفسرين منهم– أنهم طبقوا منهجا متكاملا في القراءة والتحليل، انطلاقا من الأدوات إلى المفردات إلى الجمل إلى المعنى النسقي، ثم المعنى السياقي، مع مراعاة المقامات والأحوال، فلم يهملوا أسباب النزول، واستطاعوا تطبيق منهج لا يختلف عن المنهج التداولي، إلا في الجانب الاصطلاحي، إضافة إلى أن المنهج المعتمد عند المفسرين، لم يلغ الخالق عز وجل، ولم يلغ المعتقد، ولم يلغ الغيب، لكن هذه الأصول لم نجدها عند التداوليين الغربيين، لأنهم انطلقوا بالأساس من ماديات، وكانت منطلقاتهم وغاياتهم مادية صرفة. بينما انطلق المفسرون المسلمون من الروحانيات، ولم يهملوا الجانب المادي للغة، لأنهم أدركوا أن المادة ما هي إلا وسيلة لخدمة الروح. وبمزاوجة علماء العربية في منهجهم بين المبنى والمعنى، وبين الشكل والمضمون، استطاعوا الإمساك بالمعاني والدلالات القرآنية إلى حدّ بعيد .

لقد سعى الباحث إلى تطبيق آليات المنهج التداولي على النصوص الحوارية في القرآن الكريم، واقتصر على أفعال الكلام، ومتضمنات القول، مع الاستلزام الحواري، وأولى عناية خاصة للمقاصد والأغراض التي انطوى عليها الحوار القرآني المتعلق بأهل الكتاب. وكذا العبر والعظات، الواردة فيه والاستفادة منها في شؤون الحياة الخاصة والعامة. قال تعالى:﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾.(آل عمران: (7).

وإذا راعى الباحث في هذه المقاربة التداولية، مبدأ القصدية؛ فلأن القرآن الكريم كلّه مقاصد، وهو كلام الله ودستور الحياة، وهو الكتاب الوحيد الذي يُتعبّد بتلاوته، ويُتقرّب به إلى الله تعالى. كما استأنس الباحث في قراءته ببعض مفاهيم النظرية الحجاجية، لأن القرآن الكريم لا يخلوا من الحجاج القائم على الحجة والبرهان، وصدق الله العظيم إذ قال في محكم تنزيله:﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة: 111). فمن ادعى شيئا فعليه بيانه، ومن أراد القول فعليه بالتعليل، والإتيان بالدليل. وقد توخى الباحث جملة من الأهداف منها:

– مدى انسجام المنهج التداولي مع العمل الذي قام به المفسرون في قراءة النص القرآني وتأويله وفهمه فهما يفيد في معالجة الوقائع الحيواتية المتجددة.

– إبراز أهمية الحوار القرآني في الدعوة إلى التقارب فيما بين الأمم والشعوب من أجل تبادل المنافع وقضاء المصالح، انطلاقا من التنوع الذي أوجده الخالق عز وجل في عباده.

– الحوار أساسه الاختلاف والتغاير، وهو علاج للنفس من داء الانغلاق والتحجر، وانفتاحها على الغير تنصت إليه وتتعلم منه وتنقل تجاربه وخبراته.

– كيف نستفيد من الحوار القرآني في بناء أسرنا ومجتمعاتنا؟، وكيف نجعل منه سلوكا حضاريا ضروريا في حياتنا نلجأ إليه كلما دعت الحاجة؟.

- الاهتداء بالقرآن الكريم وبتعاليمه، لأنه صمام الأمان للبشرية في معاشها ومعادها، ومن اتبع الهدي القرآني فقد نال شهادة البراءة التي ينال بها رضى الله سبحانه في الدنيا والآخرة.

ولقد سبقت هذا البحث دراسات تناولت موضوع الحوار في القرآن الكريم، لكنها – وفي حدود معرفة الباحث ومطالعاته لما وقعت عليه يداه– لم تتعرض بالتفصيل إلى الحوار مع أهل الكتاب بنظرة تداولية كالتي انطلق منها البحث وهدف إليها كنتائج وغايات. ومن هذه الدراسات نذكر ما يلي: الحوار في القرآن؛ قواعده، وأساليبه، ومعطياته. لمحمد حسين فضل الله. وفقه الحوار مع المخالف في السنة النبوية. لفتحي بن عبد الله الموصلي. والحوار القرآني في سورة الأنعام. لأحمد محمد الشرقاوي. والحوار والمناظرة في القرآن. لخليل عبد المجيد زيادة. والحجاج في القرآن لعبد الله صولة. والحوارات الأسرية في القرآن الكريم. لمحي الدين المشعل السيد. وبعض الدراسات التي تناولت الخطاب القرآني بصورة عامة.

وقد اعتمد البحث على الخطة الآتية :

قسم البحث إلى بابين:

الباب الأول: وخصص للجانب النظري، وتناول فيه الباحث؛ **التداولية والحوار في القرآن الكريم**. وتفرع هذا الباب إلى أربعة فصول.

الفصل الأول: تناول **التداولية، مفاهيم نظرية**: وانقسم الفصل بدوره إلى ثلاثة مباحث؛ تمثلت في الآتي: المبحث الأول : في المفهوم، والنشأة، وأهم الرواد المؤسسين.

ثم المبحث الثاني: وتناول مبادئ التداولية وأهدافها؛ ومن جملة هذه المبادئ نذكر؛ أفعال الكلام، ومتضمنات القول، والقصدية، والسياق، والحجاج، وبعض المبادئ التي أضيفت مع التداوليين المتأخرين من أمثال (جيوفري ليتش، وجورج يول) منها؛ مبدأ التخلق والكياسة، أو قواعد فن التأدب

ثم المبحث الثالث: وتناول علاقة التداولية بالعلوم المعرفية. ومن هذه العلوم ما يلي؛ اللسانيات البنوية، النحو الوظيفي، علم الولالة، اللسانيات النفسية والاجتماعية، اللسانيات التعليمية، لسانيات النص وتحليل الخطاب، وتمت الإشارة في آخر المبحث إلى برنامج (هنسن) ودرجات التداولية.

ثم **الفصل الثاني**: وتناول **الحوار القرآني، مفاهيم نظرية**. وانقسم بدوره إلى ثلاثة مباحث، تمثلت في الآتي:

المبحث الأول: وتناول مفهوم الحوار وأنواعه. وتناول المفهوم اللغوي والاصطلاحي، ومدلول كلمة الحوار في القرآن الكريم. ثم بعض المفاهيم المتداخلة المعنى مع الحوار؛ كالجدل، والمراء، والتفاوض، والحجاج أو المحاجة، والمناظرة. ثم انتقل إلى أنواع الحوار المتمثلة في ؛ الحوار الداخلي(الحوار مع الذات)، والحوار الخارجي(الحوار مع الغير)، وأبرز أهمية هذه الحوارات في حياة الأفراد والجماعات.

المبحث الثاني: وتناول،؛ الحوار القرآني، سماته، وأسلوبه، وقواعده. وبين أن الحوار القرآني هو حوار خاص ومتميز يختلف عن الحوارات البشرية شكلا ومضمونا. حوار لا يرد، يمتاز بالتأثير والإقناع. وهو متميز في أسلوبه المبني على الحجة والبرهان وإعطاء الحرية الكاملة للخصم قبل الإفحام. حوار يهدف إلى التنبيه والتذكير. ونشدان التغيير الإيجابي في حياة البشر.حوار يقوم على الموضوعية في الطرح، والإتيان بالبديل الأحسن والأفضل. ويمتاز باللين والخوف والشفقة على المحاوَر، يرتكز على العلم في طريقته لإظهار الحق وإبطال الباطل. وتناول المبحث الشروط الواجب توفرها لنجاح عملية الحوار، وكذا معيقات الحوار الذاتية والموضوعية وكيفية معالجتها أو تفاديها ليحقق الحوار مبتغاه. ثم يأتي الفصل الثالث؛

الفصل الثالث: تناول **الخطاب القرآني، مفاهيم نظرية**. وانقسم الفصل إلى أربعة مباحث، وردت مرتبة كالآتي؛

المبحث الأول: وتناول مفهوم الخطاب في المعاجم العربية، وعند البلاغيين والنحاة وعند المفسرين، وكذا أوجهه المتنوعة في القرآن الكريم، وقضية المتلقي في الخطاب القرآني ومسألة الحضور والغياب، وتناول أيضا علا قة الحوار القرآني بالخطاب القرآني والفرق الجوهري بين حوار الخالق وحوارات المخلوقين.وختم المبحث بذك المقاصد العامة للحوار في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: وتناول مفهوم الخطاب عند الغربيين أو الغرب؛ وأخذ نموذجا له عند (ميشال فوكو، وباختين). ثم يأتي الفصل الرابع.

الفصل الرابع: تناول **أهل الكتاب.مصطلحات ومفاهيم نظرية**. وتم تقسيم الفصل إلى ثلاثة مباحث؛

المبحث الأول: تناول مصطلحات ومفاهيم؛ وتم فيه التعرض إلى بعض المصطلحات التي هي مفاتيح لدراسة الحوار مع أهل الكتاب ومن هذه المفاهيم؛ العبراني، الإسرائيلي، اليهودي، النصراني، والحواري. وكذا مفهوم التوراة، والإنجيل. ثم مفهوم أهل الكتاب. وما يتمتع به هؤلاء من حرية في البلاد الإسلامية في العصر الحديث.

المبحث الثاني: وتناول حقيقة بني إسرائيل؛ نسبهم، موطنهم، تاريخهم، ربطهم بأبيهم ووصيته إياهم، حياتهم في أرض كنعان وفي مصر وفي الأرض المقدسة، ومعارضتهم لأنبيائهم ومعاداتهم ومحاربتهم، والأذى الذي لحق بهم من

فرعون مصر، وعصيانهم لنبيهم موسى عليه السلام الذي بعثه الله منقذا إياهم.ثم عقاب الله إياهم لكفرهم وتمردهم وتطاولهم على الله وأنبيائه. وتناول المبحث حالهم في صدر الإسلام، وفضح القرآن لدسائسهم ومكائدهم وكيف كان موقفهم من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودعوته.

المبحث الثالث:تناول موقف بني إسرائيل والحواريين من رسالة عيسى عليه السلام؛ وتعرض إلى إرسال عيسى إلى بني إسرائيل فقط، ثم إلى الحواريين وهم أنصار عيسى عليه السلام، ثم تآمر اليهود على قتل نبي الله عيسى، ورفع الله إياه وتطهيره من الذين كفروا. هذا في الجانب النظري، ويأتي الباب الثاني المخصص للجانب التطبيقي، للحوار القرآني عموما، وحوار أهل الكتاب على وجه الخصوص.

الباب الثاني:الحوار في القرآن الكريم ومقاصده التداولية. وينقسم إلى أربعة فصول، موزعة كالآتي؛

الفصل الأول: تناول **نماذج من الحوار القرآني، وأبعاده التداولية**. انقسم بدوره إلى مبحثين، هما؛

المبحث الأول: وتناول حوار الله سبحانه مع مخلوقاته، وضم الحوار؛ حوار الله مع ملائكته عند خلقه آدم عليه السلام، وحوار الله مع إبليس اللعين، ثم حواره مع نبيه نوح عليه السلام، تم حوار الله مع خليله إبراهيم عليه السلام، ثم حوار الله مع كليمه موسى عليه السلام، وختم البحث بالأبعاد المستفادة من هذه الحوارات مع الله سبحانه؛ في مجال العبادات والمعاملات والأخلاق.

المبحث الثاني: وتناول حوارات المخلوقين فيما بينهم؛ وضم حوار ابني آدم، ثم حوارات الأنبياء أقوامهم وأفراد أسرهم ، وطغاة زمانهم، وهؤلاء الأنبياء هم؛ نوح عليه السلام، هود عليه السلام ، صالح عليه السلام ، إبراهيم عليه السلام ، موسى عليه السلام ، لوط عليه السلام ، شعيب عليه السلام ،وأخيرا بين يعقوب وأبنائه عليهم السلام. وذُيّلَ كل حوار بخلاصة لجملة من الأبعاد التداولية والعبر والعظات التي يمكن الاهتداء بها والانتفاع منها في الحياة الخاصة والعامة في الحياة ومجالاتها المختلفة.

الفصل الثاني: تناول **الحوار القرآني مع أهل الكتاب، وأغراضه التداولية**. وقسم إلى مبحثين، هما؛

المبحث الأول: تناول الحوار القرآني مع الفئة المؤمنة من أهل الكتاب، فدعا إلى التواصل مع هذه الفئة، الصادقة، المؤمنة الخيرة، والحوار معها يكون بالحجة، لأن في ذلك فرصة لكسب هذه الفئة المؤمنة والحفاظ على ودها وعدم خسارتها. ودعانا القرآن إلى دعوة هذه الفئة إلى الإيمان لأنها تملك الاستعداد لذلك، وقد وعد الله هذه الفئة بالغفران. كما دعانا القرآن إلى مجادلة أهل الكتاب وبالخصوص الفئة المؤمنة بالتي هي أحسن.

تناول المبحث الثاني:الحوار القرآني مع الفئة الكافرة من أهل الكتاب، وتعرض إلى حسد أهل الكتاب للمؤمنين، وعملهم على ردتهم وإعادتهم إلى الكفر، وتعرض إلى صفتهم الذميمة في الجدل والمراء والجهل، وكفرهم وكتمانهم الحق، وصدهم المؤمنين عن السبيل، كما تعرض إلى وصف أمة محمد بالخيرية، وحكم على أهل الكتاب بالفسوق. ثم كشف عن تعنت أهل الكتاب وتطاولهم على الله وأنبيائه، وغلوهم في الدين، وتأليههم المسيح ابن مريم، كما حكم القرآن الكريم بعدوانية أهل الكتاب ضد المسلمين لا لشيء سوى إيمانهم بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وأخيرا يبين القرآن الجزاء الذي ينتظر أهل الكتاب والمشركين في الآخرة.

الفصل الثالث: تناول **محاورة القرآن بني إسرائيل، وتذكيرهم بنعم الله عليهم**. وقسم الفصل إلى ثلاثة مباحث؛

المبحث الأول: تناول نعم الله على بني إسرائيل ومن جملة هذه النعم تنجية الله إياهم من ظلم فرعون، ونصرهم على عدوهم جالوت وكانوا فئة قليلة بقيادة نبي الله داود، وتفضيلهم على العالمين، وتحقيق الأمن النفسي والأمن الغذائي لهم، ونعمة بعثهم بعد الصعق في الدنيا، وعفو الله عنهم بعد ذلك، وإهلاك الله لفرعون وإنجاؤهم، ووعد الله إياهم بدخول الأرض المقدسة.

المبحث الثاني: وتناول وعيد الله بني إسرائيل وعقابهم. واشتمل الوعيد على؛ تحذير الله إياهم نقض ميثاقهم مع الله، وتضمن الميثاق؛ عبادة الله وحده، والإحسان إلى الوالدين، وذي القربى واليتامى والمساكين، والإحسان إلى الناس بالقول، وإيتاء الزكاة، لكن القليل منهم من حفظ الميثاق. وتناول المبحث أسباب وعيد الله إياهم ومن تلك الأسباب؛ قتلهم النفس وسفكهم الدماء، واستكبارهم وتحكيمهم هواهم وقتلهم أنبياء الله. ثم عقاب الله المعتدين منهم في السبت، ولعنة الله إياهم على فعلهم المنكر، وفسادهم وعلوّهم في الأرض، واتهامهم عيسى عليه السلام بالسحر.

المبحث الثالث: وتناول أفعال الكلام في حوار أهل الكتاب وأغراضها التداولية. وتعرض البحث إلى أفعال الكلام الآتية؛ الأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء، وفي آخر المبحث تم التطرق إلى بعض الخصائص المميزة لأفعال الكلام في القرآن الكريم. ثم يأتي الفصل الرابع .

الفصل الرابع: تناول **المنهج القرآني في محاورة أهل الكتاب، وغاياته**. وضم الفصل مبحثين؛

المبحث الأول: تناول أسلوب العرض والمواجهة وأغراضه، وتطرق إلى؛الاستفهام الإنكاري، وأسلوب القصص، والوعظ والتذكير، ثم أسلوب التحدي والمباهلة، والأغراض التداولية المستفادة من هذه الأساليب.

المبحث الثاني: وتناول أسلوب الاستدلال وإقامة الحجة والبرهان. وطرقه في ذلك؛ الاستدلال عقلا في إبطال الدعوى، وإظهار سوابقهم مع أنبيائهم ورسلهم، ومطالبتهم بالدليل والبرهان وإفحامهم، والاحتجاج ببراهين نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، والاستدلال بنصوص كتبهم، وبلازم كلامهم، وبتحريفهم كتبهم، وإظهار تناقضهم للتدليل على كذبهم، والاستدلال عليهم بتحكمهم للهوى والشهوات، ونتيجة ذلك الاستكبار وممارسة القتل وسفك الدماء. وانتهى البحث إلى:

خاتمة. تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وقد اعتمد البحث على عدد من المصادر والمراجع الأساسية أهمها:

-كتب التفسير الآتية : التحرير والتنوير لـ(الطاهر بن عاشور). وفي ظلال القرآن لـ(سيد قطب). ومفاتيح الغيب لـ(الفخر الرازي). وروح المعاني لـ(الألوسي). والكشاف لـ(الزمخشري)..وبعض الكتب في علوم القرآن مثل: الإتقان في علوم القرآن (للسيوطي). والبرهان في علوم القرآن لـ(الزركشي). وأحكام القرآن لـ(القرطبي)....

- وأما كتب الحوار التي استأنس بها الباحث فمنها ؛الحوار في القرآن لـ(محمد حسين فضل الله). والحوار في القرآن لـ(غالب حسن الشبندر). والخطاب القرآني؛ القرآن مرجعية للخطاب النهضوي لـ(سعد كموني).والحوار في الإسلام لـ(أسعد السحمراني)، وفقه الحوار مع المخالف في السنة النبوية لـ(الموصلي)...

وأما مراجع اللسانيات التداولية فمنها: التداولية عند العلماء العرب لـ(مسعود صحراوي). واللسان والميزان لـ(طه عبد الرحمن). واستراتيجيات الخطاب (لعبد الهادي بن ظافر الشهري). ومبادئ التداولية لـ(جيوفري ليتش). والتداولية علم جديد في التواصل لـ(آن روبول وجاك موشلار)، وفي اللسانيات الوظيفية لـ(أحمد المتوكل)، وفي اللسانيات التداولية؛مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم لـ(خليفة بوجادي). وعناوين أخرى ...

وأما الصعوبات التي اعترضت طريق الباحث، فتكمن في القراءة التداولية في حدّ ذاتها، فهي ذات روافد نظرية عديدة لا يمكن حصرها، ولا استحضار كل مفرداتها الاصطلاحية ومفاهيمها النظرية أثناء عملية القراءة والتحليل جملة واحدة. ولعلّ تعالي النص القرآني أملى على الباحث أن يقرأ النص قراءة في القصدية والأغراض، وأن يقرأه قراءة كلّية متكاملة معتمدا في ذلك على تداولية المعنى بمراعاة المقاصد والأبعاد، التي تسعى إلى تغيير حال الإنسان فكريا وسلوكيا.

ومن الصعوبات التي عانى منها الباحث أيضا، آفة النّسيان، قال الناظم :

وستّةٍ تدركنا عند الكـــــبر، تقاصرُ المشْي كحالة الصغر.

وقلّةُ السمع، وقلّة البـــصر، وقلّة الأكل إذا الزاد حـضر.

وكثرةُ النوم من غير ما سهر، وكثرة النّســـيان أدهى وأمر.

وفي الختام يتوجه الباحث بالشكر الجزيل إلى أستاذه المشرف على صبره، وسعة صدره، وعلى تحمله الكبير له، فهو الذي كان يحفّزه، ويدفعه قُدما، ويشجعه على أن يمضي في هذا البحث، ولولاه ما استوى البحث على سوقه ولما برز إلى الوجود. كما يتقدم بالشكر الجزيل إلى لجنة القراءة والمناقشة لهذا البحث، راجيا من المولى العلي القدير أن يكتب للجميع هذا الجهد في ميزان حسناتهم.

كما يتقدم بالشكر الجزيل إلى عائلته الكريمة- ويخص بالذكر الزوجة الفاضلة- أطال الله في عمرها ومتعها بالإيمان والصحة والعافية – التي كان لها الفضل الكبير في إتمام هذا العمل. وإلى كل من قدّم إليه يد العون والنصيحة من قريب أو بعيد. ولله الحمد في الأولى والآخرة، فإن أصاب فمن الله، وإن أخطأ فمن نفسه ومن الشيطان. والله نسأل الهداية والغفران.

الباب الأول:

*التداولية والحوار في القرآن الكريم.

الفصل الأول: التداولية، مفاهيم نظرية.

الفصل الثاني: الحوار القرآني، مفاهيم نظرية.

الفصل الثالث: الخطاب القرآني، مفاهيم نظرية.

الفصل الرابع: أهل الكتاب، مفاهيم نظرية.

الفصل الأول*التداولية، مفاهيم نظرية.

المبحث الأول: المفهوم، والنشأة.

المبحث الثاني: مبادئ التداولية، وأهدافها.

المبحث الثالث: علاقة التداولية بالعلوم المعرفية.

المبحث الأول: *المفهوم والنشأة:

لا ريب في أن أي تواصل لغوي لا يتحقق بين الناس إلا بالمفاهيم، إذ هي جوهر اللغة الطبيعية، ولب اللغة العلمية الاصطناعية؛ المفاهيم هي ما يجعل الإنسان يفرق بين شيء وشيء، وكائن وكائن، وكيان وكيان...فمفاهيم المرحلة الطبيعية، هي وليدة الإدراك العمومي، الذي لا يهتم بالتدقيقات والتفاصيل ورسم الحدود؛ ومفاهيم المرحلة الاصطناعية هي نتيجة التدقيق والتحديد، وهي مجال الباحثين من العلماء على اختلاف تخصصاتهم[1].فما هي مفاهيم التداولية ؟ وما هي مصطلحاتها المفتاحية؟.

*__مفهوم التداولية بين اللغة والاصطلاح__: لقد وردت مادة (دَوَلَ) في "مقاييس اللغة" على أصلين : "أحدهما يدل على تحول شيء من مكان إلى آخر، والآخر يدل على ضعف واسترخاء، فقال أهل اللغة : أندال القوم ، إذا تحولوا من مكان إلى مكان، ومن هذا الباب تداول القوم الشيء بينهم : إذا صار من بعضهم إلى بعض، والدَّولة والدُّولة لغتان، ويقال: بل الدَّولة في المال والدُّولة في الحرب، وإنما سميا بذلك من قياس الباب، لأنه أمر يتداولونه، فيتحول من هذا إلى ذاك، ومن ذاك إلى هذا".[2]

أما في القاموس المحيط للفيروز آبادي فنجد ما يلي: "تداولوه: أخذوه بالدول. ودواليك، أي مداولة على الأمر، أو تداول على الأمر، أو تداول بعد تداولٍ".[3]

وعلى نهج مقاييس اللغة سار صاحب معجم "أساس البلاغة" إذ يقول :"دول دالت له الدولة ودالت الأيام، بكذا، وأدال الله بني فلان من عدوهم، جعل الكثرة لهم عليه، وأديل المؤمنون على المشركين يوم بدر، وأديل المشركون على المسلمين يوم أحد، والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم، والدهر دول وعقب ونوب، وتداول الشيء بينهم، والماشي يداول بين قدميه، يراوح بينهما"[4].

إضافة إلى هذا نجد في المصباح المنير:" تداول القوم تداولا وهو حصوله في يد هذا تارة وفي يد هذا تارة أخرى، والدَّولة بفتح الدّال وضمّها، وجمع المفتوح "دِول" بالكسر. مثل؛ قصعة وقِصع ، ومثل ؛غرفة وغرف . ومنهم من يقول الدُّولة بالضم؛ في المال. وبالفتح في الحرب، ودالت الأيام تدول، مثل: دارت الأيام تدور وزنا

---

1 – مفتاح محمد، المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2010م، ص06.

2 - ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق وضبط محمد هارون، دار الجيل، بيروت - لبنان، 314/2 .ان ، ط2 ، 1991م ، ج1،ص314 .

3 - الفيروز آبادي محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت ، 1995م،ص900.

4 - الزمخشري جار الله: أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج1،ص303 .

ومعنى"[1]. والمقصود من كل ما سبق، هو انتقال اللغة ودورانها بين مستعمليها بشيء من المراوحة في تبادل الأدوار. هذا بالمفهوم اللغوي، فما المفهوم الاصطلاحي للتداولية؟.

* **المفهوم الاصطلاحي**: لا يستطيع أي باحث أن يستغني عن المفاهيم التي تشحن بها المصطلحات في كافة العلوم والفنون، لأن مفاتيح العلوم مصطلحاتها، فبها تقسّم، وبها تصنّف وبها ترتّب. وتتغير مضامينها بتحول التصورات، والنظريات، والثقافات، والمعتقدات، واستراتيجيات الباحثين، وأهدافهم، وغاياتهم، مما يجعلهم يتبنّون مضمونا معينا، ويحملون على المفاهيم معانيَ خاصة. فما المفهوم الاصطلاحي للتداولية ؟.

إن أقرب حقل معرفي إلى التداولية (La pragmatique) في منظورنا هو"اللسانيات". وإذا كان الأمر كذلك، فإنه من المشروع البحث في صلة هذا العلم التواصلي الجديد باللّسانيات، وبغيره من الحقول المعرفية الأخرى، التي تشترك معه في بعض الأسس المعرفية، نظرية كانت أم إجرائية، قبل وضع تعريف للتداولية أو تحديد مفهومها.

ومن ثم نرى أنه من الواجب التساؤل عن المعيار الذي يكون أساسا في تحديد "مفهوم التداولية"، فعلى أي معيار نحدّد هذا المفهوم؟ هل نحدده بناء على معيار البنية اللغوية وحدها ؟ إنّ هذا الصنيع يجعلها مساوية للسانيات البنيوية، فلا يكون هنالك أي فرق بينهما، وليس هذا ما تقوله البحوث التداولية. هل نحدده على معيار الاستعمال اللغوي وحده؟ إنّ تحديده على هذا الضابط فيه إقرار بأنه لا صلة تذكر بينه وبين البنية اللغوية، وهو ما يخالف أيضا النتائج التي انتهت إليها آخر الأبحاث التداولية. هل نحدده بناء على تعلّق البِنية اللغوية بمجال استعمالها ؟[2]. إذاً يجب أن يدخل في مفهوم المصطلح ثلاثة عناصر أساسية هي؛ أولاً:

أ – عنصر ذاتي يتمثل في التعبير عن معتقدات المتكلم، ومقاصده، واهتماماته، ورغباته.

ب – عنصر موضوعي يتمثل في الوقائع الخارجية من سياقات مقامية وحالية، ومنها الظروف الزمانية والمكانية.

ج– وعنصر يدل على المعرفة المشتركة بين المتكلم والمخاطب. وهذه العناصر تعتمد في تفسير الأقوال المستعملة.

وثانياً: وجوب معرفة المحيط الخارجي الذي يتمّ فيه الخطاب الصّادر من المتكلم.

---

[1] – الفيومي، الماقري أحمد بن محمد بن علي ، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، ج1 ، ص204 .

[2]–صحراوي مسعود ، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، ط1، جويلية2005، ص15 ،16.

وثالثا: يجب أن يكون للغة الخطاب أثرها بين المتحدث والسامع، من خلال الرموز اللغوية والرموز غير اللغوية المتبادلة بينهما.

فالتداولية ليست علْماً لغويا محضا، بالمعنى التقليدي، وليست علماً يكتفي بوصف وتفسير البِنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويدمج من ثَمّ، مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة "التواصل اللغوي وتفسيره". وعليه؛ فإن الحديث عن "التداولية" وعن "شبكتها المفاهيمية" يقتضي الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة، لأنها توحي بانتمائها إلى حقول مفاهيمية تضم مستويات متداخلة، كالبِنية اللغوية، وقواعد التخاطب، والاستدلالات التداولية، والعمليات الذهنية المتحكمة في الإنتاج والفهم اللغويين، وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال[1]. إنها كلّ متكامل.

نرى أن التداولية تمثل حلقة وصل هامة بين حقول معرفية عديدة، منها : الفلسفة التحليلية، ممثلة في فلسفة اللغة العادية، ومنها علم النفس المعرفي ممثلا في "نظرية الملاءمة" (Théorie de pertinence) على الخصوص، ومنها علوم التواصل، ومنها اللسانيات بطبيعة الحال[2].

يبدو مصطلح "التداولية" (Pragmatique) على درجة من الغموض، إذ يقترن به، في اللغة الفرنسية، المعنيان التاليان: "محسوس"و"ملائم للحقيقة"، وأمّا(Pragmatic) في الإنجليزية فتدل غالبا على "مالَهُ علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية" .. ومن بين الأعلام الممثلين للتداولية؛ الفيلسوفان أوستين (Austin) و"سورل" (Searle)، وعالم الاجتماع "غوفمان" Goffman، ونجد أيضا العالم المختص في اللسانيات الاجتماعية الأثنولوجية هو "غمبرز" Gumperz [3].
والإثنولوجيا؛ هي علم الأعراق البشرية.

وتُعْنَى التداولية بوصف العلاقات القائمة بين المرسِل والمرسَل إليه في إطار عملية التواصل، كما تُعنى بالحدث اللغوي بوصفه تعابيرَ مدرجةً في عملية التخاطب، وكل هذا يفرض مسبقا وجودَ الأبعاد التركيبية والدلالية للعملية السيميائية، فالأهم في عملية التواصل هو الشكل الذي يقوم المرسلُ من خلاله بإفهام المرسَل إليه ما يريد إيصالَه إليه،

---

[1] – صحراوي مسعود ، التداولية عند العلماء العرب، ص15 -16.
[2] – المرجع نفسه، ص15-16.
[3] – بلانشيه فيليب ، التداولية من أوستين إلى غوفمان ، تر: صابر الحباشة ، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1 ، 2007م ، ص18،17 .

باللجوء إلى سلاسلَ من العلامات[1]. وبعبارة أخرى هي مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية، وهي كذلك الدراسة التي تُعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية[2].

إن مصطلح التداولية تتقاذفه مصادر معرفية مختلفة لأنه ملتقى لمصادر وأفكار وتأملات يصعب حصرها. وهناك من العلماء من تطرق لتعريف التداولية أمثال: "آن ماري ديلر، Anne Marry Diller"، و"فرانسيس جاك، Francis Jacques"، و"ل.سفز" L.Sfez، و"فرانسواز ريكاناتي، F.Récanati ."

فإنّ "آن ماري ديلر"و"فرانسواز ريكاناتي" يعرّفان التداولية على أنها :"تمثل دراسة تهتم باللغة في الخطاب، وتنظر في الوسميّات الخاصة به، قصد تحديد طابعه التخاطبي"[3]، و"فرانسيس جاك" يقول:"هي دراسة للّغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في نفس الوقت"[4]. ثم يضيف "ل.سفز" تعريفا للتداولية بقوله:" هي الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللّغة في التواصل[5].

فما من تعريف إلاّ ولَه منطلقات نظرية تسيّر، وتضبط إجراءاته ضبطا منهجيا[6]، وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر بين الدارسين حول التداولية، وتساؤلاتهم عن القيمة العلمية للبحوث التداولية، وتشكيكهم في جدواها، فإن معظمهم يُقرّ بأن قضية التداولية هي "إيجاد" القوانين الكلّية للاستعمال اللغوي والتّعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي[7]. يعني هذا أن التداولية توظّف في دراستها للغة كل ما من شأنه أن يكشف عن المعاني والدّلالات والأبعاد المتوخّاة من كل خطاب تواصلي بين طرفين أو عدة أطراف. وغايتُها هي الوصولُ باللغة إلى التأثير والتغيير في حياة الإنسان والرقي به في جميع المستويات. فكيف ظهرت التداولية إلى الوجود وكيف نشأت؟.

---

[1] – أرمينغو فرانسواز، المقاربة التداولية ، ص13،14 / ونواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع العلمة–الجزائر، ط1، 2009م ، ص24،23.

[2] – بلانشيه فيليب، التداولية من أوستين إلى غوفمان ، ص18.

[3] – المرجع نفسه، ص،19،18 .

[4] – المرجع نفسه ، ص19.

[5] – المرجع نفسه ص19 .

[6] –كادة ليلى، المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية؛ ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجا ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علوم اللسان العربي،ص44.

[7] – صحراوي مسعود ، التداولية عند العلماء ص16،17.

* **الإرهاصات الأولى للتداولية، وأهم روادها:** قبل التطرق إلى نشأة التداولية، علينا أولا الإشارة إلى تلك الإرهاصات التي تعتبر بمثابة الجذور الأولى لنشأة التداولية، والتي تتلخص فيما ذهب إليه مجموعة من الفلاسفة الذين أشاروا إلى دور السياق في تحليل الخطاب، وأول محاولة نقف عندها، ما جاء به "شارلز سندرس بيرس، C.S. Perce " الذي كرس جهوده في دراسة العلامة، وقد قادته تلك الدراسة على نحو متكرر، وربما غير مقصود إلى التحليل السيميائي للخطاب، بتركيزه الكبير على ظروف إنتاج العلامة،انطلاقا من فكرته القائلة: كيف نجعل أفكارنا واضحة؟- ولهذا يمكن اعتبار ما جاء به "بيرس" اللّبنة التي قامت عليها التداولية.

ثم جاء بعده "شارل موريس" (Charles Moris)الذي أصدر سنة 1938 كتابه "أسس نظرية العلامات" وأسّس فيه لنظرية العلامة، الذي يظهر فيه تأثره الكبير بالتحليل السيميائي الذي أرسى قواعده مواطنه "بيرس"، إلى جانب هذا قامت مجهودات كثيرة ومتنوعة لعلماء آخرين من أمثال :"راسل، Russel"، و"فريجيه،Frege"، و"دونلون،Donnelan"، وغيرهم، إلاّ أنها تبقي محاولات اقتصرت على مفاهيم محدّدة.

ولهذا يرجع الفضل الأكبر في ظهور التحليل التداولي في صورته الواضحة إلى أعمال الفيلسوف الإنجليزي "جون أوستين" الذي أصدر في سنة 1960 كتابه المعروف"! How to Do Things with Words" [1]، حيث قدّم فيه تحليلا لظاهر الخطاب أو "الكلام العادي". ومعناه الكلام البعيد عن الاستعارة والتخييل، وعن الرّموز المعقدة، والانزياحات التي لايدرك معناها إلا الأديب النّاقد، أو العالم المتخصّص، وتمثّل عمله في تحليله "أفعال الكلام"، مركزا في ذلك على سياق التلفّظ، وظروف إنتاج الخطاب. ثم جاء تلميذه "جون سورل"John Searl" الذي أضاف تعديلات وتحسينات كثيرة، إذ ظهرت مجهوداته في كتاب:"Speech Acts"[2]، الذي صدر عام 1969م.

وقد ظهرت التداولية تقريبا مع نشأة العلوم المعرفية، باعتبار أن التداولية ساهمت في برنامج البحث الذي حددته العلوم المعرفية، ويعود السبب الرئيسي لظهور التداولية إلى الفيلسوف "جون أوستين"، الذي ألقى محاضرات "وليام جايمس" عام 1955م، إذ لم يكن يريد تأسيس فرع جديد للّسانيات، بل كان يفكر في هدف آخر وهو تأسيس اختصاص فلسفي جديد هو "فلسفة اللغة" وقد نجح في ذلك [3].

---

[1] Austin – John L. , quand dire, c'est faire, Paris, seuil, 1970, introduction de Giles Lane, postface de François Récanati ; titre original : how to do things with words , Oxford University Press 1962

[2] Serl . John R., Les actes de langage, Paris, hermann, 1972 , introduction d'Oswald Original : Speech Acts, Cambridage University Press 1962.

[3] – روبول آن و موشلار جاك ، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دعسوقي، ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة– بيروت، ط1، 2003م، ص29.

والتداولية كما تصفها "فرانسواز أرمينيغو" :هي" درس جديد غزير، إلاّ أنه لا يمتلك حدودا واضحة"... وتقع التداولية كأكثر الدروس حيوية في مفترق طرق الأبحاث الفلسفية واللسانية، إلا أنها غير مألوفة حاليا[1] ويمكن أن نقول بالفم الملآن أن التداولية وإن كانت غربية النشأة والفكرة إلاّ أنها تجد لها في اللغة العربية – وما تحمله من إرث فكري وأدبي ولغوي غزير– الأرضية الخصبة للتأسيس والتطور والنماء؛ لأن مبادئها التي قامت عليها ليست بالبعيدة ولا المتعارضة مع علوم البلاغة العربية، بل هما شريكتان تكمّل إحداهما الأخرى وتعضدها. وهذا الذي يتجسد في المبادئ التي قامت عليها، والأبعاد التي تتوخّاها، ونعتقد أن هذا الطرح يشاطرنا فيه المهتمون بهذا الحقل المعرفي الجديد. فما هي المبادئ التي قامت عليها، وما هي الأهداف التي سعت لأجلها؟.

[1] – ارمينغو فرانسوا، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوشي، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986، ص7.

المبحث الثاني*مبادئ التداولية وأهدافها: تقوم التداولية على المبادئ الآتية:

***أفعال الكلام** : وفي هذا المبدأ يرى "أوستين" بأنه يمكن تقسيم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أفعال:

-الفعل القولي (الكلامي) Acte Locutoire : ويقصد به الأصوات التي يصدرها المتكلم والتي تحمل معنى وتكون في جمل مفيدة وذات بناء نحوي سليم . فعبارة "سأحضر لرؤيتك غدا"، جاءت في قالب نحوي سليم وحددت فعلا قوليا اشتمل على ثلاثة عناصر مترابطة يستدعي كل واحد منها الآخر وتتمثل فيما يلي:

أ-الفعل الصوتي "Acte Phonétique" : وهو التلفظ بالأصوات.

ب-الفعل التعبيري "Acte Phatique": إنتاج كلمات وملفوظات خاضعة لقواعد صرفية،نحوية، ولغوية صحيحة.

ج-الفعل البلاغي "Acte Réthique": هو استخدام تلك الكلمات من أجل أداء معان تكون ذات مرجعية محددة.

-الفعل الإنجازي (الوظيفي) Acte Illocutoire : وهو عمل ينجز بقول ما، يكون فعل أمر أو استفهام، أو طلب، أو تعجب، أو نداء، وجاء تصنيف "أوستين" على هذا النحو، وذلك من خلال ما لاحظه، في القوة الغرضية لفعل الكلام التي تصاحب المعنى الصريح والحرفي الذي يتيحه هذا الفعل(1). فجملة :"سأحضر لرؤيتك غداً" يتحقق فيها الفعل الإنجازي إذا كان المتكلم قادرا على الإيفاء بوعده، أو ناويا فعل ما وعد.

-الفعل التأثيري Acte Perlocutoire : وهو ما ينتج عن القول من آثار لدى المخاطب، وهو فعل إقناع شخص بشيء فيظهر ذلك من خلال ردة فعله.

* **تصنيفات التداولية:** ومن أبرز من قام بتصنيف الأفعال الكلامية، نجد كُلاّ من "أوستين" الذي صنفها في خمس مجموعات، ويليه تلميذه "سيرل" الذي أعاد تناول نظرية أستاذه.

أولا : **تصنيف أوستين** : وهو على النحو التالي [2]:

-أفعال الحكم أو التقرير،"الحكمية": (Les Verdictifs): وهي أفعال تطلق بناء على سلطة معترف بها، قد تكون رسمية أو أخلاقية، وتشتمل على: أفعال التبرئة، الإدانة، الحكم، إصدار مرسوم، التقديرات... .

---

[1] – ينظر، موسى جمال، تجليات مفاهيم التداولية في التراث العربي، تفسير الرازي لسورة المؤمنون، جامعة الجزائر 2009م، ص39.

[2] - أحمد المتوكل ، اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري. ص26/25.

-أفعال التنفيذ والتوجيه،"التمرسية": (Les Exercitifs): وهي أفعال تستخدم من أجل الإفادة برأي أو حكم، وتأتي بشكل قرارات حول كيفية التصرف، مثل: الأوامر، التوصية، النصائح، الصفح، الطلب... .

-أفعال الوعد،"الالتزامية": (Les Promissifs): وهي الأفعال التي تبين التزام المتكلم، الذي يتبنى من خلالها موقفا ما، مثل: الوعد، الاعتراف والإقرار، القسم، التعهد... .

-أفعال السلوك،"السلوكيات": (Les Comportatifs): وهي الأفعال المرتبطة بالسلوك، مثل: عبارات الشكر، عبارات التعاطف: المواساة، المجاملة. تقديم التعازي، الاعتذار،التحية، الترحيب... .

-أفعال العرض،"العرضية": (Les Expositifs): وهي تستعمل في الحجاج، تهدف إلى عرض فكرة ما وإيضاحها ودعمها، مثل الاستشهاد، الوصف، النفي، الإنكار، التنويه.

ثانيا : تصنيف سيرل: وهو كما يلي [1]:

-أفعال الإخبار، التقرير،"التأكيدات": (Les Actes Assertifs): ويسميها أحمد المتوكل بالأفعال "الحكمية" وهي أفعال تلزم المتكلم وتحمله مسؤولية صدق القضية التي يتم التعبير عنها، وتشتمل على أفعال التأكيد، التحديد، الوصف... سقطت آخر جدران الحياة... لم يعد في يدنا أندلس واحدة نملكها...انتهى العرس ولم تحضر فلسطين الفرح...

-أفعال التوجيه، أو الطلب،"الأوامر": (Les Actes Directifs): ويسميها أحمد المتوكل بالأفعال "الأمرية" وغرضها حمل المخاطب على القيام بأمر معين، ويشتمل على أفعال النهي، الأمر، النصح، الالتماس، الطلب، التوسل... وتندرج في هذه المجموعة أفعال السلوك التي حددها "أوستين" في تصنيفه.

فعن ماذا تدافع؟....كيف تبكي أمة سرقوا منها المدامع؟....قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل...

-أفعال الوعد،"الالتزامات": (Les Actes Promissifs): ويسميها المتوكل بالأفعال "الالتزامية" هي التزام المتكلم القيام بعمل ما في المستقبل، وتشتمل على أفعال العرض، والوعد، والوعيد...."هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم"(الصف:10)..." فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره"(الزلزلة: 7).

-أفعال التعبير،"التصريحات": (Les Actes Expressifs):ويسميها أحمد المتوكل بالأفعال "التعبيرية" غرضها التعبير والإفصاح عن الحالة النفسية للمتكلم، كالشكر، الاعتذار، التهنئة، الترحيب...شكرا جزيلاً...أستسمحك عذرا...مبارك نجاحك...وأهلاً وسهلاً.

[1] – جيوفري ليتش، مبادئ التداولية، ص141.وأحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، ص 26/25.

-أفعال الإعلان،"الإدلاءات": (Les Actes Déclaratifs): ويسميها أحمد المتوكل بالأفعال "الإنجازية" وهي أفعال غرضها إحداث تغيرات في طبيعة الأحداث، وهي كثيرا ما تكون ذات صلة مع عرف المجتمع، وتلك التغيرات التي تحدثها تكون فورية، كإعلان الحكم في المحكمة، والطلاق، وإعلان الحرب. وأفعال الطرد والإقالة من العمل... .وتحدث حينما تتحقق شروط إنجازها....مثل:حكمت المحكمة حضوريا على المتهم بالبراءة....

وتجدر الإشارة إلى أن"سيرل" يركز على فعلين اثنين: الفعل القضوي، والفعل الإنجازي أو"القوة الإنجازية"؛حيث تتلخص في نظره دلالة الجملة، في محتواها القضوي(الإحالة، والحمل)، والقوة الإنجازية التي تواكبها.

وكانت هذه الخطوة لمحة موجزة حول نظرية أفعال الكلام وما تضمنته من تصنيفات. وفي الخطاب هناك معان ندركها من خلال الرموز اللغوية وهي معان سطحية، بالإضافة إلى معان أخرى كثيرة وعميقة لا يمكن إدراكها إلا من خلال ظروف وملابسات الخطاب، وهذه التي يصطلح عليها تداوليا بمتضمنات القول، وقد تكون هي المقصودة من الخطاب.

*الضّمنيات أو متضمّنات القول (Les Implicites): متضمنات القول من المفاهيم الإجرائية التي تقيم التداولية، فنجد مسعود صحراوي يعرفها بأنها " مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره"[1]. والكلام لا يكون صريحا دائما، وإنما كثيرا ما يحمل أشياء لم يتم التصريح بها، تكون متضمنة أو خفية داخل الكلام الذي تم التصريح به.

ومن أهم متضمنات القول ما يلي:

-**الافتراض المسبق** :(Les Présupposés) ؛ فمثلا عبارة:"اِغلِق الباب" أو"لا تغلقِ الباب"، ففي هاتين العبارتين افتراض مسبق، مضمونه أن الباب مفتوح. وفي مثال آخر يسأل المتكلم مخاطبه بقوله: "كيف حال زوجتك وأولادك؟"، فالافتراض المسبق لهذه العبارة هو أن المخاطب متزوج وله أولاد، وأن المتحدثين تربطهما علاقة ما، تمكن من طرح هذه الأسئلة.

-**الأقوال المضمرة** (Les Sous-entendus) ؛ مثلا عبارة :"إن السّماء ممطرة" يمكن أن يفهم معنى الجملة السطحي، ومع ذلك لا ندري أهي إخبار بأن السماء ستمطر، أم تحذير من عواقب الخروج في الرحلة، أم أمر بحمل مظلة، أم مكوث في البيت، أم إسراع إلى العمل حتى لا يفوت الموعد، أم انتظار وتريث حتى يتوقف المطر، أم غير ذلك... إلاّ بالرجوع إلى قرائن السياق لتحديد "قصد" المتكلم أو "غرضه" من الكلام[2]. فالتداولية تقودنا إلى فهم ما لم يُقَل من خلال ما قيل، ومن خلال ظروف الخطاب وملابساته.

[1] – صحراوي مسعود ، التداولية عند العلماء العرب، ص30.

[2] – صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، ص42،41.

الاستلزام الحواري (Les Implications Conversationnelles): تعود نشأة البحث في هذه القضية إلى الفيلسوف "جرايس" Grice وهذا عن طريق مجموعة محاضراته التي كان يلقيها في جامعة "هارفارد" سنة 1967. وذلك من مبدأ أن الناس أثناء حديثهم إما أنهم يقولون ما يقصدون، أو يكونون يقصدون أكثر مما يقولون، وكثيرا ما يقصدون عكس ما يقولون، فالاستلزام الحواري يهتم بتوضيح الاختلاف بين ما يقال وما يقصد من القول.

ويتضح الاستلزام الحواري أكثر من خلال هذا المثال: يسأل الأستاذ (أ) الأستاذ (ب) حول توجيه أحد الطلبة فيقول: هل هذا الطالب مستعد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة ؟ فيجيب الأستاذ (ب): "إن هذا الطالب لاعب كرة قدم ممتاز"[1].

ومن هنا لاحظ "غرايس" أن إجابة الأستاذ تحمل معنيين: الأول حرفي، وهو الذي نستخلصه مباشرة من الجملة؛ وهو أن الطالب لاعب ممتاز، والمعنى الآخر مستلزم؛ وهو أن الطالب ليس مستعداً لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة.

وتبرز هذه المبادئ وتتجسد من خلال الحوار التواصلي الذي يستمر إذا توفر مبدأ آخر لا يقل أهمية عن المبادئ السالفة الذكر ألا وهو مبدأ التعاون.

*__مبدأ التعاون عند "غرايس"__ : يبين فيه غرايس المبادئ التي ينتج بواسطتها الحوار، والمسماة بالمبادئ التحاورية، وهذه المبادئ لا تكفي وحدها حسب رأي "ليتش"، بل يجب أن تضاف إليها مبادئ أخرى حتى ينجح الحوار، ومن هذه المبادئ التي أقر بها هي مبدأ حسن الخلق والأدب، والتفاعل بين مبدأ التعاون الذي قال به "غرايس"، ومبدأ الخلق الذي أقره "ليتش" سيكون هو الموضوع الذي يشغل بال "ليتش" في مؤلفه "مبادئ التداولية" .

فمبدأ التعاون عند "غرايس" يشمل مقولات أساسية وينهض على أربع مسلمات Maximes[2].

-مسلمة القدر "الكمّ" (Quantité): وتخص قدر أو كمية الإخبار الذي يجب أن تلتزم به المبادرة الكلامية، وتتفرع إلى مقولتين :

اجعل مشاركتك تفيد القدر المطلوب من الإخبار.

لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب.

---

[1] – ينظر ،المتوكل أحمد، اللسانيات الوظيفية ،مدخل نظري، دار الكتاب الجديد المتحدة ط2 ،2010م.ص26.

[2] – صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، ص33.

-مسلمة الكيف "النوع" (Qualité): ونصها يقول :"لا تقل ما تعتقد أنه كاذب، ولا تقل ما لا تستطيع البرهنة على صدقه"[1]، أو:"حاول أن تجعل مساهمتك من النوع الذي يوسم بالصحة؛ أي لا تقل ما تعتقده كذبا، ولا تقل شيئا يعوزه دليل كاف"[2]، لأن الإخلال بقاعدة من القواعد يأتي على بنيان التواصل والحوار من الأساس.

-مسلمة الملاءمة "العلاقة" (Pertinence): ويسميها المتوكل "بقاعدة الورود" أي؛ "اجعل تدخلك واردا "،والتي مفادها :" لتكن مشاركتك ملائمة" أو كما جاء في كتاب (جورج يول) :"كن وثيق الصلة بالموضوع"[3]. ويعني ما سبق أن المحاور يجب أن يكون على صلة بموضوع الحوار .

- مسلمة الحال(الأسلوب) (Manière): ويسميها المتوكل بـ"قاعدة الكيفية"،التي تنصّ على الوضوح في الكلام وتتفرع إلى ثلاث قواعد :

ابتعد عن اللبس.

تحر الإيجاز.

تحر الترتيب.

فمبدأ التعاون في مسلماته الأربع ينص على ما يلي :"اجعل تدخلك مطابقا لما يقتضيه الغرض من الحوار الذي تساهم فيه، في المرحلة التي تتدخل فيها"[4].

الحوار القائم على مبدأ التعاون "الغرايسي" يتسم بالخطابة التفاعلية، التي تقوم على استعمال اللغة بمهارة قصد الإقناع والتأثير والإرضاء. وتبرز الخطابة في الاستعمال الفعلي اليومي للغة في أعم معانيها لأن المتكلم يسعى إلى إحداث أثر خاص، في ذهن مخاطبه، بل إلى تغيير في فكره وفي سلوكه. وتقوم الخطابة التفاعلية على قواعد هي: : - **مبدأ التعاون**: الذي يقوم على قواعد هي[5]:

- قاعدة الكم.
- قاعدة الكيف.
- قاعدة العلاقة "الملاءمة".

---

1 – صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب. ص34.

2 – يول جورج، التداولية، ص68.

3 - المرجع نفسه،ص68.

4 – المتوكل أحمد، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص26.

5– ليتش جيوفري، مبادئ التداولية، تر، عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق،الدار البيضاء، المغرب. ص107-136.

- قاعدة الأسلوب "الحال".

ـ مبدأ التخلق : ويقوم بدوره على قواعد هي[1]:

- قاعدة اللباقة.
- قاعدة السماحة.
- قاعدة الاستحسان.
- قاعدة التواضع.

فبالنسبة لمبدإ التعاون، إذا قلنا شيئا تنقصنا فيه البيئة(الحال) المطابقة، كنّا لا ندري ما إذاكان ما نقوله صحيحا أم كاذبا، ومثال ذلك ما ورد في قوله تعالى في سورة يوسف:﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾(يوسف:16). فالبيئة أو الحال هنا بينت صدق البكاء من كذبه ،إذ فضحت إخوة يوسف وكشفت مكيدتهم له، وبينت أن بكاءهم لم يكن بكاء حقيقيا، بل كان تباكيا. وكان ما ادعوه محض افتراء وكذب. ولذلك فإن فرع القاعدة الثانية ـ قاعدة الكيف ـ ينص ببساطة على ما يلي:"لا تضع نفسك في وضع حيث يخشى عليك أن تخرق فيه قاعدة الكيف"أو قاعدة الكم. وكلا الفرعين يمكن تلخيصهما في الأصل :"تجنب قولَ ما لا يُصَدّق".

*نظرية الملاءمة (Théorie de la Pertinence) : تعد "نظرية الملاءمة" نظرية تداولية معرفية، أرسى معالمها كل من اللساني البريطاني "ديردر ولسن" D.Wilson والفرنسي "دان سبربر، D.Sperber"، وتأتي أهميتها التداولية من أمرين :

- أنها تنتمي إلى العلوم المعرفية الإدراكية.
- أنها، ولأول مرة منذ ظهور الأفكار والمفاهيم التداولية، تبين بدقة موقعها من اللسانيات، وخصوصا موقعها من علم التراكيب.

فنظرية الملاءمة تدمج، إذاً، نزعتين كانتا متناقضتين؛ فهي نظرية تفسر الملفوظات وظواهرها البنيوية في الطبقات المقامية المختلفة، وتعد في الوقت نفسه نظرية إدراكية. والسبب أنها تدمج مشروعين معرفيين وتمتح منهما:

- الأول : مستمد من مجال علم النفس المعرفي، خاصة النظرية القالبية Modularity لـ"فودور" Fodor 1983.
- الثاني : يستفيد من مجال فلسفة اللغة، وبخاصة النظرية الحوارية لـ"غرايس" Grice 1975.

---

[1]– ليتش جيوفري ، مبادئ التداولية ، ص139-168.

وقد استفادت نظرية الملاءمة من النظرية القالبية، خاصة فيما يتعلق برصد وقائع الحياة الذهنية، وتفسير طرق جريان المعالجة الإخبارية. وتنطلق النظرية القالبية من تصور خاص للمعالجة الإخبارية، يمر بالمراحل الآتية :

- **الأولى**: يطلق عليها "فودور" **مرحلة اللواقط**، Transducers"التي تتعدد وظيفتها في ترجمة الإدراكات المباشرة Perceptions" ، مهما كان مصدرها ، ونقلها إلى الدماغ قصد المعالجة.
- **الثانية** : يطلق عليها اسم "**الأنظمة الدخل**، Input "أو الأنظمة البعيدة عن المركز "Périphériques"، وهي متخصصة في معالجة المعطيات المستمدة من "اللواقط" سواء كانت من المجال البصري أم اللغوي أم السمعي... ، بقصد تأويل ملفوظ معين . غير أن هذا الأخير يظل غير مكتمل ، لأنه في هذه المرحلة يكون التعامل مع المعطى اللغوي محصورا في المستوى الصوتي والتركيبي والدلالي.
- **الثالثة** : تعرف **بالأنظمة المركزية** Central Systems ، معها يكتمل التأويل بموجب عملية دمج الإخبار الناتج عن اللاقط والأنظمة الدخل بالإخبار المخزون في الذاكرة التصويرية بقصد إنتاج استدلالات غير برهانية[1].

يبين "سيبربر" و"ولسن" أنه في قلب هذه المرحلة :" تتكون وتترسخ الفرضيات، وتظفر الأقوال بتأويل تام"[2]، لأن الأنظمة ـ الدّخل ـ لا تتعدى المظاهر الترميزية للأقوال، بينما يتمّم النظام المركزي عملية التأويل بتوجيه عنايته إلى كل المظاهر غير الترميزية، إي؛ الاستدلالات غير البرهانية، انطلاقا من السياق التأويلي. وبهذا يتبين أن عملية التأويل تزاوج بين الترّميز والاستدلال.

كما استفاد"سبربر" و"ولسن" من نظرية "غرايس" الحوارية (المحادثية)، التي تنص على أن التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام (مبدأ التعاون) وبمسلمات حوارية. إلا أن "**نظرية الملاءمة**" أعادت النظر في نظرية "غرايس"، وقلّصت محتواها، مقتصرة على "مبدأ الملاءمة" كأساس مركــزي يختــزل جميع المسلمـــات المذكـــورة، ويعد تعمــيما للتواصل الموصوف بـ"**المناسب الاستـــدلالي**" فهو:

- **مناسب**؛ لأن المتكلم يستعمل "**المثير**" Stimulus الأكثر ملاءمة، لإبلاغ افتراضاته.
- **استدلالي**؛ لأن المتلقي **يستدل على القصد** الإخباري، انطلاقا من المؤشرات المسوقة من قبل المتكلم.

فالتواصل، في نظر "سبربر" و"ولسن"، يقوم على هذا الأساس. ويكون التواصل الاستدلالي المناسب بأن ينتج المتكلم مثيرا واضحا للمخاطب، فيصبو الأول إلى جعل مجموعة من الافتراضات واضحة أو أكثر وضوحا لدى المخاطب. ولعل أهم ميزة تتميز بها "نظرية الملاءمة" تصورها للسياق، إذ لم يعد شيئا معطىً بشكل نهائي أو محددا

---

[1]- صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب،ص37.

[2]- Moeschler – J. et Auchlin A. ; Introduction à La Linguistique contemporaine, Paris, Armand Colin,1998, p179.

قبل عملية الفهم، وإنما يبنى تبعا لتوالي الأقوال. ويتألف السياق من زمرة من "الافتراضات السياقية" تستمد من مصادر ثلاثة:

- **تأويل الأقوال السابقة** : فالقضايا التي نحصل عليها مباشرة بعد الالتفات إلى أول الكلام وتأويله تخزن في الذاكرة التصويرية، حيث تمثل جزءا لا يتجزأ من سياق تأويل الأقوال المستهدفة في المعالجة. فلا بد من رد آخر الكلام على أوله.
- **المحيط الفيزيائي** : قد يشمل السياق أيضا كل تمثيل قضوي انبثق من المكان الذي جرى فيه التواصل، حيث إن الجهاز الإدراكي للمتكلم قد يتمثل خصائص الأمكنة بشكل مباشر أو غير مباشر.
- **ذاكرة النظام المركزي:** وتحتوي ذاكرة النظام المركزي على معلومات مختلفة عن العالم نستخدم بعضها في السياق التأويلي.

إن الحديث عن المصدر الأخير يدفعنا إلى طرح سؤال أساسي: كيف نصل إلى المعلومات المخزونة في النظام المركزي؟ يجيب المؤلفان بأن ذلك يمر من خلال سند "الصيغة المنطقية" في مرحلة الأنظمة-الدخل، حيث تضم مجموعة من المفاهيم، لكل مفهوم عنوان تصوري في الذاكرة المركزية، يخزن ثلاث أنماط من المعلومات :

أ-**المدخل المنطقي** : يتضمن معلومات عن بعض العلاقات المنطقية.

ب-**المدخل المعجمي** : يخص جميع المعلومات المتعلقة بعنصر معجمي ما. إن مدلول هذا المصطلح لا يختلف كثيرا عن نظيره في النحو التوليدي، حيث يضم المعلومات الصّواتية والتركيبية.

ج-**المدخل الموسوعي**: يضم كل المعلومات التي نكونها حول موضوعات أو أحداث أو خصائص تقترن بمفهوم معين. وإذا كانت المداخل الثلاثة مصادر للافتراضات السياقية، فإن ثمة سؤالا يطرح نفسه: كيف تنتقى الافتراضات السياقية؟.

يجيب "سبربر" و"ولسن" (1986) بأن ذلك يتم بموجب "مبدأ الملاءمة". ويتحدد هذا الأخير انطلاقا من وسيطين: "الآثار المعرفية، Contextual Effects "و"الجهد المعرفي، Cognitif Cost". يراد بالمفهوم الأول كل تعالق بين معلومتين، إحداهما قديمة والثانية "جديدة"، مما ينتج عنه مجموعة من الحوسبات الذهنية، كتعديل أو تحسين أو إثبات أو إقصاء افتراضات توجد في ذاكرتنا التصويرية.

يمكّن هذا التفاعل بين المعلومات من تمييز المعلومات الواردة عن نقيضها. ولا يعني هذا أن درجة ملاءمة الخطاب موقوفة على الآثار السياقية التي تنشأ عن تفاعل قضيتين، فلِوَسيط الجهد المعرفي دور في تقويم مدى "ملاءمة

الأقوال" حسب المبدأ الآتي: "كلّما قلّ الجهد المعرفي المبذول في معالجة الملفوظ، ازدادت درجة "ملاءمة" هذا الملفوظ، وكلّما استدعى التّعامل مع ملفوظ ما جهدا كبيرا، كانت ملاءمته ضعيفة"[1].

*__القصدية__ (Intentionnalité): ويظهر مفهومها من خلال الربط بين العبارات اللغوية، ومراعاة مقاصد وأغراض المتكلمين، بحيث أن "دور المقاصد يرتكز بشكل عام على بلورة المعنى كما هو عند المرسل،وهنا يجب أن نفتح قوسا ونقول، إن الفكر التداولي لا يؤمن بموت المؤلف، بل يجعله منطلقا وأساسا في تحديد المعنى والغرض والقصد من الكلام. إذ يستوجب على المؤلف مراعاة طريقة وكيفية التعبير عن قصده، لتحقيق التفاعل بينه وبين الرسل إليه، وذلك بما يناسب السياق بمجمله، وبمعرفة عناصر الخطاب تتضح المقاصد"[2]. وعلى هذا فدلالة التراكيب اللغوية تتحدد أساسا عند اكتشاف المخاطب لمقاصد المتكلم، ويأتي القصد بمعنى الإرادة، حيث يرى الشهري أنه لابد "أن يكون الفعل مصحوبا بالقصد بمعنى، إرادة فعل شيء في الحكم على الفعل نفسه، فتصبح الأفعال تابعة للمقاصد الباطنية لدى فاعلها، لا تابعة لشكلها الظاهري"[3] أي؛ "التعبير عن معاني النفس" [4]، فمن هنا يأخذ القصد معنى الإرادة، والنية في تحقيق شيء أو طلبه.

وتقوم فكرة القصدية من حيث هي معيار يميز النّص من اللاّنص على مقولات مُؤَدَّاهَا أن أيَّ "ناصّ" لابد أنه يسعى من خلال نصّه إلى غرض يحققه عن طريق التفاعل فيما بينه – من حيث هو منتج – وبين القارئ – من حيث هو شريك له – في إضفاء الصورة النهائية والأخيرة على ذلك النصّ. فهما يقومان بالدور نفسه، فالناص يسعى للكشف عن غرضه بوسائل خاصة يخطط لها في الملفوظ الشفوي أو الكتابي، في حين يسعى المتلقي، ويبحث في ثنايا النص عن تلك العناصر المحكية أو المكتوبة المساندة التي توضح ذلك الغرض. وتقوم القصدية أساساً على أن النص يختلف عن أي خطاب عشوائي بخضوعه الدقيق لنوايا (الناصّ) المبكرة؛ وهي التي تتمثل في حرصه الشديد على تقديم نص، لا خطاب ذي أفق "شكلي" ينتمي لنوع، أو صنف من أصناف النصوص المعتادة التي يتقبلها القارئ بشغف أساسه الدراية المبكرة بذلك النوع من النصوص.

1- صحراوي مسعود ، التداولية عند العلماء العرب، ص40.

2 – ينظر، الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص180.

3 – ينظر،المرجع نفسه، ص189.

4–الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز ، تع ،محمد رشيد رضا، دار المعرفة ، بيروت، 1982م ، ص40.

فالمقاصد في الحكاية تجرى في إطار زمان ومكان، ضمن عقدة وحل، لا تظهر من أول مرة، والقصيدة لا تظهر مقاصدها في عنوانها، مثل النصوص النثرية." فالمكتوب يقرأ من عنوانه"، ولكنه يقوم على المواربة والإخفاء في الشعر، وفي النصّ القصصي.

ومن جملة المقاصد –التي يرنو إليها، الكاتب، أو الشّاعر، أو القاص أي؛"الناص" عموما–التأثير على المتلقي، بعد أن يصنع فيه روح التقبّل، والمقبولية هي التي تساعده على الاستيعاب فلا يشعر بإعاقة في التلقي الفعال، والفهم التام، وهي المشجع للاستمرار في القراءة إلى أن تحقق لديه الكفاية الإعلامية، التي تعتمد على دلالة المعروف من النص، على ما ليس بمعروف[1]. وهذه غاية من الغايات التي تصبو إليها التداولية.

وفي قضية القصد، يميز أبو حامد الغزالي بين نوعين من الكلام؛"كلام لا يتلفظ به، فيظل من ثم حبيس الذات، وطيّ الكتمان، وهو في حكم العدم، إلاّ في علاقته بصاحبه، وكلام منجز متحقق فعليا، يحكي حديث النفس إذا هي أفْضَت به، ودلالتُه ليست ذاتيةً راسخة، بل لا يُدَلّ عليها، إلاّ إذا أراد المتكلم ذلك، وقريباً من هذا ذهب"ابن حزم" [2]؛ وهو ما قد يصدّق القول: إن الكلام هو القول المفيد بالقصد. ويرى الشهري أن:" هنالك نقطة جوهرية من نقاط نظر التداولية، وهي أن الأفعال اللغوية أفعال إرادية، إذ يقصد المرسِل إنجازها، ويريد أن يدرك المرسَل إليه هذا القصد"[3].

* **التفاعلية والسياق** :(Contexte) ويعرفه ابن منظور على النحو التالي:" ساق الإبل وغيرها، يسوقها سوقا سياقا... وقد انساقت تساوقت الإبل إذا تتابعت، وفي حديث أم معبد: فجاء زوجها يسوق أعنزًا ما تساوق أي تتابع. المساوقة؛ المتابعة كأن بعضها يسوق بعضا، والأصل في تساوقُ تتساوق كأنها لضعفها وفرط هزالها تتخاذل ويتخلف بعضها عن بعض، ساق إليها الصداق والمهر سياقا أساقه، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند النزع، كأن روحه تساق لتخرج من بدنه، ويقال له: السياق أيضا"[4]. أما الفيروز آبادي، فورد في قاموسه:"... تساوقت الإبل: تتابعت وتقاودت ، والغنم: تزاحمت في السير"[5]. فدلالة المصطلح هي التتابع والتتالي مع

1– ينظر:خليل ابراهيم ، نحو النص، النظرية والتطبيق، ،عمان ، الأردن، ط1 ، 2014 م، ص36.

2 – المسدي عبد السلام ، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط2، 1986 م ،ص146.

3 – الشهري عبد الهادي ظافر ، استراتيجيات الخطاب، ص43.

4 – ابن منظور، لسان العرب، مادة (س وق)، ج10، ص166، 167.

5 – الفيروز آبادي محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط، ص335–336.

التقارب.وقد دعا الباحثون إلى إيلاء السياق الأهمية البالغة في عملية التأويل والكشف عن مقاصد وأغراض المتكلمين، ولا يمكن بحال إهمال جانب من جوانب السياق المعروفة عند حدوث عملية التخاطب أو التواصل.

والسياق هو مقابل المقام والحال أو الظروف والمناسبات التي يرد فيها الخطاب،و يقصد به أيضا الإطار الخارجي الذي يتحكم في الخطاب والذي يحدد مساره، وقد ورد تعريف هذا المصطلح، في معجم تحليل الخطاب، على النحو الآتي:" يستعمل لفظ "سياق" بحسب المؤلفين، للإحالة –خاصة– إما إلى المحيط اللغوي للوحدة ، وإما إلى مقام التخاطب"[1].

فالسياق إذن يقتضي ويستلزم وجود مرسل ومرسل إليه، إضافة إلى مقاصد المتكلم–التي أهملتها الهيرمينيطيقا*– ، فالإنسان لا يتحدث من دون قصد، ولا يتحدد هذا القصد من دون سياق.

***الحجاج** (L'argumentation): هو مجال غنيّ من مجالات التداولية يشترك مع العديد من المجالات الأخرى[2]. يعد ضمن الحقل التداولي، لكنه انبثق من حقل المنطق والبلاغة الفلسفية[3]. يرتبط مفهومه بالفعل وهو بحث من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة ممكنة، بهدف دفع فاعلين معيّنين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائما[4]. فهو ـ كما يبدو ـ يقوم في مفهومه على صناعة الجدل والخطابة. بل إن من الدارسين حديثا من عَدَّه خَطابة جديدة، لا هو بالجدل ولا هو بالخَطابة[5].

---

[1] – شارودو باتريك ، مانغينو دومينيك ، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، تونس ، المركز اللغوي للترجمة، 2008م ، ص133.

•– الهيرمينيطيقا: التي بلغت في الغلو إلى الحد الذي حكمت فيه بموت الإله–تعالى الله عن ذلك– في تأويل النصوص المقدسة لدى اليهود والنصارى ... بموت الكاتب والمؤلف في النصوص الأدبية والفنية ... وبالقطيعة مع المعنى الذي قصده الكاتب، وإحلال "الدلالة" أي ؛عالم القارئ وكينونته وفهمه الذاتي كل مقاصد الكاتب والمتكلِم !!!ينظر: عمارة محمد –قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي–دار السلام–ط1، 2012القاهرة ص05.

[2]– Maingueneau.D. : L'analyse du discours, p288

[3] – ينظر ، محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) وتطوره في البلاغة المعاصرة (مقال) مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب دولة الكويت، مج28، ع يناير–مارس 2000، ص58.

[4] – المرجع نفسه، ص57.

[5] – ينظر، صولة عبد الله ، الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، جامعة منوبة، منشورات كلية الآداب ، منوبة، سلسلة: لسانيات، مج13، تونس، 2001، جـ1، ص31.

إن الباعث والمحرك الأول للحجاج هو الاختلاف؛"فالحجاج لا يكون فيما هو يقيني أو إلزامي، فنحن لا نحاجج في أمر مأخوذ على أنه حقيقة يقينية راسخة كالحقائق الرياضية مثلا، أو في أمر مأخوذ على أنه أمر صارم واجب النفاذ، وإنما يكون الحجاج كما يقول "بيرلمان": "فيما هو مرجح، وممكن، ومحتمل"[1].

ويمكن أن يعرّف الحجاج بما هو مركب منه (حجة/Argument)، ويمكن أيضا أن يعرف معجميا بأنه "معالجة للمشكلات الكلامية، مما يتطلب مواجهة حجاجية"[2]. وبتعريف مختصر، هو:" طريقة عرض الحجج وتقديمها"[3]، أما الحجة تحديدا فقد عرّفها "جورج مونان" في معجم اللسانيات بقوله:" هي العناصر غير اللسانية المشاركة في التعبير، والتي لها علاقة مع محل الجملة الذي هو النواة"[4]. وتتلخص مبادئ الحجاج حديثا في الأعمال التالية :

أ- **الحجاج** عند (بيرلمان) و(تتيكا): وهما رائدا المدرسة البلجيكية، التي اهتمت في الأساس بالدراسات الحجاجية القانونية. ويبدو ذلك في مؤلفهما:"مصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة(1958)"[5].

لقد أسهمت بحوثهما في كشف جوانب عميقة من البلاغة بوصفها تأملا في اللغة والفكر، ولاسيّما في كتابهما بعنوان: "دراسة الحجاج" الذي درسا فيه التقنيات التي تؤدي بالأذهان إلى التسليم بالموضوعات المعروضة عليها، وزيادة درجة ذلك التسليم.

والحجاج في نظرهما، يتجاوز النظر فيما هو حقيقي، مثبت محدد، إلى تناول حقائق متعددة، ومبعثه هو الاختلاف، وشرطه أن يقوم على موضوعية الحوار، حيث يقف فيه المحاجَج موقف الشّريك المتعاون لا موقف الخصم العنيد، من أجل تحقيق غاية وهي استمالة المتلقي لما يعرض عليه وجعل العقول تذعن لما يطرح عليها، والزيادة في درجة إذعانها باعتماد وسائل التأثير والإقناع في عواطفه وخيالاته .

ب–**الحجاج** عند (ديكرو) و(أنسكومبر) : يؤكد هذان على أن الحجاج يكمن داخل اللغة دون سواها وتتمحور نظريتهما في رفض الرأي القائل بأن هناك فصلاً بين الدلالة والتداولية، وهذا في إطار اللغة دائما. والحجاج عندهما هو عبارة عن: إنجاز لعملين هما: عمل التصريح بالحجة من ناحية، وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى سواء أكانت النتيجة مُصرَّحاً بها أم ضمنية.

---

[1] . جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر . ط1، 2000،ص 107.

[2] Vignaux - George : L'argumentation (essai d'une logique diseursive), librairie droz, Genève, Paris, France,1976, p02.

[3] – المرجع نفسه، ص2.

[4] Mounin - Goerge : dictionnaire de la linguistique, p40 .

[5] – حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج –مفهومه ومجالاته–ج2،الحجاج مدارس وأعلام، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1431هـ/2010م، ص259.

يقول ديكرو: اللسان البشري ذو وظيفة حجاجية ويضيف "بارت":من يتكلم يسود ويسيطر. فلا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان. يقول طه عبد الرحمن:"كل إثبات لقول هو حجة للقارئ". وقد عرض "ديكرو وأنسكومبر" مفهوم الحجاج وآلياته من خلال كتابهما (L'argumentation dans la langue) ،في 1983 م)، وهو يختلف عن المفهومات السابقة، لأنه حجاج لساني (لغوي) بحت"[1]. وقد حصراه في اللغة ودراستها، دون الاهتمام بما هو خارجها؛ فـيكون بتقديم المتكلم قولا (ق1) يفضي إلى التسليم بقول آخر... (ق2). فهو إنجاز لعمليتين، هما: عمل صريح بالحجة من ناحية، وعمل بالاستنتاج من ناحية أخرى، سواء أكانت النتيجة مُصَرّحا بها أم مفهومة من (ق1)"[2] . وقدم "ديكرو" إلى جانب ذلك تحليلا سماه "آلية المعنى"[3]. بين من خلاله أن الجملة في اللغة تدرس بالمكون اللغوي (اللساني) الذي يخصها بالدلالة، ثم تعالج هذه الدلالة بالمكون البلاغي الذي يخصّها بالمعنى، وهو معنى الملفوظ. ويقوم المكون البلاغي بدورين:

الأول: أن يعطي مخرجا أوليا تمهيديا للمعنى. والثاني: أن يقابل هذا المعنى الأولي بجديد السياق الملفوظي، مما يفرض معرفة قوانين الخطاب.

ولقد انبثقت نظرية الحجاج في اللغة من داخل نظرية الأفعال اللغوية التي وضع أسسها "أوستين وسورل"، وقد قام "ديكرو" بتطوير أفكار وآراء أوستين بالخصوص، واقترح في هذا الإطار إضافة فعلين لغويين هما: فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج"[4]. ويعد المنهج التداولي من أفضل المناهج التي تبرز العلاقة بين تلك المكونات الثلاثة الكبرى، بوصف العلاقة بينها علاقة تداولية في الأصل، بما يقود إلى إنتاج خطاب حجاجي. وهذه المكونات هي المكون السياقي- الثقافي، والمكون المنطقي- الاستدلالي، والمكون اللغوي- اللساني. إذ تسري علاقات التأثير بين هذه المكونات الثلاثة سريانا طبيعيا ولازما.

ما الفعل الحجاجي إلاّ نوع من الأفعال الإنجازية التي يحققها الفعل التلفظي في بعده الغرضي،كما أضيف إليه مفهوم "القيمة الحجاجية"؛ التي تعني نوعا من الإلزام في الطريقة التي يجب سلوكها لضمان استمرارية الخطاب ونموه، حتى يحقق في النهاية غايته التأثيرية. كما تشير القيمة الحجاجية من ناحية أخرى إلى السلطة المعنوية للفعل

---

1 -Maingueneau- D. : Aborder la linguistique, p47 .
2 -Anscombre - J.C. et Ducrot O. : L'argumentation dans la langue, p08 .
3 -Eluerd R. : La Pragmatique linguistique, p184-185 .
4 . العزاوي أبو بكر، اللغة والحجاج ،الأحمدية، الدار البيضاء، المغرب.ط12006م ،ص15.

القولي، ضمن سلسلة الأفعال المنجزة، لتبليغ فكرة ما إلى المتلقي. فالحجاج باعتباره آلية لغوية محضة هو ما يشكل موضوع "نظرية الحجاج في اللغة"[1].

*__مبدأ التخلق والكياسة__ : إن حسن الأدب والتخلق له علاقة كبيرة بما يحدث في المجتمع المدني من تغيير، أضف إلى ذلك ـ ورغم هذه الأهمية ـ نجد أنه الحلقة المفقودة بين "مبدأ التعاون" و"قاعدة الكيفية"، التي بها يرتبط المعنى بقوة فعل الكلام. ويمكن أن نرصد تأثير حسن الأدب والتخلق في سيرورة الخطابة التفاعلية من خلال معطيات نوردها فيما يلي:

*__تنوع وظيفة قوة الكلام__ : في المواقف المختلفة، تستدعى أنواع عدة من حسن الآداب ودرجات كثيرة من حسن الخلق. وعلى المستوى الأعم، فإن وظائف قوى أفعال الكلام يمكن أن تصنف إلى أربعة أنواع، تبعاً لما ترتبط به الغاية المجتمعية لإثبات سلوك المجاملة واللباقة، والحفاظ على الكياسة، وهذه الأنواع الأربعة هي:

أ-**التنافسية** : وهنا يتزاحم غرض الفعل الكلامي مع الغاية المجتمعية مثل : إعطاء الأوامر، وطرح الأسئلة، عند الطلب والالتماس.

ب-**أدب الترحيب**: وهنا يتطابق غرض الفعل الكلامي مع الغاية المجتمعية، مثل: تقديم التكريم، والدعوة، والاستضافة، وشكر المنعم، ورد الجميل، والتهنئة.

ج-**التناصر والدعم**: وهنا قد يكون غرض الفعل الكلامي غير متحيز للغاية الاجتماعية، مثل التآزر، وإشاعة المعلومة المفيدة، والإعلان، والتوجيه.

د-**الصّراع**: وهنا قد يتضارب غرض الفعل الكلامي مع الغاية المجتمعية، مثلا : التهديد، والإبهام، والقذف، والشتم، والتأنيب...[2].

فالصنفان (أ) و(ب) هما اللذان يتضمنان بالأساس حسن الأدب. وحيث كانت وظيفة فعل الكلام تنافسية في (أ)، فإن حسن الخلق كان ذا صفة سالبة، وكان هدفه تقليل الاختلاف المتضمن في التنافس الحاصل بين ما يريد المتكلم أن يقوم به، وبين ما هو التصرف الحميد. كما يمكن أن تكون الأغراض التنافسية متسمة أساسا بالفظاظة والغلظة. إذا فمبدأ التخلق يقتضي تخفيف الفظاظة عند النظر إلى غرض ما.

[1] – ينظر: حافظ إسماعيلي علوي،الحجاج،ج2، ص260-261.

[2]– ينظر: ليتش جيوفري ، مبادئ التداولية، ص139–140.

أما الصنف (ب) وهو وظائف أدب الترحيب، قد يكون من الوجهة الواقعية متسما بالكياسة. إذ حسن الأدب هنا يتخذ شكلا إيجابيا للبحث عن الفرص المناسبة لبيان الكياسة والدماثة . وحسن الخلق الإيجابي، يعني مراعاة مبدأ اللطف والأدب.

وفي الصنف (ج) نجد وظائف فعل الكلام الدال على قوة المعاونة، مما يكون فيه أدب التخلق غير ملائم.

أما الصنف الرابع (د) من وظائف الصراع ؛ فإن حسن الأدب والتخلق غير وارد فيه ؛ لأن فعل الكلام ذا القوة النزاعية بطبيعته مختص بأن يثير الدفاع، فتهديد شخص ما، أو شتمه على نحو مؤدب هو في الحقيقة تناقض في القول– وقد يكون هذا الأسلوب أبلغ وأكثر تأثيرا من السلوك غير المتأدب– والطريقة الوحيدة لإعطاء معنى، لهذه الفكرة هو أن المتكلم قد قصد بذلك السخرية.

* **قواعد فن التأدب والكياسة** : إن فن التأدب والكياسة يتمثل في تلك العلاقة التي ترتبط بين متشاركين ، يمكن أن نطلق عليهما "الذات" و"الآخر" في التحاور.

تتحقق "الذات" self، "الأنا" أو "النفس" بالمتكلم، ويتعرف "الآخر" على نحو مخصوص بالمخاطب ، وقد يشار إلى الآخر هذا بالضمائر الغائبة، ويمكن اعتبارها كطرف ثالث. لكن العامل الضابط لهذا الطرف الثالث، يتمثل في كونه حاضرا أو غير حاضر كمتفرج، هذا أولا ، وثانيا هل يستشعر هذا الطرف الثالث بانتمائه إلى دائرة المتكلم أم المخاطب؟ لذا ينبغي على المتكلم أن يكون أكثر تأدبا في الإحالة إلى قرينة المخاطب، أكثر من إحالته إلى قرينته هو ذاته. وقواعد فن التأدب كما يلي[1] :

-**قاعدة فن التأدب** : (في أمر الوجوب والإباحة).

-تقليل الخسارة للآخر. – تكثير الربح للآخر.

-**قاعدة الجود والكرم**:

تقليل الربح للذات. – تكثير الخسارة للذات.

-**قاعدة الاستحسان**:

– تقليل التنقيص من الآخر. – تكثير إطراء الآخر.

-**قاعدة التواضع**:

– تقليل الإطراء عن الذات. – التنقيص من الذات.

-**قاعدة الموافقة**:

– تقليل الاتفاق بين الذات والآخر.

---

[1] – ينظر: ليتش جيوفري ، مبادئ التداولية ، ص 174.

- تكثير الموافـقة بين الذات والآخر .

-قاعدة التعاطف أو التصديق:

- تقليل التنافر أو العداوة بين الذات والآخر.

تكثير التواد والتعاطف بين الذات والآخر.

ويمكن أن نختصر هذه القواعد في عبارة موجزة مفادها "تقليل التعبير عن الاعتقادات التي تقتضي خسارة الآخر". وهذه المبادئ هي مبادئ الخطابة التفاعلية التي تضم "مبدأ التعاون-ومبدأ التخلق واللطف-ومبدأ الاهتمام"، بما تحتويه من قواعد مساعدة. فمثلا في "مبدأ التعاون" نجد : قاعدة الكم، والكيف، والعلاقة، وأحوال الأسلوب، وفي مبدأ "التخلق واللطف" نجد قواعد : فن التخلق، والجود، والكرم، والاستحسان، والتواضع، والوفاق، والألفة، والتعاطف، ورغبة التواصل. ولا ننسى ما يحويه "مبدأ الاهتمام" كذلك من دعابة وسخرية[1]. وهذا قصد تلطيف أجواء الحوار التواصلي ،وإبعادها عن السآمة والملل.

* **أهداف التداولية:** ظهرت التداولية من أجل تحقيق مجموعة من الأهداف، وتكمن فيما يلي :

-"دراسة استعمال اللغة"، في الطبقات المقامية المختلفة، باعتبار أن الكلام موجه لمخاطب ما، صادر من متكلم ما، لأجل تحقيق غرض تواصلي معين"[2]. بمعنى أن التداولية تهتم بقضية التلاؤم بين التعابير والسياقات ،والأغراض المتوخاة منها، باعتبار أن الكلام يختلف من فرد إلى آخر، وحسب السياقات والطبقات المقامية المختلفة في الخطابات، حيث تدرس التداولية من خلال الكلام الصادر عن المتكلم والموجه إلى المستمع، وتبحث عن الاختلافات الموجودة بين هذه الطبقات، وعن كيفية استعمال اللغة في السياقات والطبقات المختلفة، حتى يتم تحقيق غرض تواصلي معين، وإن دراسة التداولية للغة سيسهم في وصفها ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها الخطابية والتواصلية.

-شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات[3].

-شرح الأسباب التي أدت إلى فشل المعالجة اللسانية البنيوية في معالجة الملفوظات[4].

-تسعى التداولية إلى أن تكون مندمجة في اللسانيات، وهي ليست تكملة لها، وإنما هي جزء لا يتجزأ منها[5].

---

1 - ينظر، ليتش جيوفري، مبادئ التداولية، ص 174.

2 - صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، ص26.

3 - المرجع نفسه، ص27.

4 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5 - روبول آن و موشلار جاك، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص48.

-سجلت التداولية نجاحا كبيرا، كونها جعلت من الاقتضاء – الذي كان في أول الأمر مشكلا منطقيا – عنصرا قابلا للتواصل بين المتخاطبين[1].

– تهتم التداولية بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية[2].

– تسعى التداولية للإحالة على المتكلم وعلى مفهوم القاعدة[3]. فهي تهتم بقصدية المتكلم وما ينشئه من أقوال، كمّاً وكيفاً. فالمتكلم مصدر الحديث وأساسه وقاعدة انطلاقه ،وبناء المعنى ينبغي أن يؤسس عليه.

– السعي لتجاوز النظرة الصورية للغة التي كانت محل اهتمام المدارس اللسانية السابقة، من أجل العناية الكافية بالظروف المواتية عند استعمال اللغة [4].

– بيان الأسباب المناسبة للتواصل غير المباشر وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر[5].

– تسعى التداولية لإقامة روابط وشيجة بين اللغة والإدراك عن طريق بعض المباحث[6].

– دراسة الوجوه الاستدلالية للتواصل الشفوي، من أجل تحقيق العلاقة بين علمي اللغة والتواصل[7].

– تسعى التداولية للإلحاح على الدور الذي يقوم به المتخاطبون في العالم الاجتماعي، حيث إن هؤلاء يقبلون التفاعل، ويتعاونون عليه. وهذا الهدف له علاقة وطيدة بموضوعنا "تداولية الحوار في الخطاب القرآني "، لأن غاية اللغة الأسمى هي التعارف والتعاون، وقضاء المنافع والمصالح بين الناس .

ولعلنا أشرنا في بداية البحث إلى أن التداولية تنهل من علوم معرفية عدة تستعين بها على دراسة الخطاب، بما يمكّنها من إضاءة جوانب عدّة فيه، عكس ما كانت تعتمد عليه مناهج سبقتها، فكادت تقضي على غايات الخطاب ومراميه، لأنها اقتصرت في دراستها للّغة على الجانب الصّوري لا غير. ومن العلوم المعرفية التي تغرف منها التداولية، تلك التي سنتعرض إليها في المبحث الموالي...

[1] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[2] – بلانشيه فيليب، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص18.

[3] – المرجع نفسه، ص45.

[4] – المتوكل أحمد، الوظائف التداولية في اللغة العربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص8.

[5] – صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، ص27.

[6] – المرجع نفسه، ص28.

[7] – المرجع نفسه.

المبحث الثالث :*علاقة التداولية بالعلوم المعرفية.

للتداولية علاقة وطيدة بعلوم معرفية زادتها ثراء ونماء نذكر منها ما يلي:

***علاقتها باللسانيات البنيوية**: حين الحديث عن العلاقة بين التداولية وبين اللسانيات؛ وتحديدا اللسانيات البنيوية التي اعتمدت مبادئ "سوسير" في دراسة اللغة، يشترك الدارسون في قولهم أن التداولية تهتم بالكلام الذي هو غير اللسان، المبعد من مجال دراسة علم اللسان في نظر "سوسير" حسب قوله:"اللغة تختلف عن الكلام في أنها شيء يمكن دراسته بصورة مستقلة"(1)؛ أي إن اللسانيات البنيوية تهتم أساسا بدراسة نظام اللغة، دون الاعتداد بنوايا المتكلم وسياق التلفظ(2). وغيرها من القضايا التي تطور الدرس التداولي في كنفها، مما ساق آخرين إلى عد التداولية لسانيات كلام، مقابل لسانيات اللغة التي أوضحها "سوسير". مع أن مفهوم "لسانيات الكلام" قد يحصر حدود التداولية، ويقوض كثيرا من امتداداتها التي مر عرضها في المباحث السابقة. فضلا عن أن الكلام ليس معزولا عن اللغة إلا افتراضا؛ فاللغة لا تتحقق إلا في مستوى الكلام، وتبقى حاملة لأهم خصائص من يؤديها، مهما اجتهد في تجاوز ذلك. فالكلام – إذن- مظهر من مظاهر تحقق اللغة واقعا ؛ ودراسته هي دراسة الواقع الفعلي للغة، والتداخل واضح بينهما، مما يفرض الحاجة إلى دراسة متكاملة ؛ أن نعتد بنظام اللغة دون إلغاء الخصائص الفردية والتمييزية التي تطبعه أثناء الأداء، ونكون بذلك أمام تأويل أوسع للظاهرة اللغوية، وهو هدف تطمح إليه لسانيات "سوسير"، وترجوه التداولية.لكن تمييزا دقيقا يطبع هذه الدراسة المتكاملة؛ فحين نهتم بدراسة نظام اللغة، فإننا نكون أمام وصف النظام وشرح شروطه وقوانينه التي تنظم منظومة مشتركة بين الناطقين بهذه اللغة، وقد لا تختلف في ذلك الوصف ولا في نتائجه. ونحن بذلك أمام دراسة لسانية.

أما التداولية، فعرفت حصرا في "دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة نظام اللغة"(3)، واستعمال اللغة له تأثيراته على التواصل وعلى النظام اللغوي نفسه. وهذه التأثيرات هي أولى اهتمامات التداولية.

ولقد أقر "فرانسوا لاترافارس" في كتابه "البراغماتية؛ تاريخ ونقد" بصعوبة التمييز بين اللسانيات والتداولية، وأول مظاهر تلك الصعوبة ـ في نظره ـ أن اللسانيات علم يشتمل على عدد كبير من النظريات والمذاهب المترابطة، بما في ذلك التداولية؛ فنظرية التركيب مثلا يمكن أن تعرف إلى جانب بعدها التركيبي، ببعدها التداولي، اعتدادا بمعطيات اللسانيات النفسية واللسانيات الاجتماعية[4]. وكذلك بالنسبة إلى المجالات الأخرى.

---

[1] – سوسير .ف.د.: علم اللغة العام،تر: يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، الأعظمية، بغداد، ط3، 1985م، ص33.

[2]- Siouffi.G. et.raem donck D.R: 100 fiches pour comprendre la linguistique

[3] -Moschler - J. et Reboule Anne : dictionnaire encyclopédique de pragmatique, p17.

[4] -Latraverse .F. : la pragmatique (histoire et critique) , p161,162

لكنه سرعان ما يعترف بأن التداولية تتموقع خارج النظرية اللسانية[1]، بناء على ما قدمه "تشومسكي" في مفهوم "الكفاءة" و"الأداء"؛ حيث تمثل الكفاءة الموضوع الأول للسانيات بدراسة "متكلم أو سامع" كامل، خيالي، تصوري، ينتهيان إلى مجموعة لسانية مشتركة كليا ، تعرف لغتها كاملة، وحين تؤديها في الواقع لا تتأكد باعتبارات غير مرتبطة بالموضوع ، أو خارجة عن حدود النظام المشترك.

أما الأداء فهو الاستخدام الفعلي للغة في حالات واقعية ملموسة[2]، ويمكن تأكيد مقولاته باعتبارات غير واضحة في الظاهر من القول.

فإيضاح العلاقة بين ما هو "لساني" وما هو تداولي "براغماتي"، يعرضها معجم "جاك موشلار" و"آن روبول"؛ حيث يبديان الحيرة السابقة نفسها؛ "ماذا يعني براغماتي؟ لساني؟، فيلسوف؟، نفساني؟"[3]. ومردّ تلك الحيرة – في نظرهما – إلى أن مجموع النظريات اللسانية من البنيوية إلى التوليدية، أكدت تقريبا أهمية اللسانيات التي تنحصر في دراسة نظام اللغة (صوتيا، وصرفيا، ونحويا، ودلاليا). ومردّ ذلك إلى أن اللسانيين أنفسهم لم يضعوا مجال التداولية في مقارنة بالفروع الأخرى للسانيات، التي حددوها بشكل نهائي في مايلي: "الصوتيات تدرس النظام الصوتي في اللغة والقواعد، علم الصرف يهتم بأبنية الكلم، وعلم التراكيب يدرس قواعد النحو ومجموع شروط جمل اللغة، وعلم الدلالة يهتم ببنية المعاني وقواعد دلالة الجملة بناء على دلالة الألفاظ، ويمكن تلخيص مهمة اللسانيات في دراسة طرق التنظيم بين مجموع الأصوات ومجموع المعاني،أي بين الشكل وبين المعنى بتعبير أوجز"[4].

ولكن البعد التداولي في دراسة اللغة يتجاوز منوال (الشكل، المعنى) إلى مجالات أخرى لا يحكمها هذا المنوال، نحو الملفوظية والحجاج، ومظاهر الاستدلال في اللغة، والتضمين، والاقتضاء، وغيرها... حيث تحكم هذه الموضوعات حالات خاصة، ومقتضيات تجعلها متجاوزة لوصف علاقة شكلها بمعناها.

***علاقتها بالنحو، والنحو الوظيفي** : لقد سبق الحديث بأن النحو الوظيفي يعد أهم رافد للدرس التداولي، إلى جانب الفلسفة والنظريات اللسانية الحديثة. بل إن من الدارسين من جعل (الوظيفية) في عموم معناها، تقابل (التداولية)[5]. من مبدأ أن خصائص بنيات اللغات الطبيعية تتحدد من ظروف استعمالها. كما أن النحو الوظيفي

---

1 – ينظر: بوجادي خليفة ، في اللسانيات التداولية،مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع– الجزائر، ط1، 2009م، ص125.

2 – ينظر المرجع نفسه، ص125.

3 Moschler.J. et Reboule. Anne : Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, p18.

4 Moschler J. et Reboule Anne : Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, p19,20.

5 – ينظر : المتوكل أحمد: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص08.

المقترح من "سيمون ديك" في السبعينيات يجمع بين المقولات النحوية المعروفة، وبين ما عرضته نظرية أفعال الكلام[1]. وإذا عُدَّ تداولُ اللغة مظهراً من مظاهرها إلى جانب المعجم والتراكيب، فإنه يمكن القول إن النحو الوظيفي، وهو يحدد أهدافه في تحقيق كفاية نفسية، وكفاية تداولية، وكفاية نمطية، يقدم دعائم هامة للتفسير التداولي للخطاب.

ويذهب "سيمون ديك" إلى أبعد من ذلك؛ حين يقترح" أن يدرج النحو الوظيفي ضمن نظرية تداولية وُسعى، أو نظرية لغوية شاملة تجمع نظريات التواصل اللغوي المختلفة"[2].

*__علاقتها بعلم الدلالة__: يمثل علم الدلالة فرعا من فروع علم اللسان الحديث، وبذلك فعلاقته لا تخرج عن علاقة التداولية باللسانيات المذكورة سابقا، ويرجع إفرادها بهذا الحديث المستقل، إلى سببين:

الأول : كل من التداولية وعلم الدلالة، يبحث في دراسة المعنى في اللغة؛ ومن الضروري بيان حدود الاهتمام بالمعنى في علوم الدلالة، وحدود الاهتمام به في التداولية، مع أن هذه العلاقة يشوبها كثير من الغموض؛ لذلك، فـ"إن التمييز بين السيمانتيكية والبراجماتية ينطوي على ظلال رمادية في التطبيق العملي حيال تحليل المعنى الذي تؤديه اللغات"[3]. وهما وإن اشتركا في الموضوع (دراسة المعنى) ، فقد يختلفان في العناية ببعض مستوياته.

الثاني : من الدارسين من يعد التداولية امتدادا للدرس الدلالي على نحو ما يذهب إليه "لاترافارس"[4].

ولم تتضح العلاقة بينهما إلا بعد انتشار محاضرات "أوستين"، التي كان أول ثمارها هذا التمييز بين مجاليهما[5].

وسيُميّز هذا المبحث بينهما انطلاقا من فكرة "الكفاءة" و"الأداء"؛ حيث يصف علماء اللغة باتفاق، علم الدلالة ضمن القدرة (معرفة اللغة) ، أما التداولية فتصنف ضمن الشق الثاني المتضمن للأداء، الإنجاز واستخدام اللغة[6] . فهي بناء على هذا، تقوم على التبعية لعلم الدلالة الذي يعرف شروط المعنى وحقيقتها؛ وتهتم التداولية بعد ذلك بدراسة هذه الشروط حين تربط المعنى بالاستخدام، وتحدد ما يسمح بنجاح الملفوظ أو إخفائه، وهذه أول نقطة تنفصل فيها التداولية عن علم الدلالة، لأن استخدام المعنى مختلف عن المعنى[7]، نحو الجملة: في هذه

---

1 – ينظر : المتوكل أحمد: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص09.

2 – ينظر: المتوكل أحمد: الوظيفة بين الكلية والنمطية،دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 1424هـ–2003م، ص56.

3 – شاهر الحسن: علم الدلالة؛ السيمانتيكية والبراغماتية في اللغة العربية، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 2001م، ص159–160.

4 Latraverse - F. : la pragmatique (histoire et critique) ,p43.

5 Maingueneau - D. : Pragmatique pour le discours littéraire, p05

6 – ينظر : ليونز جون ، اللغة والمعنى والسياق، تر: عباس صادق الوهاب، مراجعة يوئيل عزيز، سلسلة المائة كتاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد–العراق،ط1، 1987 ، ص31–32.

7 -Maingueneau- D. : Pragmatique pour le discours littéraire, p04-05

الأرض حيات سامة، فالمعنى حقيقي (هذه الأرض بها حيّات حقيقية سامة). أما استخدامه فمختلف: قد يتجاوز مفهوم (حيّات سامة) الحقيقة إلى المجاز، وقد يتجاوز استخدام هذا المعنى أيضا من الإبلاغ (المعنى الحقيقي) إلى التحذير مثلا.

وهذا الانفصال لا يعني الاستقلال التام القائم على الاستغناء؛ لأن المقولات التداولية تبنى على المقولات الدلالية، وربما لذلك، حين عرضت الفكرة التداولية ضمن الدرس اللغوي عموما، عرضت واحدا من مكوناته الثلاثة إلى جانب المكونين الدلالي والتركيبي. كما أنه لا يمكن أن نحصر علم الدلالة في دراسة المعنى بعيدا عن المقام، و"الأصح بأن السيمانتيكية تعالج معنى الجملة في إطار أدنى من الإشارة إلى المقام، بينما البراغماتية اللغوية تتولى المعنى ضمن إطار المقام المحدد المعالم والمقاصد"[1].

وهنا يمكن أن يبدوَ حيّزٌ للتداخل بينهما، وأن أحدهما يكمل الآخر؛ حيث تعنى الدلالة بتفسير الملفوظات وفق شروطها وقيودها النظامية، وتحدد المعاني الحرفية لها، مع إشارة إلى أدنى مقاماتها، خدمة للنظام اللغوي، لا لمقاصد المتكلمين. وتصف الكلمات ومعاني الجمل، كما تربطها بالصدق أو الكذب أحيانا؛ نحو المعنى الدلالي الحقيقي للمثال المذكور سابقا (في الأرض حيّات سامة).

وتعنى التداولية بما وراء ذلك، فتربط مقاصد المتكلم أو الكاتب، بالبحث عن المقام المناسب، والشروط التي تضمن نجاح العبارة (في هذه الأرض حيات سامة) في إبلاغ التحذير مثلا، أو الشروط التي تسمح بنجاحها، دون أن تهتم بصدقها أو كذبها، بل بنجاحها أو إخفاقها. وتتجاوز الربط بين معاني الكلمات فيما بينها إلى الربط بين النص كاملا وسياق أدائه[2]؛ وتكون حينها بين نوعين من المعاني؛ معنى يستقى من الجمل فيما بينها (مجال الدلالة)، ومعنى يستقى من الوحدة الكلامية كاملة (مجال التداولية).

ويلخص هذا التمييز بينهما مثال"جيل سيوفي" و"ريمدونك" في كتابهما، الذي ورد فيه ما نصُّه:" أن نتصور دخول "أمين" إلى غرفة تكون مفتوحة النافذتين، فيقول لـ"فاطمة" : "الجو ليس ساخنا هنا"[3].

ولإجابة "أمين"، ينبغي على فاطمة تأويل الملفوظ المذكور. ولنفترض أنها لسانية، مما يفرض عليها إنشاء إجابة تبعا لمقاربة دلالية أو مقاربة تداولية:

---

1 – شاهر الحسن: علم الدلالة؛ السيمانتيكية والبراغماتية في اللغة العربية، ص160.

2 – ينظر: فان ديك، علم النص،مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسن بحيري، القاهرة، مصر، ط1، 1421هـ–2001م، ص116.

3 –Siouffi– G. et Raem donck D.R.: 100 fiches pour comprendre la linguistique p50,51

- الخطوة الدلالية : كيف يمكن أن تفهم الجملة المذكورة؟ تحكم عليها أولا صحيحة أم خاطئة، وترى على الأقل بأن درجة الحرارة غير مرتفعة إلى درجة الإحساس بها. إذا كانت هذه الفرضية صحيحة وشروطها متوفرة، تكون العبارة قد أدت الحقيقة ... وحينها تجيب : نعم ، أنت محق. وهنا يستقر التحليل الدلالي، حيث توصف الحقيقة وشروطها تحقق الملفوظ بجانب السياق، مما يبني عليه أن الدلالة عموما تدرس مظاهر حقيقية مشروطة للملفوظ .
- الخطوة التداولية : قد تفهم الجملة المذكورة فهما آخر، وتبني عليه إجابة أخرى، لا علاقة لها ظاهريا بما عرضه "أمين"، وهي: أن تغلق واحدة – على الأقل — من النافذتين، بعد أن تفك رموز رسالة "أمين"، وتقارن معناها بالسياق؛ تقول: "أمين" لا يشعر بالحرارة، أصابه تيار هوائي حين دخل الغرفة، وتفترض أنه يطلب منها – على الأقل – إغلاق نافذة.

فتكون دلالة أخرى مختلفة عن معنى العبارة ، ويكون "أمين" قد أنجز فعل طلب، وهذا يمثل نجاحا "لفاطمة" لأنها فهمته.

وهنا يستقر التحليل التداولي؛ في فك رموز رسالة المتكلم، من المحتوى المراد، حتى لو كانت الرموز مشتركة، لأنها قد تحتوي على اللاّمقول والضمني. واعتمادا على ما يزودها به السياق من فرضيات حول قصد المتكلم..

فالتداولية تتجاوز معنى الرموز اللغوية إلى ما وراء ذلك من السياقات والمقامات والأحوال ،ولا تكتفي بأشكال العبارات بل تغوص في مضامينها بالاستعانة بما توفره المقامات والاستدلالات من إيحاءات،يستهدي بها الباحث على المعنى المراد والمقصود من الكلام.

***علاقتها باللسانيات النفسية**: إن إجابة "فاطمة" السابقة في الخطوة التداولية تعتمد كثيرا على جانب شخصيتها ، وتستند إلى سرعة البديهة، وحدة الانتباه، وقوة الذاكرة الشخصية، والذكاء، وبعض جوانب الطبع... وهي كلها عناصر تشرح ملكة التبليغ الحاصلة في الموقف الكلامي. ولها تأثير كبير في أداء الأفراد. وبذلك، فإن التداولية تعتمد في درسها على مقولات اللسانيات النفسية في هذا المجال[1].

***علاقتها باللسانيات الاجتماعية**: تشترك اللسانيات الاجتماعية في ظروف نشأتها والبدائل التي عرضتها مع التداولية؛ حيث نشأت كرد فعل على اللسانيات البنيوية– التي أبعدت المكون الاجتماعي في اللغة–، واقترحت في ذلك أن تدرس اللغة استنادا إلى مباحث أفعال الكلام.

[1] – بوجادي خليفة ، في اللسانيات التداولية،.ص 132.

ومن خلال هذا الاشتراك، يبدو أن للتداولية تداخلا كبيرا مع اللسانيات الاجتماعية في بيان أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في موضوع الحديث، وفي بيان مراتبهم وأجناسهم، وأثر السياق غير اللغوي في اختيار التنوعات اللغوية البارزة في كلامهم[1]. فاللغة كما ورد عند "دوسوسير" هي مؤسسة اجتماعية.

***علاقتها باللسانيات التعليمية**: لقد عرفت التعليمية أو صناعة التعليم ثراء كبيرا في العصر الحديث، استنادا إلى مقولات اللسانيات الاجتماعية السابقة، وإلى بحوث التداولية أساسا، حيث تأكد بأن التعليم لا يقوم على تعليم البنى اللغوية دون الممارسة الميدانية التي تسمح للمتعلم بالتعرف على قيم الأقوال، وكميات الكلام، ودلالات العبارات في مجال استخدامها، إلى جانب أغراض المتكلم ومقاصده، التي لا تتضح إلا في سياقات مشروطة.

وتجاوز التعليم مهمة التلقين لتحصيل الكفاءة، إلى مهمة تحصيل الأداء (المهارات) بتوفير حاجات المتعلم والاقتصار على تعليمه ما يحتاج إليه، والاستغناء عما لا يحتاج إليه من أساليب وشواهد تثقل ذهنه. كما أن البحوث التداولية أسهمت في مراجعة مناهج التعليم، ونماذج الاختبارات والتمارين وفق الظروف السابقة، وعدّت البعد التداولي للغة (ممارستها واقعا) أحد أهداف العملية التعليمية. وإلى جانب ذلك، فقد انتقدت طرق تدريس اللغات الأجنبية التي تتعامل مع لغات مثالية وأناس مثاليين، في مواقف مثالية..، بعيدا عن أي سياق اجتماعي. مما جعل الدارسين أنفسهم يعتقدون أن ظاهر اللغة هو الهدف من تدريسها، فاهتموا بالشكل ولم يعلموا اللغة في جوهرها "ملكة استخدام اجتماعي"[2]. ودعت إلى تجاوز تدريس أنماط الترميز (القواعد اللغوية..) إلى تدريس أنماط التأطير (ما يتعارف عليه المجتمع في الحديث، من طقوس التحاور، والعبارات الاصطلاحية...) .

***علاقتها باللسانيات النصية ،وتحليل الخطاب**: يكاد لا يختلف مصطلح الخطاب عن مصطلح النص، وربما رادفه في بعض الاستعمالات، وإن كان في الخطاب إيحاء بأن النص يتجاوز كونه مجرد سلسلة لفظية بها قوانين لغوية، إلى الظروف المقامية[3]. وهو أكثر دلالة على الاستعمال والاستخدام من النص، وتتجاذبه الدراسات اللسانية، إلى جانب السيميائية والأدبية. وهو بهذا المفهوم حقل للسانيات النصية، لأنه يقوم على "دراسة الاستعمال الفعلي للغة، من خلال متكلمين فعليين، في مقامات فعلية"[4] . ومجال اللسانيات النصية يتجاوز دراسة الخطاب بعدِّه

---

1 – ينظر: دلاش الجيلالي – مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط،1996م، ص45 –46.

2 . ينظر: المرجع نفسه،ص46.

3 – ينظر: المتوكل أحمد: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، ص16.

4 Maingueneau - .D. : Les termes clés de l’analyse du discours, p11.

نصا، إلى عدّه نشاطا فعلياً أساسيا، يعتمد المعارف المقامية والسياقية[1]، وذلك في المجالات الثرية للدرس اللغوي.وهذا الذي تعنى به التداولية ويعد من أظهر ميزاتها. وعليه يمكن ترتيب التداولية ، ترتيبا تدريجيا ، يبدأ بالرموز وينتهي بالأعمال اللغوية الإنجازية .

*برنامج هنسن (Hansson) ودرجات التداولية: يرتب (هنسن)التداولي تدريجيا كالآتي:

أ- **تداولية الدرجة الأولى**: هي دراسة الرموز الإشارية، أي:العبارات الغامضة نسقيا. عبارات معناها غامض يتنوع مرجعها نسقيا حسب ظروف استعمالها ، أي: حسب سياق التلفظ .ما هو السياق بالنسبة إلى التداولية من الدرجة الأولى؟ إنه موجودات أو محددات موجودات . سياق وجودي ومرجعي :إنه المخاطبون وإحداثيات المكان والزمان .

ب-**تداولية الدرجة الثانية** : هي دراسة الطريقة التي تتصل فيها القضية المعبر عتها بالجملة المنطوقة، إذ في الحالات المهمة، ينبغي أن تتميز القضية المعبر عنها، عن الدلالة الحرفية للجملة. فما هو السياق في التداولية من الدرجة الثانية ؟ إنه السياق في معناه الموسع. وهو عند "ستالنكير" (Stalnaker)، كل ما يفترضه المتخاطبون. إنه سياق معلومات ومعتقدات مشتركة . ومع ذلك فإنه ليس سياقا "ذهنيا" ولكنه سياق يعبر عنه بألفاظ العوالم الممكنة .

ج- **تداولية الدرجة الثالثة**: هي نظرية الأعمال اللغوية . ويتعلق الأمر بمعرفة ما يتم إنجازه عبر استعمال بعض أشكال اللسانية . إن الأعمال اللغوية موسومة لسانيا ،و لكن ذلك لا يكفي لرفع الالتباسات وتحديد ما تم إنجازه حقا في وضعية تواصلية معينة .وإن وجود الأعمال اللغوية غير مباشرة يجعل المشكلة أكثر تعقيدا .و كما كتب "شنال" (schnelle) :"إن السياق هو الذي يحدّد ما إذا كان الملفوظ جاداً قد تم إنجازه بقصد، وليس مزحاً، وإذا ما عرضنا مثالا، هل يشكل إنذارا أم يعطي أمرا."[2]

ولعل أبرز مظهر لغوي تتمظهر فيه المبادئ التداولية، هو لغة الحوار، ولغة الخطاب التواصلي، وفيهما تبدو أهمية مبادئ الخطابة التفاعلية التي جاء بها "غرايس" ضمن مبدأ التعاون. وسنعرض في الفصل الثاني الموالي إلى تعريف الحوار، بأنواعه وتمظهراته، وسماته وشروط نجاحه.

---

1 - Jean Michel Adam : linguistique textuelles des genre de discours aux texte, edi Nathan, 1999, paris, France, p34.

2- الحباشة صابر.الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقزويني.الدار المتوسطية للنشر.تونس، بيروت. ط1، 2010 م ص46،45.

الفصل الثاني: *_الحوار القرآني، مفاهيم نظرية.

المبحث الأول: مفهوم الحوار، وأنواعه.

المبحث الثاني: الحوار القرآني؛ سماته، وأساليبه، وقواعده.

المبحث الثالث: شروط نجاح الحوار، ومعيقاته.

المبحث الأول* مفهوم الحوار، وأنواعه.

لقد تفرد القرآن الكريم بأسلوب الحوار والحجاج والجدال والاستدلال والبرهان لإقناع المخاطَب ، وكان لهذا الأسلوب أثره الواضح في خلق علاقة تواصلية حرص الإسلام على بنائها مع كافة المخالفين ، انطلاقا من شبكة من المفاهيم، ذات الأصول الجامعة، والمقاصد المشتركة التي "من شأنها أن تبقي على روابط التواصل مع المخالف قائمة ، مع تثمين تراكماتها الإيجابية رغم الاختلافات الحضارية والتغيرات الزمانية والمكانية"[1]. وما دمنا بصدد الحوار في القرآن الكريم، يلزمنا أولاً معرفة مدلول مصطلح الحوار ومفهومه.

***الحوار بين المفهوم اللغوي والمفهوم الاصطلاحي**: إن أكثر المصطلحات تداولا فيما يخص الأخذ والرد في الكلام بين طرفين هو "الحوار"، حيث طغى على سائر المصطلحات المشابهة له وهي: الجدل، والمراء، والناظرة، والمحاجة، والمناقشة، والتفاوض...وقد يذهب البحث في الحوار إلى منحى مختلف عن الجدل والمناظرة ، وأول ذلك أن المحاور يقبل التراجع أو المراجعة، وقد يتنازل عن بعض شروطه ورؤاه . فما مفهوم الحوار وما مدلوله، لغة واصطلاحاً ؟.

أ- **مفهوم الحوار لغة:** ورد في لسان العرب ، الحور: "الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، حار إلى الشيء وعنه حورا ومحارة وحؤورا: رجع عنه وإليه، والحور : الرجوع. والحور؛ النقصان بعد الزيادة، لأنه رجع من حال إلى حال، وفي الحديث :"نعوذ بالله من الحور بعد الكور ". وأحرت له جوابا، وما أحار بكلمة، تقول سمعت حويرهما وحوارهما، والتحاور: التجاوب، وتقول : كلمته فما أحار إلي جوابا، واستحاره أي؛ استنطقه"[2].

وفي معجم"تهذيب اللغة"ورد الحور بمعنى: الرجوع عن الشيء إلى غيره، وكل شيء يتغير من حال إلى حال. تقول : حار، يحور، والمحاورة؛ مراجعة الكلام في المخاطبة. تقول: حاورته في المنطق وأحرت له جوابا، وما أحار بكلمة... ويقال: إن الباطل لفي حور، أي؛ في رجوع ونقص. ورجل حائر بائر، إذا نقص ورجع"[3].

ونجد مادة "ح ور" في مقاييس اللغة:" الحاء والواو والراء ثلاثة أصول ؛أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دورا ... وأما الرجوع فيقال: حاور إذا رجع ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَى

[1] – مفتاح محمد و بوحسن أحمد– المفاهيم وأشكال التواصل– منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. مقال لعبد المجيد الصغير" المفهوم ومشكلة التواصل"، ص59.

[2] – ابن منظور: لسان العرب، مادة " ح ور".

[3] – الأزهري: تهذيب اللغة، مادة "ح ور" الجزء الخامس، ص146.

إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15)﴾الانشقاق. والعرب تقول: الباطل في حور، أي في رجوع ونقص، وكل نقص ورجوع حور. والحور مصدر، من حار حورا، أي؛ رجع رجوعا"[1]. وهكذا نجد معنى حور، يدور في إطار الرجوع، والتجاوب، والاستنطاق، والتغير من حال إلى حال.

والحوار فيه نِدِّية مع الخصم، واستعداد كل منهما للتنازل عن بعض الأفكار التي لا يحصل الاتفاق حولها أو يصعب، وهو عام ويمارسه جميع البشر، وكل من يملك لسانا ناطقا، وفي كل المستويات. وليس فيه حِدَّة في الطرح أو استخدام العنف اللفظي أو البدني.

ب- **مفهوم الحوار اصطلاحا**: مفهوم الحوار في الاصطلاح؛ هو مراجعة الكلام بين طرفين، وقد يتطور إلى جدل، يستعمل فيه أحد الطرفين قوة المحاجة باللجوء إلى استخدام حجج وبراهين لإقناع الآخر برأيه، أو تغيير وجهة نظره. فالحوار "نوع من الحديث بين شخصين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة ما، فلا يستأثر به أحدهما، دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب"[2]. فلا بد في الحوار من وجود طرفين: متكلم، ومخاطَب، يتبادلان الدور؛ فحينا يكون المتكلِّم مرسِلا للكلام، وحينا متلقيا لَه. أي؛ يكون المتكلم مخاطَبا حين يصمت، ليسمع كلام نظيره. وهكذا يدور الكلام بين طرفين في إطار حلقة تبادلية يكشف كل منهما عما لديه من أفكار، فيتشكل جراء ذلك ما يمكن أن نسميه بالخطاب المشترك الذي تستولده القضية المتحاوَر بصددها، ونجد من يعرفه على أنه:" رأيان يلتقيان أو يفترقان من حول الشيء ونقيضه، مما يعطي الإطار العام الذي ننقل به المعلومة حيوية بعيدة عن تفصيل السّرد الذي يشعر بالسآمة والملل، فتستفز المحاورة عناية السامع والقارئ على السواء، لمتابعة ما يطرح من موضوعات المحاورة"[3].

يعرف الحوار كذلك على أنه: تفاعل لفظي، أو غير لفظي، بين اثنين أو أكثر، بهدف التواصل، وتبادل الأفكار وتكاملها. ويمكن تعريفه أيضا على أنه: نوع من الحديث، أو الكلام بين شخصين أو فريقين، بطريقة يعرض فيها كل منهما أدلته، للوصول إلى الحق، وجلاء الصواب.

-كلمة الحوار في القرآن الكريم: لقد كانت كلمة الحوار في القرآن الكريم أقل استعمالا، فقد جاءت لفظة الحوار في ثلاثة مواضع: اثنان منها في سورة الكهف، في معرض الحديث عن قصة صاحب الجنّة، وحواره مع صاحبه الذي

---

[1] – ابن فارس أحمد: معجم مقاييس اللغة، تح: محمد هارون، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط2، 1991م، مادة "ح ور" . ص269.

[2] – ديماس محمد راشد : فنون الحوار والإقناع، دار ابن حزم، ط1، 1999، ص11.

[3] – زيادة خليل عبد المجيد: الحوار والمناظرة في القرآن، دار المنار للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1986م، ص135.

كان أقل مالا ونفرا وقد كان من حوارهما: قال تعالى:﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرَا﴾، (الكهف –الآية:34)وفي قوله تعالى :﴿ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾.(الكهف– الآية:37).

والموضع الثاني الذي ذكر فيه الحوار، في سورة المجادلة ،في قصة المرأة التي أتت إلى النبي شاكية زوجها إلى الله :﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. (المجادلة: الآية :01). فحديث المرأة هنا عن زوجها في البداية كان خصومة، وعلى هذا جاء التعبير عليه بالمجادلة أو الجدال، أما فيما يخص حديثها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ،بعد أن هدأ من غضبها كان حوارا ومراجعة في الكلام لذلك جاء التعبير عنه بالمحاورة أو الحوار. وقد نجد مصطلحات متقاطعة في المعنى مع الحوار، إلا أنها تتميز عنه في بعض التفاصيل المعنوية، نذكر منها:

***الجدل ومفهومه اللغوي**: قال العلامة ابن فارس:"جدل: الجيم، والدال، واللام، أصل واحد، وهو باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ،ومراجعة الكلام"[1]. والجدل: من"جدل الحبل إذا فتله"[2]، ويحمل معانيَ منها "المنازعة، والمخاصمة"[3]، وجاء في مختار الصّحاح كذلك بمعنى المخاصمة.

***مفهوم الجدل اصطلاحا**: الجدل هو عبارة عن:" دفع المرء خصمه عن فساد بحجة، وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره"[4]. "ويكون الجدل عند حدوث صراع فكري حول قضية من القضايا، أو مسألة من المسائل، ويكون الهدف عند أحد المتجادلين هو هزيمة الآخر فكريا والانتصار عليه"[5]. ومن ذلك ما ورد من نماذج قرآنية، مثل جدل إبراهيم عليه السلام مع النمرود أو موسى عليه السلام مع فرعون، وهذا ما سنتطرق إليه لاحقا مع أنواع الحوار الواردة في القرآن الكريم. فالجدال يتسم طرفاه بالشدة والعنف، لأن كليهما يعتقد أنه على صواب، فيريد أن يفحم الآخر، ويرده عن رأيه، ويصحح له قناعاته.

ويعرف الجرجاني الجدل بأنه:" عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها"[6]. ومن هذا التعريف يفهم؛ أن الجدل حوار بين طرفين، تسوده المنازعة، والمعارضة، والتعصب للرأي.

---

1 – ابن فارس أحمد: معجم مقاييس اللغة ، ج1،ص433.

2– المنجد في اللغة والأعلام، ،منشورات دار الشروق، بيروت ، ط28 ، 1986م،ص82.

3 – المرجع نفسه ،والصفحة نفسها.

4 – الكفوي أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني : الكليات، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط2، 1419هـ– 1998م، ص353.

5 . خلف الله محمد أحمد، مفاهيم قرآنية،سلسلة عالم المعرفة، الكويت،رقم89،تموز/جوان 1984م ص158.

6 – الجرجاني الشريف : التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 2000 م، ص79.

فالحوار والجدل يشتركان في مراجعة الكلام، وتداوله بين طرفين، إلا أن الجدل هو الأكثر حدة، فهو يأخذ طابع القوة والغلبة والخصومة، والتمسك بالرأي والتعصب له. وقد اجتمع اللفظان في قوله تعالى:﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(المجادلة:الآية–01). وقد وردت لفظة الجدل في القرآن تسعاً وعشرين مرة ، ضمن تسع عشرة سورة. أما بخصوص الآية السالفة الذكر، والتي جاء في نصها الجدل والحوار، فقد ورد معناها في مفاهيم قرآنية لمحمد أحمد خلف الله ما نصه: " نحن هنا أمام حقيقة وصفت أول الأمر بأنها جدل، ووصفت في الآخر بأنها حوار، وذلك هو الأمر الذي لا غرابة فيه. لقد جاءت المرأة تشكو زوجها، وجاءت منفعلة من الظهار الذي أقسم به عليها وشكواها كانت بالجدل . لكن هذا الموقف قد تغير، وهدأت نفسها قليلا بالحديث مع النبي (صلى الله عليه وسلم)، واطمأنت إلى قوله، فتحول الجدل إلى حوار [1].وعليه فقد يتحول الجدل إلى حوار والعكس صحيح. إذا تحولت الكيفية في النقاش، والأداء للكلام المتداول بين طرفي الحوار.

تأسيسا على ما تقدم، يكون الحوار منهجا يحتاجه كل مجتمع إنساني؛ من لقاء اثنين، إلى الأسرة ، فالعائلة فالقبيلة، فالأمة الواحدة، فالأمم والشعوب المختلفة المشارب والأعراق. فلا لقاء ولا اجتماع بين البشري من دون حوار. لكن الحوار قد يتخذ المنحى الإيجابي، الذي يقود إلى التفاهم ،ويؤسس لعلاقات سليمة، وقد يتخذ المنحى السلبي ،وأساليب القسوة والعنف، فتكون بسببه القطيعة، والنفور، والتباغض، والحوار الإيجابي هو ما رافقه العلم والوعي، وحضور العقل في كل خطوة. أما إذا كان الحوار مبنيا على الجهل، والتعصب، والانفعال فإن نتائجه تكون عكسية غير محمودة العواقب .

والجدل المحمود هو ما كانت غايته إظهار الحقيقة والانتصار للحق، أما الجدل المذموم فما كانت غايته تغليب الباطل على الحق وطمس الحقيقة. وقد نبّه القرآن الكريم إلى هذا، ودعا الله تعالى نبيه إلى حسن الجدال والجدال المحمود هو الذي ينتصر للحق ويكون بعلم وبكيفية مهذبة ولبقة لا تستفز الخصوم، ولا تجرح المشاعر والأحاسيس. ومن مرادفات الجدل المراء...

* **المِراء:المفهوم اللغوي**. ورد في لسان العرب" ماريْتُ الرجل أُماريه مِراء: إذا جادلتُه. والمِرية (بكسر الميم وضمها) : الشك والجدل[2]. وقرئ بها قوله تعالى:﴿فلا تك في مِرية منه﴾(هود:17). هذا لغة، أما معناه

---

[1] . خلف الله محمد أحمد ، مفاهيم قرآنية ،ص159م.

[2]– ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد 13 ، دار صادر، بيروت، ط1، 1300هـ،ص277.

الاصطلاحي؛ فهو جدل لإظهار الفضل، وليس جدلا لإظهار الحق. ويتسم صاحبه بالمكابرة والعناد. وهو "الطعن في كلام الغير لإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به غرض، سوى تحقير الغير[1]. ومن أوجه الحوار نجد التفاوض.

***التفاوض**: وهو ما يشبه الجدال في استخدام الأدلة والبراهين، لإفحام الخصم، وهو المحاجة أو الحجاج ."والتفاوض يعني المساومة من أجل تحقيق المصالح، للوصول إلى اتفاق، في حين أن الحوار الحقيقي هو أن نفهم الآخر[2]..أي أن نفقه أن الآخر ذات مثلنا تماما، وهو كائن مستقل، يستحق الاحترام. وللحوار لون آخر وهو الحجاج، فما مفهومه؟.

الحجاج أو المُحَاجّة: "وهو مجاذبة الحجة، أو التخاصم ،كأن نقول: هو رجل مِحْجَاج ؛أي: جَدِلٌ[3].أما المفهوم الاصطلاحي: فالمحاجة هي :"أن يطلب كل واحد أن يرد الآخر عن حجته ومحجته"[4]. وقد وردت في القرآن في عدة آيات، نذكر منها قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِّي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾(البقرة:258) وفي قوله:﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ﴾ (آل عمران:20). وفي قوله:﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَ أَنْ يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُون﴾(الأنعام:80). والحجاج تحضر فيه الأدلة، والبراهين العقلية والحسية، لإقناع الخصم، وإفحامه، وهزيمته، ويعتمد صاحبه على الزاد العلمي والفكري، والذكاء وسرعة البديهة، ودقة الملاحظة، وبعد النظر، مع الجهد لغاية الإقناع، "إنه طائفة من تقنيات الخطاب، ويبنى على التفاعل والاختلاف في الرأي، وأن يظل مفتوحا أمام النقاش والتقويم ..وأن يحضر في كل أنماط الخطاب التي تنزع منزعا تأثيريا، لا يقين فيه، ولا إلزام" [5]. مما يؤهله لكسب رهان المحاجة والحوار، وكشف الحقيقة ناصعة للعيان. ومن بين أهداف المحاجة مايلي:

أ– يهدف الحجاج إلى تأسيس موقف ما. ويبحث فيه المحاجج على أخذ الموافقة والقبول من المتلقي.

ب– يسعى المحاجج إلى التأثير في المتلقي، لذلك فهو يختار حججه اختيارا، ويرتبها ترتيبا.

ج– يرتبط الحجاج بالخطاب الطبيعي من حيث الشكل والمضمون ، فهو ذو فعالية تداولية جدلية.

1– الجرجاني الشريف ، التعريفات،ص148.

2 – الحباشة صابر ، محاولات في تحليل الخطاب. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مطبعة النجاح الجديدة، بيروت ، لبنان، ط1، 1430هـ–2009م،ص110.

3 – الرازي أبو بكر : مختار الصّحاح، مكتبة لبنان، بيروت، دط، 1986م، مادة "ح ج ج"، ص123.

4 – الأصفهاني الراغب: معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ط4، 1430هـ–2009م،ص106.

5حافظ إسماعيلي علوي ،الحجاج :مفهومه ومجالاته.دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة.ج1 ؛الحجاج :حدود وتعريفات. دار الكتب الحديث، إربد. الأردن. ط1 2010م ، ص4.

د- يسعى المحاجج إلى استمالة العقول وجعلها تقبل أطروحته ودعواه.

هـ- إن مجال الحجاج هو مجال احتمال وليس مجال حقائق بديهية مطلقة.

فالمحاجة والجدل، يلتقيان في فكرة الاستدلال، وتقديم الحجة لإقناع الخصم، غير أن الجدل أقوى؛ لما فيه من شدة الخصومة، وصلابة الرأي[1]. ومن الكلمات القريبة من الحوار دلالياً، "المناظرة"، فما مفهومها؟، وهل تشترك مع ما سبق ذكره من المصطلحات أم لا؟.

*__المناظرة، ومفهومها اللغوي__: وهي محاورة بين نظراء، في علم أو موضوع أو مشكلة ما، تكون محل جدل ونقاش، تعد أسلوبا للتثقيف ووسيلة من وسائل التعلم، تعتمد الحوار بين المفكرين أسلوبا، وتكون على ملأ من الناس. والغاية منها الوصول إلى الصواب في الموضوع الذي اختلفت فيه أنظار المتناقشين. ويرى أحد الباحثين "أن كلمة المناظرة توحي بالتحدي، وإرادة الغلبة، ومحاولة كل طرف أن يصيب الآخر في مقتل"[2]. وانطلاقا من هذا المفهوم، فالمناظرة تكون أقرب إلى لجدل منه إلى الحوار. ولا تصح المناظرة ولا يظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونا متقاربين أو متساويين في مرتبة واحدة من الدين، والعقل، والفهم، والإنصاف، وإلا فهو مراء ومكابرة. ولذلك ينصح بألا يناظر أحدهما الآخر في علم لا يفهمه، أو هو فيه ضعيف، إذ المتعرض لذلك مهين لنفسه، والداعي إليه مع علمه بقصور خصمه جائر عليه.

وردت المناظرة في القرآن الكريم، وتمت بين إبراهيم الخليل عليه السلام وبين النّمرود؛ وذلك في قوله تعالى:﴿ ألمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(البقرة:258). هذا في الكتاب، أما في السّنة فمناظرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)مع طالب الإذن بالزنا، خير مثال[3]. ارتسمت فيها آداب الحوار والمناظرة، وسماحة الإسلام.

فالمناظر المتمرّس الداعي إلى العلم والحق، يناظر الآخر بأسلوب ليّن وخطاب زيّن، واستعمال للحجة بيّنة، لاستمالة المدعوّين، دون أن يكون غرضه وغايته المباهاة وكسب الشهرة. وهذا ما حصل في المناظرة الكبرى بين

1- موسى جمال، تجليات المفاهيم التداولية في التراث العربي، تفسير الرازي لسورة المؤمنون نموذجا، أطروحة، جامعة الجزائر، 2009م، ص43.

2 – طارق بن علي الحبيب : كيف تحاور؟ ، دار المسلم للنشر والتوزيع، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلام، الرياض، السعودية ط14 1426هـ،1996 م، ص08.

3- السحمراني أسعد ، الحوار في الإسلام – آدابه وقواعده- دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 1433هـ-2012م، ص21.

الداعية الشهير، "أحمد ديدات" ـ رحمه الله ـ والقس ،"جيمي سواغارت". وهي غنية عن أي تشهير أو تعليق. وكان عنوانها:"هل الإنجيل كلمة الله؟"

وقد عرف علماء المصطلح المناظرة على أنها: "المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين، يقصد كل منهما تصحيح قوله، وإبطال قول الآخر، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق؛ فكأنها بالمعنى الاصطلاحي متشاركان في النظر، الذي هو الفكر المؤدي إلى علم، أو غلبة الظن، ليظهر الصواب"[1]. وتتميز بأن يحضرها جمهور من الناس ويكون على علم بموضوع المناظرة وبالمسألة التي كثر فيها النقاش، وتعبت فيها العقول دون الوصول إلى حل يقنع ويرضي الأكثرية إن لم نقل الجميع .لأن إرضاء الناس جميعا غاية لا تدرك. فالمناظرة ليست بها حدة في الطرح وتمتاز باللين والهدوء ولا يهم فيها أن يظهر الحق على لسان أي المتناظرين كان .

يقول أبو حامد الغزالي في إحيائه: "اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس، هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله، المحمودة عند عدو الله إبليس"[2]. فالغاية من المناظرة إحقاق الحق، وإبطال الباطل، بكل إخلاص وتواضع، بعيدا عن الكبر والعجب والغرور.

وخلاصة القول: أن للحوار، والمناظرة، والمحاجة، والمجادلة (الجدل)، قاسم دلالي مشترك، هو المراجعة في الكلام. فإذا كانت المحاجة أعم، والمجادلة أصدق وآكد، فإن الحوار يتسع لهما ولغيرهما، مما يراد منه طرح فكرة وإيضاحها، والدفاع عنها رغم وجود خصومها. والحوار ـ كما سلف ذكره ـ يستوعب كلاً من الجدل ، والحجاج ، والمناظرة .وهو أنواع: فما هي أنواع الحوار وأقسامه؟.

* **أنواع الحوار** : يتمثل الحوار في أشكال مختلفة، بحسب الأطراف المشاركة فيه، فيمكن أن يكون حوارا داخليا أو نفسيا (حوارا مع الذات) يدور في خلجات النفس، ويمكن أن يكون حوارا مع الآخر، أي مع أطراف خارجية، والذي يمكن أن يجري مع شخص واحد، أو مع عدة أشخاص. "إن الحوار ينحو للاتصاف بقيمة أخلاقية: إن الحوار يروم الابتعاد عن حقل القوى والمصالح. إن متعة الحوار ليست تلك التي تتأتى من التوافق والإجماع بل من الإثراءات التي لا تنتهي"[3].

---

[1] – الشنقيطي، الشيخ محمد الأمين، آداب البحث والمناظرة، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، دط، دت، ص3.

[2] – الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة،ج1، ، بيروت ،لبنان ، دط، دت ، ص45.

[3]– مونغينو دومينيك ، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب. تر: محمد يحياتن ،منشورات الاختلاف،الجزائر، ط1 2005م.ص34.

يجب أن يكون التسامح سمة ملازمة للحوار لأنه السبيل الوحيد الذي يؤدي إلى احترام خصوصيات الآخر، ولا يتأتى ذلك إلا بالابتعاد عن الذات ، فبقدر ما نتحرر من الذات ،بقدر ما نقترب من الآخر، الذي يتميز علينا، ومعه نبني مستقبلا يكون فيه الثراء والتنوع، ويكون الحكم للعقل والعلم فقط. لأن العلم الصحيح والعقل الصريح لا يتعارضان أبداً. والتسامح يجعل التفرد ضعيفا أمام قوة التّعدد، والتوحّد ضيّقا أمام شساعة التّنوع ،والاقتصار على الأنا فقر أمام غنى الآخر. والتّسامح يصدر من قوي، لا من ضعيف يتعرّض باستمرار إلى الإقصاء والتهميش.

والحوار حواران داخلي وخارجي:

أولا: الحوار الداخلي؛حوار الذات: يصطلح عليه كذلك بالحوار مع الذات" المونولوج". ويقصد به كل محاورة داخلية تحدث في خلجات النفس، وبواسطته يمكن الكشف عن محتوى أنفس الشخصيات المتحاورة في القصص والروايات، قبل التعبير عن هذا المحتوى بألفاظ مسموعة، وعلى نحو مقصود. فالحوار الداخلي"يقدم الفكر في مرحلته الوليدة قبل أي ترتيب منطقي."[1]. ومن هنا يتضح أن الحوار الداخلي أو المونولوج هو حديث فردي، يعبر عن الحياة الباطنية للشخصية، لا نستمع له، ذلك لأنه حديث مكتوم وصامت وغير منطوق. والحوار الداخلي سابق- زماناً- للحوار الخارجي،كما أن الحديث النفسي سابق للحديث مع الآخر.

وللحوار مع الذات نماذج؛ تتمثل في المناجاة والدعاء، وكذلك في اللوم والعتاب، كذلك نجد نموذجا آخر يتمثل في الحوار الوطني، بين أبناء الوطن الواحد، قبل أن يكون مع شعوب الأوطان الأخرى.

ويعد الحوار مع الذات أحد نوعي الحوار العلمي، الذي يذكي في نفس المحاور العمل على مراجعة الأفكار وتصحيح المواقف، من خلال الاعتماد على خلجات النفوس، وأحاسيسها الداخلية، مما يؤدي في النهاية إلى رقابة الإنسان على نفسه وأفكاره، أو محاورة الإنسان لبني جنسه الذين يلتقون معه في قدر كبير من المصالح المشتركة، الأمر الذي يعمل على تفعيل النقد الذاتي البناء، مما يصح أن يطلق عليه "حوار الأنا" أو "حوار الذات"، ليكون هذا النوع من الحوار فاتحا لآفاق واسعة من الحوار مع الآخر ذلك أنه"إن لم تستطع محاورة نفسك فإنك لن تستطيع محاورة الآخرين"[2]. فقبل أن تمارس العنف على الآخرين، مارسه على نفسك إن استطعت...

وليس معنى هذا أن نجعل قبول الاختلاف غاية، تدفعنا إلى محو الهوية، ونفي الوعي بالذات، والشعور بالتمايز، "وإنما الوصول إلى حيث لا تبقى قيمة كبرى للجهر ب"الأنا"، وإشهار الهوية، وإبرازها في مقابل التنوع الذي نكون

---

[1] – برنس جيرالد: المصطلح السردي، تر: عابد خزندار، مراجعة وتقديم: محمد بريرى، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003م، ص115.

[2] – الهيتي عبد الستار، كتاب الأمة، العدد99 — الحوار الذات..والآخر.قطر. ط1.مارس 2004م. ص99.

عليه"[1]. لأن الإنسان اجتماعي بطبعه، فإن لم يحاور الآخر لجأ إلى محاورة نفسه، وإن لم يفعل لأصيب بالجنون. وهذا "أبو فراس" يقع أسيرا لدى الروم، ويسجن، فلا يجد أنيسا يبوح إليه بأسراره، فيضيق صدره ولا يجد أمامه إلاّ حمامة، كانت المتنفَّس، والمنقذَ له من همّ الوحدة والانعزال، إذ أنشد، وناشدها قائلاً:[2]

أقول وقد ناحت بقربي حمـــــامة : أيا جارتا هل تشعرين بحـالي؟

معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببــال

أيا جارتا ما أنصف الدهر بينـنا تعالي أقاسمك الهموم تعــــالي.

*__لماذا الحوار مع الذات؟__:يكون الحوار مع الذات للأسباب الآتية:

*__معرفة الذات طريق إلى معرفة الآخر__: لا يمكن بأي حال أن نعقد علاقة مع الآخر إذا لم نعقدها أولا مع الذات. وعليه يجب أن نعي مداخل هذه الذات لنتمكن من معرفة الآخر، ومن هذه المداخل ما يلي:

* __عدم الشعور بالدّونية__: وعدم الإحساس بالضآلة بحكم المغلوبية الحضارية، فيتولد فينا الشعور بالاستكانة والقعود ولا نحرك ساكنا، فنصير على هامش التاريخ، إن لم نقل خارج التاريخ، وهذا ما عبر عنه المفكر الجزائري مالك بن نبي بمصطلح "القابلية للاستعمار"[3]،و"اللاّفاعلية"[4]. وقد قال أحد المصلحين "أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم"[5]. فكيف يكون الحوار مع الآخر مفيدا لنا، إن كانت هذه هي عقليتنا السائدة بيننا داخلياً؟". إن تفادي هذه الحالة من الانهزامية لا يكون إلا بمعالجة النفوس؛ ببث روح العزة والكرامة فيها، والعودة بالأمة إلى مركزية ذاتها لمواجهة التحديات"[6]. لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ولأننا لا يمكن أن نفلح في الحوار مع العالم ما لم نفلح في الحوار مع أنفسنا.

---

[1] – بنعبد العالي عبد السلام ، الفلسفة أداةً للحوار، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، ط1،2011م، ص31.

[2] – الحمداني أبو فراس ، ديوان أبي فراس الحمداني، مكتبة الشرق، بيروت– لبنان. دط، 1910م، ص44– 45 .

[3] – مالك بن نبي ، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر ، ،دمشق،سورية. ط10،2011 م ص156.

[4] – مالك بن نبي ،مشكلة الثقافة،تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط15،2011 م ، ص87.

[5] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ،ص159.

[6] – ينظر، آيت أحمد مريم ،جدلية الحوار، قراءة في الخطاب الإسلامي المعاصر، تقديم عبد المجيد النجار، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011مص128.129.

*الوعي السياسي:إذ لابد من تحقيق مفهوم الوحدة والمواطنة بين مكونات الأمة؛ حتى لا تختل العلاقة بين أفراد الأمة، فتختل معها العلاقة بين الحقوق والواجبات. فتضعف الأمة ولا تستطيع التفكير في أي تواصل مع الأمم الأخرى .

*الوعي الثقافي : العمل على تفعيل ثقافة التسامح، للانفتاح على الآخر لأن الانغلاق سبب في الإساءة إلى الذات، وسبب في الاعتداء على الآخر، فبدل أن ننشر ثقافة الصدام، ننشر بدلها ثقافة الوئام والتعايش والتصالح، فبداية الحروب كثيرا ما كانت كلمة محرضة، أو سلوكا متهورا.

*الوعي الحضاري : يجب أن يشعر المرء، بأنه ينتمي إلى أمة ساهمت في البناء الحضاري للإنسانية، بقسط وافر، يجب أن يعتز به ويفتخر، وهذه الأمم تنطوي على مواصفات التحضر الإنساني باستمرار، وإن تعطل عطاؤها في فترة من الزمن، فالظروف عارضة، لكن هذا العطاء سيستمر بمجرد ما تتوفر له الشروط المناسبة، وأساس هذه الشروط "إعداد الفرد في الأمة إعدادا علمياً وثقافيا وروحياً يكون بمثابة مقومات وغايات أساسية للبناء الحضاري المنشود. وهي مقومات ثابتة، إذا ما استنهضت، فإنها تثمر عملية الإنجاز الحضاري في كل حين"[1]،لأن الحضارة أول ما تقوم، تقوم على بناء الإنسان باعتباره وسيلة وغاية في آن واحد .

الوعي الخلافي : يجب أن يعي الفرد الإنساني مهمته في الحياة وغايته في الوجود. وغياب ذلك الوعي يجعله مكتفيا بما يكفيه من القدرة على الاستهلاك لحفظ وجوده، لا لخلافة الأرض وإعمارها. ولا يتحقق ذلك إلا في إطار وعي الأمة وفاعليتها، للقيام بالدور المنوط بها، الإرادي في الإنجاز الحضاري، وفق المقولة – القاعدة- القائلة :"كل منكم على ثغر من ثغور الإسلام، فليحم كل منكم ثغره "[2]. أي أن يتحمل كل فرد مسؤوليته الرسالية في الموقع الذي يشغله، فالكل راع والكل مسؤول عن رعيته.

إن العلاقة مع الآخر، لا تتم إلا بفاعلية الداخل، الذات الايجابية، المعتزة بقيمها وهويتها وقدراتها وإمكانياتها ومهاراتها، وهذه هي التي تمكنها من إدارة الحوار من موقع القوة التي تتحلى بالتسامح والسلم والعدل، القوة التي تكون مثلا يحتذى، والقران الكريم يدعونا إلى الانفتاح والحوار مع الآخر، إذ يقول سبحانه :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران: 64). وختم الآيات باحتمالية رفض الآخر لموائد الحوار على أسس استكبارية استعلائية مؤكدا على دور الشهود الحضاري للأمة الإسلامية .

---

[1] – آيت أحمد مريم ، جدلية الحوار، قراءة في الخطاب الإسلامي المعاصر، ص129.

[2]– المرجع نفسه ص130.

يجب أن لا ننعزل أو ننغلق على الذّات، ونغيب عن المشاركة الفعالة في صنع وإنجاز ما يتعلق بمصيرنا في دوائر صنع القرار العالمي، فالحضور أفضل من الغياب. وبهذا الوعي يمكننا أن نتحاور مع الآخر، وأن نكون طرفا فاعلا في هذا العالم؛ نفيد الإنسانية ونستفيد منها.

ثانياً : الحوار الخارجي ؛الحوار مع الآخر: هي كل محاورة تستدعي طرفا ثانيا، يتشارك مع الطرف الأول في "دور الكلام" « le tour de parole »"، ويقصد به:" الحوار الذي يدور بين شخصين أو أكثر –في إطار المشهد داخل العمل القصصي– بطريقة مباشرة، وأطلق عليه اسم الحوار التّناوبي، أي الذي تتناوب فيه شخصيتان أو أكثر بطريقة مباشرة، وذلك أن التناوب هو السمة الإحداثية الظاهرة عليه"[1]. إذن فهذا النوع من الحوار يستدعي طرفا أو عدة أطراف تتشارك في الموضوع، يتبادلون الأدوار بحسب الحاجة، فيتحول المستمتع إلى متكلم، عندما يقتضي الأمر تدخله، فتصبح العملية عكسية.

وقد يحصل الحوار الخارجي بين الأب وابنه، أو الأم وابنتها، أو المعلم وتلميذه، أو الطبيب ومريضه، أو القاضي ومن يقضي بينهم. إلى أن يرقى مستواه فيقع بين الأسر، وبين المؤسسات، وبين الأحزاب. وبين الدول والحكومات، وبين الثقافات والحضارات.

فالإنسانية محكوم عليها أن تتعارف، ولن تتعارف، حتى تتحاور، لأنه بالحوار وحده يمكن أن تتعارف الشعوب والقبائل، وقديما قال أرسطو : تكلّم لأراك. والمثل العربي يقول: المرء مخبوء تحت لسانه فإذا نطق افتضح. وللحوار في القرآن الكريم سمات خاصة تميزه عن حوارات البشر، وأسلوبه بليغ تحدّى به العرب، فأعجزهم عن الإتيان بآية من مثله، ولم يستطيعوا مجاراته والنسج على منواله. فما هي السمات الخاصة بالحوار القرآني، وما هي خصائصه؟.

[1] – عبد السلام فاتح: الحوار القصصي : تقنياته وعلاقاته السردية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص21.

المبحث الثاني:* الحوار القرآني، سماته، وأسلوبه، وقواعده.

جاء القرآن الكريم حافلا بالحوارات، وعلى هذا فإن الباحث يعتمد فيه على مناهج على سبيل التمثيل، لا الحصر، وهذه الحوارات تتنوع بحسب الأطراف المشاركة، وبحسب الموضوعات المتطرق إليها، وكذلك بحسب الهدف المنشود منها.

* **سمات الحوار القرآني** : للحوار القرآني سمات خاصة تجعله ينفرد بها عن الحوارات اليومية التي يديرها البشر فيما بينهم. وهذه السمات هي التي تجعله يسبر أغوار النفس الإنسانية، ويقنع العقل، ويؤثر في الوجدان، وتتمثل هذه السمات فيما يلي :

–التنوع والشمول في معالجة القضايا الحياتية: إذ نجد أن الحوار في القرآن الكريم قد جاء متنوعا ، شاملا لجميع مناحي الحياة الإنسانية، فلم يقتصر على الجانب الديني فقط ،وإنما تجاوز ذلك إلى الحياة الاجتماعية ،والاقتصادية ،والسياسية. فهو حوار "شامل يتناول العقيدة والشريعة والأخلاق والمعاملات"[1]، ويستوعب النفس البشرية بكل كيانها وسائر مداركها ومراكز التأثير فيها.

–التركيز على الفكرة لا على الأشخاص : فالقرآن الكريم يسوق الحوادث والقصص من أجل الاعتبار والتذكير والوعظ والإرشاد، ولا يهمه من قام بالفعل أو كان سببا في الحادثة ،وإنما يهمه الاستفادة من الفكرة ومن النتيجة التي آلت إليها، فيعمل على تجليتها وإبراز كل بعد من أبعادها بصرف النظر عن الأطراف التي دار بينها الحوار.

–الإنصاف في الحوار القرآني : فالقرآن الكريم يعلمنا كيف ننصف الطرف الآخر المحاور لنا حتى وإن كان هذا الآخر خصما معارضا. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء".

–الرفق واللين في الخطاب : يعلمنا القرآن الكريم أيضا اتباع منهج اللين والرفق عند إدارة أي حوار، لأن ذلك يمكن من استمالة المحاوَر وضمه إلينا وإقناعه بأفكارنا. "ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيا"

–الإجابة بالفعل : فكثيرا ما نجد القرآن الكريم يتجاوز الإجابة القولية إلى الإجابة الفعلية، فيأتي ذلك الفعل بمنزلة الجواب. "انظر إلى الجبل فإن استقر في مكانه فسوف تراني".

–مخاطبة العقل والعاطفة: إن الحوار القرآني يوازن بين مخاطبة العقل والعاطفة معا، إذ يخاطب العقل فيقنعه ويخاطب العاطفة فيؤثر فيها.

---

[1] – الشرقاوي أحمد محمد، الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام." دراسة موضوعية"،كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، الإمارات المتحدة، دط، 1428هـ. ص47.

-وحدة الموضوع ووحدة الغاية والغرض: كل الحوارات في القرآن الكريم يجمعها موضوع واحد وهدف واحد وغاية واحدة، تدور في مجملها حول ترسيخ العقيدة في القلوب والوجدان، وتقريرها في العقول والأذهان، مع ما يترتب عليها من أحكام عملية"[1]. وهذه الميزة في الحوار القرآني هي مظهر من مظاهر التفرّد والتميّز عمّا عداه.

-التكرار:وذلك لإخراج المعاني في ألوان مختلفة تتلاءم والوقائع المستجدة في حياة العباد، ففي كل مرة يكون التركيز على جانب من جوانب المعنى المناسب للمقام والحال المناسبين، "ذلك أن في الناس من لا يكفيه الموجز من القول"[2].

لقد تحدّى القرآن الكريم البشر؛ لأنه أحاط بكل شيء علماً. وإذا كانت هذه سمات الحوار القرآني فما هو أسلوبه؟.

***أسلوب الحوار في القرآن الكريم**: ورد أسلوب الحوار في القرآن الكريم متنوعا، لأن أصناف الناس متفاوتة باختلاف الطبائع والنزعات.

فالصنف الأول: لا يُصدِّق إلاّ بالبرهان التام، لأنه غلبت عليهم الدراسات العقلية، والنزعات الفلسفية وهؤلاء هم المخاطبون بقوله تعالى:"﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(النحل: 125). فخطابهم يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

وهناك الصنف الثاني: الذي غلب عليه مذهب ديني أو غيره، أفسد عليه مسالك الإدراك فتعصّب لمذهبه، والتعصب يُعمي البصر والبصيرة، ويحتاج إلى معالجات عسيرة كي تعود النفس إلى الحق، وهذا الصّنف لا بد له من طريق جدلية تزيل ما لَبُس عليه، ومثاله أهل الكتاب الذين قال فيهم سبحانه وتعالى:﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.(العنكبوت: 46). فهذا الأسلوب يدعو إلى التركيز على النقاط المشتركة التي يتلاقى فيها الطرفان المتحاوران.

أما الصنف الثالث: فهم أهل الفطرة، فهي تستجيب للسبيل الأقوم، هذا الصنف يكفيه التدبر في آيات الله، والتفكير في مناهجه، فإنه يجد في هذه الآيات ما يُعلّم الجاهل، وينبّه الغافل، هؤلاء الذين عناهم قوله تعالى:"﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)

[1]- الشرقاوي أحمد محمد، الحوار القرآني في ضوء "سورة الأنعام". ص54.

[2]-المرجع نفسه، ص52.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾(الأنبياء: 32). "فهذا الخطاب إقناع للعقول المتدبرة لصنع الله، تدركه بأيسر بيان وأبلغه"[1]. فكتاب الله المنظور أبلغ دليل على كتاب الله المقروء، وكتاب الله المقروء أبلغ دليل على الواحد القهار.

*__القواعد الموضوعية للحوار في القرآن الكريم__: لا شك أن لكل علم أو فن قواعد يقوم عليها، وإلا ما كان العلم علما ولا الفن فنا. وكذلك الحوار، فما هي القواعد المؤسسة له، حتى يكون حوارا بناء، وهادفا، ومفيدا؟.لعلّ من أهم هذه القواعد، والمقومات ما يلي:

-**الاتفاق على تأصيل الحوار وتحديد الموضوع**: وهو الاتفاق على أسسه ومقدماته، وأصوله وطريقته، فيكون هذا الاتفاق مدخلاً لضبط الحوار وتذكيرا بأسسه وقواعده، وإلاّ فالبدء من دون تفاهم ذريعةٌ إلى التّشتت والتفرق، وفشل المحاورة، وقبرها في مهدها. فالتأصيل مسلك علمي دقيق، لازمه كثير من العلماء، والقرآن الكريم يبين لنا أهميته على لسان الخضر عليه السلام إذ يقول عز من قائل:﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾(الكهف: 70). فهذا تذكير بأن يصبر كل طرف على الطرف الآخر، فلا يسأل سؤالاً لا يتعلق بموضوع الحوار.

-**الموضوعية في الحوار**: وتكون بتحديد موضوع الحوار والتزام الأطراف المتحاورة بمحاوره، وعدم الخروج عن مضمونه. وهذا الأصل يمنع التشعب في الحوار، ويبقي الأطراف على صلة بالموضوع .وهذا يقابل مبدأ الملاءمة عند "غرايس" الذي ينص على ما يلي:"كن وثيق الصلة بالموضوع، ولتكن مشاركتك ملائمة"."وكان الشافعي رحمه الله، إذا ناظره إنسان في مسألة ، فغدا إلى غيرها، يقول:نفرغ من هذه المسألة، ثم نصير إلى ما تريد"[2]. والموضوعية في الحوار تستند إلى عناصر مهمة، وهي:

الأول: تحديد الهدف من الحوار والاتفاق على موضوعه مسبقاً. والصحيح أن يكون الحوار حول مسألة معينة. يتم التركيز عليها، ولا يتعداها المحاور إلى غيرها حتى يفرغ منها."[3]. لأن التطرق إلى مسائل متعددة من شأنه أن يذهب بالفائدة ولا يوصل إلى نتيجة.

الثاني: الالتزام بإيراد ما يُحتاج إليه في المحاورة فقط، وعدم التوسع إلا بقدر الحاجة؛ فالواجب إيراد الرأي في المسألة موضع النزاع ويكون الرأي مدعّماً بالأدلة والحجج البيّنة، رداً على ما يأتي به مخالفه من أدلة وحجج، مع الحذر من

---

[1] -ينظر: باحاذق عمر محمد عمر، أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني، دار المأمون للتراث، ط1، 1994م. ص169.

[2] – الموصليّ فتحي بن عبد الله، فقه الحوار مع المخالف في السنة النبوية،،الدار الأثرية ، عمان الأردن. ط1 ،2007م . ص25.

[3] – الحاشري فيصل، فن الحوار، دار الإيمان، مصر. ط1، دت.

الوقوع في الأغاليط والشّبهات التي لا طائل من ورائها سوى الجدل والمراء"[1].وهذا العنصر، تقابله قاعدة "الكمّ" عند "غرايس"، والتي تنصّ على ما يلي: "اجعل مشاركتك تفيد بالقدر المطلوب، ولا تجعلها تفيد أكثر مما هو مطلوب". هذا في شقها الأول، أما في شقها الثاني، المتعلق بمسألة الحذر من الشُّبُهات، فيقابل قاعدة "الكيف" عند "غرايس"، والتي تنصّ على الآتي:"يجب أن تكون مساهمتك صحيحة، فلا تقل ما تعتقده كاذباً ، أو لا تستطيع البرهنة على صحّته" ؛ أي لا تقل شيئاً يُعوِزه الدليل؛ لأن في ذلك انحراف عن مسار الحوار.

الثالث: الالتزام بالنقد الموضعي في المحاورة؛ بحيث يكون النقد مُنْصبّاً على المقول لا على القائل؛ والكلام عن الأشخاص لا يليق إلاّ من باب ما لا يتم الواجب إلاّ به فعندئذ يكون واجباً. فكان الرّسول (صلى الله عليه وسلم) يقول:"ما بال أقوام يقولون كذا وكذا"[2]. فالرّدّ ينْصبّ على المقالة المذمومة لا على قائلها.

الرابع: ضرورة تمييز الحق من الباطل قبل الدّخول في الحوار؛ بحيث يكون الموضوع الذي يُنَاضَلُ من أجله هو الحق وحده. الموافقُ للأدلة الشرعية، المنزّهة عن الخطإ واللُّبس. وليس على ما يقوم في الأذهان من أوهام، وهنا يظهر من يحاور من أجل قضية ثابتة، ومن يحاور من أجل الحوار، للمماطلة، وكسب الوقت. هذا، وتوجد قواعد أخرى نهتم بها – إلى جانب القواعد سالفة الذكر- عند حوارنا مع المخالف لنا في المِلّة والدين أو حتى في الثّقافة والعادات والتقاليد.

***قواعد الحوار مع المخالف**: يجب مراعاة جملة من القواعد التي يستقيم بها الحوار ويحقق أهدافه المرجوة منه؛ من هذه القواعد نذكر ما يلي:

1-**تمييز الحقّ من غيره**؛ بحيث يكون هو ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم)، أو لا يخرج عن قاعدته العامة، أي؛ تمييز الشّرع المنزّل والمؤوّل، عن الشّرع المحرَّف.

2-**حراسة طريقة الحوار**؛ فلا يصح مقابلة الباطل بالباطل ولا مقابلة البدعة ببدعة أخرى؛﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(الأنعام: (164). ولذلك كان الدعاء المأثور عن السّلف، "اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه". فليس كل ما يظهر للعيان حقاً وليس كل ما يظهر للعيان باطلاً. وصدق الشاعر إذ يقول[3]:

ترى الرجل النحيف فتزدريه   وفي أثوابه أسـدٌ هَصــــورُ.
ويعجبك الطريرُ فتبتلـــيه   فيُخْلِف ظنَّك الرجلُ الطريرُ.

1- فلوسي مسعود بن موسى ، الجدل عند الأصوليين، مكتبة الرشد، السعودية،ط1، 1424 هـ- 2003م. ص313.

2- العسقلاني ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الحديث رقم 5063 ،دار أبي حيان ، مصر . ط1 ، 1420 ه

3 -العباس بن مرداس السّلمي، تح: يحي الجبّوري، مؤسسة الرّسالة، بيروت- لبنان، ط1، 14012هـ – 1991م. ص،172-173.

3-**البدء من نقطة التقاء**: مهما اختلفت أطراف الحوار، وتباينت أفكارها، لا بد من وجود مواضع اشتراك بينها سواء في الاعتقادات، أو التصورات، أو الأفكار، أو حتى العادات، والموفَّق من اجتهد واكتشف هذه النقاط المشتركة، للدخول من خلالها إلى مواضع الاختلاف والتّباين. قال تعالى:﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آَمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:46). فالله المعبود واحد والرسالة واحدة وهي رسالة التوحيد ورسالة الإسلام.وقال أيضاً:﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:64). لا ربّ سوى الله ،فهو ربّ العباد جميعا.

"فالبدء من نقطة الالتقاء يكون بقصد تقريب الطرف الآخر إلى الحق وترغيبه فيه، وهذا يحتاج من المحاور أن يَعْلَم مراتب الحق وأولوياته والتدرّج في عرضه"[1]. ومن الأولويات، إشعار الطرف الآخر بكينونته، وبإمكان الاستفادة منه.

4-**إثارة العاطفة، وتوجيه الاهتمام، والخوف على المحاوَر**: وفي القرآن الكريم أمثلة حية تدعم هذا الأساس وتؤكده. قال تعالى:﴿" لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾الأعراف(59).وقال أيضا﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ (هود:84). وقال أيضا:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج:1). فهو يخاف عليهم من أهوال هذا اليوم الذي تشخص فيه الأبصار.

5-**التذكير بأنعم الله وآياته في الأنفس والآفاق**: قال الله تعالى﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135)﴾.الشعراء.

6-**البدء بصدمة تفيق المحاوَر**: قال تعالى:هذه الصّدمة ،تعمل في الطرف الآخر ما تفعله الصدمة الكهربائية في المريض الذي فقد وعيه وكاد يتوقف قلبه عن النّبضَان؛ فكما تعيد هذه الصدمة المريض إلى وعيه، فعساها أن تعيد هذه الكلمات الطرف الآخر إلى رشده، وحضوره. قال الله تعالى:﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65)﴾الأعراف. وقال أيضاً:﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164)﴾الأعراف.

---

[1]- الموصلي فتحي بن عبد الله ، فقه الحوار مع المخالف في السنة النبوية، الدار الأثرية، عمان، الأردن،ط1، 2007م،ص31.

7-**الدعوة إلى إعمال النظر في رفق، ومراعاة الوقت** : ففي التأنّي والتريّث وعدم التهوّر مسافة زمنية لمراجعة النفس، والاقتناع بما يطرح من أفكار، وما على الرسول إلاّ البلاغ. قال الله تعالى:﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26)﴾(سبأ). فالله سبحانه وتعالى هو الذي يتكفل بعباده.

8-**الانتهاء من الحوار عند اللّجاجة**: أما الحوار مع المتكبر، الذي لا يرى إلا لنفسه وزنا، ولا يذعن لصوت الحق، ولا يقبل بأية حجة أو دليل فهذا النوع يجب أن نوقف الحوار معه، لأن في ذلك هدر للطاقة ومضيعة للوقت. قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)﴾البقرة. وقال أيضا:﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)﴾الأنعام. وقال:﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68)﴾الأنعام. وقال:﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140)﴾(النساء).

9-**استخدام المحاور الاستفهام التقريري**: ويكون بعرض الحقائق التي لا يرفضها عاقل، ولا يتجاهلها لبيب .قال تعالى:﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9)البلد.وقال:" أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81)يس.وقال:" أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)﴾.(الطور).

10-**الأمانة، والتوثيق، وعدم التعجّل**: أي الأمانة في النّقل وتوثيق المعلومات والتأكّد من صحّتها ودقّتها، وعدم التعجّل في الجواب وإصدار الأحكام[1]. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا بقوله جلّ مِن قائل:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

[1]- الموصلي فتحي بن عبد الله، فقه الحوار مع المخالف في السنة النبوية. ص 32-33.

إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)﴾(الحجرات). فالمؤمن كيّس فطن حذر.

11-**عدم التعرّض للنّوايا والبواطن**:الحوار عملية مشتركة بين طرفين، تدور على استقصاء المعاني والحقائق، فلا حاجة لاتهام النيات ،ما دام أن الأصل في هذا الباب حمل كلام الخصم على ظاهره. وتقيم أطراف الحوار بالحكم على بواطنهم، دون النظر إلى أقوالهم وأدلتهم ومقدماتهم مسلك بغيض يعبر عن عجز وقصور وفساد في المنهج والتصور.

وهذا المسلك الشنيع المصادم لمقاصد الشريعة ،اعتمده المشركون في الطعن بدعوة النبي(صلى اله عليه وسلم).قال الله تعالى:﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7)﴾" (سورة: ص). وهذا السّلوك يبين القصد والنية غير الصّالحة في ذلك، وهذه هي ظنون السفهاء. فالمحاوِر يناقش في الأشياء الظاهرة، أما السّرائر فيعلمها الله. فالحكم على النوايا يفسد جوّ الحوار، ويفقده مصداقيته وجدواه. ويخرجه إلى المهاترة والسِّباب.فيجمل بالمرء أن يُحسِن الظّنّ بمن يحاور.

12- **تأسيس الحوار على العلم النافع**: قال الله تعالى : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. وقال أيضا: ولا ينبئك مثل خبير. وقال كذلك: هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولو الألباب. وقال الشاعر: **ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم * على الهدى لمن استهدى أدلاّء**. وقال:(صلى الله عليه وسلم): من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم.

13- **الحرص على إظهار الحق والاستعداد لتقبله:** المحاور الذي وطّن نفسه على الحق والعمل به، عليه أن يستعد لتقبل نتائج الحوار عند ظهورها، وألاّ يتعصب لرأي بل يدور مع الحق بنوعه، وأدلته، وأصوله، وجودا وعدماً[1]. فينبغي لمن لَزِمَتْه الحُجّة، ووَضُحَت له الدّلالة، أن ينقاد لها ويصير إلى مُوجِباتها لأن المقصود من النظر والجدل طلبُ الحق، واتّباع تكاليف الشرع. قال الله تعالى:﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18)﴾(الزُّمر)[2]. وفي مقام قبول الحق والانقياد له،والاستعداد لقبول النتائج أمور ثلاثة هي: - الحرص على الحق وإيثاره، يحتاج إلى عمل قلبي في إرادة الحق ومحبّته، وإلى العلم بالأدلة الشرعية، فإن فساد الإرادة والجهلَ بالأدلّة مانِعان من قَبول الحق والعمل به.

---

[1] - الموصلي فتحي عبد الله ، فقه الحوار مع المخالف.ص54.

[2] - البغدادي الخطيب، الفقيه والمتفقه ، دار ابن الجوزي، السعودية، ج2،،ط2، 1421هـ- 2010م، ص112.

من مقاصد الحوار، ردّ المحاور إلى الصواب بطريق يعرفه، لأن ردّه بغير ما يعرفه من باب تكليف ما لا يطاق[1]. إذ المطلوب هو إيصال أطراف الحوار إلى الحق بأيسر الطرق؛ لأن الأهم هو المقاصد والغايات. ولأن العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني.

– المسارعة في الرجوع عن الخطأ إذا ظهر الحق والصواب. لأن التردد والتأخر قد يضيّع المقصود؛ لأن النفس الأمارة بالسوء قد تفعل فعلها، فتذهب الحقائق أدراج الرياح. فضلا عن ذلك فإن التراجع عن الخطأ يعكس تواضع المحاور وعلوَّ هِمّته.

14– **الاحترام المتبادل بين أطراف الحوار**: ما يربط بين المتحاورين هو علاقة البحث المشترك في المسألة التي هي موضوع الحوار، لذلك يفترض ألا يكون بينهما بغضاء أو شحناء قد تدفع بتعدّي أحدهما على الآخر ماديا كان هذا التعدي أم معنويا.

– فينبغي على أطراف الحوار الابتعادُ عن لغة الاحتقار والتّعالي، واستصغار الآخر؛ تارة بادّعاء التّفوّق في العلم والفهم والرّتبة، وتارة بنِسبة الجهل والسّذاجة إلى الطّرف الآخر. ولا يتأتى هذا الخلق إلاّ باحتقار النفس والتواضع لله تعالى، ومن تواضع لله رفعه. والاحترام المتبادل بين أطراف الحوار، تظهر ثمرته في الجانب العمليّ؛ لذا ينبغي الإشارة إلى أمرين:

-**حسن الاستماع والإصغاء** للآخر. بالإقبال عليه، وعدم مقاطعته. قال ابن عباس (رضي الله عنهم:"لجليسي، عليَّ ثلاثٌ؛أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له في المجلس إذا جلس، وأن أصغي إليه إذا تحدث"[2].

وقال الحسين بن علي– رضي الله عنهما– لابنه:"يا بني!إذا جالست العلماء فكن على أن تستمع أحرص منك على أن تقول،وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثا وإن طال حتى يمسك"[3]
.

-**مخاطبة المحاوَر بأحبّ الأسماء إليه** ؛ينبغي تفخيم اسم المحاوَر وتبجيله وإنزاله المنزلة اللاّئقه به. و"يتأكد هذا الخلق في محاورة الصغير للكبير، والمرؤوس للرئيس، ونحو ذلك[4]. ويلاحظ هذا في الألقاب العلمية بحسب العرف.

---

[1] – الشاطبي أبو إسحاق ، الموافقات في أصول الشريعة، دار ابن عفان، السعودية، ط1417،1 هـ-1997م،ج4،ص335.

[2] – الدّينوري ابن قتيبة ، عيون الأخبار، ،دار الكتب العلمية ، ج1 ، بيروت. دط، 1334هـ–1925م ، ص306.

[3] – ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله.ج1،دار الكتب العلمية ،مصر، ط2 ، 1402هـ. ص306 .

[4] – الحَمَد محمد بن إبراهيم ، أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة ، دار ابن خزيمة ، الرياض.السعودية. ط1422،1هـ – 2001م،ص78.

هذا في الحوار مع الطرف الآخر بوجه عام، فما هي الشروط الواجب توفرها في طرفي الحوار حتى يكون الحوارُ بنّاء وفعّالا، لتحقيق المقاصد والغايات التي رُسِم من أجلها؟.

المبحث الثالث: *شروط نجاح الحوار، ومعيقاته.

***شروط نجاح الحوار**: لكل حوار ناجح جملة من القواعد المهيكلة له، أو جملة من الشروط نذكر منها ما يلي:

***التكافؤ المادي والمعنوي، مع مراعاة مصالح المتحاورين**: من الطبيعي لأي حوار يدور بين اثنين إذا أراد النجاح والوصول إلى نتيجة ترضي الأطراف المتحاورة أن يتوفّر فيه ما يلي:

-أن يكون الحوار متكافئاً ندِّيًّا، تتوفر فيه شروط المساواة والإرادة المشتركة، بحيث تتعدد مستوياته ليكون حوارا شاملا يدور مع مختلف الشرائح والفئات الاجتماعية، والمؤسساتية إن في القاعدة، وإن في قمّة الهرم. ممّا له علاقة وطيدة بالقضايا المركزية والمصيرية التي تهمّ الأمة.

– أن يهدف الحوار إلى تحقيق المصالح المشتركة للطّرفين، التي لها علاقة بالحياة اليومية للأفراد والجماعات، من الناحية العلمية والفكرية والاقتصادية والثقافية.

-أن يكون الحوار متحضرا ومترفعا عن الموضوعات التي تتعلق بالخصوصية العقائدية والأخلاقية للأمم والشعوب؛ والتي من شأنها ـ إذا أثيرت ـ أدّت إلى إيقاف الحوار، أو عدم فاعِليّته .

-أن يكون الحوار مُعَدّاً وِفق برامج مُسْبقة، يكون الغرض منها التواصل والتفاهم، لتحقيق التفاعل، بعيدا عن فكرة الصراع أو التصارع، والنزاع أو التنازع المقيت[1].

والملاحظة التي سجلت في السنوات الأخيرة من الحوار الحضاري مع الآخر، أشارت إلى حالة عدم التكافؤ في فرص الطرح والمعالجة– "لأن العا لم اليوم تسوده حضارة واحدة، أو حضارة فردة ، فكيف يمكن أن يحصل حوار في مثل هذا الواقع الراهن؟"[2]، الأمر الذي يدعو المتحاورين إلى مراجعة في الصيغة وفي الموضوع، بما يضمن تحقيق التكافؤ بينهما مستقبلا، وصولا إلى نتائج تلبّي الأهداف والمقاصد المشتركة التي تتطلع إليها الإنسانية جمعاء.

وحتى يتحقق التكافؤ بين أطراف الحوار، يجب امتلاك كليهما للقوة المادية والمعنوية، حتى تتساوى الشروط بينهما، ويكون الحوار مثمرا وفعّالا ومجديا، أما عندما تختل هذه القوة، يختل التوازن بين الطرفين ويفشل الحوار، ولا يؤدي إلى نتيجة ترضي جميع الأطراف، لأنه في هذه الحال ؛ تتغلب كفّة طرف على طرف آخر، وتطغي مصلحة أحدهما على الآخر، مما يولّد النزاع والشقاق واستغلال الواحد منهما للآخر، فتصير العلاقة بينهما علاقة عبد

1- الهيتي عبد الستار ، الحوار؛ الذّات .. والآخر، كتاب الأمة ، العدد 99، الدّوحة- قطر، ط1، 2004 م، ص152-153.

2 – عبد الرحمن طه ، الحوار أفقاً للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2013م، ص181-182.

بسيّده، الواحد يملي والآخر ينفّذ، فيفقد فيها طرف من الأطراف حريته الفكرية وثقته في نفسه، وبالتالي يكون صدىً لآراء الآخرين؛ لأنه لا يملك الإرادة، ولا يملك الحرية. والخطر الكامن في هذا الحوار؛ هو تحوله إلى ميدان افتراس يتربّص فيه أحد الطرفين بالآخر لينتقم منه، مما يوسّع الهوّة والفجوة بينهما، ونتيجته الصّراع والصّدام.

لكن الإعداد للقوة المادية والمعنوية كفيل بأن يجعل الحوار، حوارا بنّاءً، هادفا، ذا مقاصد وغايات نبيلة، ولذلك أمر الله المؤمنين في القرآن الكريم بأن يُعِدّ المؤمنون العدّة؛ حيث قال جلّ شأنه :﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(الأنفال: 60) وقال في آية أخرى :﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(الأنفال: 61)؛ فالجنوح للسّلم لا يكون إلاّ من موقع قوة، لا من موقع ضعف. وإلاّ لكان هذا الجنوح تنازلا واستسلاما، يتحول على إثره الحوار إلى مفاوضات يكسب فيها الطّرف القويّ، يساوم ويبتز الطّرف الآخر الضعيف.

فالتكافؤ والنّدّية، يفرضان على المتحاورين أن يتحاورا من أجل المصلحة العامّة لا من أجل المصلحة الخاصة، ولتحقيق المصلحة العامة يجب امتلاك الطرفين لقدرة معرفية عميقة بالعَالم والإنسان، القدرة التي تمكن صاحبها من تأمين حصول الفعل الأخلاقي وضمان تطوره في عملية الحوار[1]. فما هذا الفعل الأخلاقي الذي يعطي الحوار قيمَتَه ومعناه، ويحقق أهدافه ؟. إنه يُختصر في قانونين هامّين هما :

1-**قانون التّعارف** : هذا القانون يحقق الغاية التي من أجلها خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وجعله خليفته في الأرض وهذا مصداقا لما ورد في قوله تعالى في الآية الكريمة :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(الحجرات: 13). ومعنى هذا أن كل حوار مفيد لا يكون إلا بكلام فيه معروف، أي فيه خير وفائدة وجدوى، إذ لا تعارف من دون معروف . "ولولا هذا القانون الأخلاقي الكوني لما نجم عن التواصل والحوار ما نشاهده ونعيشه من مظاهر التطور والرقي، في جوانب عديدة من حياة الإنسان"[2]. هذا القانون الذي صار يفرض نفسه أكثر من أي وقت مضى، على الأفراد والهيئات والتنظيمات والدول والشعوب، فهو السبيل إلى ترقية الإنسان، وإزالة الأدران التي تتسبب في كثير من الحروب والويلات المدمرة، والصراعات الهامشية. هذا ما يتعلق بالقانون الأول. أمّا القانون الثاني فهو:

1- عاشير عبد السلام : الكفايات التواصلية، اللغة وتقنيات التعبير والتواصل، منشورات Top Edition، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007م، ص44.

2- المرجع نفسه، ص44.

2-**قانون الاعتراف** : إنّ كلّ نُكران لهذا القانون يولّد في الإنسان مشاعرَ الغضب والكراهية التي تنعكس بجلاء على عملية الحوار والتواصل والفعل، فالتعارف كما أشرنا إليه سلفا يقتضي الاعتراف، والاعتراف ليس مجرد مجاملة نتبادلها أو أدب نصطنعه (رياءً ونفاقا) وإنما هو خاصية وصفة خلقية إنسانية، يجب أن نتحلى بها ونؤمن. فمتى تحققت أهداف هذا القانون التخاطبي، التحاوري، التواصلي، الفعلي، انفتحت طرق المعاملة بالحسنى أمام الطرفين المتحاورين، ونشأت بينهما روابط الاحترام والتسامح والتعاون والتوادد والتّقارب. "وتكون هذه الروابط سدّا منيعا أمام موجات الغضب ونزَعات الذات المنفلتة، وتجعل كل واحد يعتبر نفسه في الحوار بمثابة الآخر، فيبدي له ما ينبغي من الاحترام والتقدير، كما لو كان هو المبادَر بالكلام"[1]. وصدق أبو تمام في وصفه لهذه الحال بقوله:[2]

مَن لي بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم جـــــوابه

وإذا طربت إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابـه

وتراه يصغي للحديث بقلبه وبسمعه ولَعـــــــلّه أدرى به.

* **قواعد تداولية مهيكلة للحوار**: لكل عملية حوارية هندستها الخاصة، لذلك فلا مراء في أن تقيد بقوانين أخلاقية، من شأنها أن توجه أطراف الحوار إلى احترام مجموعة من القواعد والضوابط التداولية والمعرفية الآتية:

1-**قاعدة المعرفة بموضوع الحوار**:وتسمى في قاموس التداولية بالافتراض المسبق،وفي المبدأ "الغرايسي" تسمى قاعدة العلاقة، ويندرج هذا ضمن السياق العام لسريان الحوار، وضمان استمراريته،إذ إن امتلاك معرفة كافية بالواقع وبالمخاطب، وبالظروف والملابسات المصاحبة للحوار وبالعا لم المحيط به، تمكن المتحاورين من معرفة كيفية بدء الحوار، وكيفية الخوض فيه، وكيفية الانتهاء منه، في وضوح الرؤية، وهدوء الفكر، وقوة الحجة، ووداعة الكلمة، وانشراح الصدر، مما يكسبه ثقة الآخر. وكل جهل بموضوع الحوار، يحول الحوار إلى حلبة للصراع والشتائم كأسلوب يغطي به كل طرف ضعفه وعجزه[3].

2-**قاعدة الاختلاف الإيجابي والبنّاء**: يحدث الاختلاف عادة من كون كل واحد من المتحاورين يعتقد أنه مالك للحقيقة وحده، متجاهلا أن ما اعتقده هو عبارة عن تأويل من التأويلات المتعددة للحقيقة. والحوار الحقيقي هو

1- عاشير عبد السلام، الكفايات التواصلية، ص44.

2 - التبريزي الخطيب، شرح ديوان أبي تمام، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط2، 1414هـ- 1994م،

3- عاشير عبد السلام، الكفايات التواصلية، ص45.

الجامع لما تبعثر من الأفكار والآراء، وما اختلف فيه أصحابه من وجهات النظر، فيعمل على تقريبها، وتحقيق نوع من الاتفاق والانسجام مع بعضها ولو مرحليا[1].

وبقدر ما كان الاختلاف في سياقات الحوار ومقاماته، كانت للحوار فائدة، وهذا ما يعني من الناحية التداولية إقرار كل من المتحاورين بالخصوصية الثقافية والمعرفية والفكرية لكل واحد منهم، وهذا من شأنه أن يدفع كل واحد إلى المزيد من التعاون، حتى يتعرف كلٌّ على ما عند الآخر، مما يتفرد به من دونه.

3-**قاعدة العقلانية المتخلقة** : يتطلب كل حوار مفيد التقيد بآليات استدلالية، تقوم على منطق الفكر المتخلق ذي التفكير السليم، الذي يعمل على إقصاء العناصر التي تحدث تشويشا على موضوع الحوار، وهو ما يستدعي بداية طرح أسئلة تحول دون الخروج عن سكة الحوار وعن الغايات والأهداف المرسومة له سلفا، من هذه الأسئلة ما يلي:"إلى أين ستقود هذه الفكرة ؟ وماذا تعني في سياق الحوار؟ وماذا يستفيد منها الموضوع والمجتمع؟ وما قيمتها في سياقها الحالي والمستقبلي؟ وما مدى ملاءمتها؟ وما هي الآفاق التي ستحققها؟ وما هي المعيقات التي ستواجهها؟"[2].

4-**قاعدة الملاءمة**: إن نجاح الأفكار في الحوار بشكل عام يتوقف على الاهتمام بالسياقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمتحاورين. ويبقى مقياس الملاءمة رهيناً بما تتركه من آثار على تطوير موضوع الحوار، والمساهمة في إيجاد الحلول الناجعة.

5-**قاعدة التّكامل بين الجزئي والكلّي**: من القواعد الجوهرية التي يقتضيها كل حوار جاد وهادف، قاعدة استخراج الكلي من القضايا الجزئية، حتى يمكن توحيد المجهودات والآراء والأفكار، وضمان تكاملها ليسهل الاقتناع بها ويتيسر تحويلها إلى عمل .

6-**قاعدة توجيه الحوار نحو الممارسة والإنجاز**:كل حوار كائنا ما كان نوعه يتوخى في حقيقته ترجمة خلاصاته وقراراته على أرض الواقع، أو كما يقول الشّاطبي: "مقصود الكلام ليس هو نفس التعقل، بل الانقياد إلى الأفعال، وتقويم السلوك"[3]، ولذلك ينبغي أن يعمل المتحاورون على توجيه تدخلاتهم نحو حصول عمل أو الإعداد له، عن طريق التأثير في الذهن بالوسائل اللغوية والاستدلالية والمنطقية. لكن قد يعتري الحوار أحوال وظروف، تعيق سيره

---

[1]– ينظر المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[2] – ينظر: عشير عبد السلام ،الكفايات التواصلية، ص46.

[3] – الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة،ج3، دار المعرفة، بيروت، ص53.

بكل عقلانية وهدوء، مما يدفع بالمتحاورين إلى الخروج عن أخلاق الحوار، وافتقاد البوصلة التي تؤدي إلى تحقيق الأهداف المرسومة له سلفاً. هذه العراقيل يمكن أن نطلق عليها اسم معيقات الحوار، ففيم تكمن وتتلخص؟.

***معيقات الحوار** : عملية الحوار ليست عملية سهلة، خاصة إذا كنا نعتقد أن الحاجة إليها تكون من منطلق الاختلاف، وحاجتنا إلى التحاور تكون انطلاقا من مسألة مُختلَف حولها، واستدعاء لطرف آخر خارجٍ عن الذات، ومنفصلٍ عنها وهو من الأغيار، فالمجيء إلى الحوار وعالمه هو مجيء إلى عالم الأغيار والاختلاف، لذلك تعترض الحوار جملةً من العوائق والصعوبات الذاتية منها والموضوعية.

* **المعيقات الذاتية:**

1 – **التعصب للفكرة المسبقة:** لا بد من تخلي المحاور عن التعصب لأمر سابق، وأن ينشد الحقيقة مجردة من كل خلفية أو حكم مسبق. وأن يكون متحررا من ذاتيته وهواه، وأن يسلم بالخطأ، ولا يشعر بعده بالحرج، لأن في ذلك تواضعا للعلم، وخلقا في الحوار، وشجاعة أدبية، وقوة نفسية في المواجهة. تشعر المحاور بنشوة تضاهي في حلاوتها حلاوة الفوز والنصر.

إن التعصب للفكرة، يفقد الإنسان احترام الناس، واحترام نفسه، ويعمي بصر صاحبه وبصيرته، فالمتعصب لا يتبع الدليل، وإنما يتبع ما يتعصب له حتى إن خالف الحق. لأن المتحاور الناجح، صاحب شخصية سوية لذلك، فهو لا يتعصب لرأي، ولا يقدس الأفكار، بل يحترمها؛ ويقف عند الأدلة المثبتة، والحجج القوية، والبراهين الساطعة؛ عاملا بالمثل القائل، لا قداسة لفكر بشر ولا تجاوز له إلاّ بدليل. فالرأي الصواب هو الذي تؤيده الحجة، ويعضده الدليل، وتؤكده الأمثلة الحيّة في واقع الحال.

2 – **الثرثرة** : وهي الرغبة في الكلام من أجل الكلام، دون هدف محدد. يقصد الثرثار من خلالها إلى إبراز شخصيته وفرضها على الغير، وهي صفة من صفات الجاهل الذي إذا تحدث في مجلس تبسّط. هذا الثرثار الذي يحكم على الطرف الآخر بعقوبة الإصغاء، لكلامه التافه، الذي يبعد الحقيقة ويبتعد عنها ويخرج بالحوار عن الموضوع وأصله، فيصير الحوار معه غير مجد ولا مفيد. والبلاغة العربية تقول : خير الكلام، ما قل، ودل، ولم يمل. والثرثرة تبدي المساوئ والعيوب، وصدق الشاعر إذ يقول[1]:

خلّ جنبيك لِـــــرامٍ   وامضِ عنه بســـــلام .

---

[1] - أبو نواس الحسن بن هانئ، ديوان أبي نواس، دار صادر، بيروت- لبنان، دط،دت. ص587

مُت بداء الصّمت خير   لك من داء الكـــلام.

فالثرثرة تدل على عدم اكتمال العقل ونضجه، وهي سلوك لا يخدم الحوار لا في موضوعه ولا في غاياته وأهدافه.

3-الإطناب في الكلام : وهو الاهتمام بالصياغة اللفظية والشكل على حساب المضمون. مما يسبب الملل، ويتعب السامع في فهم المقصود وإدراكه[1]. فالإطناب وإن كان يخص عالم الأدب فإنه لا يلائم العلم .

4-اللّف والدّوران : وهو الكلام في أمور جانبية، لا علاقة لها بموضوع الحوار. والغرض منه التهرب من الحقيقة، وعدم الاعتراف بها. وعلى المحاور أن يعيد هذا الآخر إلى الحقيقة وموضوعها، وأن يكفه عن إضاعة الوقت بمثل هذه التصرفات والسّلوكات. لأنها تؤثر سلبا على مجريات الحوار وطبيعته ومنهجيته[2] .

5-عدم الوضوح في العَرْض : ويكون ذلك عندما يلجأ المحاور إلى الغموض والإبهام لكي يُشعِر الآخرين بأهميته الفكرية، أو لزيادة وزنه الثقافي دون وجه حق. وهذا النهج يشبه كثيرا اللف والدوران من حيث الهدف، ولكنه يختلف عنه من حيث الوسيلة والشكل، لأن من يفتقر إلى العمق في التفكير أو الكثافة في المعلومات هو الذي يلجأ إلى العرض المبهم الذي يثير اللبس والشكوك .

إن الغموض العلمي نوعان، **الأول**: غموض، ناتج عن عمق الأفكار وقوة الرأي، من خلال عرض الجوانب غير البارزة والتي تحتاج إلى شيء من التفكير لإدراكها وتصورها، وهذا هو الفكر الفلسفي الذي يَعني الغور في دهاليز الفكرة وزواياها المتعدِّدة. و**الثاني**: غموض مفتعل، يلجأ إليه العاجزون عن تقديم المعلومة مِن أنصاف المتعلمين الذين تخيّل لهم عقولُهم أنهم على درجة كبيرة من العلم والإدراك، فيحاولون امتطاءِ الإبهام والغموض لتغطية عجزهم وقصورهم العلمي. وهذا النّفر من الباحثين والكتّاب، يصعب على المحاور الموضوعي والعالم أن يتحاور معهم، لعدم مَقدِرتهم على عرض أفكارهم بوضوح وجلاء، فالأفكار إما أن تكون محددة وجليّة، يمكن التعامل معها وإجراء الحوار فيها، وإما أن تكون غامضة غموضا مفتعلا، وعندئذ تصبح غيرَ قابلة للحوار العلميِّ الفعال، وفي هذه الحال تصبح عائقا من معوقات الحوار.

6-غياب الأدلة والبراهين: ونعني بذلك: إطلاق الكلام من دون أدلة وبراهين، ومن غير مستند علمي أو حجة منطقية. إن الأدلة والبراهين تعد بمثابة ضوابط نظامية للفكرة أو الرأي تحوله من كلام عادي، إلى معلومة حقيقية

1- الهيتي عبد الستار، الحوار؛ الذات .. والآخر، كتاب الأمة، العدد: 99. الدوحة- قطر. ط1 ، 1425 هـ-2004م ، ص90-91.

2- المرجع نفسه ،ص91.

تعتمد على دليل عملي، وبرهان منطقي. فإذا غابت تلك البراهين كان من حق المحاور أن يطالب الطرف الآخر بما يدعم أفكاره ويؤيد آراءه، لكي تتم المحاورة على أرض صلبة من الحقائق والوقائع[1].

7-إخفاء الحقيقة : ويتم ذلك من خلال التستر على جزء من الحقيقة لأغراض التعمية على الطرف الآخر والتضبيب عليه. فقد يعمد بعض المتحاورين إلى عدم ذكر جميع عناصر الموضوع وحيثياته، حتى لا ترى الفكرة بوضوح، ولا تدرك عناصرها الداخلية بدقة. إن هذا الأسلوب لا يؤدي إلى إقامة حوار علمي، لأنه يفتقد إلى أخلاقيات المهنة التي تتطلب الدقة والأمانة العلمية . إن الكلام في العموميات يضفي على الحوار نوعا من الغموض، فتضيع الفكرة الصادقة، وتختفي المعلومة الدقيقة، ومن هنا فإن إخفاء الحقيقة أو جزء منها يكون عائقا من معيقات الحوار، وعاملا من عوامل فشله[2].

8-الغضب والانفعال: ويعني ذلك أن يتحلى المحاور برباطة الجأش وهدوء الأعصاب، والسيطرة على انفعالاته لأن الهدوء يعد من الأمور الضرورية لتحقيق مناخ طبيعي للحوار والمناظرة.

إن الحوار العلمي العملي بحاجة قصوى إلى ضبط النفس، والتحكم في الأعصاب والهيمنة على الانفعالات، وهذا لن يتحقق في حالة غضب المحاور أو انفعاله دون مبرر، ومن هنا يتحتم على طرفي الحوار، أن يوقفا حوارهما ويؤجلاه إلى وقت آخر، ريثما تبرد الأعصاب، وتهدأ الخواطر، وتزول الانفعالات.

9-التعصب الشديد: ويعد هذا أشد معيقات الحوار وأكثرها ضررا، ذلك أن المعيقات الأخرى قد تكون مما يمكن معالجتها، أو التغلب عليها، أما التعصب فهو آفة فكرية واجتماعية، يصعب السيطرة عليها أو معالجتها.

إن الحوار مع المحاور المتعصب لأفكاره والمتمسك برأيه، يحول جو التحاور إلى مناخ مشحون بالتفكير العقيم البعيد عن الموضوعية، لأن المتعصب يكون جامدا عند أفكاره، رافضا لكل فكر نقيض، إذ هو يستخدم مفاهيم غير مقبولة في الأفكار الأخرى كما أنه يستعمل معايير ومقاييس خاصة به، لا تلقى قبولا إلا في ظل فكر المتعصب ورأيه.

ومن المنطقي أنه إذا أصر المحاور على رأيه، فليس هناك مجال لاستمرار الحوار معه، بل يصبح من الضرورة قطعه أو تأجيله، لأنه لا طائل من الحوار مع هذا الصنف من المتحاورين. ولابد من الإشارة إلى أن التعصب إنما يكون سببه الاستبداد بكل أنواعه، وانسداد قنوات التواصل بين المتعصب ومحيطه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. هذا بالنسبة للمعيقات الذاتية.

---

[1]- المرجع نفسه، ص93.

[2]- الهيتي عبد الستار، المرجع السابق، ص 94-94.

*المعيقات المعنوية :

1-الوقوع في التناقض: وهو ألا يكون في الدعوى أو الدليل الذي يقدمه المحاور تعارض واضح، أو يكون بعض كلامه ينقض بعضه الآخر، فإذا كان كلامه كذلك ،كان ساقطاً وفكرته لاغية. لأن التناقض يجعل من المحاور فريسة سهلة لغريمه وخصمه. فيدينه في غير ما مشقة وعناء.

2-اتهام النيات: من أخطر آفات الحوار: أن المتحاورين إذا اختلفا ولم يتفقا في مسألة من المسائل، سارع أحدهما إلى اتهام نية صاحبه، وطعن في مقصده. وهذا مزلق خطير يمليه في أكثر الأحوال التعصبُ المذموم. وتحويل الحوار قبل بدايته إلى تهمة، يعوق المحاور عن الدراسة الواعية والقراءة الفاحصة الناقدة، وهو ضرب من ضروب الحصار الفكري على المخالف، وقطع لكل أبواب التفاهم وقنوات الاتصال، وإنهاء للحوار الذي بدأ بين الطرفين.. **!!**

ونظير هذا: ظاهرة التصنيف الفكري والحزبي، السائدة في أوساط العمل الدعوي والسياسي. فالحوار يبدأ بالتصنيف وعندها تفسر الأقوال والأفعال بناء على الخلفية الفكرية أو الحزبية، حتى لو كانت لا تدل على ذلك. ومن الطرائف أن بعض الأجلاء سئل عن كتابات أحد الباحثين المعاصرين؟ فأثنى عليه خيرا، وقال: قرأت كتبه فوجدتها قوية صافية. فاستدرك عليه أحد الحضور بقوله: لكنّه ينتمي إلى الأجلاء الفلاني.. **!!** فارتبكت كلمات الرجل، وقال عجلاً: إذا كان الأمر كذلك فاتركوا كتبه واحذروا منه.. **!!** ومن قواعد الإسلام البيّنة: أن علم القلوب عند الله وعلى النّاس ألا يأخذوا إلاّ بالظواهر، فلم يؤمروا بالتفتيش عن أفئدة العباد[1] .

عن أسامة بن زيد(رضي الله عنه) قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلا، فقال:"لا إله إلا الله" فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" أقال لا إله إلا الله وقتلته؟!"فقلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفا من السلاح **!!**، قال:"أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا !". فما زال يكرّرها، حتى تمنّيت أني أسلمت يومئذ"[2]. وفي حديث أبي سعيد الخدري(رضي الله عنه) في ذكر أوصاف الخوارج: قال خالد: وكم من مصل يقول

---

[1] -ينظر: أحمد بن عبد الرحمن الصويان، الحوار؛ أصوله المنهجية وآدابه السلوكية ، دار الوطن، ط1 ، 1413هـ ،ص115.

[2] -أخرجه: البخاري في: كتاب الديات، باب قول الله تعالى:"ومن أحياها.." (12-191) ومسلم في كتاب الإيمان، باب التحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله(1-96) واللفظ له.

بلسانه ما ليس في قلبه؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس، ولا أن أشق بطونهم"[1].

3-**الضوضاء والتشويش**: ويحصل بسبب قاعة المحاورة من قبل الأشخاص الحاضرين فيها أو من خلال تدخلات من هنا أو هناك تؤثر على سير المحاورة وربما تكون قاعة الحوار غير مهيأة بسبب خلل في الأجهزة الصوتية أو التصويرية أو التكييف فتحدث الضوضاء بكلام خارج عن الموضوع[2].مما يؤثر سلبا على عملية استمرار الحوار ومما لا شك فيه فإن واحدا من هذه الأسباب التي ذكرت يعد معوقا للحوار ويؤثر على سيرورته ونتائجه تأثيرا مباشرا .

4-**تباين المفاهيم**: يتطلب الحوار أن يقوم كل طرف بتحديد مفاهيمه فبل الدخول في صلب المحاورة وجوهرها، ولكي يتمكن الطرفان من معرفة أسلوب تفكير بعضهما والغايات الفكرية والعلمية التي يسعى إليها الطرفان.

إن لكل علم مفاهيمه الخاصة به، ولكل فن مصطلحاته المميزة، ومن هنا فإن كل مصطلح يختلف مضمونه من علم لآخر، يضاف إلى ذلك أن بعض الباحثين يلتزم معاني خاصة، ومفاهيم محددة لبعض المصطلحات، لذلك فإن مجموع هذه المداخلات تتطلب أن يقوم كل طرف بتحديد مفاهيمه ومصطلحاته حتى لا يكون التباين في ذلك مؤثرا سلبيا على سير عملية الحوار واستمرارها[3].

5-**اختلاف الأجيال**: إذا استند الحوار إلى أسس موضوعية ، وجرى الالتزام فيه بأخلاقيات الحوار العلمي وآدابه، كان ذلك الحوار مفيدا ونافعا لجميع الأجيال والمستويات الثقافية، حيث يزداد كل جيل منه معرفة ومعلومات وخبرات، أما إذا كان حوارا منعزلا، قائما على تبادل الاتهامات، وعدم الشعور بالمسؤولية، فإن هذا الحوار لن يتعدى مجال الاتهامات، ومن الصعوبة عليه أن يتجاوزها. إن تباين عقلية الأجيال، واختلاف مصالحها، وتباعد فلسفاتها نحو الحياة، وعامل السّن، يجعل من الحوار بين المتحاورين وكأنه معركة بين متحاربين، كل منهما يحاول إخماد أنفاس الآخر والتغلب عليه، وهذا ما يعني أن الحوار بات في بؤرة خانقة، ومناخ سقيم، لا يستطيع بناء تواصل علمي ومنطقي سليم[4]. فضرره أكبر من نفعه، وإيقافه أفضل من الاستمرار فيه.

---

[1] -أخرجه: البخاري في كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد(رضي الله عنهما) (08-67). ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم(02-742).

[2] – الهيتي عبد الستار، الحوار؛ الذات...والآخر. ص95.

[3] – المرجع نفسه، ص96.

[4] - المرجع نفسه، ص96

هذا بالنسبة للحوار بوجه عام، فماذا عن الحوار القرآني ؟الذي تتجسد فيه بلاغة التواصل ، الذي يجب أن نأخذ به لتحقيق الغاية من خلق الله للأمم والشعوب، ألا وهي التعارف أولاً، وتحقيق المصالح وفق مقتضيات الشرع ثانيا، إلى تحقيق العبودية له ثالثا،قال الله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:56).

هذا عن الحوار ومفهومه وأنواعه وشروط نجاحه ومعيقاته. فماذا عن مفهوم الخطاب عموما وعن خصائص الخطاب في القرآن الكريم على وجه التّحديد؟، وما علاقة الخطاب بالحوار في القرآن الكريم؟، وما هي مقاصد الخطاب القرآني العامة؟ ذلك ما سنتطرق إلي في الفصل الثالث الآتي...

الفصل الثالث: *الخطاب القرآني، مفاهيم نظرية.

المبحث الأول:مفهوم الخطاب في المعاجم العربية، وفي المفهوم الغربي.

المبحث الثاني:مصطلح الخطاب، وأَوْجُهُه في القرآن الكريم.

المبحث الثالث:علاقة الحوار بالخطاب في القرآن الكريم.

المبحث الرابع:المقاصد العامة للخطاب في القرآن الكريم.

المبحث الأول*مفهوم الخطاب في المعاجم العربية، والقرآن الكريم.

* **مفهوم الخطاب بين اللغة والاصطلاح**: لقد وردت لفظة الخطاب في المعاجم العربية للدلالة على الكلام الذي يجري بين اثنين،[1] ويدل جذره اللغوي – وهو الخطب – على الأمر الجليل الذي يكثر فيه التخاطب[2]، ويؤكد ذلك الاستخدام القرآني، إذ لم يرد–الخطب– فيه إلا مقترنا بشيء خطير يحمل معه دلالات الهلاك، والإنذار، والسلوك الشاذ. مثل ما ورد قي قوله تعالى في الآيات الآتية:﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95)﴾ (طه). وقوله:﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57)﴾ (الحجر). وقوله:﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23)﴾ (القصص). وقوله:﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51)﴾ (يوسف). وقد ورد لفظ الخطاب في"المعجم الوسيط" لشوقي ضيف كالآتي: :

(خطب) النّاسَ، وفيهم ، وعليهم، خطابةً ، وخطبة؛ ألقى عليهم خطبة.(خطب)، خُطَبا، وخُطبة : كان في لونه خطبة، فهو أخطب، وهي خطباء.(ج) خطب .(خطب) خطابة : صار خطيباً .(أخطب) خطب. وخطب فلاناً : أجابه إلى خطبته. وخطب الشيء فلاناً : دنا منه وأمكنه. ويقال : أخطبه الصّيد .

(خاطبه) مخاطبة، وخطابا: كالمه وحادثه. ووجّه إليه كلاما. ويقال خاطبه في الأمر: حدّثه بشأنه.(خطبه) أخطبه.وعند المنطقيّين: قياس مؤلف من المظنونات أو المقبولات[3].(الخطاب)؛ الكلام. وفي التنزيل العزيز:﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾(ص:23). وفصل الخطاب؛ ما ينفصل به الأمر من الخطاب. وورد في التنزيل:﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾(ص: (20)."أي ؛الحكم بالبينة،أو اليمين ،أو الفقه في القضاء ،أو النطق ب" أما بعد". أو أن يفصل بين الحق والباطل، أو هو خطاب لا يكون فيه اختصار مخل، ولا إسهاب ممل. والخطب : الأمر يقع، وإنما سمي بذلك لمِاَ يقع فيه من التخاطب

---

[1] – ابن فارس أحمد، مقاييس اللغة ، تح: محمد هارون، دار الجيل، بيروت ، لبنان، ط2، 1991م، ج2، ص198 ./ وابن منظور، لسان العرب، مادة (خ ط ب)، ج1–ص360.

[2] – الأصفهاني الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ص286.

[3] - شوقي ضيف، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر. ط4، 1425هـ- 2004م، ص242–243.

والمراجعة. نجد أيضا في معجم"لسان العرب": خطب، الخطبُ : الشأن والأمر، صغُر أوعَظُم ومنه قولهم: جلّ الخطْب أي؛ عظُم الأمر والشّأن .

والخِطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام. والخطبة مصدر الخطيب، وخطب الخاطب على المنبر، واختطب يخطب خطابة، واسم الكلام: الخطبة : والخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر. وقال بعض المفسرين في قوله تعالى:﴿... وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾؛ هو أن يحكم بالبيّنة أو اليَمين، وقيل: معناه؛ أن يفصل بين الحق والباطل، ويميّز بين الحكم وضدّه، وقيل: فصل الخطاب، "أمّا بعد": وداود عليه السلام، أوّل مَن قال: أمّا بعد، وقيل: فصل الخطاب؛ الفِقْهُ في القَضَاء.

*__مفهوم الخطاب اصطلاحاً__: أما الخطاب اصطلاحا، فقد اقترن في الثقافة العربية بعلم الأصول، وهو حقل معرفي خصب، تظافَر على إثرائه تداخلُ الرُّؤى والمواقف، وكثرة الاستنتاج والتأويل، في مجال النّص الدّيني. وقد اتصل مفهوم الخطاب عند الأصوليين بكلام الله الذي عُدَّ خطاباً إبلاغيا وجماليا، يُوجَّه إلى المتلقّين في صورته اللفظية القائمة على ضرب من التأليف، يُقصد منه الإفهام والتأثير.

*__الخطاب عند التهانوي__:عرّف التّهانوي الخطاب تعريفا اصطلاحيا فيه كثيرٌ من الدقة والوضوح، فيقول:"الخطاب هو اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيِّئٌ لفهمه"[1]. فاحترز باللفظ عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة، وبالمتواضع عليه من الأقوال المهملة، وبالمقصود به الإفهام ،عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابا، وبقوله لمن هو متهيئ لفهمه،عن الخطاب لمن لا يفهم...والكلام يطلق على العبارة الدالة بالوضع على مدلولها القائم بالنفس،فالخطاب إما الكلام اللفظي، أو الكلام النفسي الموجه به نحو الغير للإفهام."

إن مفهوم الخطاب عند التّيهانوي، يكشف عن هيمنة العلامة السمعية، وعلوّ شأنها في الثقافة العربية الموروثة، على حساب العلامة البصرية(المرئية)، وذلك من خلال ربطه الخطاب بالكلام"[2]. ويقتصر الخطاب عنده على الألفاظ المخصوصة بضرب من التركيب الذي جرت المواضعة عليه، حينما أخرج الإشارة والإيماءة والحركة من دائرة الخطاب، فضلاً عن مراعاته للإشكالية حول طبيعة كلام الله، بتأكيده الخاصية النفسية(المعنى النفسي)،بجانب الخاصية اللفظية،ليشمل المصطلح الكلام الإلهي أيضاً.

---

1 - صالح ملا عزيز، جماليات الإشارة النفسية في القرآن الكريم، دار الزمان للطباعة والنشر، دمشق، سوريا،ط1،2010م. ص42.

2 – المرجع نفسه، ص42.

ولقد استخدم لفظ الخطاب كثيرا في عدة جوانب ، كالخطاب الثقافي، الخطاب النفسي، الخطاب التعليمي، الخطاب الصحفي، الخطاب الأدبي، الخطاب الاجتماعي، الخطاب التاريخي لذلك تنوع الحطاب بتعريفات مختلفة في هذه الميادين العديدة، بتحديده فعلا يقترن بين القول والعمل وهي من سماته الأصلية، ونجد لفظ الخطاب متداولا عند العرب، كما ورد أيضا عند الغربيين، مع تفاوت طفيف أو تقارب في معناه.

* **مصطلح الخطاب في القرآن الكريم**: جاء لفظ الخطاب في القرآن الكريم بمعنى الكلام الواضح والبيان الفاصل بين الحق والباطل. وذلك في قوله تعالى ذاكرا نعمه على نبيه داود "عليه السلام":﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾(ص .20).وجاء الخطاب بمعنى المحاججة في الكلام للدفاع عن النفس كلما استدعى الأمر ذلك،في قوله تعالى:﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾(ص: 23). وفي قوله تعالى أيضاً:﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (النبأ: 37).

لقد وردت مادة (خطب) في القران الكريم في تسعة مواضع، تارة بلفظ الخطب (أربع مرات)، وتارة بلفظ المصدر، (ثلاث مرات)، وتارة بصيغة الفعل (مرتين)، ومن أمثلة ذلك: نجد في لفظ الخَطْب قوله تعالى : ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31)﴾"(الذّاريات :31)، أما الخطاب، بصيغة الفعل فورد في قوله تعالى:﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (الفرقان : 63).

*مصطلح الخطاب عند المفسرين: اعتبر الرازي صفة فصل الخطاب، من الصفات التي منحها الله سبحانه وتعالى لداود، والتي تعتبر من علامات حصول قدرة الإدراك والشعور، التي يختص بها الإنسان دون غيره من الكائنات. غير" أن طريقة التعبير تختلف بين الناس في مراتب القدرة في الضمير، فمنهم من يصعب عليه الترتيب من بعض الوجوه، ومنهم من يكون متمكنا على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى أقصى حد، وكلما كانت هذه القدرة أكمل كانت الآثار الصّادرة أعظم، وكلما كانت أقل، كانت الآثار أضعف؛ كون هذه القدرة قادرة على التعبير عن كل ما هو في البال، بحيث لا يجب الخلط بين شيء وشيء آخر" .

*مصطلح الخطاب عند الأصوليين: حيث يعتبرون أن الخطاب هو الأرضية التي استقامت عليها أعمالهم، بل كان هو محور بحثهم، إذا أنهم استخدموا مادة (خطب) في الكثير من الاشتقاقات، وذلك في مواضع متنوعة ومن بينها: إيرادهم لاسم الفاعل (مخاطب)، واسم المفعول (مخاطب)، بوصفهما طرفي الخطاب.

ويعرف " الآمدي " الخطاب تعريفا بينا، بعد إدراكه بأن التعريف هو المنطق لمعرفة الأحكام الشرعية، حيث يرى أنه : اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه .

أما من ناحية صيغة لفظ الخطاب، فهو " أحد مصدري فعل خاطب، يخاطب، خطابا، ومخاطبة، وهو يدل على توجيه الكلام لمن يفهم، نقل من الدلالة على الحدث المجرد من الزمن إلى الدلالة على الاسمية فأصبح في عرف الأصوليين يدل على ما خوطب به وهو الكلام ". وعرّفه آخرون بأنه: ما يقصد به الإفهام عامة، سواء كان المقصود من إفهامه متهيئا لذلك أم غير متهيئ .

على أن الأصل في الخطاب، كما في الكلام، انه قد يراد به العبارة الدالة بالوضع، أو قد يراد به العبارة الدالة بالوضع، أو قد يراد به معناها القائم في نفس المتكلم، أو قد يراد به القابل لأن يلفظ، وهذا يقتضي أن الخطاب قد يطلق على الكلام الحسي ، وعلى الكلام الموجه نحو الغير ، بغرض الإفهام .

وفي منظور مفكرين آخرين نجد أن الأصل في الخطاب، أنه من خاطبه ، أي توجه إليه بكلامه ، ومعنى هذا أن الخطاب هو الكلام الذي به نتوجه إلى الآخرين من اجل تحقيق قصديه ما .

***مفهوم الخطاب عند النحاة**: ويرى النحاة أن مفهوم الخطاب ينحصر في ناحيته الشكلية، بدلالة الاهتمام بتصنيف الأداة اللغوية المستعملة التي تشير إلى طرفه الأخر، ويؤكد هذا الحكم، عندما يذهب النحاة لتصنيف الضمائر المتصلة والمنفصلة، بحديثهم عن الكاف التي تلحق اسم الإشارة (ذا ، مثل ذلك ، ذلكم ، ذلكنّ). إذ " تختلف حركات هذه الكاف ليكون ذلك أمارة على اختلاف أحوال المخاطب من التذكير والتأنيث ، وتلحقه علامات تدل على عدد من المخاطبين ، ويوضح ذلك نعت اسم الإشارة ونداء المخاطب .

***أوجه الخطاب القرآني**: قال ابن الجوزي:«الخطاب القرآني على خمسة عشر وجها »[1]. وقال غيره:« على أكثر من ثلاثين وجهاً »[2]؛ أحدها: خطاب العام، والمراد به العموم، كقوله تعالى﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾الروم:54). والثاني: خطاب الخاص والمراد به الخصوص، كقوله تعالى﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾آل عمران:106). وكقوله أيضاً﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾المائدة:67).

والثالث: خطاب العام، والمراد به الخصوص، كقوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾الحج:1). لا يدخل فيها الأطفال والمجانين ومن ليسوا بأحرار في اتخاذ القرار.

---

[1] - ينظر:السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط،1394هـ-1974م، ص

[2] - المرجع نفسه، ج2، ص 349.

الرابع: خطاب الخاص والمراد به العموم؛ كقوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾(الطلاق:1).

الخامس: خطاب الجنس: كقوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾(البقرة: 21).

السادس: خطاب النوع، كقوله﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾(البقرة:40).

السابع: خطاب العين، نحو ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(البقرة:35). ونحو﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾(آل عمران:55). ونحو:﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾(هو:48)،و﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾الصافات:104 - 105). و﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾(النمل:10). ولم يقع في الخطاب القرآني (يا محمد) إطلاقاً، بل ورد خطاب ﴿يا أيها النبي﴾(الأنفال:64)، أو ﴿يا أيها الرسول﴾(المائدة:41). وذلك تعظيماً له وتشريفاً وتخصيصاً عمّن سواه، وتعليماً للمؤمنين ألاّ ينادوه باسمه الشخصي، بل ينادونه بعلامته المميزة وهي النبوة أو الرسالة.

الثامن: خطاب المدح: نحو قوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾(البقرة:104). ولهذا وقع خطاباً لأهل المدينة كما في قوله أيضاً﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾(الأنفال:74). وعن ابن مسعود: إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا، فأَرْعِها سمعك، فإنه خيرٌ يأمُر به، أو شرٌ ينهي عنه.

التاسع: خطاب الذّم: نحو قوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(التحريم:7). وقوله:﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾(الكافرون:1). ولِتضَمُّن هذا النوع من الخطاب الإهانة، لم يقع في القرآن في غير هذين الموضِعين. وكثر الخطاب بـ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾على المواجهة، وفي خطاب الكفار جيء بلفظ الغيبة، إعراضاً عنهم؛ كقوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(البقرة:6). وقوله:﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾(الأنفال:38).

العاشر: خطاب الكرامة: كقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنفال:64). وقوله﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾(المائدة:41). قال بعضهم:« وتجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول، وكذا عكسه؛ كقوله –تبارك وتعالى– في مقام الأمر بالتشريع العام:﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾(المائدة:67). وفي مقام الأمر الخاص:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لك تبتغي مرضات

أزواجك﴾(التحريم:1) »[1]. قال: وقد يُعبّر بالنبي في مقام التشريع العام، لكن مع قرينة إرادة التّعميم، كقوله:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (الطلاق:1)، ولم يقل: طلّقت[2].

الحادي عشر: خطاب التهكّم: نحو﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(الدخان:49).

الثاني عشر: خطاب الإهانة: نحو﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾(الحجر:34). وكذلك﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾(المؤمنون:108).

الثالث عشر: خطاب الجمع بلفظ الواحد، نحو﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾(الانفطار:6).

الرابع عشر: خطاب الواحد بلفظ الجمع: نحو﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(المؤمنون:51). فهو خطاب له (صلى الله عليه وسلم)، إذ لا نبي معه، ولا بعده. وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾(النحل:126). خطاب له وحده بدليل قوله:﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾(النحل:127). وقوله تعالى:﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾(هود:14). ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى على لسان الكافر عند الاحتضار:﴿إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾(المؤمنون:99)؛ أي أرجعني. وقيل «ربّ» خطاب لله تعالى، و«ارجعون» خطاب للملائكة.

وقال السهيلي:« وهو قول من حضرته الشياطين وزبانية العذاب، فاختلط، فلا يدري ما يقول من الشّطَط وقد اعتاد أمراً يقوله في الحياة من ردّ الأمر إلى المخلوقين »[3].

الخامس عشر: خطاب الواحد بلفظ الاثنين. نحو:﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾(ق:24). والخطاب لمالك خازن النار، وقيل: لخزنة النار والزبانية، فيكون من خطاب الجمع بلفظ الاثنين، وقيل للمكلين الموكلين به في قوله تعالى:﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾(ق:21). فيكون على الأصل. وقد جعل الزركشي من هذا النوع:

---

[1] - الزركشي محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1376هـ- 1957م، ج2، ص358..

[2] - ينظر، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن،، ج2، ص1496.

[3] –السيوطي جلال الدين، الرّوض الأنيق في فضل الصديق، تح: أحمد عامر حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، لبنان،ط1، 1410هـ 1990م، ج3، ص 12.

قوله تعالى:﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾(يونس:89)، فقال:« الخطاب لموسى وحده، لأنه الداعي، وقيل: لهما؛ لأن هارون أمّن على دعائه، والمؤمّن أحد الداعيْين »[1].

السادس عشر: خطاب الاثنين بلفظ الواحد؛ كقوله تعالى:﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾(طه:49). أي، ويا هارون. وفيه وجهان؛ أحدهما: أنه أفرده بالنداء، لإدلاله عليه بالتربية. والآخر؛ لأنه صاحب الرسالة والآيات، وهارون تَبَع له. ذكره ابن عطية[2].

وذكر في الكشاف آخر وهو« أن هارون لما كان أفصح لساناً من موسى نكب فرعون عن خطابه حذراً من لسانه »[3]. ومثله قوله تعالى:﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾(طه:117). قال ابن عطية:« أفرده بالشقاء، لأنه المخاطب أولاً، والمقصود في الكلام، وقيل: لأن الله جعل الشقاء في معيشة الدنيا في جانب الرجال. وقيل: إغضاء عن ذكر المرأة كما قيل: من الكرم ستر الحَرَم »[4].

السابع عشر: خطاب الاثنين بلفظ الجمع: كقوله:﴿أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾(يونس:87).

الثامن عشر: خطاب الجمع بلفظ الاثنين: كما تقدم في﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾(ق:24).

التاسع عشر: خطاب الجمع بعد الواحد، كقوله تعالى﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾(يونس:61). قال ابن الأنباري:« جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي (صلى الله عليه وسلم) »[5]. ومثله﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾(الطلاق:1).

العشرون: خطاب الواحد بعد الجمع، كقوله تعالى﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾يونس:87).

الحادي والعشرون: خطاب الواحد بعد الاثنين، نحو قوله تعالى﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾يونس:78).

---

[1] - الزركشي. البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 365.

[2] – الأندلسي ابن عطية ، المحرر الوجيز،تح: جماعة من المحققين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط2، 1428هـ–2007م، ج11، ص 78.

[3] - الزمخشري جار الله، الكشّاف، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1407هـ، ج3، ص 67.

[4] - الأندلسي ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ج11، ص 110.

[5] - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص366.

الثاني والعشرون: خطاب الإثنين بعد الواحد، نحو﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾طه:49).

الثالث والعشرون: خطاب العين، والمراد به الغير، نحو قوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾الأحزاب:1). الخطاب له، والمراد أمّته، لأنه (ص) كان تقيا، وحاشاه من طاعة الكفار. ومنه قوله تعالى﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾(يونس:94). أي حاشاه (ص) من الشك، وإنما المراد بالخطاب التعريض بالكفار, ومثله﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾(الزخرف:45). وقوله أيضاً﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(الأنعام:35).

الرابع والعشرون: خطاب الغير والمراد به العين، نحو﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(الأنبياء:10).

الخامس والعشرون: الخطاب العام والمقصود مخاطب معيّن، نحو﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾(الحج:18). وقوله أيضاً: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنعام:27). وقوله أيضا:﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾(السجدة:12). لم يقصد بذلك خطابا معيّنا، بل كلّ أحد؛ يريد أن حالهم تناهت في الظهور، بحيث لا يختصّ بها راءٍ دون راءٍ، بل كل من أمكن منه الرؤية داخل في ذلك الخطاب.

السادس والعشرون: خطاب لشخص، ثم العدول إلى غيره، نحو﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(هود:14). بدليل﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. ومنه قوله﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(الفتح:8 - 9).

السابع والعشرون: خطاب التلوين: وهو الالتفات. هو من البديع ويعني الانتقال من ضمير إلى ضمير أثناء الكلام؛ كالانتقال من ضمير الإخبار إلى ضمير الخطاب. قال تعالى:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6)﴾(الفاتحة.) ومن الخطاب إلى الإخبار؛ قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾(يونس: 22).كان الكلام بصيغة الخطاب(كنتم) ثم تحول إلى الإخبار(جرين بهم). والانتقال من الإخبار إلى التكلم؛ قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾(إبراهيم: 19-20). كان تعالى يخبر، ثم صار يحدث عن نفسه. ويأتي جمال الالتفات من أن القارئ أو السامع يكون مسترسلا مع الكلام، ثم يصدم عندما يتحول الكلام من ضمير إلى آخر[1]، فيزداد تنبها وإحساسا بأهمية ما يقرأ أو يسمع.

الثامن والعشرون: خطاب الجمادات خطاب من يعقل؛(إنزال الجامد منزلة العاقل)، نحو﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾فصّلت:11).

التاسع والعشرون: خطاب التهييج:نحو﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾المائدة:23).

الثلاثون: خطاب التحنّن والاستعطاف: نحو﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾الزمر:53).

الحادي والثلاثون: خطاب التحبّب، نحو﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾(مريم:42). وقوله كذلك﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾لقمان:16). وأيضا﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾طه:94).

الثاني والثلاثون: خطاب التعجيز، نحو﴿كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾البقرة:23).

الثالث والثلاثون: خطاب التشريف، وهو كل ما في القرآن مخاطبة بعبارة "قُلْ"، فإنه تشريف منه تعالى لهذه الأمة، بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة.

الرابع والثلاثون: خطاب المعدوم، ويصحّ ذلك تبعاً لموجود، نحو﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾الأعراف:26). فإنه خطاب لأهل ذلك الزمان، ولكل من بعدهم.فائدة: قال بعضهم:« خطاب القرآن ثلاثة أقسام؛ قسم لا يصلح إلا للنبي (صلى الله عليه وسلم)، وقسم لا يصلح إلا لغيره، وقسم يصلح لهما معاً »[2].

---

[1] – إسبر محمد سعيد وجنيدي بلال، معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، دار العودة بيروت،ط2، 1985م، ص166.

[2] – ينظر: الشابندر غالب حسن. الآخر في القرآن. مركز دراسات فلسفة الدين. بغداد، دط، 2005 م. ص65-69.

أحدهما : يخاطب ثم يخبر "، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم... وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون " " وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم الراشدون " .

الثاني : أن يخبر ثم يخاطب : " فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم... وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا " .

الثالث: يخاطب عينا ثم يصرف الخطاب إلى الغير:" إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله ".

* **الخطاب القرآني وحضور المتلقّي**: إن وصف الكلام الإلهي بالخطاب، يأتي من مظهره الشفاهي واللفظي الذي اعتمده القرآن الكريم إبان نزول الوحي وبعده، ومن التنسيق الدقيق الملحوظ بين عباراته وجمله بحيث تبدو التعابير بل الصور جميعا، آخذا بعضها برقاب بعض في كل متماسك، ويأتي أيضا من طول الملفوظات التي تمتد فتشمل مساحة مكانية واسعة، ولعل الأهم من ذلك كله أن القرآن الكريم هو حوار جوهري بين الله ورسله أولا، وبينه وبين عباده عموما. فهو حوار قائم بين ذات مرسلة وأخرى متلقية، ولا أدل على ذلك من حضور المتلقي بقوة بل بدعوته إلى التفاعل مع العلامة المقروءة والمرئية في النص القرآني؛ مثل قوله تعالى:"يا أيها الناس" و"يا بني آدم" و"يا أهل الكتاب" و"أفلا تتذكرون" و"أفلا تعقلون" و"إن كنتم مؤمنين". ذلك أن الناس هم هدف الوحي وغايته.

ولا يخفى على الدارس أن حضور المتلقي في الخطاب القرآني ليس حضورا وهميا أو مفترضا ،كما تشير اتجاهات النقد العربي الحديث، بل هو حضور فعلي يستمد شرعيته من تركيز القرآن الكريم على مصالح المتلقي، والخطاب لا يكتمل إلا إذا كان يمس حياة الجماعة بدوافع معينة داخل الجمهور المتلقي،عندها تصبح الاستجابة ممكنة ،بل في أوج قوتها"[1]. وهذا الذي تهدف إليه التداولية فهي تهدف إلى التأثير قصد التغيير. ومما تجدر الإشارة إليه في سياق وصف القرآن بالخطاب؛ أن القرآن الكريم ذاته يعد حدثا خطيرا وأمرا عظيما، وقد تم نزوله في لحظة تاريخية مثقلة بالخطوب والدواهي، مما يجعل التقارب بين معناه اللغوي "الخطب ومعناه الاصطلاحي خطابية النص القرآني أمرا واضحا بمكان"[2].

علاقة الحوار القرآني بالخطاب القرآني: هو حوار من نوع خاص، أو هو خطاب حواري بامتياز، ليس كخطاب البشر فيما بينهم. والحوار القرآني ليس كغيره من الحوارات التي تحدث بين الناس، فتقبل المرادّة في الكلام، وتقبل المعارضة والنقد.

1- مبارك محمد، استقبال النّص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،لبنان، ط1، 1999م، ص79

2- صالح ملا عزيز، جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، ص45.

إن الحوار القرآني حوار عقلي فكري راق منفتح، لا حوار انفعالي مؤقت ومنغلق على ذاته. لأن الغرض منه في الأساس هو التوجيه والإرشاد والتذكير، فهو حوار فكري ثقافي. يعزز الانتماء التاريخي والحضاري للأمة، ويذكرها بالمصير الموعود. كما يعالج التحديات لواقع أمتنا على مختلف الأصعدة، ويصقل النظرة الاستشرافية لها بما يجعلها تأخذ مكانها الطبيعي القوي في عالم متغير باستمرار.

إن أول كتاب دعا إلى الحوار والتعارف والتعاون هو القرآن الكريم، فهو الكتاب السماوي الوحيد الذي يعترف بالأديان السماوية قبله، ويثبت أن ما جاءت به الديانات هو الإسلام، يُحق الحق فيها ويُبطل الباطل.

والقرآن الكريم لم ينتقد الديانة في حد ذاتها، بل انتقد ممارسات أتباعها، لأن أصل جميع الديانات هو الإسلام، فكلها جاءت من أجل عقيدة التوحيد، ومن أجل الأخلاق وإصلاح حال العباد في الحال والمآل. وقد اعتمد القرآن في نقده آليات ومناهج متحضرة، كالجدل والمناظرة والحوار وتحكيم العقل، دون هوى أو ميولات شخصية انفعالية، كتلك التي تحدث في عالم البشر، ولا حتى بنزوة انتقامية، ضد من يؤكد له إنه على خطأ. بل كان الحوار مبنيا على أساس سليم من التفكير والمنطق السليم.

كما أن الخطاب القرآني هو حوار من نوع خاص. والحوار القرآني جزء منه. فالعلاقة بينهما علاقة عموم بخصوص، فكل حوار خطاب وليس كل خطاب حوارا، وهذا في الأسلوب والشكل، والحكم هذا ينطبق على القرآن الكريم وحده دون غيره، من خطابات البشر وحواراتهم. فالقرآن الكريم خطاب في شكله حوار في مضمونه.

وإننا نسمع في عالمنا المعاصر ما يسمى بالحوار المسيحي الإسلامي، فهذا الشعار تغلب عليه النزعة السياسية الإعلامية، مثل ذلك الذي تدعو إليه المجامع المسيحية، كمجمع الفاتيكان الثاني[1]. الذي تنص وثائقه على أن الهدف من هذا الحوار هو تعريف وتفهيم المسلمين ماذا تعني المسيحية؟ وذلك بإدخال مصطلحات لا تثير مخاوف المسلمين، محاولةً منهم احتواء العالم الإسلامي عن طريق مفاهيم، ليسهل عليهم فيما بعد القضاء على أسس الإسلام وعقيدته.

---

[1] – مجمع الفاتيكان الثاني، مجمع كنسي كاثوليكي، انعقد بدعوة من البابا يوحنا (23)، بين سنتي 1962–1965م، ويهدف إلى؛ تجديد الكنيسة روحيا للحفاظ على شبابها، وتحديد موقفها من قضايا العالم المعاصر، وخاصة الحرية الدينية للإنسان.(ظاهره فيه الرحمة وباطنه فيه العذاب!!)

إن الذي يستضيف الآخر، هو الذي يملي شروطه عليه، فالمستضيف يسيطر على المستضاف والمستضاف يتلقى حينها إملاءات المستضيف فقط، خاصة إذا كان هذا المستضاف، لا يتمتع بالقوة المادية والمعنوية الكافية للحفاظ على قيمه ومبادئه من التضعضع والانهيار.

***الفرق بين حوار الخالق، وحوارات المخلوق**: ورد مفهوم الحوار في المعاجم العربية بمعنى الرجوع عن الشيء وإلى الشيء.وبمعنى النقصان بعد الزيادة، لأنه رجوع من حال إلى حال.وورد بمعنى المجاوبة والتجاوب، ومراجعة المنطق في المخاطبة. وبمعنى الجدال... وقد ورد في الاصطلاح بمعنى" الحديث بين شخصين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة ما، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء، والبعد عن الخصومة والتعصب"[1]. وفي هذه الصفة يختلف الحوار عن الجدال.

وهذا المعنى ينطبق على الحوارات البشرية، التي ترتقي في مستوياتها إلى الجدل والحجاج. وقد تصنف بالعنف والشدة وعدم تنازل الأطراف عن أفكارها لبعضها البعض، وتعتبرها تصلبات في المواقف، حتى إنها لتقود في بعض الأحيان إلى الصدام. وكم من سوء خلاف نشب بين الأفراد، وكم من حروب حدثت بين دول كان سببَها صدام في الأفكار.

والحوار بين البشر يقتضي وجود طرفين من المستوى نفسه ماديا ومعنويا، ويحدث فيه تبادل الأدوار، إذ المحاور بكسر الواو، يصير محاورا بفتحها، وهكذا دواليك، وكلاهما يسعى لإقناع الآخر، وصده عن فكرته، والتأثير فيه قصد تلبية منفعة معينة، فردية كانت أم جماعية.

أما الحوار في القرآن الكريم فهو حوار خاص، إذ إن المرسل فيه هو الله سبحان وتعالى والمرسل إليه هو مخلوقاته، وقد يتعدد هذا الحوار ويتلون، وقد لا تجب فيه المرادة في الكلام لأنه قد يتضمن أوامر ونواه من الذات العليّة وعلى المخلوق عندئذ التسليم والسمع والطاعة. وإن حدث في بعض الحوارات أن حصلت المرادة في الكلام فلحكمة اقتضاها الله سبحانه، فإما أن تكون تربية لنا أو هديا نهتدي به أو أمرا بالتزام حدودنا عندما لا يكون لسؤالنا معنى ولا هدف يخدم أخلاقنا أو عقيدتنا وصدق الله إذ يقول:"ولا تسألوا عن أشياء إن تبدى لكم تسؤكم".

***مقاصد الحوار في القرآن الكريم**: هو"كتاب الله – عز وجل – المنزل على خاتم أنبيائه محمد(صلى الله عليه وسلم) بلفظه ومعناه، المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين، المكتوب في المصاحف من أول سورة"الفاتحة" إلى آخر سورة" الناس"[2] .

---

[1] – ديماس محمد راشد ، فنون الحوار الإقناع، دار ابن حزم، مكتبة الملك فهد، الرياض، السعودية. ط1، 1420 هـ ،1999م،ص11.

[2] – أبو شهبة محمد محمد، المدخل لدراسة القرآن الكريم، دار اللواء للنشر والتوزيع، ،الرياض العربية السعودية. ط1، 1407هـ ،1987 م ، ص6.

ومن المقاصد الرئيسية التي أنزل الله بها كتابه ما يأتي: أن يكون هداية للثقلين، وأن يقوم آية معجزة لتأييد نبيه(صلى الله عليه وسلم)، وأن يتعبد خلقه بتلاوته.

-هداية الثقلين: وهي عامة وتامة وواضحة في تمثل الإنس والجن على لواء وأما تمام الهداية فيه، فلأنها احتوت أرقى وأنقى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله للناس، ونظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات، وجمعت بين مصالحهم في العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذي نعيش فيه، ووفقت بين مطالب الروح والجسد.

وأما وضوح هذه الهداية: فلعرضها عرضا رائعا مؤثرا، توافرت فيه كل وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع، أسلوب فذ معجز في بلاغته وبيانه. واستدلال عميق بسيط يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق، وأمثال خلابة تخرج أدق المعقولات في صورة أجلى الملموسات. وحكم بالغات تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع. وقَصَص حكيم مختار يقوي الإيمان واليقين، ويهذب النفوس والغرائز ويصقل الأفكار والعواطف، ويدفع الإنسان دفعا إلى التضحية والنهضة، ويصور له مستقبل الأبرار والفجار، تصويرا يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار في رابعة النهار[1].

-إعجاز القرآن الكريم: المقصد الثاني من نزول القرآن الكريم، أن يقوم في فم الدنيا آية شاهدة برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يبقى على جبهة الدهر معجزة خالدة تنطق بالهدى ودين الحق ظاهرا على الدين كلهِ. ووجوه إعجاز القرآن كثيرة منها: أن بلاغته العليا وجه بارز من هذه الوجوه. بل هي أبرز وجوهه وجودا، وأعظمها أفرادا، لأن كل مقدار ثلاثة آيات قصار معجز ، ولو كان هذا المقدار من آية واحدة طويلة . فقد تحدى الله أئمة البيان أن يأتوا بسورة من مثله[2].

-التعبد بتلاوة القرآن : المقصد الثالث من نزول القرآن أن يتعبد الله خلقه بتلاوته، ويقربهم إليه ويأجرهم على مجرد ترديد لفظه ولو من غير فهمه ، فإذا ضموا إلى التلاوة فهما زادوا أجرا على أجر. قال الله تعالى:﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور﴾(فاطر:29-30).

---

[1] - ينظر: الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان، ج2، تح: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت.ط1، 1415هـ-1995 م، ص100-101.

[2] - ينظر: الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان، ص103-104.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول: "ألم" حرف، ولكن "ألف" حرف، و"لام" حرف، و"ميم" حرف. رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح. وروى الحاكم مثله مرفوعا، وقال: صحيح الإسناد.

وجاء في حديث آخر عن أنس أنه قال:أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن. وسنده ضعيف غير أنه يتقوى بغيره. ثم إن هذه خصيصة امتاز بها القرآن، أما غيره فلا أجر على مجرّد تلاوته، بل لا بد من التفكّر فيه وتدبّره، حتى الصلاة التي هي عماد الدين، ليس للمرء من ثوابها إلا بمقدار ما عقل منها. وإنما انفرد القرآن بهذه الميزة لحكم سامية، وفوائد ذات شأن:

أولها: المحافظة على القرآن: توفير عامل مهم من عوامل المحافظة على القرآن وبقائه مصونا من التغيير والتبديل اللذين أصابا كتب الله من قبل.

ثانيها: وحدة المسلمين: إيجاد وحدة للمسلمين لغوية، تعزز وحدتهم الدينية، وتيسر وسائل التفاهم والتعاون فيما بينهم، فتقوى بذلك صفوفهم، وتعظم شوكتهم، وتعلو كلمتهم.

ثالثها:التدبر والاهتداء: استدراج القارئ إلى التدبر والاهتداء بهدي القرآن عن طريق هذا الترغيب المشوق، وبواسطة هذا الأسلوب الحكيم. فإن من يقرأ القرآن في يومه وهو غافل عن معانيه، يقرؤه في غده وهو ذاكر لها. ومن قرأه في غده وهو ذاكر لها، أوشك أن يعمل بعد غد بهديها. وهكذا ينتقل القارئ من درجة إلى درجة أرقى منها، حتى يصل إلى الغاية بعد تلك البداية[1]. هذا عن المقاصد العامة للخطاب في القرآن الكريم، فما مفهوم الخطاب عند الغربيين؟

[1] – ينظر المرجع السابق، ص104- 105.

المبحث الثاني: * الخطاب في المفهوم الغربي:

لقد حظي الخطاب في الغرب باهتمام اللسانيين، تحديدا وتحليلاً، فقالوا في تعريف الخطاب أنه"الوحدة اللغوية المكتملة التي تمتد فتشمل أكثر من جملة"[1].ولا بد لهذه الجمل من تنسيق وترابط على نحو خاص، مما يضيف إلى مصطلح الخطاب بُعداً آخر يشير إلى " الطريقة التي تُشكِّل بها الجمل نظاما متتابعا، يُسهم في نسق كلّي متغاير وممتد الخواص، على نحو يمكن معه أن تتآلف الجمل في خطاب بعينه لتشكّل نصا منفردا، أو تتآلف النصوص نفسُها في نظام متتابع لتشكّل خطابا أوسع ينطوي على أكثر من نصّ منفرد، وقد يوصف الخطاب بأنه؛ مجموعة دالة من أشكال الأداء اللفظي تنتجها مجموعة من العلامات[2]. ولعل ذلك راجع إلى "اشتغال اللسانيين على الكلام بوصفه مظهرا لفظيا خاصا بالفرد، وبكونه أكثر المظاهر الإشارية تعبيرا عن اللغة التي يعتمدون عليها، بوصفها قاعدة معيارية عامة"[3]. وهذا المظهر اللفظي للخطاب يميزه عن المصطلحات الأخرى الدائرة في فلكه؛ فإذا كانت اللغة كلاما وكتابة، تعد سلسلة من الأنساق التي لا تشتمل على ذوات، فإن " الخطاب يعني اللغة حين تفهم بوصفها ملفوظا متصلا، وليس منفصلا يشتمل على ذوات متكلّمة وكاتبة"[4].

***الخطاب عند "ميشال فوكو" و"باختين":**

أما الخطاب عند "ميشال فوكو" فأصبح يتحدد بوصفه "منظومة من القواعد التي تميز مجموعة من المنطوقات التي تنتظم داخل الممارسة الخطابية، وهو منظومة تسمح بتكوين مواضع البحث وتوزيعها، وتحدد أنماط القول ولعبة المفاهيم، والاحتمالات النظرية"[5]. ولم يقتصر الأمر على الذوات الفاعلة، بل تعداها إلى الذوات المتلقية، لتدخل عملية تشكيل الخطاب بذلك في صلب نظرية الاتصال؛ إذ بطبيعة الحال لا يوجد أي معنى للخطاب، ما لم يكن هناك قارئ يستشف محموله الدلالي الكامن فيه، ويستحضر الجزء الغائب فيه، ويملأ فراغاته. لذا، "فإن الخطاب هو فعل لغوي تواصلي حميمي بين المرسل والمتلقي. والخطاب يتجه دائما إلى الآخرين في حركة خارجية مسموعة، ويتم

---

1 - مكدونيل ديان ، مقدمة في نظريات الحوار، تر: عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، مصر، ط1، 2001م. ص27 ./وينظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب. ط3، 1997م. ص17./ ومنذر عياشي، مقالات في الأسلوبية ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا. دط، 1990م. ص182.

2 – كيرزويل أديث ،عصر البنيوية ، تر: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت. ط1، 1993م. ص269 – 270.

3–عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان. ط2، 1999م. ص176 .

4 - مكدونيل ديان، المرجع السابق، ص32.

5– زيادة معن ، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1989م. ج1،ص772 .

غالبا في لحظات الخطوب التاريخية"[1]. ومن هنا "يتجاوز الخطاب مرحلة الانغلاق النصّي إلى الانفتاح على القارئ"[2]. إذ يحقّق مقصوداً أو غرضاً تداوليا معيناً يتعدى الألفاظ والتراكيب والدلالات.

ومن الخصائص التي تحدد طبيعة الخطاب،" أن الدّال لا ينفصل عن المدلول فيما يتعلق بمغزى الخطاب وهدفه، فالعناصر الداخلة في تشكيل الخطاب، وإعطائه شكْلَه اللغوي أو غير اللغوي، هي إيديولوجيةٌ بقدر ما يكون المحتوى إيديولوجيا، أي؛ إنه لا ينبغي أن تحلل هذه العناصر بمعزل عن المحتوى فيما يعكسه من إيديولوجيا". ولعل (باختين) لما تحدث عن الكلمة قال فيما معناه؛ إذا أردت أن تفرغ كلمة ما من محتواها الإيديولوجي، فإنك تريد بذلك أن تصيّرها جثة هامدة لا حياة فيها ولا حركة.

-ولقد تطرق العديد من العلماء الغربيين لمفهوم الخطاب، ويختلف التعريف من باحث لآخر، أمثال (باختين (Bakhtine) و(فوكو (foukou) ، و(دومننيك مونغانو (Dominiek Manganeux)، و(إميل بنفنيست (E. Benveniste) .

– ف"باختين" نظر إلى الخطاب بوصفه "تلفظا"، وحدثا اجتماعيا، وليس حدثا فرديا، ومعنى هذا أن الخطاب بالرغم من انه تعبير عن العالم الداخلي للمتلفظ ، إلا أن بنيته تعتبر بنية اجتماعية.

– ونجد "فوكو" قد أسس مفهوما جديدا للخطاب ، وهذا المفهوم لا يقوم على أصول ألسنية أو منطقية ، بل يتكون من وحدات أطلق عليها " المنطوقات " التي تشكل منظومات منطوقية يسميها ب " التشكيلات الخطابية " والتي تتمحور في حقل خطابي معين ، وتحكمها قوانين التكوين والتحويل .

– ومعنى هذا أن الخطاب عبارة عن مجموعة من المنطوقات التي تنتمي إلى تشكيلة خطابية معينة ، حيث هذه المنطوقات تستطيع أن تحدد شرط وجودها .

– ليخلص"فوكو"من كل ذلك إلى نتيجة مهمة على صعيد البحث العلمي في الخطاب، مفادها أن : الخطاب عبارة عن "شكل من أشكال الهيمنة " أو"ممارسة إيديولوجية " ترتبط بصراع الطبقات عموما، وبالصراع العرقي على وجه الخصوص .

ولعلّه من الأهمية بمكان أن يطّلع رواد الخطاب في الغرب على الخطاب القرآني لأنه الخطاب الوحيد الذي دعا إلى الحوار والتقارب وحسن الجوار والتعايش في ظل النقاط المشتركة التي يتقاسمها أبناء آدم عليه السلام.

---

[1] – صلاح فضل، نبرات الخطاب الشعري، مكتبة الأسرة، مصر، ط1، 2004م. ص11.

[2] – سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان. ط1، 1997م ص31.

وقد دعا القرآن أهل الكتاب، إلى الحوار وإلى العيش في ظل الإسلام، وعبادة الله الواحد سبحانه وتعالى. فمن هم أهل الكتاب؟، وما الفرق بين اليهود والنصارى، وما قصتهم مع بعضهم ومع المسلمين؟. ولماذا هذا الصراع المتجدد بين أهل الكتاب والعالم الإسلامي ؟.

الفصل الرابع: *أهل الكتاب، مفاهيم نظرية.

المبحث الأول:مصطلحات، ومفاهيم.

المبحث الثاني:بنو إسرائيل، وأرض الميعاد.

المبحث الثالث :موقف بني إسرائيل من عيسى عليه السلام.

المبحث الأول: *مصطلحات ومفاهيم حول أهل الكتاب.

*مصطلحات ومفاهيم، حول أهل الكتاب:

يتبادر إلى أذهان الناس أن المصطلحات الآتية :"العبراني، والإسرائيلي واليهودي" هي ذات مدلول واحد، ولكن الصحيح أن كل مصطلح من هذه المصطلحات يشير إلى حقبة زمنية معينة. فمصطلح "العبراني" مأخوذ من الثلاثي "عَبَرَ" بمعنى "شق" و"العِبْر" اسم موجود في اللغة العبرية ، ومعناه كما هو في العربية؛ الجهة الأخرى التي يستلزم الوصول إليها اجتيازا أو عبورا، والعبري لفظ يدل على التحول والتنقل، وفيه جانب كبير من البداوة[1].

وقيل أنه مشتق من إبراهيم عليه السلام، فهو أبرام ، وعبرام، وسمي كذلك نتيجة نزوحه من أور (العراق) إلى أرض كنعان عبر نهر الفرات ، والعبرانيون من أقدم التسميات التي أطلقت على الجماعات اليهودية[2]. إلى جانب عابيروا، وحابيروا، وهابيروا، وعابوراه، وخابيروا؛ وكل هذه الألفاظ إنما تدل على التحول والانتقال، اللذين يسهمان في الإفصاح عن الواقع السلوكي لليهود عبر التاريخ؛ فال"عابيروا" مثلا: "طبقة دنيا ناقمة، ولاجئون هربوا إلى المناطق الجبلية ليعيشوا لصوصا وقطاع طرق ضد رواد طرق التجارة البرية، ويظهر أنهم استقروا أخيرا في المناطق الجبلية[3]، ليسهم ذلك في تشكيل صورتهم العدوانية وتمرّدهم اللاّ أخلاقي عبر العصور.

والكنعانيون والمصريّون والفلسطينيون يسمّون بني إسرائيل:"العبريين أو العبرانيين" لارتباطهم بالصحراء أولا، ثم ليميزوهم عن أهل العمران، ولهذا كان بنو إسرائيل – بعد استقرارهم – ينفرون من كلمة "عبري"، ويؤثرون أن يعرفوا ببني إسرائيل فقط. في حين يذهب "ولفنسون" إلى أنهم سُمّوا ب"العبريين" نسبة إلى "عِبْر" وهو الجدّ الخامس لإبراهيم عليه السلام[4].

ومن خلال الدلالة اللغوية يمكن أن نرجح الرأي القائل بأن السبب الرئيس في تسمية بني إسرائيل ب"العبريين" يعود إلى عبور إبراهيم عليه السلام لنهر الفرات، مع العلم أن اليهود قد نعتوا أنفسهم بهذه الأوصاف أملاً في ربط أنفسهم بحقب زمنية متقدمة، ولكنهم لم يعيشوها قط، بل يريدون الاستفادة منها ما داموا يدافعون عن السامية ويعتقدون أنهم وحدهم هم الساميون.

---

1 – ينظر: ابن دريد محمد بن الحسين: كتاب الاشتقاق. تحق: عبد السلام هارون، مكتبة المثنى، بغداد، ط2 ، 1979م، ص497، 496.

2 – ينظر: المسيري عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشرق، القاهرة، مج 2، ط1، 1999 م، ص205.

3 – طومسون طوماس: التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تر: صالح علي سوداح، بيسان للنشر، بيروت، ط1، 1995م، ص95.

4 – ينظر: ولفنسون إسرائيل: تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد ، مصر ، ط1، 1929 م، ص77–78.

أما مصطلح "الإسرائيلي"، فهو مرادف لمصطلح "اليهودي" عند كثير من الدارسين، غير أنه أطلق قبل ظهور مفهوم"اليهودي"، وقد ورد بصيغ مختلفة منها "بنو إسرائيل، أوجماعة يسرائيل، أويسرائيلي"[1] على أنه من الكلمات العبرية المركبة من"يسر"بمعنى "غلب" و"إيل" بمعنى "القادر"، ويظهر أن اليهود يفضلون اسم "الإسرائيلي" على غيره من الأسماء، لاعتقادهم أن الرّب هو الذي أطلقه على أبيهم يعقوب عليه السلام، ثم يسعون إلى ربط هذه التسمية بالوعد الذي أعطاه الله لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأحقيتهم في هذه البلاد، كونهم شعب الله المختار[2]. وهذا يعني أن كلمة "إسرائيل" هي الاسم البديل ليعقوب عليه السلام. قال الله تعالى:﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران: 93). و"إسرائيل" في هذه الآية، هو يعقوب عليه السلام. وقد فسرها كثير من الدارسين على أنها تعني "عبد الله" أو "صفوة الله" أو "ليحكم إيل"، أو أنها تعني "يجاهد مع الله"[3]. ويمكن الإشارة إلى أن لفظ "إسرائيل" قد استعمل مرادفا لبني إسرائيل منذ أيام يعقوب عليه السلام، ومن أبناء يعقوب تكونت أمة بني إسرائيل، ورغم أن بني إسرائيل قد تميزوا بذلك عن غيرهم من باقي ذرية إبراهيم عليه السلام، إلاّ أنهم كانوا على ديانة أبيهم يعقوب وشريعة جدّهم إبراهيم عليهما السلام، التي تقوم على أساس التوحيد وشريعة الإسلام العظيم[4]. يظهر ذلك من خلال قوله تعالى:﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.(البقرة: 133).

وأما مصطلح "اليهودي" فهو من المصطلحات الدالة على الرجوع والتّوبة؛ فنقول: هاد وتهوّد بمعني: تاب ورجع إلى الحق، ويدخل في هذا المعنى قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام :﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: 156). وقد سمي بنو إسرائيل يهودا بعد توبتهم عن عبادة العجل، وما تجرؤوا به على الله سبحانه وتعالى؛ حينما طلبوا من موسى عليه السلام أن يَروا ربّهم جهْرة، وقد لَزِمَهم هذا الاسم بعد قول موسى عليه السلام : "إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ" ، أي؛ "رجعنا وتضرّعنا"[5]. ومنها "هادوا"؛ بمعنى: دخلوا اليهودية[6] . قال الله تعالى :﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا

---

1 – المسيري عبد الوهاب : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، مج 2 ، ص205.

2 – ينظر: المقريزي تقي الدين: تاريخ اليهود وآثارهم في مصر، تح: عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، القاهرة،1997م ص18.

3 – ابن كثير أبو الفدى إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، دار السلام للنشر، الرياض، ج1، ط5، 2001م ، ص127.

4 – عرابي رجا، سفر التاريخ اليهودي، الأوائل للنشر، سورية، ط1، 2004 م ، ص73.

5 – ابن كثير : المرجع السابق، ج2، ص1159.

6 – ابن منظور، لسان العرب، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ج15، ط2، 1988 م، ص254.

بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(النساء: 46). والمرجّح أن اسم"يهودي" يعود إلى "يهوذا"، الابن الرابع ليعقوب عليه السلام، الذي حكم سائر الأسباط الأخرى، وبقي مقدَّما عليهم، إلى أن انقسمت مملكتهم بعد وفاة سليمان عليه السلام إلى قسمين: مملكة يهوذا، ومقرها أورشليم (القدس)، وتتكون من سبطي يهوذا وبنيامين، ومملكة إسرائيل ومقرها السّامرة، وتتكون من بقية الأسباط العشرة[1]. ومن هنا ندرك أن لفظ اليهودي أعم وأشمل من اللفظين السابقين، عبراني أو إسرائيلي؛ ذلك أن لفظة "يهودي" أصبحت تضم العبريين والإسرائيليين، وكل من دخل دين اليهود، ولو كان من أصول أخرى[2]. والدليل على ذلك أن الصهاينة اليوم يسعون جاهدين إلى إبراز ما يسمى بيهودية الدولة في إشارة إلى أحقّيتهم الدّينية بهذه الأرض، (فلسطين)، معتمدين في ذلك على توراتهم التي حرفها المحرّفون، وبدلها المبدّلون.

يظهر لنا أن هذه المصطلحات والمفاهيم "العبراني، والإسرائيلي، واليهودي" مرتبطة بحقب زمنية معينة؛ إذ يشكل مفهوم العبراني الحقبة الزمنية الأولى، التي تمتد من إبراهيم إلى موسى عليهما السلام، ليصبح اسم بني إسرائيل علَما على أسباط يعقوب الاثني عشر، وليستمر الأمر كذلك حتى قيام مملكة داود (1000–390 ق.م) . وما إن يُتوفى سليمان عليه السلام، حتى يظهر الاسمان (إسرائيل، ويهوذا) على شكل نظامين منفصلين تسودهما الصراعات والنزاعات، ليبقى الأمر كذلك إلى أن يُدمِّر الأشوريون دولة إسرائيل سنة (721 ق.م) ليظهر اسم اليهود علَما على كل من اعتنق الديانة اليهودية المحرَّفة إلى أيَّامنا هذه[3] .

ولا يعني هذا أنه لم يحدث تداخل لهذه المفاهيم عبر العصور، فاليهود حديثا استطاعوا أن يجمعوا هذه المفاهيم بما يتوافق وأهدافهم وطموحاتهم أملاً في تحقيق ما لم يستطيعوا تحقيقه عبر عصور خلت.

***من هم أهل الكتاب؟** يرى الجمهور أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى فقط، دون غيرهم، استناداً إلى الآية الكريمة في قوله تعالى:﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾(الأنعام:

---

[1] – ينظر: طعيمة صابر: التاريخ اليهودي العام، دار الجيل ، بيروت، لبنان ، ج1 ، ط3، 1991 م، ص33–34.
[2] – ينظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ج6، ط1، 1970م ، ص532.
[3] – ينظر: بيومي مهران محمد: بنو إسرائيل، دار المعرفة، الإسكندرية، ج1، دط، 1999م ، ص50–51.

156)، والتي تدل على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى فقط[1]. أما المجوس فليسوا من أهل الكتاب في تقدير جماهير الفقهاء[2]. لأنهم مشركون لا يؤمنون بالله الواحد.

وفي القرآن الكريم يوصف اليهود "بأهل الكتاب"، وب"الذين أوتوا الكتاب"، و"الذين هادوا". قال عز من قائل:﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾(آل عمران:64)،وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾(المائدة:15)، وقال تعالى:﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)﴾(آل عمران)،وقال تعالى:﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113)﴾(آل عمران)،وقال تعالى:﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) ﴾(البقرة)،وقال تعالى:﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145)﴾(البقرة)،وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:62).

وهناك من العلماء من يرى أن النصارى الذين يشركون بالله هم أقل درجة من اليهود، استناداً إلى قول الله تعالى:﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾(المائدة:72). ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(المائدة:73)، وكذلك مصداقاً لقوله عز وجل:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء:48).

أما مصطلح"أهل الكتاب"في المرووث اليهودي فيستخدم في الإشارة إلى بين إسرائيل واليهود في التّوراة تحديداً، إذ تحظى الشريعة المكتوبة- بما في ذلك النتاخ، والميشناه، والتلمود- بأهمية كبيرة في الهوية والثقافة اليهودية[3].

أما في المورث المسيحي، فإن المسيحية ترفض عن طريق الكنيسة الكاثوليكية "دين أهل الكتاب"كوصف مماثل للإيمان المسيحي، مُفْتَعِلَةً مُصطلح "دين كلمة الله"[4]، حيث إن الإيمان بالمسيح وفقاً للتعليم الكاثوليكي، لا يتم العثور عليه في الكتاب المقدس المسيحي فقط، ولكن في "التقليد المقدس وتعليم الكنيسة" أيضاً. وبالمقابل تبنّى عدد

---

1 - الموسوعة العربية الميسرة، أهل الكتاب، موسوعة حبكة المعرفة الريفية 1965م، أيلول 2013.

2 - الزحيلي وهبة، أهل الكتاب، الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، دمشق سورية، نيسان 2104.

3 – David Lyle Jeffery , people of the book , christian identity and literary cultur. William B. 2007.

4 – cathechism et catholic church 1997, N° 108.

من الطوائف المسيحية الأخرى، مثل الكنيسة المعمدانية، والميثودية، والأدفتنست، والبيوريتانية مصطلح "أهل الكتاب"[1]، وحتى المنَصَّرين من سكان أفريقيا وآسيا والعالم الجديد يطلقون على أنفسهم لقب "أهل الكتاب" للإشارة إلى المسيحيين والمبشرين الذين قدّموا لهم ترجمات مكتوبة من "الكتاب المقدس"[2].

ومجمل القول أن "أهل الكتاب" هم من أجاب عنهم الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله؛ بأنهم هم اليهود والنّصارى، كما نصّ على ذلك علماء التفسير وغيرُهم. أما "المجوس" فليسوا من أهل الكتاب عند الإطلاق، ولكنهم يعاملون معاملتهم في أخذ الجزية، لأن الرسول(صلى الله عليه وسلم) أخذها منهم. أما نساؤهم وذبائحهم فحرام على المسلمين عند الأئمة الأربعة وعند غيرهم، وهذا الأمر كالإجماع من أهل العلم.

وممن نصّ على هذا من العلماء؛ أبو محمد قُدامة رحمه الله في كتابه "المغني"– من أهم المراجع الفقهية في المذهب الحنبلي–. قال فيه:« وأهل الكتاب الذين هذا حكمهم هم أهل التوراة والإنجيل». قال الله تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾. فأهل التوراة؛ اليهود والسّامرة، وأهل الإنجيل؛ النصارى ومن وافقهم في أصل دينهم من الإفرنج والأرمن وغيرهم.. إلى أن قال:« وليس للمجوس كتاب ولا تحل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم.. قال تعالى: «ولا تنكحوا المشركات..»، «ولا تمسكوا بعصم الكوافر..» فرخّص من ذلك في أهل الكتاب، فمن عداهم يبقى على العموم، ولم يثبت أن للمجوس كتاباً ». فأهل الكتاب هم أصحاب الكتب المقدسة.

وقد كان يطلق اسم بني إسرائيل على اليهود من أهل الكتاب، فمن هم بنو إسرائيل؟ وما ديانتهم ؟ وكيف عاشوا قبل الإسلام وأثناءه في عهد النبوة وبعده في دار الإسلام في ظل الحضارة الإسلامية؟. وكيف عوملوا من قبل المسلمين؟ ...

---

[1] - David Lyle Jeffery , people of the book.

[2] - David Lyle Jeffery , people of the book

المبحث الثاني *بنو إسرائيل وأرض الميعاد.

*بنو إسرائيل: ينسب اليهود أنفسهم إلى إبراهيم عليه السلام العبراني، الذي عبر نهر الفرات قادما إلى أرض كنعان، فيسمون العبرانيين والعبريين نسبة إليه عليه السلام، ينسبون زورا، ويحلمون بأسطورة الأرض الموعودة التي سيحققها الله لهم من الفرات إلى النيل(1).

وجدير بالذكر أن " اليهودية والنصرانية " ديانتان لم يكن لهما وجود في عهد إبراهيم عليه السلام، وإنما جاءتا بعده بزمن طويل، وأن استعمال كلمة "عبري" بمعنى "يهودي" يربط اليهود بأدوار تاريخية لم يكن لهم وجود فيها. ويظهر ذلك بوضوح من خلال قوله تعالى:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66)﴾.(آل عمران).

يبدأ تاريخ بني إسرائيل كأمة، وليس كديانة، من إسرائيل عليه السلام، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، الذي نشأ في أرض كنعان وهي (فلسطين) نتيجة هجرة جده إبراهيم عليه السلام ومن معه من العراق" إلى ﴿الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾(الأنبياء:71). وهي أرض بيت المقدس على رأي كثير من المفسرين(2).

ولد يعقوب عليه السلام اثنا عشر ولدا، لم يكن منهم سوى يوسف نبيا كريما مرسلا، ولعل حب أبيه له، هو ما جعل الغيرة تدب في قلوب إخوته، وإذ حلت البغضاء مكان الحب والإخاء، وتملك الحسد قلوبهم، وأرادوا بيوسف مكرا، فإذا هم يأتمرون لمثله(3)، ويجمعون أمرهم فيلقونه في الجب إلى أن بيع لرئيس الشرطة المصري على أيام الهكسوس. وهناك يتعرض لامتحان من امرأة العزيز، فانتهى به الأمر سجينا، فتلقى يوسف ذلك بالصبر والثبات، ثم تشاء قدرة الله سبحانه أن يصبح على خزائن الأرض بعد أن فسر رؤيا ملك مصر تفسيرا يليق بمقام النبوة(4).

وفي ظل هذه التحولات الخطيرة، ضربت أرض كنعان موجة من الجدب والقحط، فدفعت أهلها إلى الهجرة صوب مصر، يبحثون فيها عن الكلأ والماء، وهناك تعرف يوسف على إخوته وهم له منكرون، وحدث ما حدث بينهما من مواقف العتاب، التي انتهت بأن دعاهم بإذن من ملك مصر للإقامة معه في أرض الكنانة، وتحقيقا

1- عرابي رجا عبد الحميد، سفر التاريخ اليهودي، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط2، 2006م، ص56.

2- ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج3، ص127،/ وابن كثير أبو الفدى إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت.ج3، ط1، 1419هـ- 2010م. ص3598 ،

3 – الهكسوس، صلواتي ياسين، الموسوعة العربية الميسرة والموسعة، مؤسسة التاريخ العربي، لبنان. ج8 ط1،2001م. ص1854.

4 – ابن كثير، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف، بيروت،ج1، د.ط، 1410هـ-1990م، ص221.

لرغبتهم أنزلهم أرض "الجوش" التي هي من أجود أراضي مصر[1]. ويمكن القول: أن العلاقة الحقيقية لبني إسرائيل بمصر كانت بعد استجابتهم لدعوة يوسف الصديق، وأن نزولهم بأرض"الجوش" يسهم في تأكيد رغبتهم في العزلة وخوفهم من مخالطة الأخيار، فهم في كل زمان ومكان يميلون إلى الانعزالية والانفصالية، مما لم يوجد الألفة والتفاهم بينهم وبين سائر الشعوب [2].

لقد نعم بنو إسرائيل بحياة رغيدة على ضفاف النيل، زادت من أعدادهم، واستفادوا من الحضارة المصرية العريقة، وقبل أن يتوفي يعقوب عليه السلام، أوصى أبناءه بأن يطيعوا أمر أخيهم "يهودا"، لكنهم بعد وفاته، لم يدينوا له جميعا، بل انشق بعضهم عنه، وشاع لفظ "يهود" على كل الذين أطاعوه، واتبعوا أمره، وعندها تكونت الأسباط الاثنا عشر، لكل منها حياة منفردة عن الأخرى في شؤونها الداخلية

لقد أخذ الإسرائيليون في التودد للمصريين، وحاولوا كسب رضاهم فعبدوا إلههم " رع " – وهذا شأنهم دائما – إذ كانوا يعبدون آلهة البلاد التي ينزلون بها[3].

وقد أفاض القرآن الكريم في سرد ملامح الإيذاء التي تعرض لها بنو إسرائيل على يد فراعين مصر، فقال تعالى:﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: 4).

لقد بعث الله موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل نبيا ورسولا؛ ليخرجهم من مصر بعد سنين العبودية التي قضوها. وهنا يبدأ تاريخ بني إسرائيل كديانة وشريعة تقوم على أساس التوحيد. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105)﴾ (الأعراف).

ويقول صاحب الظلال :"وواضح من هذا أن موسى عليه السلام لم يكن رسولا إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه، ويأخذهم بمنهج رسالته، إنما كان رسولا إليهم يطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون، وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل، وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام ... فأرسل الله إليهم موسى ينقذهم من ظلم فرعون، ويعيد تربيتهم على دين التوحيد"[4].

---

[1] – بيومي مهران محمد،دراسات تاريخية من القرآن الكريم– بلاد الشام. دار المعرفة، الإسكندرية ، مصر. د.ط، د.ت. ص231–232.

[2] – طعيمة صابر، التاريخ اليهودي العام، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط3 ،1991م. ج1، ص39 ،/والميسري عبد الوهاب، من هو اليهودي؟ دار الشروق،القاهرة، مصر، ط1 ، 1997 م، ص22.

[3] – ينظر: سفر يشوع 14=14.

[4] – قطب سيد: في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ، ط7 1971 م، مج6 ، ج19 ، ص200 .

وبوحي من الله يخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصر "إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها إلى أن يفسدوا فيها فيدمرهم تدميرا[1]" والخروج كان بأمر من الله، لا كما تقول التوراة أنه كان بأمر من موسى عليه السلام[2]. قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾(طه: 77).

لقد أراد الله سبحانه وتعالى، لبني إسرائيل- في خروجهم من مصر- أن يعيشوا تلك الأحداث والمعجزات التي أنزلها على فرعون وعباده ، لكي يتجردوا من أهوائهم، ويعيدوا صياغة أنفسهم من جديد ليكونوا قادرين على تحمل الأمانة التي جاء بها موسى عليه السلام.

ولما كان من أمر موسى وأمر السحرة ما كان، أرسل الله سبحانه على فرعون وقومه الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات يتبع بعضها بعضا، إلى أن يدعو عليهم -عليه السلام -بالطّمسة، قال تعالى :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88)﴾(يونس).

وما إن خرج موسى عليه السلام بقومه من مصر حتى تبعهم فرعون وجنده لتتوالى الآيات والعظات على بني إسرائيل، فيوحي الله سبحانه وتعالى إلى موسى عليه السلام :﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء: 63). وقد نجّى الله موسى ومن معه وأغرق فرعون وقومه ، ونجى الله فرعون ببدنه ليكون آية وعبرة للناس جميعا :﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) ﴾ (يونس).

ولم يصب بنو إسرائيل بأي لون من ألوان الأذى الذي أصاب فرعون وقومه، وبدل الشكر له، تذمروا من مرارة الماء هناك، وما إن تجاوزوا البحر حتى يأتوا على قوم يعبدون أصناما لهم، فطلبوا من موسى أن يكون لهم مثلها، هذا ما يوضحه القرآن في قوله تعالى :﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140)﴾ (الأعراف).

---

[1] – المرجع نفسه : مج 5 ، ج16 ، ص476.

[2] – ينظر: سفر الخُروج: الإصحاح، 17-18 . (والإصحاح؛ معناه، جزء من التوراة أو الإنجيل).

ولم يتوقف بنو إسرائيل عن التذمر طيلة إقامتهم في سيناء، فأخذوا يبكون على الأيام التي قضوها في مصر، ويودون لو يعودون إلى المذلة والاستعباد، رغبة في الطعام أو الفتات الساقط عند موائد المصريين(1).

إنها المذلة التي أخذت تنمو في أصل تكوينهم، ويتوارثونها من جيل إلى جيل لتصبح فيما بعد ملمحا أصيلا من ملامح الشخصية في بني إسرائيل عبر العصور .

وبعد أن وصل موسى عليه السلام إلى أرض سيناء، ذهب لمناجاة ربه، وليأخذ التوراة في جبل الطور في سيناء، وجعل أخاه هارون أميرا عليهم. وعندها أنشأ السّامِريّ عجلا من الذهب الذي سرقوه من أهل مصر فعبدوه من دون الله، وأضَلّهم السامريّ، ولم يفلح هارون في ردهم عن هذا الكفر البَواح(2).

ولما عاد موسى عليه السلام إلى قومه غضبان أسفا، ألقى الألواح، وأخذ يعنف على قومه، ويدعوهم إلى التوبة، قال الله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: 54).

واختار موسى من قومه سبعين رجلا من خيرة بني إسرائيل، ليستغفروا ربهم ويؤتوه مؤثقهم، بأن لا يعودوا إلى فعلتهم تلك، فانطلقوا مع موسى عليه السلام، لكنهم كعادتهم، تجرؤوا على الله، فسألوا موسى عليه السلام أن يروا ربهم جهرة، فقالوا:﴿ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(البقرة: 55). عندها تضرع موسى إلى ربه قائلاً:﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾"(الأعراف:155). ولكنهم، وبعد أن بعثهم الله سبحانه وتعالى تَلَكَّؤُوا في قطع مشاقّهم مع الله فهدّدهم الله بآية مادّية، إذ اقتلع جبل الطور من مكانه، وجعله فوقهم كأنه سحابة، وأنه لا محالة واقع عليهم ما لم يعطوا عهدهم ومشاقّهم في أن يأخذوا بالتوراة بقوة وأن يفهموا حقيقة أحكامها،﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة:63). وعندما اضطروا إلى المعاهدة والمبايعة تحت ضغط التهديد الرهيب، لكنهم وكعادتهم نقضوا الميثاق وتولوا وعصوا﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(البقرة:93).

يظهر أن التلكؤ في طاعة الله سبحانه وتعالى من أهم الصفات المميزة لبني إسرائيل، ولعل تلكؤهم في ذبح البقرة يؤكد لنا ذلك، لاسيما أنهم لم يذبحوها إلا بعد أن غرهم لونها الأصفر الذي يذكرهم بعجلهم الذّهبي، وهم

---

1 – الخشبة غطاس عبد الملك، رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية، والخروج منها، دار الهلال، القاهرة، مصر، ط1، 1997 م. ص180–200.

2 - طنطاوي محمد سيد ، بنو إسرائيل في القرآن والسنة، دار الشروق ، القاهرة. ط1 ،1997م، ص363 –368 .

بذلك يولون هذا اللون خصوصية تضفي عليه نوعا من القداسة والوقار[1].(ولا يزال الأمريكيون يفضلون هذا اللون عن سائر الألوان إلى يومنا هذا).

ويأمر موسى عليه السلام بني إسرائيل بالسير إلى الأرض المقدسة، وهي أرض بيت المقدس، تنفيذا لأمر الله تعالى. فما كان من قومه إلا أن رفضوا أمر الله سبحانه وتعالى خوفا من الموت ورغبة في الحياة، أيا كانت هذه الحياة﴿يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22)﴾(المائدة)" ثم قالوا:﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24)﴾(المائدة). ثم يدعوا موسى ربه :﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26)﴾(المائدة)".

والتحريم كان مطلقا، أما مدة التيه فكانت أربعين سنة على رأي بعض المفسرين[2]. ولكن الراجح أنها مع ذلك الجيل الذي أرهقه الاستعباد والذل والطغيان[3]. ولعل فترة التيه أسست لجيل جديد خال من الصفات والمزايا التي تميز بها الجيل السابق. إذ إن فترة حضانة الأخلاق- كما يرى ابن خلدون – مدتها أربعون سنة[4]. ومع ذلك نقول : إن الجيل الجديد لم ينفصل عن حياة الذل والقهر والحرمان التي عاشها غيرهم، بل تمسكوا بخصال التمرد وخصال الكبر وسوء الأدب مع الأنبياء، ولعل ما يؤكد ذلك مجموعة الثورات التي قادها الإسرائيليون على موسى وهارون عليهما السلام. إذ اتهمتهما جماعة من شيوخ إسرائيل بالترفع على جماعة الرب، وسعوا إلى خلع موسى عليه السلام، لكن الله رد كيدهم إلى نحرهم وحفظ نبيه من كل سوء[5]. وبعد أن كتب الله سبحانه عليهم التيه، أقام لهم موسى عليه السلام معجزة جديدة، ففجر لهم بعصاه اثني عشر عينا لكل قبيلة عين تشرب وتسقي منها. قال الله تعالى:﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)﴾(البقرة). ثم سألوا ربهم الطعام، فأنزل عليهم المن والسلوى، وسألوه الظل فظلل عليهم الغمام:﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(57)﴾(البقرة).ثم قست قلوبهم بعد كل ذلك:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

---

[1]- بيومي مهران محمد ، بنو إسرائيل، ج1، ص423.

[2]- الزمخشري، الكشاف، ج1، ص656-657 / ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص280.

[3]- قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج2 ، ص697.

[4]- ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار الفجر للتراث، القاهرة. مصر. ط1. 2004 م. ص185.

[5]- ينظر: الخروج ، عدد 16، ص22 – 35

يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(البقرة:74). ولخبثهم وسوء نيتهم لم يعجبهم كل ذلك، فها هم يفضلون الذي هو أدنى على الذي هو خير[1] . قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة:61).

وفي فترة التيه، يرسل الله سبحانه وتعالى ملك الموت إلى موسى عليه السلام فيخيّره بين الحياة والموت، فيقول موسى عليه السلام:" رب أمتني قرب الأرض المقدسة، فيقبض ملك الموت روحه على مرمى حجر من بيت المقدس". ويبقى بنو إسرائيل في تيههم وظلالهم، وهذا جزاء كل متكبر كذاب لا يؤمن بيوم الحساب.

*__بنو إسرائيل في صدر الإسلام__: لما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وضع أسس المجتمع المدني ووحد بين الطوائف، ووضع الاتفاقيات، التي تضمن لأهل المدينة العيش بسلام، لكنه ووجه بالتحدي والعناد من اليهود والمنافقين. وكان بإمكان اليهود أن تكون لهم المكانة العليا في الدنيا والآخرة، لو أنهم اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة، لكن طبيعتهم التي نبتوا عليها من الكبر، والحسد، والخديعة، والمكر، جعلتهم يقفون منه موقف العداء الأبدي، وعلاقة اليهود بالمسلمين هذه الأيام خير دليل، فهاهم ما يزالون يحاربون الدين الذي جاء به، وكل ما اعتنقه، أو سعى إلى تطبيقه في واقع الناس، فهاهم ينشرون بذور الفرقة، والغش، والاختلاف بين أبناء الوطن الواحد، فما بالك بالأوطان الإسلامية جميعا.

لقد توزع اليهود في المدينة إلى ثلاثة أقسام هي[2]:

-يهود **بني قينقاع**: وهم ممَن خالط المسلمين في المدينة .

-يهود **بني قريظة**، ويهود **بني النضير**: وكانوا يسكنون حصونا منيعة في ضواحي المدينة .

-يهود **خيبر**، وغيرها من القرى الواقعة بين المدينة والشام: حيث يوجد أكبر مركز تجمع لليهود في شمال الحجاز.

أراد الرسول صلى الله عليه وسلم التقرب من اليهود، اعتقادا منه أنهم سيرحبون بدعوته، ويعوضون ما خسروه مع آبائهم وأجدادهم من قبل. لكن اليهود رغبوا في توقيع معاهدة مع الرسول صلى الله عليه وسلم لخداعه، والانقضاض عليه.

1- القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ-2006م.ج ، ص388-.405.

2- ينظر: صابر طعيمة: التاريخ اليهودي العام، ج2، ص15.

فبدأ اليهود في مقاومة الدعوة الإسلامية، بطرق عديدة: جدال ومراء، ومحاولة التشكيك في نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فتواطأ اثنا عشر حبرا من أحبار يهود خيبر، فقال بعضهم لبعض:"أدخلوا دين محمد أول النهار باللسان دون اعتقاد القلب، ثم أعلنوا كفركم آخر النهار ، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا، فوجدنا أن محمدا ليس المبعوث الذي كنا ننتظره، وقد ظهر لنا كذبه، فإذا فعلتم ذلك، شك أصحاب محمد في دينه واتهموه، وقالوا عنا: إننا أهل الكتاب وأعلم بذلك، ولعل هذه الشبهة تجعلهم يشكون في دينهم، فيرجعون عنه"، ولما دبّروا هذه الحيلة، أخبر الله نبيه بها، فلم تتم لهم، ولم يحصل لها أثر. قال الله تعالى:﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(آل عمران: 72).

شخصية بني إسرائيل في القرآن:

نزلت الآيات تَتْرَى في كشف ألاعيب اليهود، ومخططاتهم وكذبهم المفضوح على الخالق عز وجل. قال تعالى:﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (183)﴾آل عمران".

ولما عجز اليهود عن مقاومة الحق، أخذوا يفكرون في النيل من المسلمين بقتالهم، وبث روح الفرقة بينهم، فقام "شاس بن قيس" اليهودي، فأشار إلى شاب من اليهود بالجلوس بين الأوس والخزرج، وأخذ يذكرهم ب"يوم بعاث"، وأثار حمية الجاهلية في نفوسهم ، فتداعوا للقتال حتى إذا بلغ الأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، خرج إليهم وقال:"أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم"[1] .

وظهرت العداوة جلية، وتنزلت الآيات القرآنية، لتحط من شأن اليهود، وتطعن في أقوالهم وأفعالهم، قال الله تعالى:﴿الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(البقرة: 146).

ولما قبل اليهود بأن يكونوا امتدادا للعصاة من بني إسرائيل في عصر موسى عليه السلام؛ كقتلهم الأنبياء، وسجودهم للعجل، وغير ذلك من مظاهر الردة في بني إسرائيل كما ورد في قوله تعالى:﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)﴾(البقرة).

لقد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم حجم المؤامرة التي تحاك ضده من قبل اليهود، فأخذ يُعِدّ العُدّة لمواجهتهم والنّيْل منهم.

1- ابن هشام محمد، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1410هـ- 1990م.ج2، ص204

لقد تحالف اليهود مع المنافقين، وجعلوا يشككون في صدق النبوة، بما أثاروه من قضية تحويل القبلة، فقالوا:"يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك"[1] .

ولما وقعت غزوة بدر الكبرى، والتي حقق فيها المسلمون نصرا مؤزرا، وأسهم هذا النصر في بسط نفوذهم على المدينة وما حولها، جاء الرسول صلى الله عليه وسلم – بعد بضعة أيام منها – إلى حي بني قينقاع، وجمعهم بسوقهم ثم قال:"يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم. قالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لإن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس"[2].

ولم يتوقف اليهود عن محاولاتهم في النيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صحابته الكرام، فأخذ زعيم بني النضير، كعب بن الأشرف، في رثاء قتلى بدر من المشركين، وتحريضهم على الثأر من المسلمين، ولم يكتف بذلك بل تشبب بالنساء المسلمات، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة ومفرزة من رفاقه بقتله، فقتلوه في عقر داره[3].

وفي غزوة "أحد"، أعرض اليهود – ومن تحالف معهم من المنافقين – عن نصرة المسلمين، أو الذود عن حياض المدنية، وأخذوا في تثبيط الهمم، وبث الأكاذيب والشائعات لإضعاف معنويات الصحابة الكرام.

ولما ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه إلى "بني النضير" يستعين بهم في دفع دية رجلين قتلهما المسلمون خطأ، سارع اليهود إلى التخطيط للقضاء عليه، بإلقاء صخرة عليه وهو جالس في فناء أحد البيوت. لكن الله عز وجل منع ذلك، فأوحى الله إلى نبيه بخبر القوم، فخرج إلى المدينة ليرسل محمد بن مسلمة برسالة يطلب منهم الرحيل[4].

وقد لعب المنافقون في المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، دورا بارزا في تأليب اليهود على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وفي التغرير بهم، لما كانوا يقولون لهم:" البثوا وتمتعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم، قاتلنا معكم، وإن خرجتم، خرجنا معكم[5].قال تعالى﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

1– ابن هشام محمد، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ص 198.

2– المرجع نفسه ، ص201.

3– المرجع نفسه ، ص436.

4– ينظر: البوطي: محمد سعيد رمضان: فقه السيرة النبوية، دار الفكر، بيروت، لبنان، دمشق، ط11 ،1991م ، ص190.

5– ينظر : قطب سيد ، في ظلال القرآن ، مج08 ، ج28 ، ص42-43.

أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11)﴾الحشر".

ثم اتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى حصون بني النضير، فضرب عليها حصارا لإحدى وعشرين ليلة، وأمر بقطع النخيل والتحريق فيها، إذ كانت حصونهم تتميز بالقوة والمنعة. قال تعالى﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر:14). ولما علم اليهود بخذلان عبد الله بن أبي شيخ المنافقين، نزحوا عن منازلهم بعد أن أثخنوها بالهدم والتخريب[1]، قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾(الحشر: 2).

وما إن استقروا في خيبر، حتى أخذ زعماؤهم يخططون للنيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذوا يحزّبون الأحزاب ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتاب الأول، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن تبعه، فأنزل الله سبحانه قوله:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (51) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52)﴾(النساء).

وقد تحزب لذلك أكثر من عشرة آلاف مقاتل، مسلحين بأفخر الأسلحة، ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، لكنهم لم يفلحوا في إعداد الروح المعنوية القادرة على القتال والمواجهة، رغم اتصالهم ببني قريضة التي كانت قد أبرمت الصلح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن دسائس حيي بن أخطب ومن معه، جعلت الميثاق ينقض، وهنا تضاعفت معاناة المسلمين، ويقول الله تعالى مصورا هذا المشهد في قوله:﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11)﴾(الأحزاب). ولكن النبي (صلى الله عليه وسلم) استطاع بحكمته أن يحبط كل مخططاتهم، فعقد معاهدة مع بني غطفان، على أن يرجعوا عن قتاله، وقتال صحابته ولهم ثلث ثمار المدينة وبهذا عمت الخلافات أوساط المشركين، وأرسل الله سبحانه بقدرته الرياح في أيام شديدة البرودة، فقفلت قريش ومن معها راجعة إلى بلادها[2].

---

[1]- ينظر: الزمخشري محمود بن عمر: الكشاف، ج4 ، ص501

[2]- ينظر: ابن هشام. محمد-سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ج3 ، ص233-235.

حاصر النبي صلى الله عليه وسلم يهود بني قُريضة لأكثر من خمسة وعشرين يوما، حتى أجهدهم الحصار ونزلوا على حكمه. وكانت غزوة بني قريضة حالقة للوجود اليهودي في يثرب، وأسهمت في خفوت صوت المنافقين[1] .قال الله تعالى:﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (25)﴾(الأحزاب).

ولما انتهت غزوة بني قريضة، انقضت مفرزة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخزرج على سلام بن أبي الحقيق، وهو من أكابر مجرمي اليهود الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين فأردوه قتيلا[2].

ولما كان من أمر صلح الحديبية ما كان، عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم العزم على ضرب يهود خيبر في عقر دارهم، لما قاموا به من المكر والخديعة، فهم الذين حزّبوا الأحزاب ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين أثاروا حفيظة بني قريضة...بل أخذوا يعدون أنفسهم لقتال المسلمين، فأعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم العدة، وانطلق إلى وعد الله،[3] يقول سبحانه وتعالى:﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20)﴾(الفتح).

وسارع منافقوا المدينة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي إلى يهود خيبر يخبرهم بما يخطط له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسارع اليهود إلى الاتصال ببعض القبائل للقتال في صفهم، وتحرك جيش المسلمين بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأحاط بحصون خيبر المنيعة، وبدأت المحاولات باختراقها والنفاذ إليها، إلى أن أعطى الراية لرجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، على بن أبي طالب (رضي الله عنه)، لتبدأ المواجهة والحصار...فسألوه الصلح، فصالحهم على حقن دماء من بقي منهم، وترك الذرية لهم على أن يخرجوا من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلون لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما بقي من المال والأرض والخيل[4].

ولكن محاولات اليهود لقتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يتوقف، فقد بعثت اليهودية زينب بنت الحارث بشاة مسمومة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلاك منها الذراع، ثم لفظه بعد أن أوحى الله إليه

[1]– ينظر: ولفنسون إسرائيل، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر. ط1، 1914م. ص154–155.

[2]– ينظر: المباركفوري صفي الرحمن، الرحيق المختوم، دار السلام للنشر والتوزيع، السعودية، دط، 1428هـ– 2007م. ص282–283.

[3]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص217.

[4]– المباركفوري: الرحيق المختوم، ص316–325 .

بأمرها[1]. ولما طفق الوجع يشتد برسول الله عند الوفاة، ظهر أثر السم الذي أكله في خيبر، ثم أوصى بأن لا يبقى دينان بأرض العرب[2].

نلاحظ مما سبق أن بني إسرائيل جنس لا يقابل النعمة بالشكر والحمد، وإنما يقابلها بالإساءة والعصيان المبين، وعدالة الله عليهم حق، إلا فئة قليلة منهم فهي أمة صابرة موحدة. أما البقية فلا خير فيهم.

*__موقف اليهود من الرسول (صلى اله عليه وسلم) ودعوته:__ عندما هاجر الرسول(صلى الله عليه وسلم) شرع في توحيد المجتمع، من خلال بناء المسجد، والمآخاة بين المهاجرين والأنصار، ووضع اتفاقيات تكفل للمجتمع المدني العيش بسلام. لكن الرسول(صلى الله عليه وسلم) كغيره من الأنبياء ووجه بالتحدي والعناد والكِبْر والإرجاف والتثبيط وغيرها من معوقات الدعوة. فقد وقف اليهود موقفاً عدائياً تجاه الرسول(صلى الله عليه وسلم)، فحابوه باللسان والسنان، وسعوا للتفرقة بين المسلمين، وقد انقسموا إلى ثلاث طوائف – نعيد ذكرها – وهي:

- بنو قينقاع؛ وهم ممن خالط المسلمين في المدينة.
- بنو قريظة، وبنو النضير؛ وهم ممن كانوا يسكنون حصوناً منيعة في ضواحي المدينة.
- يهود خيبر وغيرها؛ وكانوا يسكنون القرى الواقعة بين المدينة والشام، حيث يوجد أكبر تجمع لليهود في شمال الحجاز[3].

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يرغب في التقرب إلى اليهود، لاعتقاده أنهم سيرحبون به، وبدعوته التي لا تختلف في جوهرها عن دعوة آبائهم وأجدادهم. لذلك عقد معهم معاهدة فور وصوله إلى يثرب[4]. لكن اليهود عُرفوا منذ القديم بمكرهم وخداعهم ونكث العهود، فبدأوا بمقاومة الرسول(صلى الله عليه وسلم) وأخذوا يجادلونه ويشككون في صدق نبوته، بأسلوب خبيث مثل؛ دخولهم الدين في أول النهار، وإعلانهم الكفر في آخره. ثم قولهم: إنّ محمداً ليس هو المبعوث الذي كُنا ننتظره. وبهذا الأسلوب حاولوا التشكيك في دينه، والله سبحانه يخبر نبيّه بهذه الحيلة، ويتم التعامل معها بحكمة، فلم يكن لها أثر يذكر.

[1]– البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، صحيح البخاري ، مج02 ،رقم الحديث 2617 ، ص191 .

[2]– ابن هشام محمد، سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ج3 ، ص352.

[3] - ينظر: صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، ج2، ص15.

[4] - ينظر: ولفنسون إسرائيل، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص 112.

ويميط القرآن الكريم اللثام عن الشخصية اليهودية، لتظهر جلية للمؤمنين، فيعنّف هؤلاء اليهود لأنهم لم يوفّوا بما وعدوا به. فقد كانوا يقولون: إذا ما بعث إلينا رسول سنؤمن به ونتبعه، ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم كفروا به، فكان أن لعنهم الله بكفرهم.

ولما لم يتحقق لليهود ما أرادوا من مناجزة الحق، لجأوا إلى التفكير بقتال المسلمين، والتفريق بينهم؛ فأخذوا يُذكّرونهم بأيام الجاهلية، ويثيرون حميتها في نفوسهم، فتداعوا للقتال. كلن الرسول(صلى الله عليه وسلم) أدرك الموقف، وقضى على الفتنة في مهدها بقوله:« أبدعوى الجاهلية وأنت بين أظهركم؟!»[1].

وتنزلت الآيات القرآنية، تحط من شأن اليهود، وتبيّن عداوتهم للمؤمنين، وتطعن في أقوالهم وأفعالهم. قال الله تعالى:﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:146). وقال عز من قائل:﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (المائدة:82).

وقد ذكر القرآن الكريم اليهود بما ارتكبه أسلافهم من ألوان الردة والتمرد؛ كعصيانهم لموسى عليه السلام، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وسجودهم للعجل. وقد مارس خلفهم هذه الأعمال ضد الرسول(صلى الله عليه وسلم)، فحاولوا قتله. هنا يأخذ الرسول(صلى الله عليه وسلم) في إعداد العدة لمواجهتهم والنيل منهم.

فوقعت غزوة بدر الكبرى التي حقق فيها المسلمون نصراً مؤزراً، أسهم في بسط نفوذهم على المدينة وما حولها. وبعد مرور بضعة أيام، حاصر الرسول(صلى الله عليه وسلم) بني قينقاع - لاعتدائهم على امرأة مسلمة وقتلهم مسلماً - حتى تزلوا على حكمه، فجمع كل ما يملكون من أموال وسلاح، ووزعه على الأنصار، وابقى لهم النساء والأطفال. وأمهلهم ثلاثة أيام للرحيل، فرحلوا إلى إخوانهم في القرى المجاورة للمدينة المنورة[2].

ولم يتوقف اليهود عن إساءتهم للرسول(صلى الله عليه وسلم) ولصحابته الكرام، فهذا كعب بن الأشرف - بني النضير - يأخذ في رثاء قتلى بدر من المشركين، وحرّض قبيلته بني النضير على الثأر من المسلمين. ولم يكتف بذلك، بل أخذ يشبّب بنساء المسلمين، فأمر الرسول(صلى الله عليه وسلم) محمد بن مسلمة بقتل كعب فقتله في عقر داره[3].

---

1 - ابن هشام، سيرة النبي(ص)، ج2، ص 204.

2 - ينظر: ابن هشام، سيرة النبي(ص)، ج2، ص 201.

3 - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص 436.

وفي غزوة أحد أعرض اليهود والمنافقون عن نصرة المسلمين، فا×ذوا يثبطون الهمم، ويبثون الأكاذيب ويرسلون الشائعات، لإضعاف معنويات المسلمين. وحاول يهود بين النضير قتل الرسول(صلى الله عليه وسلم) إلقاء صخرة عليه. لكن الله سبحانه حفظه وحال دون وقوع ذلك، فأوحى تعالى إليه بذلك، فأمر النبي(صلى الله عليه وسلم) محمد بن مسلمة أن يبلغهم رسالة مفادها الرحيل عن المدينة[1].

لكن رهطاً من بني الخزرج غرّروا بهم، وأمروهم بالبقاء في المدينة، وأنهم سيقاتلون معهم المسلمين بقيادة الرسول(صلى الله عليه وسلم). ثم توجه الرسول(صلى الله عليه وسلم) إلى حصون بني النضير، فضرب عليهم حصاراً، فعلموا بخذلان عبد الله بن أبيّ لهم - وكان على رأس المنافقين من بني الخزرج - نزلوا على حكم رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، ونزحوا عن منازلهم بعد أن أثخنوها بالهدم والتخريب. قال تعالى:﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر:2).

ولما استقروا في خيبر أخذوا يفكرون ويخططون لإعادة الكرّة، والنيل من الرسول(صلى الله عليه وسلم) والمسلمين، فاخذوا يحزّبون الأحزاب، وقد تحزّب لذلك أكثر من عشرة آلاف مقاتل، وأعدوا العدة المادية. لكنهم لم يفلحوا في إعداد العدة المعنوية القادرة على القتال والمواجهة.

ولما علمت الأحزاب بصعوبة تحقيق النصر على المسلمين، اتصلوا ببني قريظة، الذين رفضوا نقض اتفاقهم - في البداية - مع الرسول(صلى الله عليه وسلم)، ونقض الميثاق الذي عقدوه معه. ولكن دسائس حيي بن أخطب جعلتهم ينقضون الميثاق، ويتحالفون مع الأحزاب. وهنا تضاعفت معاناة المسلمين.

لكن الرسول(صلى الله عليه وسلم) بحكمته استطاع أن يحبط كل مخططاتهم، فعقد معاهدة مع بني غطفان عل أن يرجعوا عن قتاله وصحابته، ولهم ثلث ثمار المدينة. وبهذا عمّت الخلافات أوساط المشركين، وأرسل الله سبحانه عليهم ريحاً في ايام شديدة البرودة، قفلت قريش ومن معها راجعة إلى بلادها[2].

ونتيجة لما كان من اليهود في هذه الحرب، حاصر النبي(صلى الله عليه وسلم) يهود بني قريظة لأكثر من خمسة وعشرين يوماً، حتى تواثب الأوس يطلبون من رسول الله(صلى الله عليه وسلم) أن يرفق بيهود بني قريظة - إذ كانوا من مواليهم في الجاهلية - فقال الرسول:« ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال:

[1] - ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية، ط11، دار الفكر، دمشق - بيروت، 1991، ص 190.

[2] - ينظر: ابن هشام، سيرة النبي(صلى الله عليه وسلم)، ج3، ص 233 - 235.

فذاك إلى سعد بن معاذ. ثم حكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى النساء والذراري. فقال رسول الله(صلى الله عليه وسلم): لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات »[1].

ومهما يكن من حال، فإن ذه الغزوة فضت على الوجود اليهودي في يثرب، وأسهمت في خفوت صوت المنافقين. وما أن انتهت غزوة بني قريظة، حتى انقضّت مفرزة من صحابة رسول الله(صلى الله عليه وسلم) من الخزرج على سلام بن أبي الحُقيق، وهو من أكابر مجرمي اليهود الذي حزّبوا الأحزاب ضد المسلمين فأردوه قتيلا[2].

ولما كان من أمر صلح الحديبية ما كان، عقد رسول الله(صلى الله عليه وسلم) العزم على ضرب يهود خيبر في عقر دارهم، لما قاموا به من المكر والخديعة. فهم الذين حزّبوا الأحزاب ضد الرسول(صلى الله عليه وسلم)، وهم الذين أثاروا حفيظة يهود بني قريظة، وأسهموا في بث الدسائس والفتن، وأخذوا يعُدّون العدّة لقتال المسلمين.

وسارع منافقو المدينة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ إلى يهود خيبر، يخبرونهم بما يخطط له رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، فسارع اليهود إلى الاتصال ببعض القبائل للقتال في صفوفهم. وتحرك جيش المسلمين بقيادة الرسول(صلى الله عليه وسلم)، فأحاط بحصون خيبر المنيعة، وبدأت محاولات اختراقها والنفاذ إليها، وأعطى النبي(صلى الله عليه وسلم) الراية علياً ابن أبي طالب(صلى الله عليه وسلم)، وبدأ الحصار والمواجهة. فطلب اليهود الصلح، فصالحهم(صلى الله عليه وسلم) على حقن دماء من بقي منهم، وترك الذرية لهم، على أن يخرجوا من خيبر، ثم أوصى بأن لا يبقينّ دينان بأرض العرب[3].

ومجمل القول هو: إن الله سبحانه وتعالى أنعم على اليهود بنعم كثيرة، لكنهم تمردوا وعصوا، فأنزل بهم أشد العقاب، وسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، إلاّ المؤمنين منهم - وهم قليل - منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقين. إنهم أضاعوا الفرصة الأخيرة مع النبي(صلى الله عليه وسلم) ليعودوا إلى الحق، ولكن كعادتهم لا يتعلمون الدرس، فقد غلب طبعهم على تطبعهم. وفي ذلك دليل قاطع على إعجاز القرآن الكريم في وصفهم.

---

[1] – ينظر: المباركفوري، الرحيق المختوم، دار الوفاء، القاهرة 2003م، ص 279.

[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص 282 – 283.

[3] – ينظر: ابن هشام، سيرة النبي(صلى الله عليه وسلم)، ج3، ص 352.

3 – **رسالة عيسى إلى بني إسرائيل**: وذلك مصداقاً لقوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(الصف:6). وقوله جل وعلا:﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(آل عمران:49). وأكد الإنجيل هذه الحقيقة إذ ورد فيه قوله:« لم أرسل إلاّ إلى خراف بني إسرائيل الضالة »(متّى:15 :24). وفي وصيّته للحواريين قال:« إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للعامريين، لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بني إسرائيل الضالة »[1].

لقد طغى اليهود على شريعة الله لموسى وحرّفوها، وتلاعبوا بنصوص التوراة، فأرسل الله إليهم عيسى ليردّهم عن ضلالهم إلى الرشد. فجاء يعلمهم ما أنزل الله إليهم من أحكام، وليحلّ لهم بعض ما حرّم عليهم من قبل بسبب غيّهم وفسادهم وعدوانهم، إذ قال تعالى مبيّنا هذه المهمة في كتابه العزيز:﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾(آل عمران:49 – 50).

فلم يأت عيسى عليه السلام بشريعة جديدة، وإنما جاء مكملاً لرسالة موسى عليه السلام، ومالئاً الفراغ الذي أحدثه اليهود في شريعة موسى، خاصّة في الجوانب الروحية، وجاء مبشّراً بمجيء محمد(صلى الله عليه وسلم) من بعده، وممهّداً لرسالته.

فكيف كان موقف اليهود والحواريين من رسالة عيسى عليه السلام؟

---

1 - متّى:10: 5 – 6.

المبحث الثالث*موقف الحواريين، واليهود من رسالة عيسى (عليه السلام).

***من هم الحواريون؟**: هم الصفوة التي آمنت بعيسى عليه السلام، ونصرته في الإيمان والعمل، وأخلصت في تصديقها[1]. ويرجع البعض سبب هذه التسمية لبياض ثيابهم. وهناك من قال: سمّوا بذلك لنقاء قلوبهم من كل نفاق وريبة[2]. فالحواريون هم الفئة التي نصرت عيسى عليه السلام. وهو اثنا عشر رجلاً، بعثهم عيسى عليه السلام في القرى اليهودية يدعون للرسالة التي جاء بها عليه السلام من عند الله. وهكذا آمن الحواريون بعيسى حين كفر به الناس، ونصروه حينما خذله الناس. وقد حث الله أتباع محمد(صلى الله عليه وسلم) بأن يكونوا كالحواريين. قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾(الصف:14).

لكن الإنجيل يتهم بعضهم بالخيانة، ويتهم البعض بأنه كان يبحث عن منفعة شخصية، بينما لم يأت القرآن على ذكر خيانة الحواريين، إنما أشاد بهم، وقد طلب من المؤمنين أن يحذوا حذوهم في مساندتهم لمحمد(صلى الله عليه وسلم) مثلما ساندوا هم عيسى عليه السلام. لقد صحّح القرآن أباطيل من كتبوا الأناجيل، وحرّفوا دين الله وشريعته، وردّ البشرية إلى صراط الله المستقيم وطريقه المنير.

* **تآمر اليهود على قتل عيسى (عليه السلام)**: لم يلق عيسى عليه السلام من اليهود إلاّ التكذيب والإنكار، وأخذوا في منع الناس من سماعه. ولما رأوا الفقراء والضعفاء يتبعونه أخذوا يكيدون له. ولم يكن عيسى عليه السلام يدعو إلاّ إلى إصلاح النفوس والأخلاق، ولم يتجه لإصلاح الحُكم[3]. فلما ضاقوا به ذرعاً قرروا التخلص منه.

لقد حاولوا القضاء عليه بالكذب عليه، فادعوا أنه يحرض على عدم إعطاء الجزية لقيصر الروم، وأنه يثير الشغب ضد الدولة، وبأنه يدعي أنه ملك اليهود، وبأنه ينوي الاستقلال عن الحكم الروماني[4]. اجتمع رؤساء الكهنة وتشاروا للتآمر عليه، بعد أن قرّروا قتله، فأخذوا يثيرون عليه ببلاطس[5]. وقد أشار القرآن الكريم إلى تآمرهم

---

[1] - الفاضلي داود علي، أصول المسيحية كما يصورها القرآن الكريم، مكتبة المعارف، الرباط المغرب.دط،1393هـ- 1973م. ص 83 - 84.

[2] - الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج8، ص63.

[3] - أبو زهرة محمد، محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1381هـ- 1966م. ص 23.

[4] - بسمة أحمد، تحريف رسالة المسيح عبر التاريخ، أسبابه ونتائجه، دار القلم، دمشق، سورية. دط، 2000م. ص 61.

[5] - بطرس عبد الملك ، قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة المسيحية، مصر،دط،2001م. ص 217.

عليه بقوله عز وجل:﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾(آل عمران:54). وقد أفشل الله سبحانه وتعالى مكيدتهم، ونجّى نبيّه عليه السلام.

إن السبب **الأول** لكراهية اليهود لعيسى عليه السلام، ومحاولتهم قتله، هو أنهم اعتقدوا أنه المسيح المنتظر الذي جاء يخلّصهم من ظلم الرومان، ويخضع الشعوب لهم، وقد أعَدّوا أنفسهم لتنصيبه ملكاً عليهم، لكنه رفض الأمر مما حطّم آمالهم، وأحال الحب له إلى كراهية مما جعلهم يفكرون في قتله[1]. هذا السبب الأول.

أما السبب **الثاني** فهو اغتياظ اليهود من عيسى عليه السلام؛ عندما أخبرهم بأن النبي المنتظر سيكون من نسل إسماعيل، واسمه أحمد، وسيهلك من يعاديه من اليهود[2].

والسبب **الثالث** أن زهد عيسى عليه السلام، وتركه الدنيا ومالها، وحب اليهود لجمع المال وأخذه من أشد الناس حاجة، وطلب عيسى من أحد الذين اتبعوه بأن يترك ماله. قال له يسوع: إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني »[3].

كل هذا أثار حفيظة اليهود عليه فجعلوا يمكرون به. ومما ورد في إنجيل متّى قول عيسى عليه السلام:« لا تكنزوا لكم كنوزاً في الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون، بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، ويحث لا ينقب سارقون ولا يسرقون، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً »[4].

وهذا هو ديدن اليهود في التخلص من الأنبياء ومعاداتهم إلى آخر نبي بعث. وهم يجهرون بهذا ولا يخفونه. يقول تعالى:﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾(النساء:157). ولكن الله تعالى يد عليهم ويفضح كذبهم بقوله:﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾(النساء:157). فاليهود يتباهون بجرائمهم، وهم مستعدون لتحمّل أعبائها. وهم الذين قالوا حسب ما ورد في إنجيل متّى« دمه علينا وعلى أولادنا »[5]. فهم دمويون إلى أن يرث الله الأرض ومن علينا.

---

[1] - الطهطاوي محمد عزت، الميزان في مقارنة الأديان النصرانية والإسلام، دار القلم، دمشق، سورية. ط2، 1995م. ص 236.

[2] - السقا أحمد حجازي، أقانيم النصارى، مكتبة النافذة، القاهرة، مصر. دط، دت. ص86.

[3] - متّى: 19 :21.

[4] - متّى:06: 19 :21.

[5] - متّى 27: 25.

*رفع عيسى عليه السلام: توفى الله عيسى عليه السلام، ورفعه إليه كما جاء في قوله تعالى:﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(آل عمران:55). لكن الله تعالى لم يبيّن كيفية الوفاة ولا كيفية الرفع، ولا إلى أين تم ذلك.

واختلف العلماء في هذه القضية، وهذا الأمر، فهناك من قال بأن الله قد رفعه إليه بالروح والجسد، وهذا ما ذهب إليه الجمهور[1]، لكنهم اختلفوا في السماء التي رفع فيها. فحديث المعراج يدل على أنه عليه السلام في السماء الثانية[2]، ويُعدّ رفعه من معجزاته. ودليل الجمهور قوله تعالى:﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(آل عمران:55) فقد ورد في التفسير« معنى ذلك؛ إن قال الله يا عيسى إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفّيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا »[3]. فالله تعالى قد رفعه إليه وهو في السماء رفعاً حسياً ومعنوياً؛ فالرفع رفعة وتقريب من الذات الإلهية، وتطهير للنفس من دون ونجس الدنيا ووضاعتها.

وقد نقل عن إجماع علماء الأمة وفقهائها ومفسريها ومحدّثيها منذ القرن الأول وحتى وقتنا هذا على صحة الخبر بنزول عيسى عليه السلام إلى الأرض مرة أخرى قبل يوم القيامة[4]. ويرى النصارى كذلك هذا الأمر، وفي كتب اليهود ما يشعر به[5]. ويشير إليه ولا ينكر هذا إلاّ الفلاسفة والملاحدة.

وقد أجمعت الأمة أنه ينزل ويحكم بالشريعة المحمدية؛ لا بشريعة أخرى. قال صاحب لباب التأويل معلّقاً على حديث الرسول(ص)« لينزلنّ فيكم ابن مريم حكماً عدلاً » بقوله: ففي هذا الحديث دليل على أن عيسى ينزل في آخر الزمان في هذه الأمة، ويحكم بشريعة محمد، وأنه لا ينزل نبيّاً برسالة مستقلة وشريعة ناسخة، بل يكون حاكماً من حكام هذه الأمة، وإماماً من أئمتهم[6]. ويكون نزوله من أشراط الساعة.

إن الحوار مع الأخ والصديق أو مع الخصم المخالف في القرآن الكريم، هو عملية حضارية بامتياز، لأنه يدعونا إلى مراعاة مقتضيات الحديث والجدال وآدابهما، وذلك لتحقيق الغاية من خلق الإنسان؛ وهي التعارف

---

[1] - مهران محمد بيومي، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، في بلاد الشام ، دار النهضة العربية، بيروت ، لبنان، ط2، 1958م، ص 344.

[2] - صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى:«ذكر رحمة ربك عبده زكريا»، ج2، رقم 3467، الدليل الخامس من أدلة الجمهور.

[3] - الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج3، ص 203.

[4] - المودوي أبو الأعلى، ما هي القاديانية؟ مؤسسة الرسالة، السعودية، ط1، 1984م.ص 153.

[5] - حوى سعيد، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة. ط6، 2016م ،ج2، ص 1232.

[6] - الخازن علاء الدين البغدادي، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت، دط، 1399هـ-1979م. ج1، ص 516.

والتذاكر، والتعاون الفكري، بما يخدم تقدّم البشرية ورخاءها؛ مادة ومعنى. ويتجسد ذلك فيما سنعرضه من نماذج حوارية قرآنية تصب في هذا الموضوع، في الباب الموالي...

البـــــاب الثـــــــاني

محاورة أهل الكتاب في القرآن الكريم ؛ مقاربة تداولية .

الفصل الأول: * نماذج من الحوار في القرآن الكريم.وأبعاده.

الفصل الثاني: *الحوار القرآني مع أهل الكتاب، وأغراضه التداولية.

الفصل الثالث:*محاورة القرآن بني إسرائيل وتذكيرهم بنعم الله عليهم.

الفصل الرابع: *المنهج القرآني في محاورة أهل الكتاب وقوّته الإنجازية.

الفصل الأول: * نماذج من الحوار في القرآن الكريم وأبعاده.

المبحث الأول: حوار الله سبحانه مع مخلوقاته.

المبحث الثاني: حوارات المخلوقين فيما بينهم.

المبحث الأول: *حوار الله مع مخلوقاته.

من بين هذه الحوارات ما جرى بين الخالق سبحانه ومخلوقاته، وكذلك ما جرى بين المخلوقات فيما بينهم؛ أما فيما دار من حوار بين الله ومخلوقاته ،فنجد ما يلي:

***حوار الله مع الملائكة عند خلقه آدم:** بعد أن خلق الله السماوات والأرض اقتضت حكمته أن يخلق خليفته في هذه الأرض، فأخبر الملائكة بذلك إذ قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:30). هذه الآية من سورة البقرة تعتبر أول سورة قرآنية نزلت بالمدينة وفيها يقص الله سبحانه وتعالى على نبيه خلق أبينا آدم عليه السلام. وإذا أجرينا قراءة تحليلية، نجد أن الواو في بداية الآية عاطفة على ما قبلها، وقد عطفت قصة خلق آدم الأصل الأول للبشر، على قصة خلق السماوات والأرض في الآية (29) من ذات السورة. فبعد الاستدلال على أن الله واحد وعلى بطلان الشرك، تمّ الارتقاء إلى « خلق النوع الذي هو سلطان الأرض والمتصرف في أحوالها»[1]. ليبين سبحانه وتعالى أنه ما خلق السماوات والأرض وما فيهما إلا ليهيئ الظروف والأجواء المناسبة ليعيش الإنسان فيها عابدا للخالق الواحد.

وخلق آدم دليل آخر – للأدلة السابقة- أن الأصل في هذه العوالم واحد، وهكذا «ليعلم المسلمون ما كان يعلمه أهل الكتاب من العلم الذي كانوا يباهون به العرب، وهو في سفر التكوين من التوراة»[(2)].

وإذ إشارة إلى زمان مبهم« فاحتاجت إلى ما يبين زمانها عن باقي الأزمنة لذلك لزمت إضافتها إلى الجمل أبداً»[(3)]. وهي في محل نصب على المفعولية ولقد وردت "إذ" كثيرا في القرآن الكريم ودلت على القصص العجيبة وابتدئت بها، وهذه القصص كانت دالة على قدرة الله تعالى، وتقدر "إذ" بفعل "أذكر" ونظيره كثير في القرآن، وهو حذف والحذف مطية للتضمين في البعد التداولي، وقد حذف هنا المسند والمسند إليه فقامت القرينة مكانه وهي"إذ"، والغاية من الحذف هنا هي الاحتراز عن قول ما ليس له فائدة، وهو للاختصار أيضا وللإيجاز.

ويعد ذكر المحذوف زيادة عن الحاجة، وهذا من نواقض قاعدة الكمّ في مبدأ التعاون عند "غرايس"[(4)]،(Grice) الذي ينصّ على:«ألّا تجعل مساهمتك إخبارية بالقدر الذي يفوق المطلوب».

---

1 - الطاهر بن عاشور –التحرير والتنوير- ج1، الدار التونسية للنشر، 1984م، تونس. ص.395

2- المرجع نفسه، ص.395

3 - المرجع نفسه، ص396.

4 - ينظر: جورج يول – التداولية، تر، قصيّ العتابي، دار الأمان– ط1، 2010م، الرباط، المغرب ص68.

وتخصيص اسم الزمان–وهو لفظ إشاري تداولي– دون اسم المكان علّته أن الناس تعارفوا على إسناد الحوادث التاريخية والقصص إلى أزمان وقوعها بالدرجة الأولى. و"الكاف" في ضمير خطاب هو إشارة إلى الرسول –صلى الله عليه وسلّم– وهو من الإشاريات التداولية، جيء به لتمييز المسند إليه تمييزاً يحضره في ذهن السامع بواسطة الإشارة حسًّا، وليبين المخاطب للمخاطَب أنّه قريب منه يرعاه ويحفظه، كيف لا والمخاطب هو الله سبحانه وتعالى. ويأتي الضمير أيضا لتنبيه السامع على ما يرد من كلام بعد اسم الإشارة المتعلق بـ"إذ" لأن ما يذكر جدير بالاهتمام.

والملائكة إشارة إلى مخلوقات الله النورانية، وهم رسل الله إلى عباده مأمورون بالتبليغ أو التكوين، كما في الحديث :« ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الرّوح »[1]، والهاء تعود على الجنين في بطن أمه. والملائكة مخلوقات نورانية «نورها لا شعاع له فلذلك لا تضيء إذا اتصلت بالعالم الأرضي وإنما تتشكل إذا أراد الله أن يظهر بعضهم لبعض رسله وأنبيائه على وجه خرق العادة »[2]. ويمكن أن يفتح قوس فيقال: هذا هو التفسير والتأويل الذي سقط من قاموس التداوليين الغرب، فهم لا يؤمنون بهذه المخلوقات الغيبية أو على الأقل يسقطونها في قراءاتهم وتفسيراتهم، فلا يؤمنون إلا بالمحسوسات العينية التي تدركها الحواس. وعليه، فإن التحليل التداولي – بالمفهوم الغربي– للقرآن الكريم يبقى عاجزا عن الإلمام بأسراره ومعانيه كلها، لأنه لا يؤمن في مفرداته وآلياته بالله ولا بالغيب، ويبقى على الدّارس للقرآن الكريم أن يستخدم الآليات التداولية التي لا تتنافى والعقيدة الإسلامية، ولا تتعارض مع أي معلوم من الدين بالضرورة.

***إخبار الله للملائكة بخلقه لآدم**: ماذا قال الله للملائكة؟. قال الله تعالى:« إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » (البقرة:30). فقد أُكّد هذا الخبر بجملة اسمية وأداة التوكيد "إنّ" لكي لا يدع مجالاً للمناقشة أو الرد أو الاعتراض، والتوكيد هنا دلالة على أن هذا الالتزام ثابت وهذا القرار نافذ وقد اقتضت ذلك الحكمة الإلهية، ومثل هذه الأفعال الكلامية أو الأخبار تصنّف ضمن الالتزاميات عند "سيرل"، وهي عنده من الأفعال الإنجازية التي يلتزم بها المتكلم وينفذها مستقبلا[3]. وما دام الخطاب هو خطاب الله للملائكة فلا مجال للشكّ فيه أو الرّيب. والخليفة في الأصل:الذي يخلف غيره، أو يكون بدلا عنه في عمل يعمله، فهو"فعيل"بمعنى"فاعل". أي "خليف" بمعنى "خالف". والتاء في "فعيلة" للمبالغة في الوصف كالعلامة.

والمراد من "الخليفة" هنا، إما المعنى المجازي، وهو الذي يتولى عملا مثل الوصيّ أو الوكيل، أي:جاعل في الأرض مدبرا يعمل ما نريده في الأرض، وهذا مجاز وليس بحقيقة، لأن الله تعالى لم يكن حالاّ في الأرض، ولا عاملا

1- الطاهر بن عاشور –التحرير والتنوير- ج1، ص398.

2-المرجع نفسه،ص398.

3- نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء، بيت الحكمة، ط1، 2009م، الجزائر. ص29.

فيها العمل الذي أودعه في الإنسان، وهو السلطنة على موجودات الأرض، ولأن الله لم يترك عملا كان يعمله فوكّله إلى الإنسان، بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى[1]. وإما أن يراد من الخليفة معناه الحقيقي إذا صحّ أن الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة من المخلوقات، وهذه المعاني والتأويلات هي بمثابة متضمنات للقول التي دلت عليها قرينة الاسم"خليفة"، هذه الكلمة المعجمية الواردة في الحوار بين الله وملائكته فيها من التلميح والإيحاء ما يساهم في التفاعل الحواري بنوع من الإيجاز الذي يفهم منه الكثير، وبأقل تكلفة لسانية [2]. والتأكيد في قوله تعالى:"إني جاعل" يبين المشيئة العليا التي تريد أن تسلّم لهذا الكائن الجديد-الإنسان-زمام هذه الأرض وتطلق فيها يده، يُبرز فيها مشيئة الله الخالق، في المهمة الضّخمة التي أوكلها إليه[3]، بإلهام، ووحي، وتلقين منه --سبحانه وتعالى- لهذا الإنسان وذريته من هذا العالم الأرضي.

ومن المقاصد التداولية التي نستفيدها من هذه الآية:كونها إيماءً إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة في الأرض يفصل بين الناس في منازعاتهم، إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر دون ذلك. ولهذا أجمع الصحابة الكرام -بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم-على إقامة الخليفة لحفظ نظام الأمة وتنفيذ الشريعة[4]. ولم ينازع في ذلك أحد لا من الخاصة ولا من العامة. فقول الله تعالى موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار والإعلام، ليعرفوا فضل الجنس الإنساني على نحو يزيل ما علم الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس، وليكون هذا القول كالاستشارة تكريما لهم، فيكون تعليما في قالب تكريم. وهذا غرض تداولي نستفيده من هذه الآية، وهو غرض تربوي كذلك فالمعلم الذي يلقي السؤال على تلامذته ويجيب عنه، فالقصد منه التعليم لا التعجيز.

وإسناد القول إلى الله سبحانه بعنوان الرّبّ "ربّك"، يعني أن خلقه لآدم نعمة تدبير منه مشوب بلطف وصلاح، وذلك على معاني الربوبية، ولما كانت هذه النعمة شاملة لجميع النوع الإنساني، أضيف وصف الرّبّ إلى ضمير أشرف أفراد النوع، وهو النبي محمد —صلى الله عليه وسلم- مع تكريمه بشرف حضور المخاطبة[5]. فالإشارة بالضمير "الكاف" دلاله على القرب والتّقريب.

***تعجب الملائكة من خلق آدم** : يأتي الرد من الملائكة ، ولكل كلام جواب ، دون العاطف كراهية تكريره بتكرير أفعال القول. لأن المحاور تقتضي الإعادة في الغالب، فحذفوا العاطف وجعلوه مطردا. وقد ورد الكثير من هذا في التنزيل "قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء.."

1- ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج1، ص.399

2 – ينظر: نظيف محمد ، الحوار وخصائص التفاعل التحاوري.ص45.

3 –ينظر: قطب سيد ، في ظلال القرآن، مج1، ص56.

4- ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج1، ص399.

فمقول الملائكة هو فعل كلامي تمثل في الاستفهام وهو إنشاء طلبي، تضمن معنى التعجب والاستبعاد من أن تتعلق الحكمة بذلك ولا يمكن أن نمثل لهذا تداوليا. لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فجاءت دلالة الاستفهام، بطريقة الكناية ، أي، طلبوا ما يزيل إنكارهم، لذلك بقي الاستفهام على حقيقته ولم يفد التعجب فقط. ومن تمام الاستشارة أن يبدي المستشار ما يراه نصحا. والقول هذا يقتضي سؤالا مفاده "فما رأيكم؟" فكان الجواب بكل صدق ونزاهة من كل موارية، فأفصحت نفوسهم عما كان في علم الله سبحانه وتعالى. والتعبير بالاسم الموصول وصلته "من يفسد فيها" إشارة إلى غرض الاستفهام والتعجب، لأن من كان من نفسه الإفساد وسفك الدماء لا يصلح للتعمير؛ لأنه إذا عمر نقض ما عمَّره. أما التعبير بالجملة الفعلية، "يفسد فيها ويسفك الدماء"، فدلالة على توقع الملائكة أن يتكرر الإفساد والسفك للدماء من هذا المخلوق، بإدراكهم النوراني لهيئة تكوينه الجسدية والعقلية والنطقية.

وقوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾، جملة حالية، تحتمل معنيين؛الاحتمال الأول: أن يكون القصد منه تفويض الأمر إلى الله تعالى، واتهام علمهم فيما أشاروا إليه، والحكم والعلم هو لله وحده.

وكذلك: إعلان منهم بتنزيه الخالق عز وجل، على أن يخفى عليه ما بدا لهم من مانع استخلاف آدم[1]. كما هو تبرئة لهم من شائبة الاعتراض على خلق آدم. والله تعالى يعلم براءتهم من ذلك، فكلام الملائكة جرى على طريقة التعبير –ويصنف ضمن التصريحات في تداولية أفعال الكلام لسيرل(Searle)[2]- لأنهم صرّحوا بما في الضمير من غير قصد إعلام الغير. ولعلّ في هذا التصريح تبركاً وعبادة، وإعلانا لأهل الملأ الأعلى بذلك. فأشارت واو الحال إلى أن هذا الأمر مستحضر لهم في حال قولهم، وليس شيئا خطر لهم، بعد أن توغلوا في الاستبعاد والاستغراب.

والاحتمال الثاني : أن يكون القصد من قولهم هو التعريض بأنهم أولى بالاستخلاف، لأن الجملة الاسمية دلت على الدوام، وجملة "أتجعل فيها من يفسد فيها" دلّت على توقّع الفساد والسفك، فكان المراد من قولهم، أنهم أولى من آدم بالاستخلاف، لأنه لا يتوقع منهم الفساد. والجملة بهذا المعنى تكون حالا مقرّرة لمدلول جملة "أتجعل فيها" تكملة للاستغراب. والتسبيح قول أو مجموع قول مع عمل، يدل على تعظيم الله تعالى وتنزيهه، والحمد هو التمجيد والثناء على الله تعالى : و"الباء" "بحمدك" للملابسة، أي نسبّح تسبيحاً مصحوباً بالحمد لك .

والتقديس، التنزيه والتطهير، وهو إما بالفعل، وإما بالاعتقاد، كما في الحديث:« لا قُدّست أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويّها » أي : لا نزّهها الله تعالى، وطهّرها من الأرجاس الشيطانية[3].

1- ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج1، ص404.

2- بوجادي خليفة ، في اللسانيات التداولية، في محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، ط1، 2009م، الجزائر، ص100.

3– ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ص406.

وأما قوله تعالى:﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾؛ قول من الله، جار على أسلوب المقاولة في المحاورات، أي: أعلم ما في البشر من صفات الصلاح ومن صفات الفساد. والجواب مؤكد، والجملة الخبرية فيه "أعلم" تفيد حصول العلم في الحال والاستقبال. أي: ما هو كائن وما سيكون عليه هذا المخلوق في المستقبل. والمراد، إني أعلم أن صلاحه يحصل منه المقصد من تعمير الأرض، وأن فساده لا يبطل المقصد، وأن في ذلك كلّه مصالح عظيمة.

وكان هذا الجواب من الله، تنهية للمحاورة، وإجمالا للحجة على الملائكة بأن سعة علم الله تحيط بما لم يحط به علمُهم، وأنه حين أراد أن يجعل آدم خليفة في الأرض كانت إرادته عن علم بأنه أهل للخلافة. وتأكيد الجملة بـ"إنّ" تنزيل للملائكة –في مراجعتهم وغفلتهم عن الحكمة– منزلة المترددين الشاكين[1]. وهذا الأسلوب خروج بالخبر على مقتضى الظاهر، وفيه إنزال للمؤمن أو العالم منزلة الشّاك المتردّد، وهو أسلوب حكيم يدل على براعة وجمالية التعبير القرآني .

إقامة الحجة على الملائكة : لكي يقيم الله الحجة على الملائكة، ولا يدع لهم مجالا للشك في صلاح هذا الخليفة، علّم آدم الأسماء كلها، قال تعالى:﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ البقرة (31) .

لقد أودع الله سبحانه وتعالى في هذا الكائن البشري سرّاً إلهيّاً عظيما، وهو يسلّمه مقاليد الخلافة، سرّ القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات[2]. ولولا هذا السر ما كان لسلالته أن تتفاهم وتتعامل بسهولة ويسر. بل كان يجب على الإنسان استحضار كل شيء يريد أن يُبيّنه لغيره ليراه. هذا في الماديات، فما بالك في الأمور المعنوية ؟.

فعلم الله آدم أسماء الأشياء كلها، والظّاهر–كما يقول الطاهر بن عاشور– :"أن الأسماء التي عُلّمها آدم، هي ألفاظ تدل على ذوات الأشياء التي يحتاج الإنسان إلى التعبير عنها، لحاجته إلى ندائها أو استحضارها، أو إفادة حصول بعضها مع بعض"[3]، فمنح الله القدرة على التعلم لهذا الإنسان، وأقدره على إيجاد الأسماء للمسميات. وهنا يقف الملائكة عاجزين منبهرين بفضل الله على آدم. ثم عرض الله هذه الأشياء على الملائكة — إقامة للحجة– إذ طلب منهم أن ينبئوه بأسماء المعروضات بفعل كلامي تمثل في الأمر، والغرض منه ليس الأمر الحقيقي، وإنما هو التّحدّي والتّعجيز. وقوة الفعل وشدته تكمن في المواجهة بالأمر"أنبئوني". وقد قدّم هنا جواب الشرط على الشرط، المتمثل في"إن كنتم صادقين" والتقديم للأهمية لأن الأمور بخواتيمها ونتائجها، لا ببداياتها ومقدماتها. فها هو آدم يتحدى الملائكة بالعلم الذي علمه الله، ويستحق بذلك أن يكون خليفة الله في الأرض.

---

[1]– ينظر:المرجع نفسه، ص407.

[2]– ينظر: قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج1، دار الشروق، ط9، دت، بيروت، ص57.

[4] – ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير ،ج1، ص408.

والإنباء من النبأ، هو الخبر ذو الفائدة العظيمة والأهمية البالغة، بحيث يحرص السامعون على اكتسابه، والإنباء هنا بمعنى؛ الإعلام؛ لأن المخبر به يُعدّ ممّا يُعلم. وقوله تعالى:﴿ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة:31)؛ إما أراد به إن كنتم صادقين في أنّكم أفضل من هذا المخلوق أي ؛ تعريضا بأنهم أحقّاء بذلك، أو أراد إن كنتم صادقين في عدم جدارة آدم بالخلافة كما دل عليه قولهم: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء". وإذا انتفى الإنباء ولم يستطيعوه، انتفى كونُهم صادقين في إنكارهم خلافة آدم. فإن كان محل الصدق هو دعواهم أنهم أجدر فقد ثبت عدمها وبطلانها[1].

*إقرار الملائكة بعلم الله والتسبيح له: بعدما عجز الملائكة على ما لم يعجز آدم ما كان جوابهم إلا أن قالوا:"سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم"؛ إنه التسليم بقوّة الله عز وجل وبعلمه، والاعتراف بالعجز أمام هذا المخلوق الذي مَنّ الله عليه بصفة العلم والتعلّم، فكيف يقابلون هذا العجز أمام الخالق؟ لا يقابلونه إلا بالتّسبيح والتأدّب معه، والتعظيم له العظمة المطلقة.

والتأدّب، هو من المبادئ التداولية التي تُشترط بين المتحاورين[2]، والاعتراف، كذلك مبدأ من مبادئ الحوار الناجح. وهذا الموقف الذي تولّد لدى الملائكة، كان سببه تأثير الحجة والبرهان فيهم، فكان الفعل التأثيريّ الصّادر عنهم، هو فعل التسبيح والتعظيم، لتغيّر نظرتهم إلى آدم ، وإدراكهم قوة الله وحكمته. ويسمي أوستين(Austin) هذا،"الفعل النّاتج عن القول". وكان التفاعل الحواري تفاعلا إيجابيا أدّى إلى إنجاز فعل التّسبيح، وهو فعل إنجازي في القاموس التداولي لسيرل، والمتعلق بأفعال الكلام.

والخبر في قولهم:"لا علم لنا إلا ما علمتنا"؛ القصد منه هو الاعتراف بالعجز، لا الإخبار عن حالهم، وهذا من متضمنات القول في الفعل التداولي، وهو مبدأ من مبادئ التفكير التّداولي[3]. ويسمى في البلاغة العربية -في علم المعاني- بلازم فائدة الخبر؛ لأن الملائكة تعلم أن الله عالم بعجزهم، فقولهم هذا هو من باب الاعتراف بالعجز لا من باب الإخبار. ومن خلال كلامهم "سبحانك" يُستلزم إيماءٌ إلى الاعتذار عن مراجعتهم لقول الله تعالى:"إني جاعل في الأرض خليفة"، والاستلزام في القول مفهوم تداولي، يدخل ضمن متضمنات القول[4]. ويعد هذا القول أيضا "سبحانك" من قبيل براعة الاستهلال عن الاعتذار، فكان الاعتذار بطريق الكناية، وطريق التلميح دون التصريح، وقد حصل آخرا لا ابتداء؛ فكان البدء بالتبرئة تعجيلا بما يناسب جانب الأدب والتخلق العظيم بقولهم:" إنك أنت

1 -ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير ، ص413.

2- ينظر: ليتش جيوفري ، مبادئ التداولية، تر عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، دط 2013م، الدار البيضاء، المغرب، ص139 .

3-ينظر: صحراوي مسعود ، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط1 2005 م، بيروت، لبنان، ص.30.

4-ينظر:المرجع نفسه، ص33.

العليم الحكيم" أي فلا مطمع لنا في تجاوز العلم إلى ما لم تهيّئ لنا علمَه بحسب فطرتنا. والذيدل على أن هذا القول مسوق للتعليل وليس مجرد ثناء، هو تصديره بـ"إنّ" في غير مقام ردّ إنكار ولا تردّد[1].

يقول الجرجاني:" من شأن "إنّ" إذا جاءت على هذا الوجه، أن تغني غناء "الفاء" العاطفة، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيبا، فأنت ترى الكلام بها مقطوعاً موصولاً ، ويسمى هذا في البلاغة "الوصل بما يشبه الفصل"، وأنشد قول بشار : **بكّرا صاحبيّ قبل الهجير إنّ ذاك النّجاح في التّبكير** .

فإنه استغنى بذكر "إنّ" عن الفاء"[2]. فأراد أن يحتج لنفسه في الأمر بالتبكير، ويبيّن وجه الفائدة منه. ويأتي التوكيد ليعطي قوة لفعل القول بالضمير "أنت" بعد "كاف" الخطاب، مؤكّدا على إقرار الملائكة بحدود علمهم، واعترافهم بعجزهم أمام الحكمة الإلهية.

هذا ما كان من الحوار الذي دار بين الله سبحانه وملائكته عند خلقه لآدم عليه السلام، فكيف كان حوار الله مع رسله عليهم السلام؟

*__حوارالله سبحانه،مع إبليس اللعين__ : كان هذا حوار بين الله سبحانه وتعالى، وإبليس اللعين، الذي عصى أمر ربه، فرد عليه الله رغم عصيانه له، وهذا ما يفسره قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11)﴾الأعراف. تبدأ قصة البشرية بأحداثها المثيرة. تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان في احتفال مهيب، في رحاب الملأ الأعلى. يعلنه الملك العزيز الجليل العظيم؛ زيادة في الحفاوة والتكريم. وتحتشد له الملائكة – وفي زمرتهم، وإن لم يكن منهم، إبليس – وتشهده السماوات والأرض؛ وما خلق الله من شيء. إنه أمر هائل وحدث عظيم في تاريخ هذا الوجود. إن الخلق قد يكون معناه : الإنشاء . والتصوير قد يكون معناه : إعطاء الصورة والخصائص . وهما مرتبتان في النشأة لا مرحلتان . فإن " ثم " قد لا تكون للترتيب الزمني، ولكن للترقي المعنوي . والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود . فالوجود يكون للمادة الخامة؛ ولكن التصوير – بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص – يكون درجة أرقى من درجات الوجود. فكأنه قال : إننا لم نمنحكم مجرد الوجود، ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية . إن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام، وفي نشأة الجنس البشري، ترجّح أَن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة، كان مصاحباً لخلقه. وأن الترقّي في تاريخ الإنسان كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية. ولم يكن ترقياً في « وجود » الإنسان. من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان – كما تقول الداروينية . وتفرّد « الإنسان » من

---

[1] – ينظر:ا بن عاشور لطاهر ، التحرير والتنوير، ج1، ص.414

[2]– ينظر: الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المكتبة العصرية،دط 2003م، صيدا –بيروت– لبنان، ص312.

الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية. هذا التفرد – الذي اضطر الداروينين المحدثين– وفيهم الملحدون بالله كلية– للاعتراف به – دليل مرجح على تفرد النشأة الإنسانية، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى في تطور عضوي!...على أية حال لقد أعلن الله بذاته العلية الجليلة ميلاد هذا الكائن الإنساني؛ في حفل حافل من الملأ الأعلى[1] .

فأما الملائكة – وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون – فقد سجدوا مطيعين منفذين لأمر الله، لا يترددون ولا يستكبرون ولا يفكرون في معصية لأي سبب ولأي تصور ولأي تفكير. هذه طبيعتهم ، وهذه خصائصهم: وهذه وظيفتهم. وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنساني على الله ، كما تتمثل الطاعة المطلقة في ذلك الخلق المسمى بالملائكة من عباد الله[2] .

وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله – سبحانه – وعصاه. وسنعلم– من الآيات الموالية–، ما الذي حاك في صدره، وما التصوّر الذي سيطر عليه فمنعه من طاعة ربه. وهو يعرف أنه ربه وخالقه، ومالك أمره، وأمر الوجود كلّه؛ لا يشك في شيء من هذا كلّه!

وكذلك نجد في المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله: نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق. ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت. وطبيعة ثالثة، هي الطبيعة البشرية. فأما الطبيعة الأولى فهي خالصة لله، وقد انتهى دورها في هذا الموقف بهذا التسليم المطلق. وأما الطبيعتان الأخريان، فستكشف عنهما الآيات اللاّحقة .

لقد جعل إبليس له رأياً مع النصّ. وجعل لنفسه حقاً في أن يحكم نفسه وفق ما يرى هو من سبب وعلّة مع وجود الأمر. وحين يوجد النصّ القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر، ويبطل التفكر؛ وتتعين الطاعة، ويتحتم التنفيذ وهذا إبليس – لعنه الله – لم يكن ينقصه أن يعلم أن الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذي لا يقع في هذا الوجود شيء إلا بإذنه وقدره. ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم ينفذه. بمنطق من عند نفسه :﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)﴾[3]. فكان الجزاء العاجل الذي تلقاه لتوّه : ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13)﴾ البقرة. إن علمه بالله لم ينفعه، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه. وكذلك كل من يتلقى أمر الله؛ ثم يجعل لنفسه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه؛ وحاكمية في قضية قضى الله فيها من قبل؛ يرد بها قضاء الله في هذه القضية . إنه الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقاد . فإبليس لم يكن ينقصه العلم ، ولم يكن ينقصه الاعتقاد![4].

لقد طرد إبليس من الجنة، وطرد من رحمة الله، وحقت عليه اللعنة ، وكتب عليه الصغار. ولكن الشرير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب، ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم. ثم ليؤدي وظيفته وفق طبيعة

---

[1] – قطب سيد ، في ظلال القرآن،ج8، ص1264.

[2] – المرجع نفسه، ص1265.

[3] –المرجع نفسه ، ص1266.

[4] – المرجع نفسه، ص1266.

الشر التي تمحضت فيه.﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14)﴾ البقرة. فهو الإصرار المطلق على الشر، والتصميم المطلق على الغواية. وبذلك تتكشف هذه الطبيعة عن خصائصها الأولى. شر ليس عارضاً ولا وقتياً . إنما هو الشر الأصيل العامد القاصد العنيد. ثم هو التصوير المشخّص للمعاني العقلية والحركات النفسية، في مشاهد شاخصة حية. لقد سأل إبليس ربه أن ينظره إلى يوم البعث – فالصيغة أمرية بغرض الطلب– وهو يعلم أن هذا الذي يطلبه لا يقع إلاّ بإرادة الله وقدَره[1]. ولقد أجابه الله إلى طلبه في الإنظار :﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15)﴾، ولكن إلى " يوم الوقت المعلوم "كما جاء في آية أخرى .

وهنا يعلن إبليس في تبجّح خبيث؛ بأن يغوي ذلك المخلوق الذي كرمه الله ، والذي بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده! ويجسّم هذا الإغواء بقوله الذي حكاه القرآن عنه :﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16)﴾(الأعراف . إنه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدي إلى رضى الله – وإنه سيأتي البشر من كل جهة: من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة. وهو مشهد حيّ شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر في محاولته الدّائبة لإغوائهم، فلا يعرفون الله ولا يشكرونه، اللّهم إلاّ القليل الذي يفلَت ويستجيب . ولكن السياق هنا لا يصرّح بترخيص الله – سبحانه – لإبليس – عليه اللعنة – في إيعاده هذا الأخير، كما صرّح بإجابته في إنظاره . إنما يسكت عنه ، ويعلن طرد إبليس طرداً لا معقب عليه . طرده مذموماً مقهوراً ، وإيعاده بملء جهنّم منه وممن يتبَعه من البشر.

ومن يتبعه من البشر قد يتبعه في معرفته بالله واعتقاده بألوهيته، ثم في رفض حاكمّية الله وقضائه، وادعاء أن له الحق في إعادة النظر في أوامر الله، وفي تحكيم منطقه هو في تنفيذها أو عدم تنفيذها. كما أنه قد يتبعُه ليُضِلَّه عن الاهتداء إلى الله أصلاً. وهذا وذلك، كلاهما اتِّباع للشيطان؛ وجزاؤه جهنّم [2].

والغرض من هذا الحوار هو أنه يبين عواقب من يريد التعالي على خلق الله، ويحسب أنه أفضل الناس، فيصاب بالعُجْب، ثمّ الغرور، ثم يهوي به الكِبْر في مكان سحيق ،مطرود من رحمة الله.كما يبين أن إبليس سيظل متربصاً بالمؤمنين كلّ طريق إلى يوم البعث والنشور.

كما تذكّر هذه الآيات بنعمة إيجاد النّوع البشري، وهي نعمة عناية، لأن إيجاد الله للإنسان أشرف من عدم إيجاده، بقطع النظر عما قد يعترض هذا الإنسان من متاعب ومعاناة. ونعمةُ التفضيل له يدل عليها أمر الله للملائكة بالسجود لآدم أصلِ هذا الإنسان.

والغرض التداولي المستفاد من هذه الآيات هو تحذير بني آدم من الوقوع في مصائد إبليس ومكائده، لأن المثل يقول :"عدو أبيك لن يكون حبيبك". والخطاب المتضمن في هذا الحوار موجه إلى البشرية جمعاء لا يستثني أحدا. وإن كان المقصود منه–أيضا– المشركون في هذا السياق، لأنهم الغرض في هذه السورة. وتعلُّق فعلي الخلق والتصوير بضمير المخاطبين "كُمْ" إشارة إلى أصلهم الأول وهو آدم– عليه السلام– ويبدو ذلك جليا من خلال

[1] - قطب سيد ، في ظلال القرآن ، ص1266.

[2] –المرجع السابق، ص1267.

قرينة دالة متمثلة في قوله تعالى:﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ﴾. والقصد منه تذكير البشرية بنعمة الإيجاد ليشكر النّاس موجدَهم .

وتبدأ المحاورة بعد أن ترك إبليس السجود لآدم، وهذا ما اقتضته الآية :« مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» لأن ترك إبليس للسجود هو جواب. لقوله تعالى:« اسْجُدُوا لِآَدَمَ ». والغرض التداولي لأسلوب الاستفهام هو توبيخ إبليس على فعلته وإظهار نيته وقصده للملائكة، وتحذير أبناء آدم منه.... وهناك حوار آخر دار بين أب البشرية الثاني والمولى عز وجل، هذا ما سنتعرض إليه في الآتي.

*__حوار الله مع نبيه نوح عليه السلام__: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وهو يدعوهم إلى عبادة الله الواحد، ويحاول أن يصدهم عن عبادة الأوثان لكن قومه أصرّوا واستكبروا استكبارا. ولم يؤمن بنوح ورسالته إلا القليل منهم، فأوحى الله إليه أن يصنع السفينة، ويحمل معه من كل زوجين اثنين، ومن آمن، لتستمر الحياة ويستمر النوع البشري، وأغرق بالطّوفان من سبق عليه القول من الكافرين الظالمين. وقد دار الحوار بين الله ونوح حول مصير ابنه الذي عصى وكفر. قال الله تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آَمَنَ وَمَا آَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(هود:40) وقال الله تعالى أيضا:﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(هود:45-48)

تبتدئ هذه الآية (40)، بـ"حتى" المفيدة للغاية التي من أجلها أمر الله نوحا أن يصنع السفينة. والغاية هذه هي مجيء أمر الله تعالى وهو عذابه. ومن علاماته فوران التنور، وهو كناية عن حصول الطوفان الذي يغرق القوم الكافرين. واستخدام "نا" المتكلمين في الإضافة في كلمة "أمرنا" هو للعظمة، وما يضاف إلى العظيم فهو عظيم أيضاً، والقصد منه التهويل لهذا الأمر الذي لم يسبق للقوم أن عرفوه من قبل.

والتنّور: محفل الوادي أي ضفته، و"فار التنور" معناه: بلوغ الشيء إلى أقصى ما يتحمل مثله، فهو من قبيل "بلغ السيل الزبى". والصورة هي كناية عن نفاد الأمر فيهم، وقد بلغوا من طول مدة الكفر مبلغاً لا يغتفر لهم كما قال تعالى:﴿ فَلَمَّا آَسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(الزخرف:55).

وقوله تعالى:﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آَمَنَ وَمَا آَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾(هود:40). في هذه الآية جملة إنشائية طلبية تتضمن الأمر، لأن الله يأمر فيها نبيه بأن يحمل في السفينة من كل زوج اثنين، والقصد من ذلك حفظ النسل، وحفظ السلالة والنوع لتستمر الحياة بعد الطوفان. وحتى لا تثقل السفينة وتضيق بهم، فالله سبحانه وتعالى يريد الراحة لنبيه ومن آمن معه، ولا يريد لهم أن يعانوا في هذا اليوم

العصيب. وأمر الله نوحاً أن يحمل أهله أيضاً، لأن من مضى قولُ الله عليه، أي؛ وعيدُه- ومن بينهم امرأته، وابنه -كان من المغرقين. وجملة "سبق عليه القول" هي جملة خبرية يمكن تصنيفها ضمن "الالتزاميات"[1] في تصنيف أفعال الكلام لـ"سيرل". وهي« أنواع الكلام التي يستعملها المتكلمون ليلزموا أنفسهم بفعل لأنها تعبر عما ينويه المتكلم، وتتمثل في الوعود والتهديدات والتعهدات» [2]، وقد تمثلت في هذا المقام بـ"وعيد الله للذين لم يؤمنوا بنوح عليه السلام ورسالته" وتسمى أيضا هذه الأفعال بـ«الوعديات»[3]. ويقصد المولى عز وجل بهذا القول:"إلا من سبق عليه القول" أي؛ القول الضار أو المتضمن معنى الالتزام الضار. وقد ورد مثل هذا الأسلوب في معنى الالتزام النافع، في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات:171).

وجملة: " وما آمن معه إلا قليل" اعتراض لتكميل الفائدة، وكناية عن قلة الصالحين، وقلة من آمن مع نوح إذ «كان جميع المؤمنين به من أهله وغيرهم نيّفاً وسبعين، بين رجال ونساء، فكان معظم حمولة السفينة من الحيوان»[4]. فالعبرة بالأقلية لا بالأكثرية، لأن الأكثرية عبر التاريخ كانت في ضلال مبين.

*__شفقة نوح على ابنه وتضرعه إلى الله:__ كان نداء نوح لربّه بعد استواء السفينة على الجودي، وكان نداءً دعاه إليه داعي الشفقة على ابنه، فطلب من الله أن ينفع ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدنيا ولذلك سأل له المغفرة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾(هود:45). والمقصود بالنداء الدعاء، وهنا نلمس عاطفة الآباء نحو أبنائهم وخوفهم عليهم في الحياة وبعد الممات، وهو غرض تداولي نستفيده من هذا الدعاء، يمثل فيه النداء القوة الإنجازية الحرفية لنقل الخبر.

وقد أضيف وصف "الرب" إلى نوح إضافة تشريف، والإضافة كذلك إيماءً إلى رأفة الله به[5]. أما جملة النهي الوارد ة بعد الدعاء "فلا تسألنِ" فهي فعل كلامي، المقصود منه اللوم والعتاب، لا النهي عن السؤال؛ لأن قول نوح عليه السلام: إنّ ابني من أهلي"؛ خبر، القصد منه الاعتذار عمّا بدر من ابنه، والتمهيد للسؤال، لأن سؤاله لا يدري أيُقبل أم لا[6]. لكن شفقة الأب وحنانه جعله يُقحم نفسه في السؤال!، وقد أكّد الخبر بـ"إنّ" للتركيز عليه والاهتمام به، و"إنّ" تعبّر عن شدة القوة المتضمنة في الخبر،كما يقول"سيرل"، أو القوّة الإنجازية الحرفية[7] المتمثلة

1- ينظر: نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء ، ص.29

2 - يول جورج ، التداولية، ص.91

3 - ينظر: بوجادي خليفة ، في اللسانيات التداولية، ص.97

4- ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج12، ص.73

5- المرجع نفسه، ص84.

6 - المرجع نفسه ، ص85.

7- ينظر: المتوكل أحمد ، اللسانيات الوظيفية، الكتاب الجديد، ط2، 2010 م، بيروت، لبنان، ص28.

2- ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج12، ص.85

3- ينظر: يول جورج ، التداولية، ص97. و ليتش جيوفري ، مبادئ التداولية، ص139

في التوّكيد. وجملة "فإنّ وعدك الحقّ"، تدخل ضمن لازم الفائدة بمعنى؛ أنّ نوح يعلم مسبقاً أنّ وعد الله حقّ، والمراد بالوعد ما ورد في قوله تعالى:﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾(هود: 37). وأما جملة "وأنت أحكم الحاكمين"، فالقصد منها التسليم لله، أي؛ إنه لا رادّ لحكمك وقضائك، ولا دالة عليه لأحد من خلقك[1].

ويأتي تلفظ نوح في الجمل الثلاث-"إنّ ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين"- في مقام التضرع والسؤال ليس بمحالٍ. والقصد منه التعريض بالمطلوب، وهو ضرب من ضروب التأدب مع الله سبحانه وتعالى، والتردّد في الإقدام على المسؤول، استغناءً بعلم المسؤول، وكأنه يقول: أسألك أم أترك؟. والتأدب والتخلق واللباقة والكياسة والتهذيب من المبادئ التداولية[2]، التي لا غنًى عنها في المقاربة التواصلية التداولية[3]. وتفيد هذه المبادئ انصياع أحد الطرفين للآخر كليا أو جزئيا، أما في هذا المقام، فهو انصياع كُلّي من نوح عليه السلام، لله سبحانه القوي المتعال. وتبدو حال نوح في هذا الموقف كحال النبي محمد -صلى الله عليه وسلم -حين قال لعمّه أبي طالب:" لأستغفرن لك، ما لم أُنه عنك"، قبل أن يَنزل قولُه تعالى:﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(التوبة:113).

***الرد القاطع من الله:** يأتي الرد القاطع من الله تعالى:﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(هود:46). فيحدد العلاقة التي تربط بين الأهل، وبين عباد الله جميعا؛ بأنها ليست علاقة دموية، أو علاقة حسب ونسب، بقدر ما هي علاقة إيمانية روحية تجتمع على الإيمان بالله وطاعته. لذلك نفى الله سبحانه أن يكون ابن نوح من أهل نوح عليه السلام بقوله: "إنه ليمن أهلك"، وهو خبر مؤكد، وردّ سلبي على الانتساب لأهل نوح، ورد قوي فيه نفي قاطع لصلة ابن نوح بأبيه؛ لأنه لم يؤمن برسالة الله إلى نوح، وفضّل الكفرَ على الإيمان، والعصيانَ على الطاعة والامتثال لأمر الله.

إن هذا الرّدّ من الله سبحانه، ليس إبطالا لقول نوح عليه السلام: "إن ابني من أهلي"، ولكنه إعلام بأن قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة الحقيقية، فقوله تعالى:﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ جملة خبرية من صنف أفعال الكلام المصنفة في حقل الإعلانات[4]، أو التأكيدات، حسب تصنيفات "سيرل"[6]، أو الأفعال الحكمية أي

4- ينظر: نظيف محمد ، الحوار وخصائص التفاعل التحاوري. ص19.

4- ينظر:يول جورج ، التداولية، ص89.

6 – ينظر:نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء ، ص.28

1 – ينظر: بوجادي خليفة ، في اللسانيات التداولية، ص97.

2 — ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير،ج12، ص86.

الإقرارية، حسب تصنيفات "أوستين"[1]. فالله سبحانه وتعالى يريد أن يغيّر نوح فكرته نحو علاقة القرابة، ويعرف أن ابنه لم يعد من أهله ؛ لأنه عصى الله سبحانه وتعالى وجاء تأكيد الخبر بـ"إنّ" لتقوية الغرابة فيه.

وقوله تعالى:"إنه عمل غير صالح"؛ تأكيد للقول بـ"إنّ" للاهتمام، ويكون عندئذ للخبر قوةٌ إنجازية تزيد السامع يقينا يجعله يغيّر فكرته، ويجعل نوحا عليه السلام يعرف ابنه حقيقة المعرفة، وهل يستحق أن يكون ابنه من أهله أم لا؟ ويعلّم الله نبيه استخدام المعيار الحقيقي لقياس درجة القرابة، كما أن وصف الله لعمل ابنه بالعمل غير الصالح يقتضي ويستلزم أن ابن نوح غير صالح، فالإنسان هو في آخر المطاف عمل، فإذا كان عمله صالحا أطلق عليه وصف الإنسان الصالح. والجملة "إنه عمل غير صالح" تعليل لجملة "إنه ليس من أهلك". فقد قدم الله سبحانه وتعالى السبب الذي لم يجعل الابن من أهل نوح. إنه عمله غير الصالح، وعكس الصلاح الفساد، والله سبحانه وتعالى لا يحب الفساد بالمطلق. والعمل غير الصالح في الآية هو الكفر،وهو عمل قلبي يصدر من القلب، ويظهر أثره في تصرّف صاحبه، والتّصرف هنا، هو امتناع ابن نوح من الركوب في السفينة مع المؤمنين[2] ، سلوك يدل على تكذيبه بوعيد الله، وتحذير أبيه له.

ثم يتوجه الله سبحانه وتعالى بالنهي إلى نوح عليه السلام في قوله:" فلا تسألني ما ليس لك به علم". وهو فعل كلامي تضمن معنى النهي، والغرض منه التنزيه لنوح عليه السلام. لأنه لا يحق لأمثاله من الأنبياء أن يقدم على سؤال لا يعلم إجابته. وخاصّة إذا كان السائل يعلم أن سؤاله لا يقع، أي؛ لا يجاب عنه. فالله سبحانه وتعالى يريد أن ينزّه نبيّه عن تعريض سؤاله للرّد[3]. وفي هذا المعنى بعد تداولي هو أن الله سبحانه وتعالى، يعلمنا عن طريق نبيه ألا نسأل عن أشياء إن تبد لنا تسؤنا، وأن نسأل غيرنا في أمور إيجابية باستطاعتهم تنفيذها، فكما يقول المثل: "إن أردت أن تطاع فأمر بالمستطاع". فالقصد من هذا النهي هو النصح، والتأديب، والتربية، والتعليم.

وأما قوله تعالى:" إني أعظك أن تكون من الجاهلين" خبر الغرض منه النصح هذا في الظاهر، ويتضمن هذا الخبر غرض النهي والتحذير، أي: لا تكن يا نوح من الجاهلين. أي، لا تتصرف تصرفا كهذا من بعد. فعليك أن تتثبت قبل أن تقدم على الفعل، فالنظر في العواقب مطلوب قبل حلولها.

***استغفار نوح ربه، واعتذاره:** يتوجه نوح إلى الله سبحانه وتعالى طالبا منه العفو والمغفرة والرحمة، لأنه يعلم أن الربح في رضا الله، والخسارة في سَخَط الله. قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(هود:47). فحذف حرف النداء، دلالة على قرب نوح من ربه، وشدة اتصاله به سبحانه وتعالى، ويتوجه نوح بكلام إلى ربه يبين فيه تنصُّله وتراجعه عما بدر منه من سؤال لم يكن يعلم عاقبته.

---

[3] – ينظر:المرجع نفسه، ص87.

فاستعاذ بالله من أن يسأل ما ليس له به علم، وطلب المغفرة أولا ثم الرحمة ثانيا؛ لأن التّخلية –كما يقول صاحب التحرير والتنوير– مقدّمة على التّحلية. [1] لأنه إذا كان بمحل الرّضا من الله كان أهلا للرحمة. وبعد طلب المغفرة والرحمة، يأمر الله سبحانه وتعالى نوحا بأن يهبط بسلام هو والقوم الذين آمنوا معه. قال تعالى:﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (هود:48).

ولما اعتذر نوح من ربه وشعر بالخسران، خاطبه الله سبحانه وتعالى مناديا له إتماما للمحاورة فيما يسكن جأشه ويهدئ من روعه بقوله تعالى:"يا نوح" تنويها به بين الملأ. وأمره بالهبوط من السفينة وتحيته فيها سلام من الله، والتحية هنا؛ إيماء منه سبحانه وتعالى بأن نوح عليه السلام كان في ضيافة الله تعالى، لأنه كفله ونجاه.

***تحية الله لنوح، وسلامه عليه، ورضاه عنه:** والتحية من الله سبحانه وتعالى تأمين لنوح عليه السلام، ودليل على رضا الله عنه، ولذلك صارت هذه التحية عنوان للقاء والافتراق بين المسلمين، لما تحمله من مدلولات، الأمن والرضا والسلم للآخرين. وكان السلام من الله تعالى زيادة في الصلة بين نوح وربه وزيادة في الإكرام، والدليل عليه هو قوله تعالى:"منا" وهو توكيد لتوجيه السلام، فهو أشد مبالغة من الكلام الذي لا تذكر معه "من". قال الله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾(يس:58). و"الباء" المقرونة ب"سلام" هي للمصاحبة. أي؛ اهبط مصحوبا بسلام منّا[2] .

والبركات: الخيرات النامية، وهي من كلمات التحية المستعملة في الدعاء. فقد شمل الله سبحانه وتعالى نوحا ومن آمن معه بالتكريم والتأمين والإنعام. وهناك أمم أخرى سيمتعهم الله ثم يمسهم منه عذاب أليم. والمقصود من "أمم سنمتعهم" هو تحذير قوم نوح من اتّباع سبيل الذين أغرقوا، وكذلك التعريض بالمشركين من العرب، فإنهم من ذرية نوح لكنه كانوا غير شاكرين للنعمة. وإطلاق المس عليهم، هو الإصابة القوية[3]، قال تعالى:﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنعام:17) . وذكر "يمسهم منا" هو من قبيل المقابلة التي وردت في قوله: "بسلام منا". ليعلموا أن ما يصيب الأمة من أهوال زائدة على المعتاد في الخير والشر هو إعلام من الله بالرضا أو الغضب.

فالمؤمن العاقل يتبصر في الحوادث ويتوسم في جريان أحواله على مراد الله تعالى، وما أصاب الإنسان من مصيبة، فبما كسبت يداه ومن عند نفسه، وجزاء صنيعه. وما أصابه من خير ونعم، فمن الله سبحانه وتعالى.

***حوار الله مع إبراهيم الخليل عليه السلام:** حوار آخر وهو حوار علم ومعرفة واطمئنان وزيادة إيمان من إبراهيم بربه قال الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ

1- ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ص88.

2-ينظر: المرجع نفسه ، ج12، ص89.

3- ينظر: المرجع نفسه ، ص91.

عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة:124). وقال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:126).

المقصود من ذكر قصة إبراهيم عليه السلام، هو موعظة المشركين ابتداء، وموعظة بني إسرائيل تبعاً لهم، لأن العرب أشد اختصاصا بإبراهيم، بحيث يزيدون على نسبهم إليه، بكونهم حفظة حرمه، ومنتمين قديما للحنيفية، ولم يطرأ عليهم دين يخالف الحنيفية، بخلاف أهل الكتابين[1] (اليهود والنصارى). ولذلك كان معظم الثناء على إبراهيم بذكر بناء البيت الحرام وما تبعه إلى أن ذكرت القبلة وسط ذلك. هذا بالنسبة للغرض العام.

***ابتلاء إبراهيم وتكليفه بالرسالة:** والابتلاء من البلاء، وهو الاختبار، والمكلّف غيرَه، ينتظر من المكلَّف فعلاً أو تركاً، فالمكلِّف ينتظر الالتزام من المكلَّف إما بإنجاز فعل أو تركه. وفي الإلزام بالفعل أو الترك يكون الاختبار. والتّكليف هنا هو وحي من الله إلى إبراهيم بالنبوءة، لتتهيّأ نفسه لتلقّي الشريعة. وبعد امتثال إبراهيم لأمر الله، أوحى الله إليه بالرسالة، وهي في قوله تعالى:﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وهذه الجملة هي بدل من جملة ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾، أو تكون الجملة تفسيراً لـ"ابتلى"[2].

والإمام؛ الرسول والقدوة، وتقديم المفعول "إبراهيم" على الفاعل "ربه" هو تقديم القصد منه التشريف لإبراهيم عليه السلام، ويزداد هذا التشريف بإضافة اسم "رب" إلى اسمه المعبر عنه بالضمير العائد على لفظ الجلالة مراعاة للإيجاز وتفادياً للتكرار[3].

و"الكلمات" هي الكلام الذي أوحي به إلى إبراهيم ومفرده "كلمة"، ويقصد بالكلمة "الكلام"، كما يقول صاحب الألفية "كلمه بها كلام قد يؤمّ"[4]. والمراد بها الجمل المركبة من كلمات، قال تعالى:﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾(المؤمنون:100). والقصد من "فأتمهن" هو بيان فضل إبراهيم، ببيان ظهور عزمه وامتثاله لتكاليف ربّه. إذ أتى بها كاملة فجوزي الجزاء العظيم، ولعل هذه الكلمات التي كُلِّف بها هي؛ الأمر بذبح ولده، وأمره بالاختتان، وبالمهاجرة بهاجر (زوجه) إلى شُقّة بعيدة. وأعظم هذه التكاليف، هي أمره بذبح ولده إسماعيل، بوحي من الله إليه في الرؤيا. وقد سمي ذلك بلاء في قوله تعالى:﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾(الصافات:106). و"الفاء" في جملة "فأتمهن"، دلالة على الفور في الامتثال، وذلك من شدة العزم. ومصدر الفعل "أتم" الإتمام؛ وهو في الأصل الإتيان بنهاية الفعل، أو إتمام آخر أجزاء الشيء المصنوع. فدل الفعل على الامتثال، والإتقان، والفور فيه[5].

---

[1]- ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج12، ص91.

2- المرجع نفسه، ج1، ص701.

[3]– المرجع نفسه، ص701.

[4]– شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، مج1، ج1، دار الفكر، دط 1985 م، بيروت –لبنان–، ص13.

*تكليف الله لإبراهيم بالإمامة: قال الله تعالى:﴿إنّي جاعلك للناس إماما﴾؛ جملة خبرية مستأنفة استئنافا بيانيا، ناشئا عمّا اقتضاه قوله تعالى:﴿وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات﴾، وقد أكد الخبر بأداة التأكيد "إنّ" المضافة إلى ضمير المتكلم الدال على الذات الإلهية، وهذه الإضافة من شأنها أن تجعل الخبر عظيما والتنويه به كبيرا. والتعبير بالجملة الاسمية يجعل هذه الجملة من المؤكدات ومن الأمور الثابتة، فلا مجال للتردد فيها، فحكمها مجزوم به وهو حكم الله تعالى. والإمام من الأمّ، وهو القصد، أي؛ إن إبراهيم يكون مقصدا للناس، يُقتدى به، ويُهتدى، فهو الهادي للناس، والقدوةُ لهم.

لقد رحل إبراهيم عليه السلام إلى آفاق بعيدة، فتنقّل من بلاد الكلدان إلى العراق، وإلى الشام والحجازِ، ومصر[1] ، وكان في جميع منازله محل التبجيل، ولا شك أن التبجيل يبعث على الاقتداء، وأقل أنواع الإمامة كون الرجل الكامل قدوةً لبنيه وأهل بيته وتلامذته. وقوله "ومن ذريتي" عطف على قول الله تعالى: "إني جاعلك للناس إماما". و"مِن" للتبعيض أي؛ ليس جميع الناس- يا إبراهيم- يصلح لأن يُقتَدَى بهم. وعليه فإن إبراهيم عليه السلام، لم يسأل الله ما هو مستحيل – مثلما سأل نوح -في حواره مع ربه- بأن يرحم ابنه لأنه من أهله. ويكون قول إبراهيم تَتِمَّةً لقول الله عز وجل.

*استثناء الظالمين من عهد الله للمؤمنين: قال الله تعالى:﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾؛ القصد منه التعريض بأهل الكتاب الذين يزعمون أنّهم أولى الناس بإبراهيم، وهم اليهود تحديدا، والمشركون من العرب، وهذه الآية تنفي عنهم زعمهم وتحرمهم من دعوة إبراهيم عليه السلام، وقال الله تعالى في آية أخرى، ردّا على هؤلاء:﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران:67-68)[2]. والقصد التداولي من هذه الآية تربوي تعليمي، لأن المربّي يبدأ بالتحذير من المفاسد قبل الحثّ على المصالح، لذا كان بيان الذين لا تتحقق فيهم الدعوة أولى من بيان من تتحقق فيهم. وهذا البيان يدخل ضمن ما يسمى بـ"الاستلزام الحواري"، وهو من متضمنات القول في المفاهيم التداولية[3].

والقصد التداولي من هذه الآية كذلك هو توبيخ المشركين، فقد ورد الكلام في جملة خبرية منفية الغرض منها التوبيخ لأهل الكتاب، والتعريض بالمشركين معهم، لأن اليهود زعموا أن الله سبحانه عهد لإبراهيم عهدا بأنه مع ذريته ! والصريح من الكلام هو التوبيخ للمشركين، لأن الله وصفهم بالظالمين. قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ

[1] – ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج1، ص703.

[2] – ينظر: شحرور محمد، القصص القرآني قراءة معاصرة، دار الساقي، ط1، 2012م، لبنان، ص91-120.

3 – ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج1، ص706.

[3]– ينظر: صحراوي مسعود ، التداولية عند العلماء العرب، ، ص33.

[1]– ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج1، ص707

[2] – ينظر:المرجع نفسه، ص713.

لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(لقمان:13)[1]، فالمقصود بالظلم المعاصي الكبيرة، وأعلاها الشرك بالله تعالى. وفي الآية 124 من سورة البقرة تنبيه إلى أن أهل الكتاب والمشركين ليسوا أهلاً للإمامة لاتّصافهم بالظلم؛ كالشرك بالله، وتحريف الكتب، وتأويلها على حسب شهواتهم وأهوائهم، والانغماس في المعاصي.

وعليه، فهذا الوصف للظالمين إيماءٌ إلى علّة عدم نيل عهد الله لهم، فإذا زالت العلّة، وهي الظلم، نالهم عهد الله[2]، ولا يظلم ربك أحداً. ومن هذا الحكم، يستلزم أن المتصف بالكبيرة ليس مستحقّاً لإسناد الإمامة إليه، وتشمل الإمامة: الخلافة، والإمارة، والقضاء، والفتوى، ورواية العلم، وإمامة الصلاة، ونحو ذلك.

***دعاء إبراهيم بالأمن والرزق لمكّة وأهلها:** يتوجه إبراهيم الخليل-في الآية الموالية- إلى ربه بالدعاء بالفضل والخير والبركة لمكّة إذ يقول تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(البقرة:126). وفي هذه الآية ينبه الله سبحانه المشركين في مكّة إلى تذكّر دعوة إبراهيم التي بفضلها بارك الله في مكّة وفي خيراتها، وإبراهيم كان مؤمناً منيباً إلى الله، لذلك دعت الآية مشركي مكّة إلى أن يحرصوا على الإيمان بالله واليوم الآخر، وفيها ما يحفزهم للاتصاف بصفات أجدادهم وأسلافهم الذين عاصروا إبراهيم عليه السلام، كما ترغّبهم في الاقتداء بهؤلاء السلف، وفي الحنين إلى عهدهم، وفي ذلك كلّه تعريض بهم. وإن ما يزعمه المشركون من الانتساب إلى إبراهيم وعمارة المسجد الحرام لا يغني عنهم من الإشراك بالله شيئا.

والقصد التداولي من هذا العرض لدعاء إبراهيم هو التذكير، والتنبيه؛ تذكير بدعاء إبراهيم وإيمانه وتقواه، وتنبيه للمشركين من غفلتهم واعتقادهم أن الانتساب إلى إبراهيم ينجيهم من عقوبة الشرك بالله[3] ومن عذابه.

واسم الإشارة في قوله تعالى:﴿ هَذَا بَلَدًا ﴾ يشير إلى المكان القائم به إبراهيم حين دعائه، وهو المكان الذي عليه امرأته هاجر وابنه إسماعيل، وأسماء الإشارة تستخدم في بيان المشار إليه، وقد يزيدون على اسم الإشارة اسما يعرب بدلاً أو عطف بيان، والغرض منه هو بيان استجابة الله لدعائه، وقد جعل الله مكّة بداً آمناً ورزَق أهلها من الثمرات[4].

وما ينبغي التوقف عنده، هو أن إبراهيم دعا الله سبحانه بأن يرزق مكّة وأهلها الأمن والأمان أوّلاً ثم أردفه بالرزق، لأن الأمن النفسي هو الذي يحقق السعي لكسب الرزق، وهو الذي يحقق الطمأنينة والسكون، فيكون اتصال العبد بخالقه اتصالا غير مشوش بما يسببه الخوف من اضطراب نفسي واجتماعي. هذا الأمن الذي تتميز به مكة إلى يومنا هذا عن سائر بلاد العرب والمسلمين. وبالأمن تتحقق سعادة الإنسان، إذ إنه يقتضي أن يسود

---

[3]- ينظر: المرجع نفسه ، ص714.

[4]- ينظر: المرجع نفسه ، ص761.

العدل، والعزّة، والرخاء، إذ لا أمن بدون هذه الثلاثة، والأمن يحقق: التعمير، والإقبال على المنافع، والثروة، وبانعدام الثلاثة الأولى، ينعدم الأمن. وبانعدام الأمن تنعدم الثلاثة الأخيرة.

وقول الله تعالى على لسان إبراهيم:" من آمن بالله"، يخص به فئة معينة من أهله، وهم الفئة المؤمنة. ودعاؤه هو طلبه للرزق لهم لمقصد نبيل وغاية شريفة، وهي الحرص على شيوع الإيمان لساكنيه. فجعل تيسير الرزق لهم باعثا على الإيمان. واستجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام.

رزق الله سكان مكة كلهم مؤمنهم وكافرهم، إلا أن الكافرين يمتعهم قليلا في الحياة الدنيا، ثم ينتهي هذا المتاع لأنه زائل، والمتعة لا تدوم، بعدها سيضطره إلى عذاب النار[1]. والتذكير بعذاب النار للكفار، هو من باب الاحتراس[2]، حتى لا يغتر الكافر بما أنعم الله عليه في الدنيا، ويظن أن الله راض عنه. فلذلك ذكر الله العذاب، وقد عبر عن حال الكافر عندئذ بتعبير في غاية الدقة فقال:"**أضطره**" وكأن الكافر لا يريد أن يحرم من نعم الدنيا، ويريد أن يخلد فيها، لكن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، ويحاسب كل إنسان على هذا النعيم، ولكل أجل كتاب.

***انتقال إبراهيم من العلم النظري إلى العلم العملي**: ينتقل بنا الحوار القرآني إلى تجربة أخرى عاشها إبراهيم، مع خالقه سبحانه وتعالى، وهي الانتقال من العلم النظري البرهانيّ، إلى العلم التجريبيّ الضروري، فسأل الله أن يريه كيفية إحياء الموتى بالمحسوس.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(البقرة:260).

يتوجه إبراهيم إلى خالقه سبحانه بطلب تضمن النداء والأمر المتضمن معنى الطلب، وقد حذف حرف النداء، لبيان القرب من الله، وكذلك لمنزلة إبراهيم عند الله. وهو خليله وصفيه. فإبراهيم يريد أن يرى كيف يحي الله الموتى، والله يعلم ما في نفس إبراهيم، قال الله تعالى:"أولم تؤمن" ؛ جملة استفهامية تتضمن التقرير، ويستلزم هذا الكلام، فعلا مقدرا هو، أأريك في حال أنك لم تؤمن؟ والقصد منه هو دفع هاجس الشك عنه.

وجواب إبراهيم:"بلى ولكن ليطمئن قلبي" ، تأكيد من إبراهيم على أن الشك لم يخامره البتة. لكن سؤاله معرفيا، ينتقل فيه من المعرفة النظرية عن طريق الفكر والاستدلال بالعقل، إلى يقين المشاهدة، لدفع الشبه عن العقل[3]. وعندها يحصل الاطمئنان والسكون.

1- ينظر: ظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج1، ص717.

2- ينظر: المرجع نفسه، ج3، ص39.

3- ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير ، ج1، ص39.

والمراد بالقلب العلم، وأراد بالاطمئنان العلم المحسوس، وانشراح النفس، وقد دلّه الله على طريقة يرى بها إحياء الموتى رأي العين. قال تعالى:"فخذ أربعة من الطير". و"مِن"؛دلالةٌ على أن الطير كانت مختلفة الأنواع، لأن "مِن"تفيد التبعيض، وكذلك لزيادة التأكيد أنّ الإحياء لم يكن أهون في بعض الأَحياء دون بعض، ولذلك عدّدت الأنواع. ولعله جعلها الأربعة؛ ليكون وضعها على الجهات الأربع: الشرق والغرب والشمال والجنوب. ويجوز أن يكون المراد بالأربعة، أربعة أجزاء من طير واحد[1].

وقوله:"**فصرهن إليك**" أي، أدنهن إليك، وهو فعل طلبي، القصد منه: تأمّل أحوال الطير، حتى يعلم بعد إحيائها، أن أجزاءها عادت إلى مواضعها، ولم ينتقل جزء منها عن موضعه. وقوله:"ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا"، فعل طلبي تمثل في الأمر، المراد منه توزيع أجزاء الطير بوضعه على كل جبل جزءا. وفي هذا الكلام، تقدير، والتقدير من متضمنات القول، ويقتضي هذا الأمر ويستلزم، طلبا آخر قبليا وهو:"اذبحهنّ ثم قطّعهن أجزاء ثم اجعل على كل جبل جزءا"."ثم ادعهن يأتينك سعيا"، والسعي من أنواع المشي، لا من أنواع الطيران، فجعل ذلك آية على أنهن أعيدت إليهن الحياة. ويتأكد إبراهيم من ذلك بعينه.

وقوله:"واعلم أن الله عزيز حكيم"؛ فالله سبحانه وتعالى، يأمر نبيه أن يعلم، ويتيقن أن الله سبحانه وتعالى غالب على جميع الممكنات، حكيم، أي؛عليم بعواقب الأمور وغايات الأشياء[2]. فالجملة إنشائية تصدَّرها فعل الطلب وهو الأمر، والفرض التداولي منه هو التذكير، والتنبيه، والتحذير، من أن يشك عبد في قدرة الخالق سبحانه وتعالى. وهذا الحوار له بعد تداولي هام، إذ يعلمنا القرآن الكريم، كيفية الوصول إلى العلم الحقيقي واليقين، بالانتقال من النظرية إلى التطبيق، وبالسؤال القاصد الصادق، ليعلمنا الله ما لم نكن نعلم. قال تعالى:﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.(البقرة:282).

هذا ما كان من حوار الله مع خليله عليه السلام، فماذا عن حوار الله مع كليمه عليه السلام؟.

***حوار الله مع نبيه موسى عليه السلام:** ورد هذا الحوار في سورة "طه"، التي نزلت في كفار قريش الذين قالوا، بأن الرسول (ص)، سيشقى بنزول القرآن عليه، ومن هؤلاء، أبو جهل والنظر بن الحارث[3]. وفي سياق السورة وردت قصة موسى عليه السلام، لتطمين قلب الرسول (ص) مما يلاقيه من كفار قريش. ولنأخذ في الحوار الذي جرى بين الخالق عز وجل وكليمه موسى عليه السلام:

قال الله تعالى:﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ

1- ينظر:المرجع نفسه، ص40.

[2]- ينظر:المرجع السابق، ص40.

[3]- ينظر:الواحدي أبو الحسن ابن أحمد، أسباب النزول، دار الكتب العلمية، ط،1411هـ- 1991م، بيروت، لبنان. ، ص109.

أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) (طه:11 — 36). تمثل هذه الآيات أطول حوار دار بين الله سبحانه مع أنبيائه، ولذلك قال تعالى في آية أخرى:﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾.(النساء: 164).

وقدارتأينا في تحليلنا لهذه الآيات أن نقتصر على الأفعال الكلامية الواردة فيها تجنبا للإطالة، لأن الآيات عديدة، لذلك نركز على الحوار في بدايته، ونحاول أن نستنتج الأبعاد والمقاصد التداولية التي وردت في ثناياه.

***مراعاة قدسية المكان:** قال الله تعالى:"﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)﴾ (طه:11-12). بني النداء للمجهول، "نودي يا موسى"، زيادة في التشويق إلى استطلاع القصة، وتحفيز السامع إلى معرفته. ثم تأتي المفاجأة، فالمنادي هو الله سبحانه وتعالى. فتتمكن هذه المفاجأة من نفس موسى كمال التّمكّن. فماذا حمل النداء؟ حمل له كلاما غير معتاد، يعلمه فيها الله سبحانه بأن له عناية خاصة، ففِعلُ الكلام المتمثل في النداء، كان الغرض منه الإعلام، ولفت الانتباه لما سيخبر به موسى من الله جل شأنه. وقوله تعالى:﴿إنني أنا ربك﴾، فضمير المتكلم إشارة إلى الذات الإلهية، والغرض منه، تسكين روع موسى عليه السلام، لأن المخاطب له لا يُرى، فكان هذا الخبر الأوّلى، الذي يكشف عن المنادي بمثابة المهدّئ والمطمئن والمرفق بموسى. وقد تأكد هذا الخبر، بمؤكدات هي"إنّ" وضمير الشأن "أنا" و"رب" المضاف إلى "كاف الخطاب". والقصد منه، دفع الشك عن موسى[1].

يرد فعل كلامي آخر بعد النّداء، ويتمثل في الأمر على وجه الإلزام، ويطلب من موسى خلع نعليه، وفي هذا إشارة إلى أن المكان الذي هو فيه، قد حلّه التقديس، وقد استمد قدسيته من كلام الله تعالى فيه، ونداؤه لموسى[2]. لذا يجب على موسى أن يعظّم ذلك المكان. وهو "الوادي المقدس طُوًى". فقال تعالى:﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾(طه:12-13). في هذين الآيتين يصرح الله لموسى بأنه اختاره، واصطفاه، وعبر عن المسند بالفعل الماضي الدّال على تقوية الحكم. والاختيار هو طلب ما هو خير وأفضل، ومادام كذلك، يوجه الله أمرا آخر لموسى، يطلب

1- ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج16، ص196.

2- ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج16، ص196.

منه سماع ما يوحى إليه، والأمر هذا هو على وجه الإلزام. وتصنف هذه الأفعال الكلامية ضمن صنف المؤكدات[1]أو الحكميّات. لأنها تطلب التنفيذ للمطلوب."ولما يوحى" أي؛ للوحي. وقول الله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾(طه:14). يعلن ويصرح لموسى بأنه الله الواحد الأحد. وهذا الإعلان والتصريح مؤكد بأداة التوكيد، والضمير العائد على لفظ الجلالة، وأسلوب القصر الذي ينفي أن يوجد لله شريك في ملكه. فيوجه أفعالا إلزامية لموسى على سبيل الأمر، تضمنت أمرا حقيقيا يدعوه في الأولى إلى عبادة الله الواحد، وفي الثانية إلى إقام الصلاة. وفي هذه الآية أيضا، تعليم لنا أدَبيّات التّعارف بين المتلاقين وهو أن يعرفوا أسماءهم[2]، وكذلك يدخل هذا الأدب في الحوار بين المتحاورين.

*__معجزة العصا__: قال الله تعالى:﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾(طه:17). أراد الله سبحانه، أن يُرِي موسى كيفية الاستدلال على من أرسل إليهم بالمعجزة العظيمة، وهي انقلاب العصا حية. والغرض تثبيت قلب موسى. فقد وردت الآية، بأسلوب الاستفهام، والغرض من الاستفهام ، بثّ اليقين في نفس موسى وهو ممسك بعصاه، حتى إذا انقلبت حية لم يشُكَّ في أنها عصاه. فالغرض هو بيان حقيقة العصا. وفي هذا البيان زيادة اطمئنان قلب موسى بأنه في مقام اختيار واصطفاء. وأن الكلام الذي يسمعه هو كلام الله دون واسطة[3].

وكانت الإشارة إلى العصا بالظرف"بيمينك" الذي وقع حالا من اسم الإشارة "تلك" بمعنى؛ وما تلك حال كونها بيمينك ؟ والقصد من هذا السؤال هو إيماءٌ إلى غرابة شأن العصا. ولذلك أجاب موسى عنها جريا على الظاهر، وببيان منافعها المألوفة له. ولكن السؤال عن الواضحات لا يُعقل؟ إلا والسائل يريد أمرا آخر غير ظاهر[4]. فالسؤال عن شيء والمراد والقصد شيء آخر، وهذا من صميم الأغراض التداولية. فتوضيح الواضحات من المعضلات، وتوضيح الواضحات أيضا من الفاضحات.

وقوله تعالى:"قال ألقها"، وهذا الأمر هو الذي سيزيل الإبهام عن السؤال عن العصا. فقد كان السؤال سببا وذريعة لما سيأتي، فهذه القرينة هي التي تدل على أن الاستفهام لم يكن استفهاما حقيقيا بل القصد منه والغرض الحقيقي له هو تنبيه موسى عليه السلام لأمر العصا وأهميتها. وأن يعرف أن العصا تطبّعت بالانقلاب حية، فيتذكر ذلك عند مناظرة سحرة فرعون، ولا يحتاج حينئذ إلى وحي[5]. وكانت هذه المعجزة الأولى.

*__معجزة اليد البيضاء من غير سوء__: أما المعجزة الثانية، ففي قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾(طه:22). هذه معجزة ثانية ؛الغرض منها والقصد واحد مع إلقاء العصا. إذ طلب الله من

1- ينظر: ليتش جيوفري ، مبادئ التداولية، ص141.

2- ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج16، ص199.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص204.

4- ينظر: المرجع نفسه ، ص206.

5- ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج16،ص209.

موسى أن يضع يده تحت إبطه، وهي اليد التي كانت ممسكة بالعصا حتى تمس بشرة جنبه، ويخرجها بيضاء من غير مرض أو عاهة[1]، وهي آية أخرى لفرعون. وبهاتين المعجزتين يكتشف موسى، ويعلم قدرة الله على خلقه. ويستقبل التكليف بقوة وعزيمة.

*__تكليف الله لموسى ومواجهته لفرعون:__ قال الله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾(طه:24). بعد أن أيد الله موسى بالعصا واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء. وهما آيتان معجزتان منه. أمر موسى الأمر العظيم الذي يدخل الروع في نفسه، وهو مواجهة فرعون، ومكاشفته بفساد حاله. فالآية وردت بأسلوب الأمر الذي يدل على التكليف والتنفيذ على وجه الإلزام والتأكيد. وجملة "إنه طغى" تعليل للأمر بالذهاب إلى فرعون، والغاية من هذا الأمر، هو التغيير بعد الإبلاغ، تغيير لحال فرعون ولما هو عليه من ظلم، ومن عبادة غير الله[2].

*__طلب موسى توفيق الله وعونه:__ لم يتراجع موسى عن الأمر، ولم يتردد، بل تلقاه وسأل الله الإعانة عليه:﴿قال رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾(طه:25-28). فطلب موسى من الله، رباطة جأشه، وخلق أسباب تعينه على تبليغ الرسالة، وإعطائه وضاحة القول، للإسراع بالحجة في الإقناع . فكان الإلحاح من موسى في دعاء الله أن ييسر له مهمته[3]. وحتى يحلل عقدة من لسانه، يطلب موسى من الله أن يجعل له وزيرا من أهله: قال:﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي﴾(طه:29-30). يطلب موسى من الله بصيغة الأمر يدعوه ويطلب تأييده بهارون أخيه لأنه أقوى في المناصحة، وكان هارون معروفا بأصالة الرأي، وفصاحة اللسان، فيكون نعم المعين لموسى في أعماله. ونعم الشريك في الأمر والرسالة.

وقوله تعالى على لسان موسى:﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾(طه:33-34). في هذين الآيتين تعليل لسؤاله الذي سأله لنفسه ولأخيه، وتسهيل لأداء الدعوة، بتوفر آلاتها ووجود العون عليها[4]. وجملة "إنك كنت بنا بصيرا"(طه:35). تعليل لسؤاله شرح صدره وما أتى بعده. وقد سأل اللهَ ذلك لأنه في أمس الحاجة إليه هو وأخاه[5]. فاستجاب الله لدعاء نبيه.

*__استجابة الله لدعاء نبيه:__ قال الله تعالى:﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾(طه:36). فمقول القول هو خبر وإعلان من الله أنه تقبل دعاء نبيه موسى. والقصد منه طمأنة موسى عليه السلام، ووعد منه سبحانه بالإجابة. وتصديق لموسى فيما توسّمه من المصالح فيما سأله لنفسه ولأخيه[6]. ومن المبادئ التي يقوم عليها الحوار التداولي، أن

---

[1]- ينظر: المرجع نفسه، ج16، ص210.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص211.

[4] – ينظر: المرجع نفسه، ص213.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، ص214.

1- ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج16، ص.214

[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص214.

يتسم الطرفان بالصّدقية والقصدية. وذلك ما لمسناه في هذا الحوار بين الله سبحانه وكليمه موسى عليه السلام. وقد استجاب الله لدعاء نبيه موسى، وأزال عنه عقدة لسانه، ولذلك لم يُحكَ فيما بعد أن هارون هو من قام بمجادلة فرعون (1)، بل كان الجدال بين فرعون وموسى فقط. بعد هذا العرض والتحليل لما دار بين الله سبحانه وتعالى – من حوار قاصد وهادف وصادق ــ وبين ملائكته وبين الله وأنبيائه، يجدر بنا أن نتطرق إلى الأبعاد والمقاصد التداولية المستفادة من هذه الحوارات.

***الأبعاد والمقاصد التداولية المستفادة من هذه الحوارات.**

– في حوار الله سبحانه مع الملائكة، تتمثل كرامة الكائن الإنساني، وتتمثل الطاعة المطلقة لله من الملائكة. كما يبين الحوار، تفرد الإنسان، من الناحية الفيزيولوجية، والعقلية، والروحية. وخلق الله للإنسان بهذه الصفات، يدحض النظرية الداروينية التي تقول بأن أصله كان قردا ثم تطور فالقرآن الكريم يصحح ويدحض هذه النظرية.

– تذكر آيات الحوار مع الملائكة بنعمة إيجاد الإنسان، ونعمة التفضيل له ودلالة ذلك أمر الله للملائكة بالسجود لآدم، أصل هذا الإنسان، وليشكر الناس موجدهم. كما يحذر الحوار من وقوع ابن آدم في مصائب إبليس ومكائده، والتحذير الموجه في هذا الحوار هو موجه إلى البشرية جمعاء دون استثناء.

– وحوار الله مع نوح عليه السلام يبين أن القرابة الحقيقية هي قرابة العقيدة لا قرابة الدم أو الجنس، وأن الأبناء ليسوا كلهم على دين الآباء بالضرورة، ولو حرص الآباء عليهم كل الحرص. ويبقى عليهم أن يستعينوا على تربية أبنائهم وتوجيههم بالدعاء لهم والعمل الصالح، لأن الإنسان هو عمل في آخر المطاف وسلوك قبل كل شيء وبهذا العمل والسلوك يحكم له أو عليه.

– أما في حوار الله مع إبراهيم عليه السلام فيبين فيه أسلوب التلقين في العقيدة، وكيف يقتنع الناس فكريا، ويطمئنون إلى الإيمان الروحي اطمئنانا عميقا، يلتقي فيه العقل مع القلب. فكلما اتسع العقل بالفهم ازداد إيمان المرء نورا ويقينا. وبالتأمل والتفكير في ملكوت السماوات والأرض يصل الإنسان إلى معرفة خالقه.

ويقدم لنا الحوار فائدة بدرس عملي تجريبي ينقل الإنسان من الشك إلى اليقين —كما نقل إبراهيم– بمنهج استقرائي استدلالي ينطلق في التأمل والبحث من الشك وصولا إلى ذروة الإيمان. وهذه هي الصفة التي جعلت إبراهيم عليه السلام أمة.

[3] – ينظر: المرجع نفسه، ص214

والحوار مع إبراهيم يعلمنا أنه لا يليق بالإنسان الاعتماد على التعاليم والأفكار الجاهزة، بل عليه أن يتأمل ويجدد في الحوار وأساليبه بما يؤدي به في النهاية إلى اكتشاف القيم الإنسانية الفاضلة.

– وأما حوار الله مع موسى عليه السلام فيعلمنا احترام قدسية المكان، وتعظيم شعائر الله والإقرار والإيمان بوحدانيته سبحانه وتعالى والتقرب إليه بالصلاة التي هي العمود الفقري للعبادة ويدعون إلى الإيمان بالساعة والاستعداد لها.

ويتضح أن الحوار مع موسى كان القصد منه تثبيت قلبه ودفع الشك عنه وإقداره على تحمل أعباء الرسالة وتنبيهه إلى استغلال فرص الذكر في مقامات القداسة والطهر ومقامات التشريف وتزويده بالعلم لمواجهة الصعوبات وتحمل المسؤوليات وإنجاز المهمات وفك عقد الحياة والتوفيق في الأعمال. وفصاحة اللسان شرط ضروري —في هذا الاستعداد– في الإفادة وحسن البيان ،. وهو الطريق إلى الفهم والإفهام وآلة للذكر والتذكير بالله، مع حضور النية الخالصة وهي شرط استجابة الدعاء وتحقيق وعد الله للمؤمن فينصره على نفسه وعلى أعدائه.

* **حوار الله مع عيسى بن مريم عليهما السلام:** ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110)﴾المائدة..

لمناسبة هذا المقام التزم وصف عيسى بابن مريم ،كما تكرر ذكره في هذه الآيات أربع مرات، تعريضاً، لإبطال دعوى أهل الكتاب بأنه ابن لله تعالى.

والمقصود من ذكر ما يقال لعيسى يومئذ هو تقريع اليهود، والنصارى الذين ضلوا في شأن عيسى بين طرفي إفراط بُغض، وإفراط حب، فقوله:﴿اذكر نعمتي عليك﴾... استئناس لعيسى لئلا يفزعه السؤال الوارد بعده بقوله:﴿أأنت قلت للناس﴾... والأمر في قوله "اذكر" للامتنان، إذ ليس عيسى بناس لنعم الله عليه وعلى والدته. ومن لازمه خزي اليهود الذين زعموا أنه ساحر مفسد إذ ليس السحر والفساد بنعمة يعدها الله على عبده. ووجه ذكر والدته هنا الزيادة من تبكيت اليهود وكمدهم لأنهم تنقصوها بأقذع مما تنقصوه. والظرف في قوله:﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾ متعلق ب"نعمتي"، وروح القدس هنا جبريل على الأظهر، والتأييد وروح القدس تقدما في سورة البقرة، عند قوله:﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾(البقرة:87).

وجملة "تكلم" حال من الضمير المنصوب ب(أيدتك)، وذلك أن الله ألقى الكلام من الملك على لسان عيسى وهو في المهد، وفي ذلك تأييد له لإثبات نزاهة تكونه، وفي ذلك نعمة عليه، وعلى والدته، إذ ثبتت براءتها

مما اتهمت به. والجار والمجرور في قوله في المهد حال من ضمير تكلم. وكهلا، معطوف على في المهد لأنه حال أيضا. وقوله:﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك﴾عطف على(إذ أيدتك) وما عطف عليه. وهذا من أعظم النعم، وهي نعمة العصمة من الإهانة، فقد كف الله عنه بني إسرائيل سنين، وهو يدعو إلى الدين بين ظهرانيهم مع حقدهم وقلة أنصاره، فصرفهم الله عن ضره حتى أدى الرسالة، ثم لما استفاقوا وأجمعوا أمرهم على قتله عصمه الله منهم فرفعه إليه ولم يظفروا به، وماتت نفوسهم بغيظها. وقد دل على جميع هذه المدة الظرف في قوله تعالى:﴿إذ جئتهم بالبينات﴾، فإن تلك المدة كلها مدة ظهور معجزاته بينهم[1]. قال الله تعالى:﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115) وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(المائدة :114-118).

وقوله:﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة﴾ اشتمل على نداءين، إذ كان قوله: "ربنا" بتقدير حرف النداء. كرر النداء مبالغة في الضراعة. وجمع عيسى بين النداء باسم الذات الجامع لصفات الجلال، وبين النداء بوصف الربوبية له وللحواريين استعطافا لله ليجيب دعاءهم. ومعنى تكون لنا عيدا أي؛ يكون تذكر نزولها بأن يجعلوا اليوم الموافق ليوم نزولها من كل سنة عيداً، فإسناد الكون عيداً للمائدة إسناد مجازي، وإنما العيد اليوم الموافق ليوم نزولها، ولذلك قال:"لأولنا وآخرنا"، أي؛ لأول أمة النصرانية وآخرها، وهم الذين ختمت بهم النصرانية عند البعثة المحمدية. والعيد اسم ليوم يعود كل سنة، ذكرى لنعمة أو حادثة وقعت فيه، للشّكر أو للاعتبار.

وقد سمى النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم الفطر عيدا ويوم النحر عيدا في قوله"شهرا عيد لا ينقصان رمضان وذو الحجة". وهذا العيد الذي ذكر في هذه الآية غير معروف عند النصارى، ولكنهم ذكروا أن عيسى –عليه السلام– أكل مع الحواريين على مائدة ليلة عيد الفصح، وهي الليلة التي يعتقدون أنه صلب من صباحها. فلعل معنى كونها عيدا أنها صيّرت يوم الفصح عيداً في المسيحية كما كان عيداً في اليهودية[2].

---

[1]– ينظر الطاهر بن عاشور،التحرير والتنوير، ج7، ص98.

وجملة:"قال الله إني منزلها"؛جواب دعاء عيسى، فلذلك فصلت على طريقة المحاورة. وأكد الخبر "بإن" تحقيقا للوعد. والمعنى إني منزلها عليكم الآن،فهو استجابة وليس بوعد. وقوله:(فمن يكفر)؛ تفريع عن إجابة رغبتهم، وتحذير لهم من الوقوع في الكفر بعد الإيمان، فجعل جزاء إجابته إياهم أن لا يعودوا إلى الكفر، فإن عادوا عذبوا عذابا أشد من عذاب سائر الكفار، لأنهم تعاضَدَ لديهم دليل العقل والحس، فلم يبق لهم عذر. والضمير المنصوب في قوله (لا أعذّبه) ضمير المصدر، فهو في موضع المفعول المطلق، وليس مفعولا به أي؛ لا أعذب أحدا من العالمين ذلك العذاب[1].

وإذ قال الله عطف على قوله:﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾(المائدة:110). فهو ما يقوله الله يوم يجمع الرسل، وليس مما قاله في الدنيا، لأن عبادة عيسى حدثت بعد رفعه، ولقوله: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾؛ فقد أجمع المفسرون على أن المراد به يوم القيامة. وأن قوله تعالى:﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس ﴾؛ قول يقوله يوم القيامة. وهذا مبدأ تقريع النّصارى بعد أن فرغ من تقريع اليهود. وتقريع النصارى هو المقصود من هذه الآيات.

والله يعلم أن عيسى لم يقل ذلك، ولكن أريد إعلان كذب من كفر من النصارى. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله:﴿أأنت قلت للناس﴾؛ يدل على أن الاستفهام متوجه إلى تخصيصه بالخبر دون غيره، مع أن الخبر حاصل لا محالة. فقول قائلين: اتخذوا عيسى وأمه إلهين، واقع. وإنما ألقي الاستفهام لعيسى، أهو الذي قال لهم ذلك، تعريضا بالإرهاب والوعيد بتوجيه عقوبة ذلك إلى من قال هذا القول، إن تنصل منه عيسى، فيعلم أحبارهم الذين اخترعوا هذا القول أنهم المراد بذلك. والمعنى؛ أنه إن لم يكن هو قائل ذلك، فلا عذر لمن قاله، لأنهم زعموا أنهم يتبعون أقوال عيسى وتعاليمه، فلو كان هو القائل لقال:اتخذوني وأمي، ولذلك جاء التعبير بهذين اللفظين في الآية. والمراد بالناس؛ أهل دينه. وقوله:﴿**من دون الله**﴾ متعلق ب"اتخذوني"، والمعنى اتخذوني وأمي إلهين سوى الله. وقد شاع هذا في استعمال القرآن. وذكر هذا المتعلق إلزاما لهم بشناعة إثبات إلهية لغير الله؛ لأن النصارى لما ادّعوا حلول الله في ذات عيسى، توزعت الإلهية، وبطلت الوحدانية[2].

وجواب عيسى –عليه السلام– بقوله:سبحانك؛ تنزيه لله تعالى عن مضمون تلك المقالة. وكانت المبادرة بتنزيه الله تعالى أهم من تبرئته نفسه، وبرأ نفسه فقال: ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق؛ فجملة ما يكون لي أن أقول مستأنفة لأنها جواب السؤال. وجملة "سبحانك" تمهيد، وقوله: "ما يكون لي"، مبالغة في التبرئة من ذلك أي؛ ما

---

[1] - ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير. ج7، ص98.

[2] - بن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير. ج7، ص 100.

يوجد لدي قول ما ليس لي بحق، فاللام في قوله: " ما يكون لي" للاستحقاق أي؛ ما يوجد حق أن أقول. وذلك أبلغ من لم أقله. والباء زائدة لتأكيد النفي الذي دلت عليه ليس.فهذا تأكيد في غاية البلاغة والتفنن.

ثم ارتقى في التبري فقال:﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾، فالجملة مستأنفة؛ لأنها دليل وحجة لمضمون الجملة التي قبلها، فكانت كالبيان، فلذلك فصلت. والضمير المنصوب في قلته عائد إلى الكلام المتقدم، فاستدل على انتفاء أن يقوله، بأن الله يعلم أنه لم يقله، وذلك لأنه يتحقق أنه لم يقله فلذلك أحال على علم الله تعالى. وهذا كقول العرب:يعلم الله أني لم أفعل ولذلك قال تعلم ما في نفسي وهو بيان لجملة الشرط إن كنت قلته فقد علمته. أما قوله ولا أعلم ما في نفسك اعتراض نشأ عن (تعلم ما في نفسي) لقصد الجمع بين الأمرين في الوقت الواحد وفي كل حال. وذلك مبالغة في التنزيه والتنصل فالواو اعتراضية. وإضافة النفس إلى اسم الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لم يطلع عليه غيره أي ولا أعلم ما تعلمه أي مما انفردت بعلمه وقد حسنته هنا المشاكلة.

وقوله:﴿إنك أنت علام الغيوب﴾، علة لقوله:﴿تعلم ما في نفسي﴾، ولذلك جيء ب"إن" المفيدة للتعليل. وقد جمع فيه أربع مؤكدات وطريقة حصر، فضمير الفصل أفاد الحصر، وإن وصيغة الحصر، وجمع الغيوب، وأداة الاستغراب. وبعد أن تبرأ من أن يكون أمر أمته بما اختلقوه، انتقل فبين أنه أمرهم بعكس ذلك حسب ما أمره الله تعالى؛ فقال:﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾، والمعنى؛ ما تجاوزت فيما قلت حد التبليغ لما أمرتني به، فالموصول وصلته هو مقول (ما قلت لهم) وهو مفرد دال على جمل، فلذلك صح وقوعه منصوبا بفعل القول[1].

و"أنِ" مفسّرة "أمرتني"؛ لأن الأمر فيه معنى القول دون حروفه. وجملة:"اعبدوا الله ربي وربكم"؛ تفسيرية ل"أمرتني". واختير أمرتني على:"قلت لي" مبالغةً في الأدب. ولما كان "أمرتني" متضمنا معنى القول، كانت جملة "اعبدوا الله ربي وربكم"، هي المأمور بأن يبلّغه له. فعلى هذا يكون "ربي وربكم" من مقول الله تعالى؛ لأنه أمره بأن يقول هذه العبارة، ولكن لما عبّر عن ذلك بفعل "أمرتني" به صحّ تفسيره بحرف"أنِ" التفسيرية. فالذي قاله عيسى هو عين اللفظ الذي أمره الله بأن يقوله. ثم تبرأ من تبعتهم فقال:﴿وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم﴾ أي؛ كنت مشاهدا لهم ورقيبا يمنعهم من أن يقولوا مثل هذه المقالة الشنعاء. و"ما دمت"؛ (ما) فيه ظرفية مصدرية، أي؛ ما بقيت فيهم، أي؛ ما بقيت في الدنيا[2].

ولذلك فرع عنه قوله:﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ والمعنى؛ أنك لما توفيتني، قد صارت الوفاة حائلا بيني وبينهم، فلم يكن لي أن أنكر عليهم ضلالهم، ولذلك قال:﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾. والمعنى؛ أنك تعلم

1- المرجع نفسه، ص101 .

2- ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير. ج7، ص101.

أمرهم، وترسل إليهم من يهديهم متى شئت. وقد أرسل إليهم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهداهم بكل وجوه الاهتداء. وأقصى وجوه الاهتداء إبلاغهم ما سيكون في شأنهم يوم القيامة.

وقوله:﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾؛ فوّض أمرهم إلى الله؛ فهو أعلم بما يجازيهم به؛ لأن المقام مقام إمساك عن إبداء رغبة لشدة هول ذلك اليوم، وغاية ما عَرَّض به عيسى، أنه جوَّز المغفرة لهم رحمةً منه بهم.

وقوله تعالى:﴿فإنك أنت العزيز الحكيم﴾؛ ذكر العزيز كناية عن كونه يغفر عن مقدرة، وذكر الحكيم لمناسبته للتفويض، أي المحكم لأمور العالم بما يليق بهم. وهكذا يتبرأ عيسى (عليه السلام) من أهل الكتاب وما نسبوه إليه

***حوار الله النار**: وذلك عندما عجز قوم إبراهيم في الرد على حجج إبراهيم عليه السلام، فحاولوا إحراقه. فقال الله تعالى مخاطبا النار ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء(69). فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم ...كيف؟ ولماذا نسأل عن هذه وحدها. و" كوني " هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان ، وتنشأ بها عوالم ، وتخلق بها نواميس :﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : ﴿كن فيكون ﴾. فلا نسأل: كيف لم تحرق النار إبراهيم ، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية؟ فالذي قال للنار: كوني حارقة. هو الذي قال لها :﴿ كوني برداً وسلاماً﴾. وهي الكلمة الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول . مألوفاً للبشر أو غير مألوف [1].

إن الذين يقيسون أعمال الله سبحانه إلى أعمال البشر هم الذين يسألون : كيف كان هذا؟ وكيف أمكن أن يكون؟ فأما الذين يدركون اختلاف الطبيعتين، واختلاف الأداتين، فإنهم لا يسألون أصلاً، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلاً. علمياً أو غير علمي. فالمسألة ليست في هذا الميدان أصلاً. ليست في ميدان التّعليل والتّحليل بموازين البشر ومقاييس البشر. وكل منهج في تصور مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من أساسه، لأن أعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود. إن علينا فقط أن نؤمن بأن هذا قد كان، لأن صانعه يملك أن يكون. أما كيف صَنَع بالنار فإذا هي بردٌ وسلام؟ وكيف صنع بإبراهيم فلا تحرقه النار؟ فذلك ما سكت عنه النص القرآني لأنه لا سبيل إلى إدراكه بعقل البشر المحدود. وليس لنا – من دليل– سوى النص القرآني [2].

وما كان تحويل النار برداً وسلاماً على إبراهيم إلا مثلاً، تقع نظائره في صور شتى . ولكنها قد لا تهز المشاعر كما يهزها هذا المثل السّافر الجاهر . فكم من ضيْقات وكُرُبات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن تكون

---

[1] – قطب سيد، في ظلال القرآن،ج17، ص2387.

[2] – قطب سيد، في ظلال القرآن،ج17، ص2388.

القاصمة القاضية، وإن هي إلا لفتة صغيرة، فإذا هي تحيي ولا تميت، وتنعش ولا تُخمد، وتعود بالخير وهي الشّر المستطير .

إن ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾، لتتكرر في حياة الأشخاص والجماعات والأمم؛ وفي حياة الأفكار والعقائد والدعوات. وإن هي إلاّ رمز للكلمة التي تبطل كل قول، وتحبط كل كيد، لأنها الكلمة العليا التي لا ترد!(1).

وكذلك عند قوله تعالى﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيد﴾(ق:30). وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته ، وفيه معنيان ، أحدهما : أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شيء ولا يزاد على امتلائها، لقوله تعالى : ﴿لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ ﴾ السجدة:13 والثاني : أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد . ويجوز أن يكون " هَلْ مِن مَزِيدٍ " استكثاراً للداخلين فيها واستبداعاً للزيادة عليهم لفرط كثرتهم . أو طلباً للزيادة غيظاً على العصاة . والمزيد : إما مصدر كالمحيد، وإما اسم مفعول كالمبيع(2) .

والاستفهام في" هل امتلأت"، مستعمل في تنبيه أهل العذاب إلى هذا السؤال على وجه التعريض، وأما القول لجهنم، فيجوز أن يكون حقيقة بأن يخلق الله في أصوات لهيبها أصواتاً ذات حروف، يلتئم منها كلام، ويجوز أن يكون مجازاً عن دلالة حالها على أنها تسع ما يلقى فيها من أهل العذاب؛ بأن يكشف باطنها للمعروضين عليها حتى يروا سعتها. والاستفهام في" هل من مزيد"، مستعمل للتشويق والتمنّي(3). أي؛ إن جهنم تتشوق للعصاة الكافرين.

***حوار الله مع السموات والأرض:** قال الله تعالى:﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت:11)؛" ثمّ " للترتيب الرتبي، وهي تدلّ على أن مضمون الجملة المعطوفة أهم مرتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها، فإن خلق السماوات أعظم من خلق الأرض، وعوالمها أكثر وأعظم، فجيء بحرف الترتيب الرّتبي بعد أن قُضِي حق الاهتمام بذكر خلق الأرض حتى يوفَّى المقتضيان حقَّهما. وليس هذا بمقتضٍ أن الإرادة تعلقت بخلق السماء بعد تمام خلق الأرض، ولا مقتضياً أن خلق السماء وقع بعد خلق الأرض." يا لَلسّلام الذي يفيض في أرواحنا، ونحن نعيش في كون صديق، كلّه مستسلم لربه، ونحن معه مستسلمون، لا تشذّ خطانا عن خطاه، ولا يُعادينا ولا نُعاديه، لأنّنا منه، ولأننا معه في الاتجاه"(4).

1- المرجع نفسه ، ص2388.

2- الزمخشري ، الكشاف، ج4، ص389.

3- ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج26، ص318.

4- قطب سيد ، في ظلال القرآن، مج5، ج24، ص3115.

والاستواء : القصد إلى الشيء تَوًّا، لا يعترضه شيء آخر. وهو تمثيل لتعلّق إرادة الله تعالى بإيجاد السماوات، وقد تقدم في قوله تعالى :﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء﴾ (سورة البقرة–29). وربما كان في قوله:" فَقَال لَهَا وللأرْض ائتِيَا طَوْعاً أوْ كَرْهاً "؛ إشارة إلى أنه تعالى توجهت إرادته لخلق السماوات والأرض توجهاً واحداً ثم اختلف زَمن الإرادة التّنجيزي بتحقيق ذلك فتعلقت إرادته تنجيزاً بخلق السماء ثم بخلق الأرض ، فعبر عن تعلق الإرادة تنجيزاً لخلق السماء بتوجه الإرادة إلى السماء ، وذلك التوجه عبر عنه بالاستواء . ويدل لذلك قوله:﴿فَقَالَ لَهَا وِلِلأرْض ائْتِيَا طَوْعاً أوْ كَرْهاً قَالَتَا أتَيْنَا طآئِعِينَ ﴾(فصلت:11).ففعل" اِئْتِيا"؛ أمر للتكوين .

والدّخان: ما يتصاعد من الوَقود عند التهاب النار فيه. وقوله:" وَهِيَ دُخَانٌ " تشبيه بليغ، أي وهي مثل الدخان، وقد ورد في الحديث: «أنها كانت عَماء». وقيل: أراد بالدخان هنا شيئاً مظلماً، وهو الموافق لما في «سفر التكوين» من قوله :«وعلى وجه الغمر ظلمة»، وهو بعيد عن قول النبي (صلى الله عليه وسلم) :أنه لم يكن في الوجود من الحوداث إلا العَماءَ، والعماء: سحابٌ رقيق، أي رطوبة دقيقة وهو تقريب للعنصر الأصلي الذي خَلق الله منه الموجودات، وهو الذي يناسب كوْنَ السماء مخلوقة قبل الأرض. ومعنى: " وَهِيَ دُخَانٌ "؛ أن أصل السماء هو ذلك الكائن المشبه بالدخان، أي؛ إن السماء كونت من ذلك الدخان، كما تقول: عمَدْتُ إلى هاته النخلة، وهي نواة، فاخترت لها أخصب تربة، فتكون مادة السماء موجودة قبل وجود الأرض .

وقوله: "فَقَالَ لَهَا وللأرْضِ"؛ تفريع على فعل"استوى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ"، فيكون القول موجهاً إلى السماء والأرض حينئذٍ، أي؛ قبل خلق السماء لا محالة، وقبل خلق الأرض؛ لأنه جعل القولَ لها مقارناً القول للسماء، وهو قول تكوين . أي؛ تعلّق القدرة بالسماء والأرض، أي؛ بمادة تكوينهما وهي الدخان؛ لأن السماء تكونت من العماء بجمود شيء منه سمي جلداً، فكانت منه السماء، وتكوّن مع السماء الماء، وتكونت الأرض بيُبْس ظهر في ذلك الماء، كما جاء في الإصحاح الأول من «سفر التكوين» من التّوراة .

والإتيان في قوله: " ائتيا " أصله: المجيء والإقبال. ولما كان معناه الحقيقي غير مراد لأن السماء والأرض لا يتصور أن يأتيا، ولا يتصور منهما طواعية أو كراهية، إذ ليستا من أهل العقول والإدراكات، ولا يتصور أن الله يُكرههما على ذلك لأنه يقتضي خروجهما عن قدرته بادئ ذي بدء تعينّ الصرف عن المعنى الحقيقي وذلك بأحد وجهين لهما من البلاغة المكانة العليا :

الوجه الأول :أن يكون الإتيان مستعاراً لقبول التكوين كما استعير للعصيان الإدبارُ في قوله تعالى:"ثم أدبر يسعى"(النازعات : 22)، وقول النبي (صلى الله عليه وسلم) لمسيلمة –حين امتنع من الإيمان والطاعة في وفد قومه بني حنيفة – « لئن أدبرت ليعقرنك اللَّه »، وكما يستعار النفور والفرار للعصيان. فمعنى" ائتيا"؛ امتثلا أمر التكوين. وقوله :"طَوْعاً أوْ كَرْهاً"؛ كناية عن عدم البدّ من قبول الأمر، وهو تمثيل لتمكّن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة الله تعالى. فكلمة" طَوْعاً أو كَرْهاً "، جارية مجرى الأمثال. و"طَوْعاً أوْ كَرْهاً "؛ مصدران وقعان حالين من ضمير" ائتيا" أي؛ طائعين أو كارهيْن .

والوجه الثاني : أن تكون جملة:" فَقَالَ لَهَا وِلِلأرْضِ ائتنا طَوْعاً أوْ كَرْهاً"، مستعملة تمثيلاً لهيئة تعلق قدرة الله تعالى لتكوين السماء والأرض لعظَمة خلْقهما بهيئة صدور الأمر من آمرٍ مُطاعٍ للعبد المأذون بالحضور لعمل شاقٍّ؛ أن

يقول له: ائت لهذا العمل طوعاً أو كرهاً، لتوقّع إبائهِ من الإقدام على ذلك العمل، فلا قول ولا مقول، وإنما هو تمثيل، ويكون"طَوْعاً أَوْ كَرْهاً" على هذا من تمام الهيئة المشبّه بها وليس له مقابل في الهيئة المشبّهة. والمقصود على كلا الاعتبارين تصوير عظمة القدرة الإلهية ونفوذها في المقدورات دَقَّت أو جلَّت .

وأما قوله :﴿قالتا أتينا طائعين﴾، فيجوز أن يكون قول السماء والأرض مستعاراً لدلالة سرعة تكوّنهما لشَبَههما بسرعة امتثال المأمور المطيع عن طواعية، فإنه لا يتردد ولا يتلكَّأ، على طريقة الاستعارة المكنية والتخييل، ويجوز أن يكون تمثيلاً لهيئة تكوّن السماء والأرض عند تعلق قدرة الله تعالى بتكوينهما بهيئة المأمور بعمل تقبّله سريعاً عن طواعية. وهما اعتباران متقاربان، إلا أن القول، والإتيان، والطوع، على الاعتبار الأول، تكون مجازات، وعلى الاعتبار الثاني، تكون حقائق، وإنما المجاز في التركيب على ما هو معلوم من الفرق بين المجاز المفرد والمجاز المركب في فنّ البيان .

***حوار بين الله وعبده (صاحب الحمار):** في سياق الحديث عن سر الموت والحياة يجيء الحوار الآخر، وقد ورد هذا في قوله تعالى:﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) ﴾البقرة. كأنه قيل: أرأيت كالذي حاج إبراهيم أو كالذي مرّ على قرية . والمارّ كان كافراً بالبعث. وقيل: هو عزير أو الخضر، أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم عليه السلام. وقوله:" أَنَّىٰ يُحْيِي"؛ اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء، واستعظام لقدرة المحيي. والقرية : بيت المقدس حين خَرّبه "بخْتُنَصَّر". وقيل: هي التي خرج منها الألوف،" وَهِىَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ".

وأماتفسيره فيما بعد: " يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ "، بناء على الظن. إذ روي أنه مات ضحى، وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس: يوماً، ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: أو بعض يوم . وروي: أن طعامه كان تيناً وعنباً. وشرابه عصيراً أو لبناً، فوجد التين والعنب كما جنيا، والشراب على حاله" لَمْ يَتَسَنَّهْ " أي؛ لم يتغير. ويجوز أن يكون معنى" لَمْ يَتَسَنَّهْ "؛ لم تمرّ عليه السنون التي مرت عليه، يعني هو بحاله كما كان، كأنه لم يلبث مائة سنة. وفي قراءة عبد الله: «فانظر إلى طعامك وهذا شرابك لم يتسن» . وقرأ أبيّ : «لم يسَّنه» ، بإدغام التاء في السين" وانظر إلى حِمَارِكَ "كيف تفرّقت عظامه ونخرت، وكان له حمار قد ربطه. وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب، فإذا حدّثهم بحديث قالوا: حديث مائة سنة "وانظر إِلَى العظام " هي عظام الحمار، أو عظام الموتى الذين تعجّب من إحيائهم"كَيْفَ نُنشِزُهَا "كيف نحييها[1].

[1] – الزمخشري ، الكشاف، ج1، ص307.

وقد ورد في معنى التمثيل والتشبيه كما تقدم، وهو مراد صاحب «الكشاف» بقوله : «ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ، كأنه قيل : أرأيت كالذي حاجَّ أو كالذي مرَّ» وإذ قد قرّر بالآية قبلها ثبوت انفراد الله بالإلهية، وذلك أصل الإسلام، أعقب بإثبات البعث الذي إنكاره أصل أهل الإشراك "[1].

واعلم أنّ العرب تستعمل الصيغتين في التعجّب: يقولون ألم تر إلى كذا، ويقولون أرأيتَ مثل كذا أو ككَذا، وقد يقال: ألم تر ككذا؛ لأنّهم يقولون لم أر كاليوم في الخير أو في الشر، وفي الحديث: «فلم أَره كاليوم مَنْظَرًا قط»، وإذا كان ذلك يقال في الخير جاز أن يدخل عليه الاستفهام فتقول: ألم تر كاليوم في الخير والشر، وحيث حذف الفعل المستفهَم عنه فلك أن تقدره على الوجهين [2].

فمن هو " الذي مرّ على قرية "؟ ما هذه القرية التي مر عليها وهي خاوية على عروشها؟ إن القرآن لم يفصح عنهما شيئاً، ولو شاء الله لأفصح، ولو كانت حكمة النصّ لا تتحقق إلا بهذا الإفصاح ما أهمله في القرآن. إن المشهد ليرتسم للحسّ قوياً واضحاً موحياً. مشهد الموت والبلى والخواء. كيف يُحيي هذه الله بعد موتها؟ وهكذا يلقي التعبير القرآني ظلاله وإيحاءاته، فيرسم المشهد كأنما هو اللحظة شاخص تجاه الأبصار والمشاعر .

أما كيف وقعت الخارقة؟ فكما تقع كل خارقة! كما وقعت خارقة الحياة الأولى. الخارقة التي ننسى كثيراً أنها وقعت، وأننا لا ندري كيف وقعت! ولا ندري كذلك كيف جاءت إلا أنها جاءت من عند الله بالطريق التي أرادها الله. وهذا « دارون » أكبر علماء الحياة يظل ينزل في نظريته بالحياة درجة درجة، ويتعمق أغوارها قاعاً قاعاً ، حتى يرُدّها إلى الخلية الأولى. ثم يقف بها هناك. إنه يجهل- أو يتجاهل- مصدر الحياة في هذه الخلية الأولى. ولكنه لا يريد أن يُسَلّم بما ينبغي أن يسلم به الإدراك البشري، والذي يُلِحّ على المنطق الفطري إلحاحاً شديداً. وهو أنه لا بد من واهبٍ وهب الحياة لهذه الخلية الأولى. لا يريد أن يسلم لأسباب ليست علمية، وإنما هي تاريخية في صراعه مع الكنيسة!

إن الذي يفسر هذه الظاهرة هو طلاقة المشيئة. وحسباننا هذا خطأ، بالقياس إلى المشيئة المطلقة: خطأ منشؤه أننا نفرض تقديراتنا نحن ومقرراتنا العقلية أو « العلمية! » على الله سبحانه! وهو خطأ يتمثل في أخطاء كثيرة :

فأولاً: ما لنا نحن نحاكم القدرة المطلقة إلى قانون نحن قائلوه؟ قانون مستمد من تجاربنا المحدودة الوسائل، ومن تفسيرنا لهذه التجارب ونحن محدودو الإدراك؟

وثانياً: فهَبْهُ قانوناً من قوانين الكون أدركناه. فمن ذا الذي قال لنا : إنه قانون نهائي كلي مطلق، وأن ليس وراءه قانون سواه؟

وثالثاً: هَبْه كان قانوناً نهائياً مطلقاً. فالمشيئة الطليقة تنشىء القانون ولكنّها ليست مقيّدة به. إنما هو الاختيار في كل حال .

---

[1] – ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير ،ج3، ص34.

[2] – المرجع نفسه، ص35.

وكذلك تمضي هذه التجربة، فتضاف إلى رصيد أصحاب الدعوة الجدد، وإلى رصيد التصور الإيماني الصحيح. وتقرر حقيقة طلاقة المشيئة، التي يعنى القرآن عناية فائقة بتقريرها في ضمائر المؤمنين به، لتتعلق بالله مباشرة، من وراء الأسباب الظاهرة، والمقدمات المنظورة. فالله فعّال لما يريد. وهكذا قال الرجل الذي مرّت به التجربة:" فلمّا تبيّن له، قال أعلم أن الله على كل شيء قدير" [1]. هذا ما كان من حوار الله مع مخلوقاته، فماذا كان من حوار المخلوقات فيما بينهم؟ ذلك ما سنعرض له مع أول حوار دار على هذه البسيطة ألا وهو حوار ابني آدم.

[1]– قطب سيد، في ظلال القرآن ، ج1 ، ص301.

المبحث الثاني: *حوارات المخلوقين فيما بينهم .

أما الحوار القرآني الذي حصلت فيه المرَادّة في الكلام، وارتقى إلى الجدل في بعض الأحيان، والمراء، والمناظرة، والحجاج، هو ذلك الذي دار بين الأنبياء وأقوامهم، وبين الأنبياء وأبنائهم، وبين الأنبياء وأسرهم، وبين الأنبياء وطغاة زمانهم، وأفراد الأسر فيما بينهم. ونبدأ بحوار ابني آدم؛ أول حوار بين البشر على وجه الأرض.

***حوار ابني آدم:** وهما ابنا آدم لصلبه قابيل وهابيل، أوحى الله إلى آدم أن يزوّج كل واحد منهما توأمة الآخر، وكانت توأمة قابيل أجمل واسمها (إقليما) فحسد عليها أخاه وسخط . فقال لهما آدم: قرّبا قرباناً، فمن أيّكما تُقُبّل زُوّجها، فتُقبّل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته؛ فازداد قابيل حسداً وسخطاً، وتوعّد أخاه بالقتل[1]. وها هو إبليس يغرس بذرة الشّر في أحد أبناء آدم، ليقضي بها على بذرة الخير التي غُرست بالفطرة في نفس الآخر، فيقتل قابيلُ هابيلَ.

إنها معالم الثنائية التي خلق الله تعالى عليها هذا الكون، وسنّ فيها سننه الكونية التي لا تقبل التبديل والتغيير. فالحق يقابله الباطل، والخير يقابله الشر، والفضيلة تقابلها الرذيلة، والجمال يقابله القبح...

وكل الشرائع السماوية جاءت وفي مضمونها حفظ النفس، وتقديسها.﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(المائدة:32)، وقتل النفس يعتبر منتهى الإجرام. قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) ﴾(المائدة).

يدور الحوار المعبّر بين الأخوين، ليبيّن نزعتين متضادتين؛ نزعة تنضح بالحقد والحسد، ونزعة تفيض بالصفاء الروحي، والأحاسيس الطاهرة. هذا ما تترجمه الآية المعبّرة عن موقف هابيل المسالم، في مواجهة أخيه قابيل الظالم، إذ يقول المولى عز وجل على لسان هابيل:﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(المائدة:29). إن هذه الآية تبيّن حسن التأدب والتخلق، وهي صفات تحلّى بها هابيل، وافتقدها قابيل. هذه الصفات التي جعلت هابيل يحاول درء الإثم عنه، ودرء المفسدة خوفاً من الله الذي خلقه.

---

[1] – الزمخشري ، الكشاف، ج1، ص624.

إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وغاية الإنسان في هذا الوجود أن يدرأ المفاسد قدر استطاعته، لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح. وقد منح هابيل بهذا السلوك فرصة لأخيه للتراجع والرويّة - بفضل هدوء فكره - ورحابة صدره، ليدفع السلبيات التي قد تفجّر المواقف، وتصنع المشاكل. ويحاول أن يربطه بالمرجع الأصل الذي خلقه في أحسن تقويم.

وهذا الموقف لا يعبّر - كما يبدو لبعض الناس - عن الروح الاستسلامية الانهزامية الجبانة التي تنكر على الإنسان حقّ الدفاع عن نفسه، وإنما يعبّر عن كيفية التصرف في مثل هذه المواقف للتّهدئة من الانفعالات، ومواجهة مثل هذه الحالات. ومع أن الآية لم تذكر تفاصيل القتل والانتقام، وأغفلت ذلك كلّه. إلاّ أنها اهتمت بالتركيز على أصل الفكرة من حيث طبيعتُها، ومن حيث إنها بداية للشر في الكون.

إن هذه القصة القصيرة التي أوردها القرآن في إطار الحوار القصير، تجسّد لنا صورة الإنسان الشرير إلى جانب صورة الإنسان الخيّر، لتربطنا بفكرة الخير وتبعدنا عن فكرة الشر. في موقف يوحي للقارئ والسّامع والمتأمل بفظاعة المنظر والموقف ذاك، إزاء جريمة ارتكبت، وهي خالية من كل مبرراتها، وحيثياتها العادلة التي تجعل منها عملاً عادلاً.

***المقاصد التداولية المستفادة**: ولعل القيمة التداولية والأبعاد التي نستفيدها من هذه القصة الحوارية القصيرة ما يلي:

* **البعد الأخلاقي**: تتمثل فيما تخلقه في نفس القارئ أو السامع، من تأثير نفسي ضد الجريمة والمجرم، وكذلك فيما تصنعه من تعاطف روحي مع الضّحية (المظلوم)، مما عُمِل، أو يُحكم عليه من أعمال الآخرين.

* **البعد التربوي**: يمكن أن تستثمر وتستغل هذه القصة كوسيلة حية من وسائل الإيضاح، ويتم تحويلها إلى عمل مسرحي، وإلى أسلوب من أساليب التربية والتّوجيه، وتقدّم للأطفال وللمجتمع، لينشأ مسالماً عادلاً، لا صدامياً عدوانياً ظالماً.

***البعد الثقافي**: تستغل أيضا في تنوير الرأي العام ، وغرس الوعي لدى الناس، ليتكوّن لديهم الحس النقدي الإبداعي، الذي يُمَكّنهم من اختيار ما هو أفضل لحفظه، واستظهاره ونقله بطريقة واعية، مدركة للعواقب قبل حلول المصائب. لا نقلة بطريقة ببغائية جامدة، ليس لديها القدرة على التصرف، أو التحرك في الاتجاه المتنوع والصحيح.

*__البعد الاجتماعي__: يبين لنا الحوار في هذه القصة معنى التسامح وعدم الانزلاق نحو العنف والاقتتال، وهو معنى من معاني الإنسانية الراقية .إنها الصورة الرائعة في مقابلة الإساءة بالإحسان. ومقابلة الظلم بالتقوى. إن تنشئة النشء على مثل هذه القيم الفاضلة لكفيلة بتحقيق الأمن والسلام في المجتمع.[1].

*__البعد النفسي__: الحوار في أقصوصة ابني آدم "عليه السلام" يلقي الضوء على جملة من الإشارات النفسية، لعل أخطرها نزعة الحسد التي تفقد الإنسان معالم الاستقرار النفسي، وتجعله عُرضة للتوتر والصّراع والتّمزق، بل تؤدي في النهاية إلى القضاء على الآخرين، كما وقع في هذه الحادثة المأساوية.

ولعل اختيار الغراب دون غيره من الطيور، يناسب الحالة النفسية للقاتل، والسياق الذي لفّ هذه الحادثة من حزن وتشاؤم وتطيّر. وهذا الاختيار يدل على الحالة النفسية التي يتلبّس بها القاتل حين يقدم على جريمة القتل، حيث يكون قلبه مغلّفا بسواد الحقد، ومن هنا صار الكون الأسود رمزا للخطيئة والخراب والفناء عند الشعوب[2]. والغراب رمز للتشاؤم والتطير. ويبقى أننا نتعامل مع هذه الأحكام مع الألوان بحذر شديد. فلا يحكم على اللّون خارج سياقه الكلي[3]. لأن السّياق هو المعيار الصّائب الصّحيح للنظر في دلالة الألوان الشعورية.

ومن خلال تمثلنا لهذه الأبعاد ووعينا لها، يمكن أن نكفل بيئة اجتماعية، ومجتمعا يعيش في أجواء القرآن فكرة وأسلوباً، ويكون القرآن عندئذ شاهد براءة لنا، لا شاهد إدانة. ومن رحمة الله بعباده، أن بعث فيهم أنبياء ورسل، يهدونهم إلى الطريق المستقيم، وصدق الله العظيم إذ يقول:﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(الإسراء:15). وقال أيضا:﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء:165). ذلك ما سنعيشه من أجواء حوارية ومناظراتية دارت بين الأنبياء وأقوامهم، وبينهم وبين أسرهم، وبينهم وبين طغاة زمانهم.

*__حوارات الأنبياء__: يمثل القرآن الكريم من أوله لآخره، ملاحم في الحوار، تعلّم الناس أدب الحوار وأصوله، ومبادئه، والمنهج الصّحيح في تعاطيه، وتفتَحنا على تجارب الحوار، من قِبل أرقى النّاس مستوى، وهم الأنبياء وأتباعهم، مع أدناهم مستوى، وهم الطغاة والجبابرة، والملأ الذين من حولهم كما تفتحنا على أصل أساسي في التحاور، الذي ينطلق من خلال البحث عن الحق والحقيقة على أساس قوله تعالى:﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ

1- ينظر: شحرور محمد – القصص القرآني، قراءة معاصرة ،ج1 :ص310.

2- همام محمد يوسف – اللون – ص08

3-ينظر : ملا عزيز صالح– جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني،ص183

اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ سبأ(24). ونبدأ بالحوار الذي جرى بين نبي الله نوح (عليه السلام وقومه).

*بين نوح وقومه: جاء الأنبياء حاملين رسالة إلهية غايتها الأساسية الدعوة إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، فاستهلوا دعوتهم بدعوة أسرهم وأقوامهم، وكان من شيم الأنبياء الحكمة ،خاصة في الرد على سفاهة أقوامهم، إضافة إلى سعة صبرهم فكانوا يردون عليهم بأسلوب مهذب ورقيق، وفي هذا المقام نستعرض إحدى المحاورات التي دارت بين نوح وقومه، على سبيل المثال في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾(هود:25) أي؛ أرسلنا نوحاً بأني لكم نذير. ومعناه أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام، وهو قوله :﴿ إني لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بالكسر. " أَن لاَّ تَعْبُدُواْ " بدل من " إني لَكُمْ نَذِيرٌ " أي أرسلناه بأن لا تعبدوا " إِلاَّ الله": ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26)﴾(هود). وخوف نوح على قومه نابع من حبه لهم، لأنه يعلم ما لا يعلمون.﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) ﴾(هود:25-27) .لكن الملأ من قومه،أو الأشراف من قومه، أنكروا عليه هذه الرسالة. ولعل تسميتهم بالملأ كما يقول صاحب الكشاف؛"فلأنهم يتمالؤون؛أي يتظاهرون ويتساندون، أو لأنهم يملؤون القلوب هيبة والمجالس أبهة، أو لأنهم مَلاء بالأحلام والآراء الصائبة. وقوله تعالى على ألسنتهم: (مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا)؛ تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة ،وأنّ الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر، لجعلها فيهم، فقالوا : هَبْ أنك واحد من الملأ، وموازٍ لهم في المنزلة ، فما جعلك أحقَّ منهم؟ أي؛ أحقَّ منهم بالنبوءة، ألا ترى إلى قولهم: (وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ)[1]. وهم بهذا القول يعتقدون أن الفضل بين الناس يقاس بالمادة، وبالطبقية الاجتماعية. وهذا ما يكشف سخف أحلامهم، إن كانت لهم أحلام فعلاً. وهذه تهمة كذلك توجه دائماً من الملأ العَالين لجموع المؤمنين، بأنها لا تتروّى ولا تفكر في اتباع الدعوات . ومن ثَمّ فهي متّهمة في اتباعها واندفاعها، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها، ولا أن يسلكوا طريقها. فإذا كان الأراذل يؤمنون، فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا إيمان الأراذل؛ ولا أن يَدَعوا الأراذل يؤمنون!"[2].

ولم يكُفَّ هؤلاء الأشراف تكذيباً لنوح عليه السلام ولرسالته التي بعثه الله بها إليهم، بل تمادوا في تجبرهم واستكبارهم، بأن تحاملوا على من اتّبعوه ووصفوهم بأراذل القوم وبسفلة الناس، الذين لايستخدمون عقولهم-حسب اعتقادهم- ويتّبعون نوحاً دون روية أو تفكير. ويقولون لنوح عليه السلام: "إن اتباعهم لك إنما هو شيء عَنّ لهم بديهةً من غير رَوِيّة ونظر، وإنما استرذلوا المؤمنين لفَقْرهم وتأخّرهم في الأسباب الدّنيوية، لأنهم كانوا جُهّالاً ما كانوا

[1] - الزمخشري ، الكشاف .ج2، ص388.

[2]- سيد قطب ، في ظلال القرآن ،ج4، ص 1872.

يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المُتَسَمِّين بالإسلام يعتقدون ذلك، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولقد زلّ عنهم أن التقدّم في الدّنيا ليس مقياسا أو معيارا للتقرب إلى الله أو البعد عنه، ولا يرفعه بل لعلّه يضعه، فضلاً أنْ يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة والتأهيل لها، على أن الأنبياء –عليهم السلام– بُعِثوا مُرغِّبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهّدين فيها، مصغّرين لشأنها وشأن من أخْلَد إليها".[1]

وهؤلاء المستكبرون يسمُّون الفقراء من الناس« أراذل ».''كما ينظر الكبراء دائماً إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان! وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالباً؛ لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التي تحرّر الناس من العبودية للكبراء، وتصِل القلوبَ بإلهٍ واحدٍ قاهرٍ عالٍ على الأعْلِياء"[2].

فرسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طور وفي كل أرض. ومن ثم كان يقاومها الطغاة دائماً، ويصدّون عنها الجماهير؛ ويحاولون تشويهها واتهام الدعاة إليها بشرّ التّهم للتشويش والتّنفير.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(هود:28). ويجوز أن يريد بالبيّنة؛ المعجزة، وبالرحمة؛ النبوّة. ومعنى عميت؛ خفيت. وقرئ: «فعميت» بمعنى أخفيت. وفي قراءة أبي «فعماها عليكم» فإن قلت: فما حقيقته؟ قلت: حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء، لأنّ الأعمى لا يهتدي، ولا يهدي غيره، فمعنى فعميت عليكم البينة؛ فلم تهدكم ، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة، فبقوا بغير هاد .فإن قلت: فما معنى قراءة أبي؟ قلت : المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها، فخلاهم الله وتصميمهم، فجعلت تلك التخلية، تعمية منه، والدليل عليه قوله:﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كارهون﴾؟. يعني؛ أنكرهكم على قبولها، ونُقْسِرِكم على الاهتداء بها، وأنتم تكرهونها، ولا تختارونها، ولا إكراه في الدين؟ وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً. ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ هود(29). ويعني؛ أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم. أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظهر لي منهم، وما أعرف غيره منهم. أو على خلاف ذلك، من بناء إيمانهم على بادئ الرأي من غير نظر وتفكر. وما علي أن أشق عن قلوبهم، وأتعرّف سرّ ذلك منهم حتى أطردهم، إن كان الأمر كما تزعمون. ونحوه:﴿وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾(الأنعام: 52)، أو بمعنى؛ هم مصدقون بلقاء ربهم، موقنون به، عالمون أنهم ملاقوه، ولا محالة أنكم" تَجْهَلُونَ" إذ تتسافهون على المؤمنين، وتدعوهم أراذل، والأرذل هو الخسيس الدنيء، والجهالة هي الظلم بعينه، ومهما كان لونه. وصدق الشاعر:[3]

ألاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ...فنجهل فوق جهل الجاهلينا .

1– الزمخشري ، الكشاف ، ج2، ص388.

2– قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج4، ص1872 .

3– عمرو بن هند، معلقة عمرو بن كلثوم،

وقد يكون المقصود من "تجهلون"؛ تجهلون بلقاء ربكم. أو تجهلون أنهم خير منكم. وقوله:" مَن يَنصُرُنِى مِنَ الله " أي؛ من يمنعني من انتقامه "إِن طَرَدتُّهُمْ "؟، وكان الأكابر يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به، أَنَفَة من أن يكونوا معهم على سواء. وقوله:"أَعْلَمُ الغيب"، معطوف على" عِندِى خَزَائِنُ الله" أي؛ لا أقول عندي خزائن الله، ولا أقول: أنا أعلم الغيب. وهنا يؤكد نوح أنّ من يتولى السرائر هو الخالق وحده، وأخلاق الأنبياء لا تسمح له باتهام النيات، والأصل في معاملة النّاس هو أنهم أبرياء حتى تظهر جريمتهم. وإذا أدركنا أن الذين آمنوا بنوح ورسالته ، هم قلة من المؤمنين، فهل يخطر ببال عاقل،أن يضحي بهذه القلة أو يخسرها، فدعوة الأشراف له بطردهم هو مناورة منهم للاستفراد بنوح عليه السلام والإجهاز عليه وعلى دعوته ،وليس القصد من هؤلاء المستكبرين هو الإيمان به بعد طرده لهؤلاء الفقراء كما يدعون، وإن كان هؤلاء المؤمنون فقراء إلى الله العلي القدير وإلى لطفه وكرمه. وهذا الذي ورد مفصلاً في قوله تعالى:﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(هود:30) أي؛ ليس نظري فيما ادعيت إلاّ إلى الهداية، وإني لا أطمع بمال حتى ألازم الأغنياء منكم، وأطرد الفقراء، وأنتم تجهلون هذا المعنى، حيث تقولون: اطرد الفقراء، وأن الله سبحانه ما بعثني إلا للترغيب في طلب الآخرة ورفض الدنيا، فمن ينصرني إن كنت أخالف ما جئت به"؟[1].

فجاء هو في جوابهم بالقول بالموجَب؛ أنه لم يدَّع فضلاً غير الوحي إليه، كما حكى الله عن أنبيائه. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(هود:31). إني أكون بهذا التصرف الذي تحاولون — عبثا — دفعي إليه، أكون قد ظلمت هؤلاء في دينهم وعقيدتهم، وأكون قد ظلمت نفسي، والظلم قد حرمه الله على نفسه، والظلم ظلمات يوم القيامة. ولم يتوقف قوم نوح عند هذا الحدّ من التلاعبات، والاستهزاء بالمؤمنين الذين آمنوا برسالته، بل بلغ بهم الجهل والطغيان إلى تحدّي نوح واستفزازه، فيقولون له :نحن لا نؤمن بما تقول، بل فاتنا بهذا العذاب الذي تهدّدنا به، إن كنت صادقاً حقاً. ويظهر هذا الجهل والطغيان في قولهم كما يرويه القرآن عنهم:﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(هود:32). وكانت المجادلة الأخيرة هي الّتي استفزّت امتعاضهم من قوارع جدله حتى سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم، شأن المبطل إذا دَمّغته الحجة، ولذلك أرادوا طيّ بساط الجدال، وأرادوا إفحامه، بأن طلبوا تعجيل ما توعّدهم من عذاب ينزل بهم ،كقوله آنفاً :﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾(هود : 26) .

وقولهم :﴿ فأكثرت جِدَالَنا ﴾، خبرٌ مستعمل في التذمّر والتّضجير والتّأييس من الاقتناع،﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾هود (33). والقصْر في قوله : (إنما يأتيكم به الله إن شاء)، قصر قلب بناءً على ظاهر طلبهم، حملاً لكلامهم على ظاهره على طريقة مجاراة الخصم في المناظرة، وإلاّ فإنهم جازمون بتعذّر أن يأتيهم بما وعدهم، لأنهم يحسبونه كاذباً، وهم جازمون بأنّ الله لم يتوعّدهم، ولعلّهم كانوا لا يؤمنون بوجود الله . وقوله :"إن شاء" احتراس راجع إلى حمل العذاب على عذاب الدنيا. ومعنى"وما أنتم بمعجزين"؛ ما أنتم بناجين وفَالِتِين من الوعيد، يريد، أن العذاب واقع لا محالة. ولعل نوحاً عليه السّلام لم يكن له وحي من الله بأن يحلّ بهم عذاب الدنيا،

---

[1]– الألوسي، روح المعاني، ج6، ص242.

فلذلك فوّضه إلى المشيئة؛ أو لعلّه كان يوقن بنزوله بهم فيكون التعليق بـ"إن شاء" منظوراً فيه إلى كون العذاب معجلاً أو مؤخراً.﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(هود:34). "فالمراد بالنصح هنا هو ما سمّاه قومه بالجدال، أي؛ هو أولى بأن يسمّى نصحاً، لأن الجدال يكون للخير والشر كما تقدم. وجملة الشرط في قوله:" إن كان الله يريد أن يغويكم"، هي المقصود من الكلام، فجوابها في معنى قوله:"لا ينفعكم نصحي"، ولكن نظم الكلام بُنِيَ على الإخبار بعدَم نفْع النّصح اهتماماً بذلك، فجعل معطوفاً على ما قبله، وأتي بالشرط قيداً له" [1]. والتعليق بالشرط في قوله:" إن أردت أن أنصح لكم"، مُؤذن بعزمه على تجديد النّصح في المستقبل، لأن واجبه هو البلاغ وإن كرهوا ذلك. وأشار بقوله: "إن كان الله يريد أن يغويكم"، إلى ما هم فيه من كراهية دعوة نوح (عليه السلام)،سببه خذلان الله إيّاهم ولولاه لنفعهم نصحه، ولكن نوحاً (عليه السلام) لا يعلم مراد الله من إغوائهم، ولا مدى استمرار غوايتهم، فلذلك كان عليه أن ينصح لهم إلى نهاية الأمر. والتقديم في" وإليه ترجعون" للاهتمام، ولرعاية الفاصلة، وليس للقصر، لأنهم لا يؤمنون بالبعث أصلاً، بله أن يزعموا أنهم يُحْضَرون إلى الله وإلى غيره [2].

وتمثلتْ– فيما قصه الله من قصة نوح (عليه السلام) مع قومه – صورة واضحة من تفكير أهل العقول السخيفة، التي ران عليها الضلال فقلبَ أفكارها إلى اعوجاج فظيع، وهي الصورة التي تتمثل في الأمم التي لم يثقّف عقولَها الإرشادُ الديني، فغلب عليها الانسياق وراء داعِيَ الهوى، وامتلكها الغرورُ بظن الخطأ صواباً. ويصدق على أمثال هؤلاء قولُ المتنبي : إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه * وصدّق ما يعتاده من توهّم.

ولم يجد نوح (عليه السلام) صدودا من قومه فقط، بل وجده من فلذّة كبده، ابْنِه الذي أعرض عنه، ولم يستمع لنصحه، فكان مع القوم الهالكين، عندما حقّ عليهم العذاب من الله، وهو الطوفان الذي أغرقهم، فوُصف نوح ولُقّب بأب البشرية الثاني بعد أبينا آدم . فما الحوار الذي دار بين نوح وابنه، لمّا حل الطوفان بالقوم الظالمين؟.

***حوار نوح وابنه:** قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾هود(41). بمعنى؛ اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف، كقولهم خفوق النجم، ومقدم الحاج. ويروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال:" بسم الله فَجَرَت، وإذا أراد أن ترسو، قال: بسم الله فرَسَت"[3].والركوب في السفينة مجاز، وإنما هو جلوس واستقرار فلا يقال: ركب السّفينةَ، فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقي للدّابة، والركوب المشابه له، وجملة :﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾؛ تعليل للأمر بالركوب المقيّد بالملابسة لذكر اسم الله تعالى، ففي التعليل

[1]– ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير،ج12، ص62.
[2]– المرجع نفسه ، ص62 .
[3] – الزمخشري، الكشاف، ج2، ص394.

بالمغفرة والرحمة رمز إلى أن الله وعَده بنجاتهم، وذلك من غفرانه ورحمته. وأكّد بـ " إنّ" ولام الابتداء تحقيقاً لأتْباعه بأن الله رحمهم بالإنجاء من الغرق [1].

وجملة:﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾؛ معترضة، دعا إلى اعتراضها هنا ذكرُ (مُجراها) إتماماً للفائدة، ووصفاً لعظم اليوم، وعجيب صنع الله تعالى في تيْسير نجاتهم. كأنه قيل:فركبوا فيها يقولون : بسم الله،"وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ"،أي؛ تجري وهم فيها،"فِي مَوْجٍ كالجبال"؛ يريد موج الطوفان؛ إذ شبّه كلّ موْجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها. ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾(هود:42). عطفت جملة " ونادى"، على أعلَق الجُمل بها اتّصالاً، وهي:" وقال اركبوا فيها ".(هود : 41)؛ لأن نداءه ابنَه كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال، إذ يتعذّر إيقافُها بعد جريها، لأن الراكبين كلّهم كانوا مستقرين في جوف السفينة .

وابن نوح هذا هو ابن رابع في أبنائه من زَوج ثانية لنوح كان اسمها(وَاعلة) غرقت، وأنّها المذكورة في آخر سورة التحريم قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(التحريم: 10). قيل كان اسم ابنه (ياماً) وقيل اسمه(كنعان)، وهو غير كنعان بن حام جدّ الكنعانيين. وقد أهملت التّوراة الموجودة الآن ذكر هذا الابن وقضية غرقه، وهل كان ذا زوجة، أو كان عزباً. وجملة: " وكان في معزل"، حال من " ابنه " . والمعْزل : مكان العزلة أي الانفراد، أي في معزل عن المؤمنين؛ إمّا لأنه كان لم يؤمن بنوح (عليه السلام)، فلم يصدق بوقوع الطوفان، وإما لأنّه ارتد فأنكر وقوع الطوفان، فكفر بذلك لتكذيبه الرّسول. وجملة:" يا بنيّ اركب معنا"، بيان لجملة:" نادى "،وهي إرشاد له ورفق به .

وأما جملة:" ولا تكن مع الكافرين"؛ فهي معطوفة على جملة:" اركب معنا"؛ لإعلامه بأنّ إعراضه عن الركوب يجعله في صف الكفار، إذ لا يكون إعراضه عن الركوب إلاّ أثراً لتكذيبه بوقوع الطوفان. فقول نوح عليه السّلام له:" اركب معنا"؛ كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير. وقد زاد ابنَه دلالة على عدم تصديقه بالطوفان قولُه متهكماً: "سَآوي إلى جبل يعصمني من الماء". و(بنيّ) تصغير(ابن) مضافاً إلى ياء المتكلم. وتصغيره هنا تصغير شفقة؛ بحيث يجعل كالصغير في كونه محل الرحمة والشفقة "[2].لكن الابن رد على أبيه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)﴾(هود.:41–43). وقوله:"سآوي إلى جبل"؛ قد كان قبل أن يبلغ الماء أعالي الجبال. و(آوي) : أنزل، ومصدره : الأُوِيّ، بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء .

وجملة:"يعصمني من الماء". إمّا صفة لجبل، أي؛ جبل عال، وإمّا استئناف بياني، لأنّه استشعر أن نوحاً عليه السّلام، يسأل: لماذا يأوي إلى جبل؟ إذ ابنه قد سمعه حين ينذر الناس بطوفان عظيم، فظن الابن أن أرفع الجبال لا يَبلغه الماء، وأنّ أباه ما أراد إلا بلوغ الماء إلى غالب المرتفعات دون الجبال الشامخات .

[1] – ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج12، ص74.

[2]– المرجع نفسه ، ص76.

ولذلك أجابه نوح عليه السّلام بأنّه:﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾، أي؛ مأموره، وهو الطوفان،" إلاّ مَن رحم "واستثناء "مَن رحم "، من مفعول يتضمنه (عَاصم) إذ العاصم يَقتضي معصوماً وهو المستثنى منه. وأراد بـ" من رحم "من قدّر الله له النجاة من الغرق برحمته. وهذا التقدير مظهره الوحي بصنع الفلك والإرشاد إلى كيفية ركوبه .وحيلولة الموج بينهما في آخر المحاورة يشير إلى سرعة فيضان الماء في حين المحاولة .وأفاد قوله:"فكان من المغرقين "أنه غرق وغرق معه من توعّده بالغرق، فهو إيجاز بديع. ما أفاد قوله:﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾(هود: 43). وقوعَ الغرق الموعود به على وجه الإيجاز، وانتقل الكلام إلى انتهاء الطوفان .

ويعلق صاحب الظلال على هذه النهاية الميلودرامية قائلاً:"وإننا بعد آلاف السنين، لنمسك أنفاسنا ونحن نتابع السياق، والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد. وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء. وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة، وينتهي كل شيء، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب!، وإن الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية بين الوالد والمولود، كما يقاس بمداه في الطبيعة ، والموج يطغى على الذّرى بعد الوديان. وإنهما لمتكافئان، في الطبيعة الصامته وفي نفس الإنسان، وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن"[1]. وما دامت التداولية تهدف إلى أن تصير اللغة حركة، تؤدي إلى التغيير البنّاء في واقع الناس، فيمكن القول: إن ما ورد من حوار مع نوح وقومه، ومع نوح وابنه، ينبّهنا إلى الجوانب العملية الإنجازية الآتية:

- يمكن للدّاعية أو المربِّي أن يستخدم أسلوب السخرية، كرد فعل على خصومه، فيما إذ استنفذ الوسائل الرسالية معهم دون جدوى.

- إن أسلوب السخرية هو حرب نفسية يستخدمها الأعداء للوقوف في وجه المشاريع الخيرية للأمة، يثير الأعصاب، ويؤدي إلى تدمير محتوى داخلي، وإذا تأثر به من سيُسْخَر منه، يؤدي به إلى الانهزام والانكسار. لذلك لا بد من مواجهة–هذه السخرية– إذا كانت خاضعة للحظة مدروسة، ولم تكن عفوية، للدفاع عن النفس والعقيدة، وحتى يُحارب السّاخرُ بسِلاحه، فيكون تدميره في تدبيره، وهذا ما قام به نوح تجاه قومه بما أوحى الله إليه.

- إنه ليس من المفروض في أولاد الأنبياء أن يكونوا صالحين، وإن كان من الأفضل أن يكونوا كذلك. وإن من المفروض على كل أب أن يقوم بدوره التربوي تجاه أبنائه، يرعاهم ويوجههم، ويرشدهم لما فيه الصلاح، حتى يكون قد أدى واجبه. ومهمة كل إنسان داعية أن يبدأ بأقرب الناس إليه، ثم ينتقل بعدها إلى أبعد الناس. ولا يهمه النتيجة الإيجابية بالضرورة، فتلك يتكفل بها الله، وما على الرّسول إلاّ البلاغ.

- على صاحب الرسالة، ألا ينجرف مع العواطف والأهواء، إزاء من استحبّوا الكفر على الهدى، بل عليه أن يؤمن برسالته، ويناضل من أجلها إلى آخر رمق، وتكون الرسالة بمثابة المؤشر الذي يحدد مسار عاطفته التي تربطه بالآخرين، وتتقدم – في ذل العقيدةَ والأهواءَ، لكي تقودها إلى برّ النجاة. قال تعالى:﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

[1] – قطب سيد، في ظلال القرآن، ج4، ص1878.

يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [1](المجادلة: 22).

هذا ملخص ما دار في الحوار بين نوح وقومه، ونوح وابنه، ونوح وربه؛ وهذه النتيجة العملية التي نستفيدها هامة في المستقبل، كممارسة عملية، لمن أراد أن يعيش للرّسالة، فلا خير في علم لم يؤيّده عمل، ولا خير في رسالة لا تأمر بخير ولا تنهى عن شرّ، لأن سعادة الإنسانية هي في زرع الخير، واقتلاع الشرّ من جذوره. وفي الاستجابة لأوامر الله ونواهيه، لأن روح الإنسان لا تكون فاضلة إلاّ بتربيتها على ما يقربها من خالقها سبحانه وتعالى.وصدق القائل:[2].

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنــــسان.

ومن بعد نوح يبعث الله هودا عليه السلام إلى قومه، الذين استخلفهم الله بعد قوم نوح، فكيف تلقى قوم عاد رسالة أخيهم هود؟

* **هود..وعاد:** لقد تحدث القرآن في مناسبات عدة، عن هذه القصة في أكثر من سورة؛ من الأعراف،إلى هود، إلى المؤمنون، فالشعراء، فالأحقاف ، فالذاريات، فالقمر، فالفجر. وقد تنوعت أساليب الحوار فيها وطريقة الحكاية.

وأجواء الحوار دائما تبدأ بين كل نبي وقومه – بالدعوة إلى الله والإيمان به وباليوم الآخر، وبالرسالة التي بعث بها نبيه، فيدعو هود قومه إلى الله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾(الأعراف:65). لكن قومه يسفهونه ويصفونه بالكذب؛ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾(الأعراف: 66). ويبرئ هود نفسه من السفاهة، ويؤكد لهم أنه رسول من عند الله، بعث إليهم ناصحا أمينا. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67)أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68)﴾(الأعراف). ثم يبين لهم سبب التعجب والاستغراب فيذكرهم بأنهم خلفاء من بعد نوح، ويذكرهم بالنعم التي بسطها لهم في الخلق والخيرات التي رزقهم بها، وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام- من نَسْبِهم إلى الضَّلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغْضاء، وترك المقابلة، بما قالوا لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم- أدبٌ حسنٌ وخُلُق عظيم، وحكاية الله عزّ وجلّ ذلك تعليم لعباده كيف

[1] – ينظر: فضل الله محمد حسين ، الحوار في القرآن، ص31-34.

[2] – البستي أبو الفتح علي بن محمد الكاتب، ديوان أبي الفتح البستي، تح: درية الخطيب- درية الصقال، مطبوعات مجمع العربية ، دمشق. 1410هـ – 1989م. ص

يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم ناصِحٌ أَمِينٌ أي عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة، فما حقي أن أُتهم. أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ أي خلفتموه في الأرض، أو جعلكم ملوكا في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فيما خلق من أجرامكم ذهابا في الطول والبدانة. قيل: كان أقصرهم ستين ذراعا، وأطولهم مائة ذراع فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ في استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطاياه"[1].

.﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69)﴾(الأعراف:64-68). فالمراد: جَعَلكم خُلَفَاءَ فِي تَعْمِير الْأَرْض، وَلَمَّا قَال: "مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ" عُلِمَ أَنَّ الْمقْصود أَنَّهم خُلَفاءُ قوم نُوحٍ، فَعاد أَوَّلُ أُمَّةٍ اضْطلعت بِالْحضارة بعد الطُّوفان، وَكان بَنُو نُوحٍ قد تَكاثَرُوا وَانْتشروا فِي الْأَرْض، فِي أَرْمِينِيَّةَ، وَالْمَوْصِلِ، وَالْعِرَاقِ، وَبِلَادِ الْعَرَبِ، وَكانوا أُمَمًا كثيرَة، أو كَانت عَاد أعظم تِلْكَ الْأُمَمِ، وَأصحاب السِّيادة على سَائر الأُمم، وليْس الْمُراد أَنَّهم خَلفوا قوم نُوح في دِيارهم لِأَنَّ منازل عادٍ غيرُ منازل قوم نوح عند الْمُؤرِّخين، وهذا التَّذكير تصريح بِالنِّعمة، وَتَعْرِيضٌ بالنِّذارة وَالوعيد بِأَنَّ قوم نُوح إِنَّما استَأْصلهم،وأبادهم عَذَابٌ من اللَّهِ على شِرْكهم، فمَن اتَّبعهم في صُنْعهم يُوشِك أَنْ يَحِلَّ به عذابٌ أَيضًا ".[2]

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70)﴾الأعراف. أي؛ أقصدتَ، واهتممت بنا لنعبد الله وحده، فاستعير فعل المجيء لمعنى الاهتمام والتّحفّز والتّصلّب، كقول العرب"[3]

. أو بمعنى؛ أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ أي لنخصه بالعبادة وَنَذَرَ أي نترك ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا من الأوثان؟ وهذا إنكار واستبعاد لمجيئه عليه السلام بذلك. ومنشؤه انهماكهم في التقليد والحب لما أَلفَوْا عليه أسلافهم، ومعنى المجيء إما مجيئه- عليه السلام- من مكان كان يتحنّث فيه كما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يفعل بحراء قبل المبعث أو مجيئه من السماء أي أنزلت علينا من السماء ومرادهم التهكم والاستهزاء، وجاء ذلك من زعمهم أن المرسل من الله تعالى لا يكون إلا ملكا من السماء أو هو مجاز عن القصد إلى الشيء والشروع فيه فإن جاء، وقام، وقعد، وذهب- كما قال جماعة- تستعملها العرب لذلك تصويرا للحال فتقول قعد يفعل كذا وقام يشتمني وقعد يقرأ وذهب يسبني"[4] .

---

1 – الزمخشري، الكشاف، ج2، ص117.

2 – ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير،ج8، ص205.

3 – المرجع نفسه، ص205.

4– الألوسي، روح المعاني، ج4، ص395.

"والفاء في قوله : "فأتنا بما تعدنا"، لتفريع طلب تحقيق ما توَعَّدهم به، وتحدّياً لهود، وإشعاراً له بأنّهم موقنون بأنْ لا صِدْق للوعيد الذي يتوعّدهم، فلا يخشون ما توعّدهم به من العذاب. فالأمر في قولهم: (فأتنا)للتّعجيز .

والإتيان بالشّيء، حقيقتُه أن يجيء مصاحباً إيّاه، ويستعمل مجازاً في الإحضار والإثبات كما هنا. والمعنى؛ فعجّلْ لنا ما تعِدُنا به من العذاب، أو فحقِّقْ لنا ما زعمتَ من وعيدنا".[1] والوعد الذي أرادوه وعْد بالشرّ، وهو الوعيد ولم يتقدّم ما يفيد أنّه توعّدهم بسوء، فيحتمل أن يكون وعيداً ضمنياً، تضمّنه قوله : ﴿ أفلا تتّقون ﴾ (الأعراف : 65)، لأنّ إنكاره عليهم– انتفاء الاتّقاء – دليل على أنّ ثمّة ما يُحذّر منه، ولأجل ذلك لم يُعَيِّنوا وعيداً في كلامهم، بل أبهموه بقولهم:" بما تعدنا"، ويُحتمل أن يكون الوعيد تعريضاً من قوله:﴿إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾(الأعراف:69). المؤْذِن بأنّ الله استأصل قوم نوح وأخلفهم بعَادٍ، فيوشك أن يستأصل عاداً ويُخلفهم بغيرهم".

لقد جاوبوا هودًا بما أَنبأَ عن ضياع حُجَّته في جَنْبِ ضلالة عقولهم ومُكابرة نُفوسهم، ولذلك أَعادوا تكذيبه بطريق الِاستفهام الْإِنْكاريّ على دعوته للتَّوحيد،"كأنّهم راموا استنزالَ نَفْس هُودٍ، ومُحاولةَ إرجاعه عمَّا دعاهم إليه، فلذلك اقْتصرُوا على الإِنكار وذكَّروه بِأَنَّ الأَمر الذي أَنكره هو دين آباء الجميع، تعريضًا بأَنَّه سفَّه آباءه، وهذا الْمَقْصِدُ هو الذي اقْتضى التَّعبير عن دينهم بطريق الموصوليَّة في قولهم: ﴿مَا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا﴾؛ إِيماءً إِلى وجه الْإِنكار عليه، وإِلَى أَنَّه حقيق بِمتابعة دِينِ آبائه، كما قال الملأُ مِن قُرَيش لِأَبِي طالب حين دعاه النَّبيء– صلى اللهُ عليه وسلم– أَن يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» عند احْتضاره، فقالوا لأَبِي طالب: «أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»؟.

واجْتِلاب (كَانَ)؛ لتَدلَّ على أَنَّ عبادتهم أَمْرٌ قديم، مضَت عليه العصور. وَالتَّعبير بالفعل، وكوْنُه مُضارعًا فِي قوله: (يَعْبُدُ)؛ لِيَدلَّ على أَنَّ ذلك مُتكرِّر مِن آبائهم، ومُتجدِّد، وأَنَّهم لا يَفْتَرون عنه"[2].

وعقّبوا كلامهم بالشّرط فقالوا : ﴿ إن كنتَ من الصّادقين ﴾ استقصاء لمقدرته قصداً منهم لإظهار عجزه عن الإتيان بالعذاب فلا يسعه إلاّ الاعتراف بأنّه كاذب ، وجواب الشّرط محذوف دلّ عليه ما قبله تقديره : أتيتَ به وإلاّ فلست بصادق [3].

فأجابهم بأن أخبرهم بأنّ الله قد غضب عليهم ، وأنّهم وقع عليهم رجس من الله .﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71)﴾الأعراف. والأظهر أنّ: "وقع" معناه؛ حَق وثبت، من قولهم للأمر المحقّق: هذا وَاقع، وقولهم للأمر المكذوب: هذا غير واقع، فالمعنى حَقّ وقُدر عليكم رجس وغضب. فالرّجس هو الشّيء الخبيث، أطلق هنا مجازاً على خبث الباطن. فيكون فعل (وقَعَ) من استعمال صيغة المضيّ في معنى الاستقبال، إشعاراً بتحقيق وقوعه؟ ومنهم من فسّر الرّجس بالسّخط، وفسّر الغضب بالعذاب، على أنّه مجاز مرسَل لأنّ العذاب أثر الغضب، وقد أخبَر هود بذلك عن علم بوحي في ذلك الوقت، أو من حين أرسله الله، إذْ أعلمه بأنّهم إن لم يرجعوا عن الشّرك

---

[1] – الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير،ج8 ، ص207.

[2] – المرجع نفسه، ص207.

[3] – المرجع نفسه، ص207.

بعد أن يُبَلِّغهم الحجّة فإنّ عدم رجوعهم علامة على أنّ خبث قلوبهم متمكّن لا يزول، ولا يرجى منهم إيمان، كما قال الله لنوح : ﴿ لن يُؤمن من قومك إلاّ مَن قد آمن ﴾(هود : 136) .
وغضب الله تقديره : الإبعاد، والعُقوبة، والتّحقير، وهي آثار الغضب في الحوادث، لأنّ حقيقة الغضب انفعال تنشأ عنه كراهيّة المغضوب عليه، وإبعادُه، وإضراره .

وتأخيرُ الغضب عن الرّجس؛ لأنّ الرّجس- وهو خبث نفوسهم- قد دلّ على أنّ الله فطَرهم على خُبث بحيث كان استمرارهم على الضّلال أمراً جِبلّياً، فدلّ ذلك على أنّ الله غضب عليهم . فوقوع الرجس والغضب عليهم حاصل في الزّمن الماضي بالنّسبة لوقت قول هود . واقترانُه بـ" قد" للدّلالة على تقريب زمن الماضي من الحال : "مثل قَد قامت الصّلاة ".

ولما قَدّم إنذارهم بغضب الله، عاد إلى الاحتجاج عليهم بفساد معتقدهم، فأنكر عليهم أن يجادلوا في شأن أصنامهم. والمجادلة؛ المحاجة. وعبّر عن الأصنام بأنّها أسماء، أي؛ هي مجرّد أسماء ليست لها الحقائق التي اعتقدوها ووضعوا لها الأسماء لأجل استحضارها، فبذلك كانت تلك الأسماءُ الموضوعةُ مجرّدَ ألفاظٍ، لانتفاء الحقائق التي وضعوا الأسماء لأجلها. وعطف على ضمير المخاطبين:"وآبَاؤكم"؛ لأنّ من آبائهم من وضع لهم تلك الأسماء، فالواضعون وضعوا وسَمَّوْا، والمقلّدون سَمَّوْا ولم يضَعوا، واشترك الفريقان في أنّهم يذكرون أسماء لا مُسَمَّياتَ لها .

والفاء في قوله:" فانتظروا"؛ لتفريع هذا الإنذار والتّهديد السّابق، لأنّ وقوع الغضب والرّجس عليهم، ومكابرتهم واحتجاجهم لما لا حجّة له، ينشأ عن ذلك التّهديد بانتظار العذاب. وصيغة الأمر للتّهديد مثل:" اعملوا ما شئتم "(فصلت: 40). والانتظار؛ افتعال من النّظر، بمعنى التّرقّب؛كأنّ المخاطَب أُمِر بالتّرقّب، فارْتَقَبَ .ومفعول : "انتظروا " محذوف دلّ عليه قوله:"رجس وغضب" أي؛ فانتظروا عقاباً .

وقوله:"إني معكم من المنتظرين"؛ استئناف بياني؛ لأنّ تهديده إيّاهم يثير سؤالاً في نفوسهم، أن يقولوا : إذاكنّا ننتظر العذاب فماذا يكون حالُك ؟، فبيّن أنّه ينتظر معهم، وهذا مقام أدب مع الله تعالى كقوله تعالى تَلْقِيناً لرسوله محمّد (صلى الله عليه وسلم) :« قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ »(الأحقاف:9)، فهودٌ يخاف أن يشمَله العذاب النّازل بقومه، وذلك جائز كما في الحديث: أنّ أمّ سلمة قالت:«أنُهلك وفينا الصّالحون» قال:"نعم إذا كثُر الخبَث". وفي الحديث الآخر:" ثمّ يحشرون على نيّاتهم". ويجوز أن ينزّل بهم العذاب ويراه هود، ولكنّه لا يصيبه، وقد روي ذلك في قصّته. ويجوز أن يبعده الله، وقد روي أيضاً في قصته؛ بأن يأمره بمبارحة ديار قومه قبل نزول العذاب[1].﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(هود:53)؛ محاورة منهم لهود (عليه السّلام) بجواب عن دعوته، ولذلك جُرّدت الجملة عن العاطف .

وافتتاح كلامهم بالنّداء يشير إلى الاهتمام بما سيقولونه، وأنه جدير بأن يتنبّه له، لأنهم نزّلوه منزلة البعيد لغفلته فنادوه، فهو مستعمل في معناه الكنائيّ أيضاً. وقد يكون مراداً منه مع ذلك توبيخه ولوْمه، فيكون كناية ثانية، أو استعمال النّداء في حقيقته ومجازه. وقولهم:"ما جئتنا ببينة"؛ بهتان؛ لأنه أتاهم بمعجزات، لقوله تعال:﴿ وتلك عادٌ

[1] - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير،ج12، ص98-99 .

جحدوا بآيات ربهم ﴾(هود: 59). وإن كان القرآن لم يذكر آية معينة لهود عليه السّلام. ولعل آيته أنّه وعدهم عند بعثته بوفرة الأرزاق والأولاد واطّراد الخصب وفرة مطردة لا تنالهم في خلالها نكبة ولا مصيبة بحيث كانت خارقة لعادة النعمة في الأمم، وإنما أرادوا أن البيّنات التي جاءهم بها هود عليه السّلام لم تكن طبقاً لمقترحاتهم. وجعلوا ذلك علة لتصميمهم على عبادة آلهتهم فقالوا:﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾. و(عَن) في:"عن قولك" للمجاوزة، أي؛ لا نتركها تركاً صادراً عن قولك، كقوله :﴿وما فعلته عن أمري﴾(الكهف: 82). والمعنى على أن يكون كلامه علّة لِترْكهم آلهتهم. وقوله:﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾(هود:54). وجملة :﴿إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾؛ استئناف بياني لأنّ قولهم: ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ من شأنه أن يثير للسامع ومَن معه في أنفسهم أن يقولوا: إن لم تؤمنوا بما جاء به أنّه من عند الله، فماذا تعدُّون دعوتَه فيكم؟، أي؛ نقول إنك ممسوس من بعض آلهتنا، وجعلوا ذلك من فعل بعض الآلهة تهديداً للنّاس، بأنه لو تصدّى له جميعُ الآلهة لَدَكُّوه دكّاً .

والاعتراء؛ النزول والإصابة. والباء للملابسة، أي أصابك بسوء. ولا شك أنهم يَعنون أنّ آلهتهم أصابته بمسّ من قَبْل أن يقوم بدعوة رفض عبادتها لسبب آخر، وهو كلام غير جار على انتظام الحجّة، لأنه كلام ملفّق من نوع ما، يصدر عن السفسطائيين، فجعلوه مجنوناً، وجعلوا سبب جنونه مسّاً من آلهتهم، ولم يتفطّنوا إلى دَخَل كلامهم، وهو أن الآلهة كيف تكون سبباً في إثارة ثائر عليها ؟!.

لما جاءوا في كلامهم برفض ما دعاهم إليه، وبجحد آياته، وبتصميمهم على ملازمة عبادة أصنامهم، وبالتنويه بتصرف آلهتهم، أجابهم هود عليه السّلام بأنّه يشهد الله عليهم أنّه أبلغهم وأنّهم كابروا وجحدوا آياته . وجملة :" أشهد الله " إنشاء لإشهاد الله بصيغة الإخبار لأنّ كل إنشاء لا يظهر أثره في الخلق من شأنه أن يقع بصيغة الخبر لما في الخبر من قصد إعلام السامع بما يضمره المتكلم ، ولذلك كان معنى صيغ العقود إنشاءً بلفظ الخبر. وجعل الخطاب لقومه لئلا يكون خطابه لما لا يعقل ولا يسمع ، فأمر قومه بأن يكيدوه. وأدخل في ضمير الكائدين أصنامهم مجاراة لاعتقادهم واستقصاء لتعجيزهم ، أي أنتم وأصنامكم .

ثم يلجأ إلى مخاطبة مكامن الإحساس فيهم وفي واقعهم عندما يمنيهم بالماء الذي يتطلعون إليه في أرضهم الصحراوية، وبزيادتهم قوة إلى قوتهم. وكل هذا يحصل إذا تابوا إلى الله الذي يملك كل شيء، ولا يعرضوا عنه:﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52)﴾هود". لكن الرد من هؤلاء، كان أن هود لم يأتهم ببينة، ولا هم بتاركي آلهتهم، ولا هم بمؤمنين له،﴿ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وأكثر من ذلك، فهم يخوفونه بإساءة الآلهة له وانتقامها منه ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾. لكن هودا يزداد يقينا بالله ويلجأ إليه ويتبرأ مما يشركون. ثم يتحداهم أن يضروه بشيء هم وآلهتهم المزعومة؛ إنهم لن يقدروا عليه، لأنه توكل على الله المالك لناصية كل دابة في الأرض، والمهم أنه قد بلغ، وإن أعرض قومه عنه، فإن الله قادر على أن يبدل قوما غيرهم، ثم لا يكونوا أمثالهم.

لقد أنكر قوم هود حجته، ورفضوا دعوته، واستضعفوه، ورموه بالمس في عقله بسبب مهاجمة آلهتهم. وهو موقف وكلام منهم غير مسئول، وقد كان الرد من هود أن أوصد باب الحوار بإعلانه البراءة من شركائهم، ليكون نهاية المطاف، ثم واجه أسلوبهم في استضعافه بأسلوب القوة والتحدي والتهديد، وعدم القدرة على الوصول والإساءة إليه؛ لأنه يستمد العون من الله.

ويمكن أن نستفيد تداوليا من هذا الحوار فيما يلي:

– إن الأفكار التي كانت تحكم ذهنية قوم نوح هي نفسها التي كانت تحكم ذهنية قوم هود، ولعل السبب في ذلك تقارب زمانهم. لقوله تعالى:" واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد نوح وزادكم في الخلق بصطة ".

– دعوات الأنبياء والرسل، كانت دائما تصطدم بالطبقة المترفة في المجتمع، فهي التي تحارب الرسالات لأنها تشعر بالخطر على امتيازاتها الدنيوية؛ نظرا لأن الرسالات السماوية تحارب التميز خارج نطاق العمل والكفاءة الذاتية، وتعدل بين الناس، وتساوي بينهم في الحقوق والواجبات.

– خصوم الرسالات السماوية لا يبررون مواقفهم منها تبريرا منطقيا علميا مقبولا، بل كانوا يبررونه بالواقع المألوف لديهم والذي صنعوه وفق أغراضهم ونواياهم وأهوائهم الذاتية، والذي لا ينسجم مع حركات التغيير.

مواقف الأنبياء في هذه الحالات واحدة، فهم يواجهون هؤلاء القوم بالحجة وبالكلمة الهادئة، والأسلوب الحكيم، والحب الصادق مخافة المصير السّيّء، ليفتحوا قلوبهم على الحقيقة الناصعة، ويوجهوا أفكارهم إلى الإيمان الحق، بعيدا عن أي انفعال، أو فحش في القول، تلك هي أخلاق الرسل التي دعت إليها الرسالات جميعا.

– وما يمتاز به قوم هود، هو القوة الجسمية والبنية الجسدية الهائلة، لذلك تحداهم هود في هذه الصفة وذكرهم بأن الله سبحانه تعالى هو الذي منحها لهم"فكيدوني أجمعين ثم لا تنظرون".[1] فكان الأسلوب، لينا في غير ضعف، وشديداً في غير عنف، وصدق المثل القائل:" لا تكن لينا فتعصر، ولا تكن صلبا فتكسر"...ألا بعدا لعاد قوم هود! هذا عن نبي الله هود وقومه عاد، فماذا عن نبي الله "صالح" وقومه ثمود؟.

* **صالح وثمود:** وهذا حوار آخر، من حوارات الأنبياء مع أقوامهم، في تاريخ الأديان القديمة، ولا تختلف وقائعها عن سابقاتها في طريقة الحوار والدعوة من جهة، وفي طريقة الرفض والعناد من جهة أخرى، في جو كان يسيطر عليه واقع مادي أبطاله مترفين متكبرين، يسيطرون على الناس، ويزهون بقوتهم وثرواتهم، فكانوا يملكون القصور في السهول، وينحتون البيوت في الجبال.

[1] – ينظر: فضل الله محمد حسين ، الحوار في القرآن، ج2، ص40 ،42 .

والفارق في هذه القصة، أن صالحا جاء قومه بآية من ربه، وهي معجزة تمثلت في الناقة، التي كانت تسقي قومه من لبنها دون أن يجف ضرعها مهما كانت كثرتهم، ولذا كانت تقتسم معهم الماء، فلها شرب يوم ،ولهم شرب يوم معلوم. فكانت مظهرا من مظاهر التحدي لعنادهم وكبريائهم، فما كان منهم، إلا أن قتلوا ناقة الله، بعدما دبروا الأمر لمؤامرة انتهت بنزول العذاب عليهم. لنحاول أن نتتبع الحوار الذي دار بين صالح وقومه، ونقف أمام العبر والعظات المستفادة كأبعاد تداولية لهذا الحوار.

قال الله تعالى:﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61)﴾ إنها الكلمة التي لا تتغيّر:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ..وإنه كذلك المنهج الذي لا يتبدل:«فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» ..ثم هو التعريف بحقيقة الألوهية كما يجدها في نفسه الرسول:«إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ»، والإضافة في «ربي» ولفظ «قريب» ولفظ «مجيب» واجتماعها وتجاورها. ترسم صورة لحقيقة الألوهية، كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة، وتخلع على الجو أنساً واتصالاً ومودة، تنتقل من قلب النبي الصالح إلى قلوب مستمعيه لو كانت لهم قلوب! ولكن قلوب القوم كانت قد بلغت من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر معها جمال تلك الصورة ولا جلالها، ولا تحس بشاشة هذا القول الرفيق، ولا وضاءة هذا الجو الطليق.. وإذا بهم يُفاجأون، حتى لَيظنون بأخيهم صالح الظنون! ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62)﴾هود. لقد كان لنا رجاء فيك.كنت مرجواً فينا لعلمك أو لعقلك أو لصدقك أو لحسن تدبيرك، أو لهذا جميعه. ولكن هذا الرجاء قد خاب..

هكذا يعجب القوم مما لا عجب فيه بل يستنكرون ما هو واجب وحق، ويدهشون لأن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده. لماذا؟ لا لحجة ولا لبرهان ولا لتفكير. ولكن لأن آباءهم يعبدون هذه الآلهة! وهكذا يبلغ التحجر بالناس أن يعجبوا من الحق البين. وأن يعللوا العقائد بفعل الآباء! وهكذا يتبين مرة وثانية وثالثة أن عقيدة التوحيد هي في صميمها دعوة للتحرر الشامل الكامل الصحيح.ودعوة إلى إطلاق العقل البشري من عقال التقليد، ومن الوهم والخرافة التي لا تستند إلى دليل.

وتذكرنا قولةُ ثمود لصالح: «قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا».تذكرنا بما كان لقريش من ثقة بصدق محمد (صلى الله عليه وسلم) وأمانته. فلمّا أن دعاهم إلى ربوبية الله وحده تنكروا له كما تنكر قوم صالح، وقالوا: ساحر. وقالوا: مفتر. ونسوا شهادتهم له وثقتهم فيه!. إنها طبيعة واحدة، ورواية واحدة، تتكرر على مدى العصور والدهور..

ويقول صالح كما قال جدُّه نوح:﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾(هود: :63). ولا يذكر السّياق صفة لهذه الناقة التي أشار إليها صالح لتكون آيةً لهم وعلامةً. ولكن في إضافتها لله:«هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ» وفي تخصيصها لهم: «لكم آية» ما يشير إلى أنها كانت ذات صفة خاصة مميزة، يعلمون بها أنها آيةٌ لهم من الله.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64)﴾هود. وإلا فسيعاجلكم العذاب. يدل على هذه المعاجلة فاء الترتيب في العبارة. ولفظ قريب ؛يأخذكم أخذاً. وهي حركة أشد من المس أو الوقوع. ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65)﴾هود. ودل عقرهم للناقة، أي ضربهم لها بالسيف في قوائمها وقتلها على هذا النحو. دل على فساد قلوبهم واستهتارهم. والسياق هنا لا يطيل بين إعطائهم الناقة وعقرهم إياها، لأنها لم تحدث في نفوسهم تجاه الدعوة تغييراً يذكر.

ثم ليتابع السياق عجلة العذاب. فهو يعبر هنا بفاء التعقيب في كل الخطوات:«فَعَقَرُوها. فَقالَ: تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ» ..فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ومن أيام هذه الحياة:«ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ» ..فهو وعد صادق لن يحيد..وبالفاء التعقيبية يعبر كذلك. فالعذاب لم يتأخر:﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66)﴾هود. فلما جاء موعد تحقيق الأمر- وهو الإنذار أو الإهلاك- نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منّا..خاصة، ومباشرة.. نجيناه من الموت ومن خزي ذلك اليوم، فقد كانت مِيْتَةُ ثمودَ مِيْتَةً مُخْزِيَةً، وكان مشهدهم – جاثمين في دورهم بعد الصّاعقة المدوّية التي تركتهم موتى على هيئتهم- مشهداً مُخزياً...ألاَ بُعداً لثمودَ قومِ صالحٍ! وفي الحوار الوارد بين صالح وقومه، يمكن أن نركز على ملاحظتين بارزتين هما:

– محاولة المستكبرين تشكيك المستضعفين بالرّسالة، بإثارة أسئلة ظاهرها حقّ، وباطنها باطل، والمراد منها التضليل قصد المغالطة والتشكيك في قناعاتهم. ولكنّ صمود ووقوف المستضعفين بقوة أمام هذه الألاعيب، أكد صدق إيمانهم، مما جعل هؤلاء المستكبرين يكشفون عن هوياتهم الحقيقية بالكفر والعناد، والتحدّي العنيف. ويوضح القرآن هذا الموقف بقوله تعالى:" قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76)الأعراف".

إن أساليب أهل الكفر والضلال، يتوجهون إلى العامة بطريقة التحبب والتودد، وكأنهم يقولون لهم هل أنتم جادون في إيمانكم أم تمزحون؟. إننا لا نعتقد هذا لأنكم في مستوى عال من النصح والرؤية الواضحة التي تجعلكم في موقف يرفض قبول مثل هذا، فكيف بالإيمان به؟!!. إنه أسلوب خبيث في الدعوة إلى رفض الإيمان والعقيدة، يريد أن يسيء إلى كرامة الإنسان، في عقله وفكره.

وأصحاب الإيمان الضعيف يمكن أن يؤثر فيهم هذا الأسلوب فيضعفون، خاصة أولئك الذين يستعيرون ثقافتهم من الآخرين، ويكسبون ثقتهم من الآخر بالمدح أو الذم. فيسقطون في الفخ وينهزمون من حيث لا يعلمون. ولعلنا نجد في القرآن الكريم الكثير من الإشارات إلى هذا الأسلوب في حديثه مع المشركين والكافرين، عندما يطلب منهم الرجوع إلى وعيهم ليكتشفوا حقيقة معتقداتهم التي لا تتماشى ولا تتناسب مع العقل الواعي والفكر العميق.

-محاولة الكافرين والمشركين إثارة جانب الكرامة الاجتماعية في أنفس الأنبياء والرسل، ومنهم صالح، والإيحاء إليه بأنه تعدى على العرف الاجتماعي، وخرج عن عوائده، وتنكر لأصله، هذا يجعله يفقد احترام هؤلاء ويفقد مركزه الاجتماعي بينهم، وثقتهم به، واعتمادهم عليه، لكي يكون هذا سببا يؤثر في نفسيته ويتراجع عن مبادئه والرسالة التي كلف بها وبنشرها. وهذا ما يوضحه المولى عز وجل في قوله:﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62)﴾هود.

لكنهم لا يدرون أن الرسالة تعوّضه عن هذه الإدعاءات، وتقديرُ الله أفضل من تقدير البشر، وعونُ الله أفضل من كلّ عون، وعذابُ الله هو الذي يجب أن يُتّقى، فلا استقامةَ إلاّ على الخط الذي رسمته هذه الرسالة الإلهية، ولا منجاةَ إلاّ باتّباعها.

إن هذا الأسلوب الذي يلجأ إلى نقطة الضعف هذه، والتي تتعلق بكرامة الشخصية في نطاق قيم المجتمع ومقاييسه، لهو أخطر أساليب الوقوف في وجه الحق والدعوة إليه، والإصلاح في المجتمع. وقد أبدع هؤلاء الأعداء للرسالة مصطلحات، يحاربون بها حاملي الرسالات، وحاملي القيم والمبادئ ،مثل كلمات؛ الرجعية، التأخر، الخيانة، التي تقابلها كلمات مظلومة في الواقع - كما يعبر عن ذلك الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله - مثل كلمات، التقدمية، التطور، الوطنية، النزاهة،...

وقد يشعر الإنسان بالانسحاق أمام ذلك كله، عندما يبقى مختنقا في إطار ذاته بعيدا عن دوره في الحياة، وبعيدا عن حيويته في التغيير وفق الحقّ، فيذوب مع هذه المصطلحات المتداولة في قاموسه الاجتماعي، كما يذوب الملح في الماء[1].

إنه يجب على صاحب الحق والرسالة أن يدرك الخطأ الأساسي الذي يجعل الثقة خاضعة لمقاييس الباطل واعتباراته بدلا من موازين الحق وقيمه، لأن الحياة في الأصل هي عقيدة وجهاد .

ننتقل بعد هذا إلى أب الأنبياء، خليل الرحمن سيدنا إبراهيم (عليه السلام).الذي سمانا المسلمين، والحوار الذي دار بينه وبين نفسه، وبينه وبين قومه، وبينه وبين أبيه وابنه، وبينه وبين ضيفه.

***حوار إبراهيم الخليل مع نفسه:** قبل أن يحاور إبراهيم عليه السلام قومه بدأ بالحوار مع نفسه ، وكان هذا الحوار حوارا تأمليا، يهدف من خلاله إلى معرفة خالقه معرفة يقينية ليؤمن به إيمانا قويا يمكنه من مجابهة قومه ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

واختار إبراهيم لتأمله هذا وقتا مناسبا، وهادئا لا يعكّر صفو التأمل فيه أحد، ولايفسد عليه ذلك الجو مخلوق.إنه وقت الليل، إذ يقول المولى تبارك وتعالى في محكم تنزيله:﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ

1 – ينظر: فضل الله محمد حسين ، الحوار في القرآن،ج2 ص43 ،46.

قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)﴾الأنعام.

أراد إبراهيم الخليل أن ينبه قومه إلى الخطإ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرّفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أن شيئاً منها لا يصحّ أن يكون إلها، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثا أحدثها، وصانعا صنعها، ومدبراً دبّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها، وسائر أحوالها. هذا رَبِّي قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأنّ ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة، لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ؛ لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى مكان، المحتجَبين بستر، فإنّ ذلك من صفات الأجرام بازِغاً مبتدئا في الطلوع،﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾؛ تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلها- وهو نظير الكوكب في الأفول- فهو ضالٌّ، وأنّ الهداية إلى الحق بتوفيق الله[1].وكان هذا الحوار نظرَ إبراهيم واستدلالَه في نفسه ،فحكاه الله سبحانه وتعالى في قرآنه [2].

كان حوارا ذاتيا داخلياً؛ فإصلاح الذّات أولى من إصلاح الآخر، فإذا نجحنا في حوارنا مع ذواتنا، واستطعنا علاجها، فإننا ننجح في حواراتنا مع الآخر، ونستطيع أن نفيده ونستفيد منه. وحوار إبراهيم مع ذاته قاده إلى الإيمان بالله الواحد الخالق، وبالتالي استطاع أن ينتصر بعدها على قومه وشركهم، المتمثل في أصنامهم التي كانوا لها عابدين.

وإذا تتبعنا هذه الحوارات فإننا سنجدها دروسا عملية يمكن أن نستفيد منها في حياتنا الخاصة، وفي حياتنا مع الله ومع عباده. ففي الحوار مع الذات، وفي الحوار النفسي الداخلي الذي تابعناه مع إبراهيم عليه السلام، نتعلم كيف نهيئ الأجواء النفسية للمحاضرات الفكرية، لكي نعدّ العدّة لمواجهة الجماهير، ومحاولة فهم ما يتطلّع في أنفسهم من أفكار وقناعات، وما يخبّئونه من قضايا ومفاهيم، وما يعيشونه من قناعات. وهذه التهيئة توفّر للمحاوِر الجهد، وتجنبه الصّدام والدخول في جدال عقيم لا طائل من ورائه .

ويفيدنا الحوار مع الذات أيضا في مراجعة النفس، ورسم الخطى بأسلوب محكم، يمكّن من تدارك الأخطاء وإصلاحها قبل الوقوع فيها، مثل ذلك الكاتب الذي يجعل من نفسه قارئا قبل أن يعرض كتاباته على الآخرين، ليكتشف في النهاية أنه وقع في أخطاء، يجب تصحيحها وإلاّ لكان مثارا، ومطية للنقد والاستهزاء. كذلك كان إبراهيم، في حواره ومناظرته قومه.

---

[1] – الزمخشري، الكشاف، ج2، ص40.

[2] – ينظر المرجع نفسه، ص40.

*مناظرة إبراهيم قومه: ويمكن أن نطلق عليه ،حوار العقل والبرهان:

وهذا نبيّ آخر حظي باهتمام كبير في القرآن الكريم، بما أسبغه الله عليه من صفات كثيرة في آيات عديدة تجعله في قمة المراتب والمنازل بين الأنبياء، كيف لا وقد وصفه البارئ عز وجل قائلا:"واتخذ الله إبراهيم خليلا" بكل ما تحمله كلمة "خليلا" من قيم ومعان ودلالات.

وقد ورد الحديث عنه في عشرين سورة، وتناول جوانب مختلفة من حياته، وأساليب متنوعة من حواراته تارة مع نفسه، وتارة أخرى مع ربه، وطورا مع أبيه وطورا آخر مع ابنه، ومرة أخرى مع قومه ومع طاغية زمانه، وكذلك مع الملائكة التي أرسلها الله لتبشره بمولود بعد اليأس. فقد تعلق الحوار في أساليبه المختلفة مع هذا النبي العظيم بمجالات عدة، تمثلت في مجال الدعوة إلى الله، ومجال التعبير عن القضايا المهمة التي هي موضوع الإيمان، وشخصية المؤمن التي لا تتزعزع قط أمام الابتلاءات والمحن، والقيام بالواجب الذي كلفه الله به وتأدية الرسالة التي أمره بتبليغها، بعيدا عن العاطفة في أوج قوتها.

وقد أعقبت قصة موسى وهارون بقصة إبراهيم فيما أوحي إليه من مقاومة الشرك ووضوح الحجة على بطلانه ، لأن إبراهيم كان هو المثَل الأول قبل مجيء الإسلام في مقاومة الشرك إذ قاومه بالحجة وبالقوة وبإعلان التوحيد . فكانت قصة إبراهيم مع قومه شاهداً على بطلان الشرك الذي كان مماثلاً لحال المشركين بمكة الذين جاء محمد صلى الله عليه وسلم لقطع دابره .

إذ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51)﴾ الأنبياء. فالإخبار عن إيتاء الرشد إبراهيم بإسناد الإيتاء إلى ضمير الجلالة للتنبيه على تفخيم ذلك الرشد الذي أوتيه. وفائدة الإضافة هنا، التنبيه على عظم شأن هذا الرشد ، أي رشداً يليق به؛ ولأن رشد إبراهيم قد كان مضرب الأمثال بين العرب وغيرهم[1].وزاده تنويهاً وتفخيماً تذييله بالجملة المعترضة قوله تعالى:" وكنا به عالمين" أي آتيناه رشداً عظيماً على عِلم منا بإبراهيم، وهذا العلم الإلهي متعلق بالنفسية العظيمة التي كان بها محل ثناء الله تعالى عليه في مواضع كثيرة من قرآنه ، أي علم من سريرته صفات قد رَضيها وأحمدَها فاستأهل بها اتخاذه خليلاً . وقوله:" من قبل "،أي من قبل أن نوتي موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً[2]. وقيل من قبل أن يولد حين كان في صلب آدم عليه السلام ، وقيل من قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) والأول مروي عن ابن عباس، وابن عمر رضي الله تعالى عنهم، قال في «الكشاف» : وهو الوجه الأوْفق لفظاً ومعنى[3].

---

1 – ابن عاشور محمد الطاهر،التحرير والتنوير،ج17،ص92.

2 – المرجع نفسه، ص93-94.

3 – الألوسي، ج9، ص56.

وكان قوم إبراهيم صابئة يعبدون الكواكب، ويجعلون لها صوراً مجسّمة .وأبو إبراهيم كان عابدا لما يعبد قومه لذلك توجه بالخطاب إلى أبيه وقومه معاً، وذلك ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾(الأنبياء:52). والاستفهام في قوله تعالى:"ما هذه التماثيل"؟ يتسلط على الوصف في قوله تعالى:"التي أنتم لها عاكفون"، فكأنه قال: ما عبادتكم هذه التماثيل؟. ولكنه صيغ بأسلوب توجه الاستفهام إلى ذات التماثيل، لإبهام السؤال عن كنه التماثيل في بادئ الكلام، إيماءً إلى عدم الملاءمة بين حقيقتها المعَبَّر عنها بالتماثيل، وبين وصفها بالمعْبودية المعَبَّر عنه بعكوفهم عليها . وهذا من تجاهل العارف، استعمله تمهيداً لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم، فهم يظنونه سائلاً مستعلماً، ولذلك أجابوا عن سؤاله بقولهم:"وجدنا آباءنا لها عابدين"؛ فإن شأن السؤال بكلمة (مَا) أنّه لطلب شرح ماهية المسؤول عنه .

والإشارة إلى التماثيل لزيادة كشف معناها الدال على انحطاطها عن رتبة الألوهية. والتّعبير عنها بالتماثيل يسلُب عنها الاستقلال الذاتي[1].والسؤال هنا كذلك، تنبيه للفطرة، وإثارة للفكر،كي يتحرّى الحق والحقيقة، واستغرابٌ من المعكوف عليه، ومن العاكف أيضا. وقد علّلو فعلَهم، بأنه موروث قديم وجدوا آباءهم له عابدين﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾(الأنبياء:53). فهو تقليد منهم، لانحراف عَقَديّ قديم-مارسه آباؤهم- لم يُحكّموا فيه العقل الذي كرّمهم الله به. فكان حكم إبراهيم عليهم وآبائهم بالضلال المبين.﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(الأنبياء:54). وجاءوا في جوابه بما توهّموا إقناعه به وهو أن عبادة تلك الأصنام كانت من عادة آبائهم فحسبوه مثلَهم يقدس عمل الآباء ولا ينظر في مصادفته الحق ، ولذلك لم يلبث أن أجابهم :" لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين" مؤكداً ذلك بلام القسم . وفي قوله تعالى :"كنتم في ضلال" من اجتلاب فعل الكون وحرف الظرفية ، إيماءٌ إلى تمكنهم من الضلال، وانغماسهم فيه، لإفادة أنّه ضلال بَواح لا شبهة فيه ، وأكدَ ذلك بوصفه ب"مبين ". ولإنكارهم أن يكون ما عليه آباؤهم ضلالاً ، وإيقانِهم أن آباءهم على الحق ، شَكُّوا في حال إبراهيم، أنطَق عن جِد منه، وأن ذلك اعتقاده، فقالوا :"أجئتنا بالحق" ، فعبروا عنه" بالحق "المقابل للعب، وذلك مسمى الجِدّ . فالمعنى : بالحق في اعتقادك، أم أردت به المزح ، فاستفهموا وسألوه:﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾؟(الأنبياء:55). والباء(بالحق) للمصاحبة. والمراد باللعب هنا، لعب القول، وهو المسمّى مزحاً، وأرادوا بتأويل كلامه بالمزح، التلطّفَ معه، وتجنبَ نسبته إلى الباطل، استجلاباً لخاطره، لمَا رأوا من قوة حجته .

وقد ردّ عليهم في جوابهم، بالإضراب عن قولهم:" أم أنت من اللاعبين"، لإبطال أن يكون من اللاعبين ، وإثبات أن ربّهم هو الرّبّ الذي خلق السماوات والأرض، وليست تلك التماثيل أرباباً، إذ لا نزاع في أنها لم تخلق السماوات والأرض، بل هي مصنوعة منحوتة. فما هي إلاّ مربوبة مخلوقة، وليست أرباباً ولا خالقة.هذا ما أشار إليه قوله تعالى:﴿قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(الأنبياء:56). وقوله تعالى:" وأنا على ذلكم من الشاهدين"؛ إعلام لهم بأنه مُرْسَل من الله، لإقامة دين التوحيد، لأن رسول كلّ أمة شهيد عليها،كما قال تعالى:﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾(النساء:41)،

[1] – ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير،ج17،ص94.

ولم يكن يومئذ في قومه من يشهد ببطلان إلهية أصنامهم، فتعيّن أن المقصود من الشاهدين، أنه بعض الذين شهدوا بتوحيد الله بالإلهية، في مختلف الأزمان والأقطار .

ثم انتقل إبراهيم عليه السلام من تغيير المنكر بالقول، إلى تغييره باليد، معلناً عزمه على ذلك بقوله:﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾(الأنبياء: 57). مؤكداً عزمه بالقسم، فالواو عاطفة جملة القسم على جملة الخبر التي قبلها. والتاء تختص بقَسَمٍ على أمرٍ متعجبٍ منه، وتختص باسم الجلالة [1]. وقد ورد هذا القسم في قوله تعالى:﴿قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف﴾(يوسف:85). وهذا الفعل لا يقوم به إلا واثق بالله، مُوَطِّن نفسَه، على مجابَهة كل الاحتمالات والأخطار والنتائج التي تترتب عن القيام بهذا الفعل[2].وقوله:"بعد أن تولوا مدبرين"؛ بعد أنْ تنصرفوا عنها. يعني؛ على حين غَفْلة منهم. فتحطيم الأصنام ليس كَيْداً للأصنام، بل لعُبَّادها الذين يعتقدون فيها أنها تضرُّ وتنفع، وكأن إبراهيم – عليه السلام – يقيم لهؤلاء– على بُطلان عبادة الأصنام– الدليل العملي الذي لا يُدْفَع، وكأن إبراهيم يقول بلسان الحال: حين أُكسِّر الأصنام إنْ كنتُ على باطل فليمنعُوني، وليردّوا الفأْسَ من يدي، وإنْ كنتُ على حق، تركوني وما أفعل"[3].

فحوار إبراهيم مع قومه كان حواراً استفزازيا، لاستدراج المحاوَر إلى الحوار، وفهم قصده ونيته، والغاية منه، هي أن يعترف قومه بالحقيقة، أو يعريهم ويكشفهم، فلا تصير لأصنامهم مصداقية، ويفضح زيغهم وضلالهم، وكذلك يمكنه هذا التصرف من اكتشاف نقاط الضعف ونقاط القوة لديهم.

انتقل إبراهيم عليه السلام من الفعل بالقول إلى الإنجاز بالفعل، هذا الإنجاز الذي سيحدث الصدمة، وسيغير الواقع والذهنيات البالية. فقام بتحطيم أصنام قومه، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾(الأنبياء:58). إلا كبيرها، إذِ اكتفى بتعليق الفأس على رقبته لغرض في نفس إبراهيم آت، يكون حجة دامغة لإبطال ما يعبد قومُه. ولجعلهم يعتقدون أن أكبر الأصنام هو الذي كان سببا في تحطيمها والقضاء عليها، لقوله تعالى:﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾!(الأنبياء:58). لذلك تركه فلم يحطّمه، وقد كانوا يضعون الأصنام على هيئة خاصة و(ديكور خاص) ، بحيث يكون الكبير في الوسط، وحوله الأصنام الصغيرة، يعني: كأن له سيطرةً عليهم ومنزلة بينهم، وكانوا يضعون في عينه الزّبرجَد، حتى يُخَيَّلَ لمنْ يراه أنه ينظر إليه. وقوله:﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: 58) فيسألونه عَمَّا حدث لأولاده الآلهة الصغار، ولماذا لم يدافع عنهم، خاصةً وقد وجدوا الفأْس على كتفه؟[4].

بعد هذا العمل الذي قام به إبراهيم، يتواصل الحوار بينه وبين قومه، في شكل مناظرة، حجاجية. فكان سؤال القوم:﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(الأنبياء:59). إذن: هذه الآلهة لا تستطيع أنْ تدفع عن نفسها الضّر، وكان عليهم أنْ يتنبّهوا إلى هذه المسألة، كيف يَقبلُون عبادتها، ولو أوقعت الريحُ أحدَهم لكسّرته، فيحتاج

---

[1]– ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير،ج17، ص96–97.

[2]– ينظر، السحمراني أسعد، الحوار في الإسلام، ص57.

[3] – الشعراوي محمد متولي،تفسير الشعراوي، ج15،ص9579.

[4]– الشعراوي ،تفسير الشعراوي،ج15، ص9580.

الإله إلى مَنْ يُصلِح ذراعه ويُرمِّمه ويُقيمه في مكانه، فأيُّ ألوهية هذه التي يدافعون عن حقوقها؟![1]. وقول قومه بهذا، يدل على أنهم لم يخطر ببالهم أن يكون كبير الآلهة فَعل ذلك ، وهؤلاء القوم هم فريق لم يسمع توعّد إبراهيم إيّاهم، بأن يكيد أصنامهم، والذين ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾(الأنبياء:60). هم الذين توعد إبراهيم الأصنام بمسمع منهم .

لقد وصفوا الفاعل بالظالم، لأنه تجرأ على أصنامهم ومعتقداتهم، ودفعهم الموقف إلى استحضار إبراهيم لأنهم كانوا يعرفون مواقفه المبدئية من عبادتهم لهذه الأوثان، ولو أن إبراهيم قد أحين إليهم بمحاولة إخراجهم من ظلمة الجهل هذه، وإنارة بصائرهم، ليعبدوا خالقهم، خالق السموات والأرض، وتحرير عقولهم من هذا الموروث العقيم. لكنهم أرادوا الانتقام من إبراهيم وطالبوا بإحضاره على مرأى ومسمع من القوم، لمساءلته ثم معاقبته على ما بدر منه، وبشهادة القوم.هذا ما بينه قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾(الأنبياء:61). وبدأت المساءلة:

﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾(الأنبياء:62). هنا أيضاً كلام محذوف: فأتَوْا به، ثم سألوه هذا السؤال، والاستفهام ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا﴾(الأنبياء: 62). استفهام عن الفاعل؛ لأن الفعلَ وضّاح لا يحتاج إلى استفهام؛ لذلك لم يقُلْ: أفعلتَ هذا يا إبراهيم، بل اهتم بالفاعل:"أَأَنتَ فَعَلْتَ هذا". كما تقول: أبنيتَ الدار التي كنت تنوي بناءها؟ فهذا استفهام عن الفِعْل، إنما أأنت بنيت الدّار، فالمراد الفاعل.﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾(الأنبياء:63)؛كأنه يريد أنْ ينتزعَ منهم الإقرار، بأن هذا الكبير لا يفعل شيئاً، فيُواجههم: فلماذا – إذن – تعبدونهم؟

وقَوْل إبراهيم :﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا﴾؛ فيه توبيخ وتبكيت لهم، حيث رَدَّ الأمر إلى مَنْ لا يستطيعه، ولا يتأتّى منه، وقد ضرب الزمخشري – رَحِمَهُ اللَّهُ – مثلاً لذلك برجل جميل الخطِّ، وآخر لا يُحسِن الكتابة، فيرى الأخيرُ لوحة جميلة، فيقول للأول:" أأنت كاتب هذه اللوحة؟" فيقول: لا بل أنت الذي كتبتَها!! تبكيتاً له وتوبيخاً[2]. وفي تجويز أن يكون كبيرهم هذا الذي حطّمهم إخطار دليل انتفاء تعدّد الآلهة؛ لأنه أوهمهم أن كبيرهم غضب من مشاركة تلك الأصنام له في المعبودية، وذلك تدرّج إلى دليل الوحدانية، فإبراهيم في إنكاره أن يكون هو الفاعل، أراد إلزامهم الحجة على انتفاء ألوهية الصنم العظيم، وانتفاء ألوهية الأصنام المحطمة، بطريق الأوْلى على نيّة أن يكرّ على ذلك كلّه بالإبطال، ويوقنهم بأنه الذي حطّم الأصنام، وأنها لو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها، ولو كان كبيرهم كبير الآلهة، لدفع عن حاشيته وحلفائه ، ولذلك قال:﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ ؛تهكُّماً بهم وتعريضاً، بأن ما لا ينطق ولا يُعرب عن نفسه غير أهل للإلهية [3].

ثم يُصرِّح إبراهيم لهم بما يريد:﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾(:الأنبياء63). وشمل ضمير (فاسألوهم) جميع الأصنام ما تحطم منها وما بقي قائماً. والقوم وإن علموا أن الأصنام لم تكن تتكلم من قبل، إلاّ أن إبراهيم أراد أن

---

[1]– المرجع نفسه، ص9580.

[2] – الشعراوي محمد متولي ،تفسير الشعراوي،ج15، ص9589.

[3] – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير،ج17، ص101.

يقنعهم بأن حدثاً عظيماً مثل هذا، يُوجِب أن ينطقوا بتعيين من فعلَه بهم. وهم لن يسألوا الأصنام؛ لأنهم يعرفون حقيقتها. ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(الأنبياء:64). تنبّهوا وعادوا إلى عقولهم، ونطقوا بالحق:﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون﴾، يعني؛ أنتم الظالمون بعبادتكم هذه الأصنام، وأنتم تعلمون أنها لا تنفع ولا تضرُّ، ولا ترى ولا تتكلّم.

هكذا واجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة، وكشفوا عن بطلان هذه العبادة، لكن هذه الصحوة ستكون على حسابهم، وخسارتهم بها ستكون كبيرة، هذه الصحوة ستُفقِدهم السُّلْطة الزمنية التي يعيشون في ظلها، وينتفعون من ورائها بما يُهدَي للأصنام؛ لذلك سرعان ما يتراجعون ويعودون على أعقابهم، بعد أن غلبهم الواقع، وتذكَّروا ما تجرُّه هذه الصحوة.﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾(الأنبياء:65). ولكن العناد تمكن منهم إذ تغيرت آراؤهم، بعد أن كادوا يعترفون بحجة إبراهيم. لكنّهم رجعوا إلى المكابرة والانتصار للأصنام، فقالوا: "لقد علمت ما هؤلاء ينطقون"، أي؛ أنت تعلم أن هؤلاء الأصنام لا تنطق، فما أردت بقولك:"فاسألوهم إن كانوا ينطقون"إلاّ التّنَصّل من جريمتك. فجملة:" لقد علمت.." إلى آخرها، مقول قول محذوف دل عليه"فقالوا إنكم أنتم الظالمون". وجملة: "ما هؤلاء ينطقون"، تفيد تقوية الاتصاف بانعدام النطق، وذلك بسبب انعدام آلته وهي الألسُن .

وفعل" عَلِمْت" معلَّق عن العمل، لوجود حرف النفي بعده ، فلما اعترفوا بأن الأصنام لا تستطيع النطق، انتهز إبراهيم الفرصة لإرشادهم، مفرعاً على اعترافهم بأنها لا تنطق، استفهاماً إنكارياً على عبادتهم إيّاها، وزائداً بأن تلك الأصنام لا تنفع ولا تضر[1].وجعل عدم استطاعتها النفع والضر ملزوماً لعدم النّطق؛ لأن النطق هو واسطة الإفهام، ومن لا يستطيع الإفهام، تبيّن أنه معدوم العقل، وتوابِعِه من العلم، والإرادة، والقدرة [2].

ثم ينتقل إبراهيم في حواره إلى الهجوم، ومن موقع المالك للحجة الدامغة، لينتصر للحق، مستهزئا ساخرا من قومه الذين غيبوا عقولهم، واستسلموا لأباطيل آبائهم وأجدادهم،في عبادتهم الأوثان التي ما أنزل الله بها من سلطان. ويشرع في لوم قومه واحتقارهم وما يعبدون من دون الله، مُسَفّها وموبّخا لهم، ومتفّها لمعبوداتهم على النحو الذي جاء به القرآن:﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾(الأنبياء:66)، ومعبرا عن تضجُّره منهم، قائلا:﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(الأنبياء:67). أي أف لأجلكم وللأصنام التي تعبدونها من دون الله .﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ (68)﴾. ونلحظ قولهم:"حَرِّقُوهُ". بالتضعيف الدالّ على المبالغة، ولم يقولوا مثلاً: احْرِقوه، وقد اجتمعوا على هذا الفعل فبنَوْا بناءً وضعوا فيه النار، ومكثوا أربعين يوماً يُسَجِّرونها بكل ما يمكن أن يشتعل، وبذلك اشتدت حرارة النار، حتى إن الطير الذي يمرُّ فوق هذه النار كان يسقط مشوياً من شدة حرِّها. والدليل على ذلك أنهم لما أرادوا إلقاء إبراهيم في النار لم يستطيعوا الاقتراب منها لشدة لَفْحها، فصنعوا له منْجنيقاً لِيُلْقُوه به في النار من بعيد[3].

---

[1] – المرجع نفسه، ص101.

[2] – المرجع نفسه، ص101 .

[3] – الشعراوي، تفسير الشعراوي،ج15،ص9590.

لماذا فعلوا هذا بإبراهيم؟ لاعتقادهم أنهم ينتصرون لآلهتهم﴿وانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾(الأنبياء:68). وكأن المعركةَ بين إبراهيم والآلهة، والحقيقة أن الآلهة التي يعبدونها مع إبراهيم، وليست ضِدَّه، فالمعركة – إذن – بين إبراهيم وبين عُبَّاد الأصنام. وقولهم:"إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ"، يعني؛ إنْ فعلتم شيئاً بإبراهيم فَحرِّقوه.

لكن الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء يأمر النار: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾(الأنبياء:69). جاء هذا الأمر من الحق الأعلى سبحانه؛ ليخرق بالمعجزة نواميس الكون السائدة، ولا يخرق الناموسَ إلا خالقُ الناموس، كما يقول سيد قطب في قصة موسى (عليه السلام): الماء قانونه السيولة والاستطراق، ولا يسلبه هذه الخاصية إلا خالقُه؛ لذلك فَرَقه لموسى فُرْقاناً – كما قلنا – كلُّ فِرْق كالطَّوْد العظيم، فلا يُعطّل قانون الأشياء إلا خالقها؛ لأن الأشياء لم تُخلق لتكون لها القدرة على قيُومية نفسها، بل مخلوقة تُؤدِّي مهمة، والذي خلقها للمهمة هو القادر أنْ يسلبَها خواصّها[1]. فلما قال: "على إِبْرَاهِيمَ"، أصبح الأمر خاصاً بنار إبراهيم دون غيرها، فاشتعلت نيران عدا هذه النار. ونلحظ أن الحق سبحانه قيَّد بَرْداً بسلام؛ لأن البرد المطلق يؤذي. فماذا كان يراد لإبراهيم؟﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾(الأنبياء:70). وقد كانت خسارتهم في مسألة حَرْق إبراهيم من عِدَّة وجوه، وهي: أن إبراهيم (عليه السلام) لم يُصِبْه سوء، رغم إلقائه في النار، ثم إنهم لم يَسْلَموا من عداوته، وبعد ذلك سيجازون على فِعْلهم، هذا في الآخرة، فأيُّ خُسْران بعد هذا؟ ويعني: كان هناك شرٌّ يصيبه، وأذىً يلحق به، فنجّاه الله منه، وهذه النجاة مستمرة، فبعد أنْ أنجاه الله من النار، أنجاه أيضاً مِمَّا تعرَّض له من أَذَى قومه.

لقد اعتمد قوم إبراهيم أسلوب المواجهة والتخويف، بزعمهم أن الأصنام قد تسيء إليه، لِصَدِّه عن التحدّي لها، وهذا أسلوب استعمل في كل الأزمنة التي بعث الله فيها الأنبياء – عليهم السلام. لكن إبراهيم كان محاورا قويا، وحجته أقوى، وإيمانه بالفكرة جعل نفسه تطمئن للحق، ومكّنه من عرض أفكاره بشجاعة، وأفحم قومه وهزمهم، وأبطل ما كانوا يدعون. فتهديد قوم إبراهيم له زاده إيمانا، وتصميما، وعزيمة؛ لأنه توكل على الله وكفى بالله وكيلا. ومن الأغراض التداولية العملية التي نستفيدها من هذه المناظرة الحوارية بين إبراهيم الخليل وقومه، ما يلي:

– واجب الإنسان التفكر والنظر العقلي، وأن لا يلتزم الموروث مع قومه معطّلاً تفكيره ، وليس له أن يواكبهم إن وجدهم مخطئين .

– أن يكون المناظِرُ من أهل الحلم، ومتمتعاً برحابة الصدر، فيتغاضى عن بعض الهفوات من أجل السعي باتجاه الهدف، فإبراهيم لم يدفعه إلى وقف الحوار قول قومه ﴿أم أنت من اللّعبين ﴾؟.

---

[1] – المرجع نفسه،ص9592.

– الإنسان المؤمن الصادق يقاوم الشرك والباطل غير مبال بالثمن، وهذا ما فعله إبراهيم (عليه السلام) حين حطّم الأصنام مع علمه أنه قد يتعرض للخطر والأذى.

– أجاب إبراهيم ساخرا من أصنامهم ليحرك فطرتهم، ليسلموا بعجز معبوداتهم الصنمية عن حماية نفسها أو النطق، وذلك لتنقية فكرهم من الفساد تمهيدا لتحويلهم إلى عقيدة التوحيد، وكي يهجروا عبادة الأصنام [1].

–إن حوار إبراهيم مع قومه كان حوارا تصاعديا من حيث الوتيرة والنبرة، إلاّ أنه كان مع أبيه حوارا ليّنا رهيفاً، بنبرة حنونة لطيفة خافتة، تشعر من خلالها باحترام الابن أباه، وتأدّبِه وحسنِ خُلُقِه معه.ذلك ما سنلمسه في حواره مع أبيه.

*__حوار إبراهيم مع أبيه:__ لقد ورد في سورة مريم، تنويه بالأنبياء والرسل السالفين . وإذ كان إبراهيم عليه السلام أبَا الأنبياء وأوّل من أعلن التوحيد إعلاناً باقياً، لبنائه له هيكلَ التوحيد وهو الكعبة، كان ذكر إبراهيم من أغراض السورة، ولما كان إبراهيم قد جاء بالحنيفية، وخالفها العرب بالإشراك، وهم ورثة إبراهيم، كان لتقديم ذكره–في السورة– على البقية، الموقع الجليل من البلاغة .

وفي ذلك تسلية للنبي– صلى الله عليه وسلم– على ما لقي من مشركي قومه لمشابهة حالهم بحال قوم إبراهيم. وقد جرى سَرد خبر إبراهيم عليه السلام على أسلوبِ سرد قصة مريم عليها السلام لما في كل من الأهمية كما تقدم .قال الله تعالى:﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾(مريم:41). والمراد بالذكر : التّلاوة ، أي؛ اتل خبر إبراهيم الذي نقصّه عليك. وفي افتتاح القصة بهذا زيادة اهتمام بها وتشويق للسامع أن يتعرّفها ويتدبرها . والكتاب : القرآن ، لأنّ هذه القصة من جملة القرآن [2]. والصّدّيق بتشديد الدال صيغة مبالغة في الاتصاف، مثل الملك الضِّلّيل لقب امرئ القيس، وقولهم: رجل مِسيّك: أي شحيح، ويقال : دليل خِرّيت، إذا كان ذا حذق بالطرق الخفية في المفاوز ، مشتقاً من الخَرت، وهو ثقب الشيء كأنه يثقب المسدودات ببصره.
وصف إبراهيم بالصدّيق لفرط صدقه في امتثال ما يكلفه الله تعالى لا يصده عن ذلك ما قد يكون عذراً للمكلف، مثل مبادرته إلى محاولة ذَبح ولده حين أمره الله بذلك في وحي الرؤيا ، فالصدق هنا بمعنى بلوغ نهاية الصفة في الموصوف بها. والنبي: "فعيل" بمعنى مفعول، من أنبأه بالخبر. والمراد هنا أنه منبّأ من جانب الله تعالى بالوحي، فدلّ ذلك على أن قوله لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر، إنما كان عن وحي من الله، ليبلغ قومه إبطال عبادة الأصنام. وقرأ الجمهور نبيا بياء مشددة بتخفيف الهمزة ياء لثقلها ولمناسبة الكسرة .

[1] – ينظر: السحمراني أسعد ، الحوار في الإسلام قواعده وضوابطه ،ص58–59.

[2] – ينظر: ابن عا شور الطاهر ، التحرير والتنوير،ج16 ،ص112.

ماذا قال إبراهيم لأبيه؟﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾(مريم:42). إذ قال لأبيه... بدل اشتمال من (إبراهيم). و(إذ) اسم زمان مجرد عن الظرفية لأن (إذ) ظرف متصرف على التحقيق. والمعنى؛ اذكر إبراهيم زمان قوله لأبيه، فإن ذلك الوقت أجدر أوقات إبراهيم بأن يُذكر . وافتتح إبراهيمُ خطابَه أباه بندائه – مع أن الحضرة مُغْنِية عن النّداء- قصداً لإحضار سمعه وذهنه، لتلقي ما سيلقيه إليه .

علم إبراهيم أن في طبع أهل الجهالة تحقيرَهم للصغير كيفما بلغ حالُه في الحَذق، وبخاصة الآباء مع أبنائهم، فتوجّه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوة إيماءً إلى أنه مخلِص له النصيحة، وألقى إليه حجّة فساد عبادته في صورة الاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطئ ، منبّهاً على خطئه عندما يتأمل في عمله ، فإنه إن سمع ذلك وحاول بيان سبب عبادة أصنامَه لم يجد لنفسه مقالاً، ففطِن بخَطَلِ رأيه وسفاهة حلمه، فإنه لو عبد حيّاً مميزاً لكانت له شبهة ما . وابتدأ بالحجة الراجعة إلى الحِسّ، إذ قال له : لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر، فذلك حجة محسوسة ، ثم أتبعها بقوله: ولا يغني عنك شيئاً .

ثم انتقل إلى دفع ما يخالج عقل أبيه من النفور عن تلقي الإرشاد[1].﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾(مريم:43). فلما قضى حق ذلك انتقل إلى تنبيهه على أن ما هو فيه أثر من وساوس الشيطان ، ثم ألقى إليه حجة لائقة بالمتصلبين في الضلال﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)﴾ مريم. أي إن الله أبلغ إليك الوعيد على لساني ، فإن كنتَ لا تجزم بذلك فافرض وقوعه فإنّ أصنامك لم تتوعدك على أن تفارق عبادتها ..﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)﴾ مريم. وفي النداء بقوله:"يا أبت".. أربع مرات، تكريرٌ اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة، لأنها مقام إطناب. وإعادة ندائه بوصف الأبوّة تأكيدٌ لإحضار الذهن، ولإمحاض النصيحة المستفادة من النداء الأول .

قال صاحب «الكشاف» : «ثم ثنىّ بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا، فلم يَسِم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسَه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك، وذلك علم للدلالة على الطريق السويّ فلا تستنكِف، وهَبْ أني وإياك في مسير، وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أنجك من أن تضِل وتتيه»[2]. ذلك أن أباه كان يرى نفسه على علم عظيم، لأنه كان كبير ديانة قومه. وأراد إبراهيم علمَ الوحي والنبوءة .

والمراد بعبادة الشيطان، عبادة الأصنام؛ وعبّر عنها بعبادة الشيطان إفصاحاً عن فسادها وضلالها، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم، ويتبعون وساوسه تحت ستار التّمويه، مثل قولهم:﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون (23)﴾ الزخرف. فمن عَبَد الأصنام فقد عبد الشيطان، وكفى بذلك ضلالاً معلوماً [3].

---

[1] – ينظر:المرجع نفسهص116-117.

²– الزمخشري: الكشاف.ج3 ،ص19.

[2] - ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير،ج16، ص115.

[3] – المرجع نفسه,ص117.

عبر عن الجلالة بوصف الرحمان للإشارة إلى أن حلول العذاب ممن شأنُه أن يرحم إنما يكون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته مَن شأنه سعة الرحمة . والتعبير بالخوف الدال على الظن دون القطع تأدب مع الله تعالى بأن لا يُثبت أمراً فيما هو من تصرف الله ، وإبْقاء للرجاء في نفس أبيه لينظر في التخلّص من ذلك العذاب بالإقلاع عن عبادة الأوثان.

وقد جاء في جوابه دعوة ابنه بمنتهى الجفاء والعُنجهية بعكسِ ما في كلام إبراهيم من الليّن والرقة ، فدلّ ذلك على أنه كان قاسيَ القلب ، بعيد الفهم ، شديد التصلّب في الكفر . ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)﴾ مريم، وجملة: "أراغب أنت" جملة اسمية مركبة من مبتدأ وفاعل سدّ مسدّ الخبر على اصطلاح النحاة طرداً لقواعد التركيب اللفظي، ولكنهم لما اعتبروا الاسم الواقع ثانياً بعد الوصف فاعلاً سادّاً مسدّ الخبر، فقد أثبتوا لذلك الاسم حكم المسند إليه، وصار للوصف المبتدأ حكم المسنَد . فمن أجل ذلك كان المصير إلى مثل هذا النظم في نظر البلغاء هو مقتضى كون المقام يتطلّب جملة اسمية للدلالة على ثباتٍ المسند إليه، ويتطلّب الاهتمام بالوصف دون الاسم لغرض يوجب الاهتمام به، فيلتجئ البليغ إلى الإتيان بالوصف أولاً، والإتيان بالاسم ثانياً [1].

ولما كان الوصف له عملُ فعله، تعين على النحاة اعتبار الوصف مبتدأ، لأن للمبتدأ عراقةً في الأسماء، واعتباره مع ذلك متطلّباً فاعلاً، وجعلوا فاعله سادّاً مسدّ الخبر، فصار للتركيب شِبهان، والتحقيقُ أنه في قوّة خبر مقدم ومبتدأ مؤخر. ولهذا نظر الزمخشري في الكشاف إلى هذا المقصد، فقال : قُدم الخبر على المبتدأ في قوله : أراغب أنت عن آلهتي، لأنه كان أهمّ عنده وهو به أعنى. ينتهي كلام الزمخشري. ولله درّه، وإن ضاع بين أكثر الناظرين دُرُّه . فدل النظم في هذه الآية على أن أبا إبراهيم ينكر على إبراهيم تمكّنَ الرغبة عن آلهتهم من نفسه ، ويهتم بأمر الرغبة عن الآلهة، لأنها موضعُ عَجَب [2].

والنداء في قوله: "يا إبراهيم"، تكملة لجملة الإنكار والتعجب، لأنّ المتعجب من فعله مع حضوره، يُقصد بندائه تنبيهُه على سوء فعله، كأنه في غيبة عن إدراك فعله ، فالمتكلم ينزله منزلة الغائب، أو البعيد، فيناديه لإرجاع رُشْدِه إليه ، فينبغي الوقف على قوله يا إبراهيم. وجملة: "لئن لم تنته لأرجمنك"، مستأنفة . واللام موطئة للقسم تأكيداً لكونه راجمُهُ إن لم ينته عن كفره بآلهتهم . والرّجم : الرّمي بالحجارة، وهو كناية مشهورة، في معنى القتل بذلك الرّمي. وإسنادُ أبي إبراهيم ذلك إلى نفسه يحتمل الحقيقة؛ إمّا لأنه كان من عادتهم أن الوالد يتحكّم في عقوبة ابنه، وإمّا لأنه كان حاكماً في قومه. ويحتمل المجاز العقلي؛ إذ لعله كان كبيراً في دينهم، فيرجم قومُه إبراهيمَ استناداً لحُكْمِه بمروقِه عن دينهم [3].

وجملة "واهجرني مليا "، عطف على جملة:" لئن لم تنته لأرجمنك"؛ وذلك أنه هدّده بعقوبة آجلة، إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم، وبعقوبة عاجلة، وهي طرْدهُ من مُعاشرته وقطْع مُكالمته . والهَجْر : قطْع المكالمة وقطع المعاشرة ، وإنما

1 – المرجع نفسه،ص119.

2 - ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير،ج16، ص119.

3 – المرجع نفسه ، ص120.

أمر أبو إبراهيم ابنَه بهجرانه، ولم يخبره بأنه هو الذي يهجره، ليدلّ على أن هذا الهِجران في معنى الطّرد، والخَلْع، إشعاراً بتحقيره .

ومَلياً: طويلاً، وهو فعيل- بتسكين الياء-، ولا يعرف له فعل مجرد ولا مصدر. فمليّ مشتق من مصدر مُمات، وهو فعيل، بمعنى؛ فاعل، لأنه يقال: أملى له، إذا أطال له المدة، فيأتون بهمزة التعدية، فمليا صفة لمصدر محذوف منصوب على المفعولية المطلقة، أي هجراً مَليّاً، ومنه الملاوة من الدهر، للمدة المديدة من الزمان، وهذه المادة تدلّ على كثرة الشيء [1].

فكيف كان رد أبينا إبراهيم على أبيه؟ ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا(47)﴾مريم. سلام عليك سلام توديع ومتاركة. وبادرهُ به قبل الكلام الذي أعقبه به إشارة إلى أنه لا يسوءه ذلك الهجر في ذات الله تعالى ومرضاته. والسلام؛ السلامة. و(على) للاستعلاء المجازي، وهو التمكّن. وهذه كلمة تحية وإكرام، وجملة وأعتزلكم عطف على جملة سأستغفر لك ربي، أي يقع الاستغفار في المستقبل ويقع اعتزالي إياكم الآن، لأن المضارع غالب في الحال. أظهر إبراهيم العزم على اعتزالهم وأنه لا يتوانى في ذلك ولا يأسف له إذا كان في ذات الله تعالى:﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) ﴾مريم. طُوِيَ ذِكْرُ اعتزاله إياهم، بعد أن ذكر عزمه عليه إيجازاً في الكلام، للعلم بأن مثله لا يعزم أمراً إلاّ نفذ عزمه، واكتفاءً بذكر ما ترتّب عليه من جعل عزمه حدثاً واقعاً قد حصل جزاؤه عليه من ربّه، فإنه لما اعتزل أباه وقومه، واستوحش بذلك الفراق، وهبه الله ذرية يأنس بهم، إذْ وهبه إسحاق ابنه، ويعقوب ابن ابنه، وجعلهما نبيئين . وحسبك بهذه مكرمة له عند ربّه[2] .

وليس مجازاة الله إبراهيم مقصورة على أن وهبه إسحاق ويعقوب، إذ ليس في الكلام ما يقتضي الانحصار، فإنه قد وهبه إسماعيل أيضاً، وظهرت موهبته إياه قبل ظهور موهبة إسحاق، وكل ذلك بعد أن اعتزل قومَه. وإنما اقتُصر على ذكر إسحاق ويعقوب دون ذكر إسماعيل فلم يقل: وهبنا له إسماعيل وإسحاق ويعقوب، لأن إبراهيم لما اعتزل قومه خرج بزوجه سارة قريبته، فهي قد اعتزلت قومها أيضاً إرضاء لربها ولزوجها، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم ولزوجه، وهي أن وهب لهما إسحاق وبعده يعقوب؛ ولأن هذه الموهبة لما كانت كِفاء لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه،كانت موهِبةَ من يعاشر إبراهيم ويؤنسه، وهما إسحاق ويعقوب. أما إسماعيل فقد أراد الله أن يكون بعيداً عن إبراهيم في مكة ليكون جارَ بيت الله[3].

ومن الفوائد العملية التي نستفيدها من هذه القصة في علاقاتنا الأسرية، وعلاقاتنا مع آبائنا تحديدا، هي:

- أن نحاور آباءنا وأفراد عائلتنا بالرقة والشفافية التامة، والإشفاق إذ إن عبارة "يا أبت" التي كان يبدأ بها إبراهيم عليه السلام حواره مع أبيه، تبين مدى إشفاقه عليه، وكذلك من خلال قوله"إني أخاف أن يمسك عذاب من

---

1 – المرجع نفسه ، ص120.

2 – ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير،ج16، ص123.

3– المرجع نفسه ، ص117-118.

الرحمن" كما تميز الحوار تميز بالصراحة والوضوح، والاستدلال، حيث كان يقيم في كل دعوى يدعيها دليلا على دعواه.

- أن نتميز ونتحلى بالصبر في مواجهة مواقف أهلنا مهما تلقينا منهم من شدة وعنف، فلقد كان أبو سيدنا إبراهيم منفعلا مهددا له بالرجم، وهو القول الفاحش، والكلام القبيح، والهجران، وكان الرد من إبراهيم هو الاستغفار، والتسليم على أبيه.

- أن يحس أفراد الأسرة جميعهم بالمسؤولية تجاه الآخرين، فالعادة أن الآباء هم الذين يرعون شؤون الأبناء، ويراقبونهم حتى لا يقعوا في الخطأ، وهذه الآيات تعلمنا أن الأبناء كذلك، يجب أن يراقبوا آباءهم، ويعضوهم إن هم أخطأوا وسلكوا طريقا لا يرضي الله – عز وجل – بشرط أن يكون هذا التنبيه للآباء بلطف ولين دون إثارة الموقف بسلوكات من شأنها أن تشحن الأجواء وتثير الأزمات.

وإلا فعلى الأبناء إرجاء النصح والتنبيه إلى أن تروق النفوس، وتهدأ الانفعالات، حتى لا يحدث التشنج في الأسرة، فينفرط عقدها، وتكون النتائج عكس التوقعات. ويتصدى إبراهيم في مناظرة أخرى لطاغية زمانه "النمرود". فكيف ناظره وكيف أفحمه؟

* **مناظرة إبراهيم عدوه (النمرود)**: لقد أبان هذا الحوار عن سر الحياة والموت، وحقيقة الحياة والموت. وهي بهذا تؤلف جانبا من جوانب التصور الإسلامي.وهو مشهد حواري يعاد عرضه من ثنايا التعبير القرآني العجيب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾(البقرة258). إن هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن منكراً لوجود الله أصلاً إنما كان منكراً لوحدانيته في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده، إن هذا الملك المنكر المتعنت إنما ينكر ويتعنت للسبب الذي كان ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر. إنه تعبير التشنيع والتفظيع، وإن الإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظي وبنائه المعنوي سوَاء. فالفعلة منكرة حقاً: أن يأتي الحجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء! وأن يدّعي عبد لنفسه ما هو من اختصاص الرّب، وأن يستقلّ حاكم بحكم الناس بهواه، دون أن يستمد قانونَه من الله[1].

يقول الله سبحانه وتعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)﴾البقرة. نلاحظ أن الإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرُورَتان في كل لحظة، المعروضتان لحس الإنسان وعقله. وهما- في الوقت نفسه- السر الذي يحير، والذي يلجئ الإدراك البشري

---

[1] – قطب سيد، في ظلال القرآن ج1، ص297.

إلجاء إلى مصدر آخر غير بشري. الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز الذي يعجز عنه كل الأحياء [1].

إننا لا نعرف شيئاً عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة. ولكننا ندرك مظاهرهما في الأحياء والأموات. ونحن ملزمون أن نكِل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التي نعرفها على الإطلاق.. قوة الله.

ولكن الذي حاج إبراهيم في ربه رأى في كونه حاكماً لقومه وقادراً على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهراً من مظاهر الربوبية، فقال لإبراهيم: أنا سيد هؤلاء القوم وأنا المتصرف في شأنهم، فأنا إذن الرب الذي يجب عليك أن تخضع له، وتسلّم بحاكميّته. عندئذ عدل-إبراهيم- عن هذه السنة الكونية الخفية، إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية، وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية، إلى طريقة التحدي، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل في الله، ليريه أن الرب ليس حاكم قوم في ركن من الأرض، إنما هو مصرف هذا الكون كله. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾البقرة.

وهي حقيقة كونية مكرورة كذلك، تطالع الأنظار والمدارك كلّ يوم، ولا تتخلف مرة ولا تتأخر، وهي شاهد يخاطب الفطرة- حتى ولو لم يعرف الإنسان شيئاً عن تركيب هذا الكون، ولم يتعلم شيئاً من حقائق الفلك ونظرياته، «فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ» ..[2]. فالتحدي قائم، والأمر ظاهر، ولا سبيل إلى سوء الفهم، أو الجدال والمراء.. وكان التسليم أولى والإيمان أجدر. ولكنّ الكِبْر عن الرجوع إلى الحق يُمسك بالذي كفر، فيبْهَت، ويبْلَس، ويتحيّر. ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمّس الهداية، ولم يرغب في الحق، ولم يلتزم القصد والعدل[3].

تمثل هذه الآية جانباً من جوانب الجهد الطويل المتجلي في القرآن الكريم لإنشاء التصور الصحيح لحقائق هذا الوجود في ضمير المسلم وفي إدراكه[4].للإقبال على الحياة بعد ذلك إقبالاً بصيراً، منبثقاً من الرؤية الصحيحة الواضحة، وقائماً على اليقين الثابت المطمئن. فنظام الحياة ومنهج السلوك وقواعد الأخلاق والآداب.. ليست بمعزل عن التصور الاعتقادي، بل هي قائمة عليه، مستمدة منه.

وما يمكن أن تثبت وتستقيم ويكون لها ميزان مستقر إلا أن ترتبط بالعقيدة، وبالتصور الشامل لحقيقة هذا الوجود وارتباطاته بخالقه الذي وهبه الوجود.. ومن ثم هذا التركيز القوي على إيضاح قواعد التصور الاعتقادي الذي استغرق القرآن المكي كله، وما يزال يطالع الناس في القرآن المدني بمناسبة كل تشريع وكل توجيه في شؤون الحياة جميعاً[5].

-والغرض التداولي الذي نستقيه من هذه الآية هو:

---

1 – المرجع نفسه، ص297.

2 – المرجع نفسه، ص297-298.

3 – قطب سيد، في ظلال القرآن ج1، ص298.

4 – المرجع نفسه ، ص296.

5 – المرجعنفسه، ص297.

– أن نربط السلوك بالعقيدة، وأن لا يتحرك المرء إلا باستشعار قوة الخالق عز وجل ومراقبته له في الحركة والسكون. ولا يمكن أن يستقيم السلوكُ ما لم تستقم العقيدة.

– أن لا تبطرنا النعمة الإلهية، وأن لا نجعل لله أندادا في هذه الأرض، فكلّ المخلوقات منه وإليه. هذا ما كان من مناظرة إبراهيم عليه السلام للنمرود. فماذا عن حواره مع ضيفه؟.

***حوار إبراهيم مع ضيفه (الملائكة)**: وكذلك كان حوار الملائكة مع سيدنا إبراهيم عليه السلام . إذ قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30)﴾الذاريات.

يبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال: ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ .. تنويها بهذا الحديث، وتهيئة للأذهان. مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين، إما لأنهم كذلك عند الله، وإما إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد في القصة.

ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال واضحا. فما يكاد ضيفه يدخلون عليه ويقولون: سلاما. ويرد عليهم السلام، وهو ينكرهم ولا يعرفهم. وما يكاد يتلقى السلام ويرده حتى يذهب إلى أهله- أي زوجه- مسارعا ليهيئ لهم الطعام. ويجيء به طعاما وفيرا يكفي عشرات:﴿فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ .. وهم كانوا ثلاثة فيما يقال.. تكفيهم كتف من هذا العجل السمين! ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ. قالَ: أَلا تَأْكُلُونَ﴾ .. وجاء هذا السؤال بعد أن رأى أيديهم لا تصل إليه، ولا يبدو عليهم أنهم سيأكلون طعامه. «فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» .. إما لأن الطارئ الذي لا يأكل طعام مضيفة ينبئ عن نية شر وخيانة. وإما لأنه لمح أن فيهم شيئا غريبا! عندئذ كشفوا له عن حقيقتهم أو طمأنوه وبشروه: ﴿قالُوا: لا تَخَفْ. وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ .. وهي البشارة بإسحاق من زوجه العقيم[1] .﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها. وَقالَتْ: عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.. وقد سمعت البشرى، فبُغِتَتْ وفوجئت، فندت منها صيحة الدّهش، وعلى عادة النساء ضربت خديها بكفيها. وقالت: عجوز عقيم. تنبئ عن دهشتها لهذه البشرى وهي عجوز. وقد كانت من الأصل عقيما. وقد أخذتها المفاجأة العنيفة التي لم تكن تتوقعها أبدا، فنسيت أن البشرى تحملها الملائكة! عندئذ ردها المرسلون إلى الحقيقة الأولى. حقيقة القدرة التي لا يقيدها شيء، والتي تدبر كل أمر بحكمة وعلم .﴿قالُوا: كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ ..وكل شيء يكون إذا قيل له: كن. وقد قال الله. فماذا بعد قوله؟ . إن الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشري، وتحدان من تصوراته. فيدهش إذ يرى ما

[1] – قطب سيد، في ظلال القرآن، ج6، ص3382.

يخالف المألوف له ويعجب كيف يكون وقد يتبجح فينكر أن يكون! والمشيئة المطلقة ماضية في طريقها لا تتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود تبدع ما تشاء، بغير ما حدود أو قيود![1].

أمّا المعاني التداولية التي يمكن أن نستفيدها من هذا المشهد الحواري، هي:

- إن إبراهيم الخليل كان كريما وللكرم ما له من معاني التلطف والمحبة للآخر سواء علمنا أصله وفصله أم لم نعلمه، ولذلك يجب علينا أن نتحلى بالكرم الذي تحلى به أبونا إبراهيم ونكاد أن نفقده في يوم الناس هذا. فإكرام الضيف سنة نبينا إبراهيم، ومن بعده خاتم الأنبياء محمد —صلى الله عليه وسلم. لذا يجب علينا أن نكرم غيرنا ونخدمه ، قبل أن ننظر في المصلحة التي قد تأتي منه فنستفيد منها.
- أن نتفاءل خيرا في هذه الدنيا، مادام المنح والمنع من الله. وهذا اليقين يزيدنا إيمانا بالله سبحانه واطمئنانا على مستقبلنا ، فكفى بالله وكيلا. فما شاء كان وإن لم نشأ، وما شئنا إن لم يشأ لم يكن.
- إن المبادر بصنيع الخير يجني ثماره في الحين، لأن عمل الخير هذا لم يكن لشيء إلا لمرضاة الله تعالى. فكانت النتيجة تلك البشرى وتلك الهبة التي لا يقدر على منحها إلا الله جل وعلا.

الأبناء قرة أعين الآباء، وفلذات أكبادهم، وقد يبتلى المرء في زنبقة من زنابقه الجميلة التي وهبه الله إياها، وإبراهيم الخليل عليه السلام، يبقى النموذج الذي يتخذه الآباء والأبناء قدوة لهم في معاملة بعضهم بعضا. فكيف اجتاز إبراهيم امتحان الابتلاء مع ابنه إسماعيل عليهما السلام؟.

***حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل** : لقد انتهى أمره مع أبيه وقومه ومع طاغية زمانه. لقد أرادوا به الهلاك في النار التي أسمَوها الجحيم، وأراد الله أن يكونوا هم الأسفلين، ونجّاه من كيدهم أجمعين.

عندئذ استدبر إبراهيم مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة أخرى، وطوى صفحة لينشر صفحة أخرى. إذ يخبر عنه عز وجل في قرآنه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)﴾ الصّافّات. إني ذاهب إلى ربي.. إنها الهجرة. وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية. هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته. موقن أن ربه سيهديه، وسيرعى خطاه، وينقلها في الطريق المستقيم. إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال، إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين[2] .

فاتجه إلى ربه الذي أعلن أنه ذاهب إليه. اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح:﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100)الصافات. واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد، الذي ترك وراءه كل شيء، وجاء إليه بقلب سليم..﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101)﴾الصافات. هو إسماعيل.. ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته. لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام، الذي يصفه ربه بأنه حليم.

---

1 – المرجع نفسه، ص3383.

2 – قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج6، ص2994.

والآن آن أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد في حياة إبراهيم. بل في حياة البشر أجمعين، ونقف في القرآن أمام المثل الموحي الذي يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم..

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)﴾الصافات. يا لَلّه! ويا لَروعة الإيمان والطاعة والتسليم.. ها هو ذا ما يكاد يأنس به، وصباه يتفتح، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة.. ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد، حتى يرى في منامه أنه يذبحه. ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية. فماذا؟ إنه لا يتردد، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم.. نعم إنها إشارة. ولكنها إشارة من ربه.. ليلبي ويستجيب. ودون أن يعترض ودون أن يسأل ربه..لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد؟! كلا إنما هو القبول والرِّضَى والطمأنينة والهدوء. يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾الصافات. يتلقى إبراهيم الأمر هذا التلقي، ويعرض على ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أن يتروى في أمره، وأن يرى فيه رأيه! إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه، وينتهي. إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر. ربه يريد. فليكن ما يريد. وابنه ينبغي أن يأخذ الأمر طاعة وإسلاما، لا قهرا واضطرارا. لينال هو الآخر أجر الطاعة، ويتذوق حلاوة التسليم! إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها، وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأفنى..[1].

فماذا يكون من أمر الغلام، الذي يعرض عليه الذبح، تصديقا لرؤيا رآها أبوه؟ إنه يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه:﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)﴾الصافات. إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب. ولكن في رِضىً كذلك وفي يقين.. «يا أبت» .. في مودة وقربى. فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده. بل لا يفقده أدبه ومودته. «افعل ما تؤمر» .. فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه. يحس أن الرؤيا إشارة. وأن الإشارة أمر. وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب[2].

ثم هو الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية، ومساعدته على الطاعة﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)﴾ ولم يأخذها بطولة. ولم يأخذها شجاعة. ولم يأخذها اندفاعا إلى الخطر دون مبالاة... إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه، وأصبره على ما يراد به. يا للأدب مع الله! ويا لروعة الإيمان. ويا لنبل الطاعة. ويا لعظمة التسليم!.[3].

أمّا الدروس العملية التي نخلص إليها من خلال الحوار الذي دار بين إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام، ما يلي:

---

[1] – المرجع نفسه، ج5، ص2995.

[2] – قطب سيد ، في ظلال القرآن، ص2995..

[3] – المرجع نفسه ، ص2995.

- لقد ربط الله سبحانه وتعالى طاعته بطاعة الوالدين ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : أنت ومالك لأبيك. فما بالنا إذا أمرنا أبونا أن نمتثل لأمر الله وتنفيذ إحدى العبادات أو الطاعات ؟، فالطاعة في هذا المقام أولى وعصيان الأب فيه هو عصيان لله تبارك وتعالى.

- الامتثال لأمر الله، يعقبه الأجر والثواب في الدنيا والآخرة. وكذلك فدى الله إسماعيل بذبح عظيم. فصارت هذه المناسبة عيدا للمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- على الآباء ألا يأخذوا أبناءهم على حين غرة، حتى وإن كان الأمر تعبدا وقربى من الله، بل يعرضوا عليهم الأمور ويبينون لهم محاسنها ومزاياها، ورضى الله عنهم إن أدوها على الوجه الصحيح دون إفراط أو تفريط.

- تربية الأبناء تربية إيمانية قائمة على طاعة الله والتسليم له بكل شيء، كيف لا وأبونا إبراهيم قد سمانا المسلمين من قبل لنكون شهداء على الناس ويكون الرسول علينا شهيداً.

ننتقل في هذه الملحمة الحوارية في القرآن الكريم إلى نبي آخر من أنبياء الله، ومن أولي العزم من الرسل، وهو كليم الله موسى عليه السلام ، لنعيش معه لحظات التحدي لطاغية، صار مثلا يضرب للطواغيت في كل زمان ومكان، وصار موسى مثلا أيضا للحق الذي ينتصر على الباطل فجرى على الألسن جريانا، فقيل ويقال: لكل فرعون موسى. فماذا كان من أمر موسى وفرعون وسحرته؟.

***حوار موسى مع فرعون:**

***مناظرة موسى فرعون:** يبدأ المشهد هنا بما دار بين فرعون وبين موسى- عليه السلام- من حوار: إنه لا يريد أن يعترف بأن ربّ موسى وهارون هو ربّه، فهو يسأل موجها الكلام إلى موسى لما بدا له أنه هو صاحب الدعوى﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49)﴾ طه. من ربّكما الذي تتكلمان باسمه وتطلبان إطلاق بني إسرائيل؟.فأما موسى- عليه السلام- فيرد بالصفة المبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)﴾طه. ربّنا الذي وهب الوجود لكلّ موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها. ثم هدى كلّ شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمدّه بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها. و"ثم" هنا ليست للتراخي الزمني. فكلّ شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خُلق لها، وليس هناك افتراق زمني بين خلق المخلوق وخلق وظيفته. إنّما هو التّراخي في الرّتبة بين خلق الشّيء واهتدائه إلى وظيفته[1]. وثنّى فرعون بسؤال آخر:﴿قَالَ فَمَا بَالُ

[1] – قطب سيد، في ظلال القرآن ،ج4، ص2338.

الْقُرُونِ الْأُولَى (51)﴾طه. ما شأن القرون التي مضت من النّاس؟ أين ذهبت؟ ومن كان ربّها؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا؟.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (522)﴾طه. بهذا أحال موسى ذلك الغيب البعيد في الزمان، الخافي عن العيان، إلى ربه الذي لا يفوت علمه شيء ولا ينسى شيئا. فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كلها. في ماضيها وفي مستقبلها. والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله. ثم يستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون وآلائه على بني الإنسان.﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53)﴾طه. فيختار بعض هذه الآثار المحيطة بفرعون، المشهودة له في مصر ذات التربة الخصبة والماء الموفور والزّروع والأنعام والأرض كلّها مهد للبشر في كل مكان وزمان. مهد كمهد الطفل. وما البشر إلاّ أطفال هذه الأرض.﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54)﴾طه. وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب، ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدبر، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.. ويكمل السياق حكاية قول موسى بقول مباشر من الله جل وعلا .﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55)﴾طه. فالإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض. عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالا. ومن زرعها يأكل، ومن مائها يشرب، ومن هوائها يتنفس. وهو ابنها وهي له مهد. وإليها يعود جثة تطويها الأرض، ورفاتا يختلط بترابها، وغازا يختلط بهوائها. ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى، كما خلق في النشأة الأولى[1]. وللتذكير بالأرض هنا مناسبة في مشهد الحوار مع فرعون الطاغية المتكبر، الذي يتسامى إلى مقام الربوبية وهو من هذه الأرض وإليها! وهو شيء من الأشياء التي خلقها الله في الأرض وهداها إلى وظيفتها.[2].

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)﴾طه. أريناه الآيات الكونية التي وجهه إليها موسى– عليه السلام– فيما حوله، وآيتي العصا واليد يجملهما هنا لأنهما بعض آيات الله، وما في الكون منها أكبر وأبقى. وهكذا لم يمض فرعون في الجدل، لأن حجة موسى– عليه السلام– فيه واضحة وسلطانه فيه قوي، وهو يستمد حجته من آيات الله في الكون، ومن آياته الخاصة معه...

لكن فرعون يخرج عن الموضوع الحقيقي وينتقل إلى اتهام موسى ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)﴾طه. ولم يقابل فرعون الحجة بالحجة والبينة بالبينة، وإنما لجأ إلى اتّهام موسى بالسّحر الذي يجعل العصا حيّة تسعى، ويحيل اليد بيضاء من غير سوء. وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون، لأنه منتشر في ذلك الوقت في مصر، وهاتان الآيتان أقرب في طبيعتهما إلى المعروف من السحر.. وهو تخييل لا حقيقة، وخداع للبصر والحواس، قد يصل إلى خداع الإحساس، فيُنْشِئ فيه آثارا محسوسة كآثار الحقيقة. وليس من هذا النوع آيتا موسى. إنما هما من صنع القدرة المبدعة المحوّلة للأشياء حقّاً. تحويلاً وقتياً أو دائماً[3].

---

[1] – المرجع نفسه، ص2339.

[2] – قطب سيد، في ظلال القرآن ،ج4، ص2339.

[3] – المرجع نفسه، ص2340.

ويظهر أن استعباد بني إسرائيل كان إجراء سياسياً خوفا من تكاثرهم وغلبتهم. وفي سبيل الملك والحكم لا يتحرج الطغاة من ارتكاب أشد الجرائم وحشية وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معاني الإنسانية وعن الخُلُق والشرف والضمير. ومن ثم كان فرعون يستأصل بني إسرائيل ويذلهم بقتل المواليد الذكور. واستبقاء الإناث وتسخير الكبار في الشاق المهلك من الأعمال.. فلما قال له موسى وهارون: أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم. قال: «أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى؟»طه. لأن إطلاق بني إسرائيل تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض[1].

وإذا كان موسى يطلب إطلاق بني إسرائيل لهذا الغرض، وكل ما يقدمه هو عمل من أعمال السحر، فما أسهل الرّد عليه:﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58)﴾طه. وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفي وراءها هدفا من أهداف هذه الأرض، وأنها ليست سوى ستار للملك والحكم.. ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات، إما خارقة كآيات موسى، وإما مؤثرة في الناس تأخذ طريقها إلى قلوبهم وإن لم تكن من الخوارق. فإذا الطغاة يقابلونها بما يماثلها ظاهريا.. سحر نأتي بسحر مثله! كلام نأتي بكلام من نوعه! صلاح نتظاهر بالصلاح! عمل طيب نرائي بعمل طيب! ولا يدركون أن للعقائد رصيدا من الإيمان، ورصيدا من عون الله، فهي تغلب بهذا وبذاك، لا بالظواهر والأشكال!

وهكذا طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة.. وترك له اختيار ذلك الموعد للتحدي. «فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً» وشدد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدي «لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ» .وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف: «مَكاناً سُوىً» مبالغة في التحدي! وقبل موسى- عليه السلام- تحدي فرعون له واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة، يأخذ فيه النّاس في مصر زينتهم، ويتجمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة «قالَ: مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ» طه. وطلب أن يجمع النّاس ضُحىً، ليكون المكان مكشوفا والوقت ضاحيا.

فقابل التحدي بمثله، وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار، وأشدها تجمعا في يوم العيد. لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت، ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية..!!وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيمان والطغيان في الميدان..[2].

لقد تكرر الحوار مع موسى عليه السلام في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، ولعلّ القيمة التي نستفيدها من هذا الكرار هو:

تجدد المواقف في هذه الحياة المتنوعة منذ الولادة إلى الوفاة، فقد كان موسى عليه السلام ذا شخصية قوية ، عاشت في ظروف صعبة منذ الولادة ، وفي مجتمع ساده القهر والاستعباد، ممّا جعله يكتسب خبرة عميقة أهّلته للتعامل مع هذا الواقع باستمداد العون من الله والإنابة إليه.

---

[1] – المرجع نفسه، ص2340.

[2] – قطب سيد، في ظلال القرآن ،ج4، ص2340.

وقد مرت حياته بمواقف صعبة ، وقد عارض الطغيان والكفر في مراحل مبكرة من حياته ولما كلفه الله بالرسالة ، وقف موقف الخائف منها ، ودعا الله أن يعضده بأخيه هارون، لأنه لم يكن متيقنا من قدرته على الإقناع والإبلاغ للرسالة التي كلف بتبليغها إلى فرعون الذي طغى، لان التبليغ يحتاج إلى فكر نير ولسان بليغ فصيح . يحترم الكلمة والشعور الدقيق والإحساس الرّهيف للإنسان خاصة إذا كان بمنزلة فرعون الطاغية . وخاصة إذا كان موسى عليه السلام ، يذهب إلى فرعون ، وقد قام بقتل أحد من قومه سابقا .

إن المحاوِر يجب أن ينطلق في حواره من موقع قوة لا من موقع ضعف، فلا يريد أن ينهزم في بداية الطريق . ولذلك رجع إلى الله ليؤيده ، ويشرح صدره ، وييسّر له أمره، وليحلل عقدة من لسانه، ليفقهوا قوله، وأن يجعل له وزيرا من أهله هارون أخاه، يشد به أزره ويشركه في أمره، وهكذا استجمع عناصر القوة اللازمة لمواجهة فرعون، فكان أن منحه الله الدعم ، بعد هذه المناجاة الصادقة منه .

وقد استعمل موسى أسلوب اللّين في حواره لفرعون، لأنّ اللّين في الحوار يرهف الحس، ويجعل السامع يقبل على الطلب . ولا يتصرف بردة فعل قوية، من شأنها أن تقود إلى نتائج عكسية. فالغاية من الحوار هي المصلحة في النهاية لا المفسدة. وبهذه الطريقة الحوارية اللينة يرجّح المحاور الكفة لصالحه.

إن طغيان فرعون بلغ عتوه ومنتهاه، لذلك اقتضت إرادة الله أن يبعث له رسولا يربيه في حجره، ثم يكون له نبيا يهز طغيانه، بالكلمة القوية الهادية، من موقع المحبة التي تهز أعماقه، ثم بالقوة الإلهية القادرة التي تحطم جبروته في آخر المطاف.

لقد خاف موسى وهارون من قوة فرعون المادية ، ولكن الله طمأنهما ألا يخافا لأنه معهما يسمع ويرى، وأمرهما الله أن يحذرا فرعون من تعذيبه لبني إسرائيل وأن يرسلهم معهما، وأن يقولا له: إن هذا أمر من ربك الذي خلقك ، والسلام على من اتبع الهدى وإن لم يستجب فرعون لطلبهما، فما عليه إلا أن ينتظر العذاب الذي سيلحق به، لأنه كذب الرسالة وحامليها، وأعرض عنها وأبى أن يطبق أوامر الله ، التي جاءت بها رسالته.

إن هذا الحوار، الذي جرى مع طاغية زمانه ، كان بأسلوب لين هادئ، وإذا ما نظرنا إلى جرائم فرعون التي اقترفها في حق بني إسرائيل، والعراقيل التي اصطنعها للوقوف في وجه الرسالة السماوية، فإننا بمنطقنا البسيط، لا نستطيع أن نخاطب إنسانا من هذا النوع باللين والهدوء. ولكن الله سبحانه يرسم لنا أسلوبا نتبعه في حياتنا في دعوة الآخر، بأسلوب اللين. وأسلوب يعطي الحرية كاملة للآخر، لأن يقول نعم أو لا. وإذا قلت: إني أحترم الآخر، فدعه يقول كلمة "لا "بحريّةٍ أيضا. إنّ الناس وُلدوا أحراراً.

وهذا ما أراده موسى عليه السلام ، عندما طلب من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل حتى يعطيهم الحرية الكاملة في التصرف والعيش الكريم ، فيرفع عنهم الاستبداد لينطلقوا في حياة حرة، تتحقق فيها إرادتهم واختيارهم

بعيدين عن أي ضغط أو طغيان . فالإيمان الحق لا يتحقق تحت ظلام العبوديّة والقهر، بل في نور الحرية والعدل والسلام .

لقد حاور موسى وهارون فرعون، لكنه تجاهل الاعتراف بربّ موسى وهارون، ونسي أصل وجوده في هذه الحياة. وكبقية الطغاة والظالمين، حاول فرعون جاهدا أن يخرج الحوار من مضمونه، ويرسله في أمور جانبية لا طائل من ورائها إلاّ التعب، فأراد أن يحدث معارك جانبية لا تصيبه في شيء، وهذا التصرف من المعوقات الذاتية للحوار، لكن موسى عليه السلام، أراد أن يستدل بالآيات الكونية والواقع الذي يحياه فرعون لهدايته، لكنه عمي عن رؤية الحقيقة، وكانت نتيجة ذلك أن لقي حتفه إذ أغرقه الله ومن معه .

ومن العبر والفوائد العملية الإنجازية، التي يمكن أن نستفيدها من هذا الحوار الذي دار بين موسى – عليه السلام–وبين فرعون ما يلي :

- يجب أن يقف المرء موقف الاستجابة من نداء المسؤولية، لأن العمل الرسالي يتعلق بمستقبل الأمة، ولا ضير في أن يشرك معه الآخرين الذين يحملون الفكرة نفسها ليضيفوا طاقة أخرى مساعدة للرسالة ، ومساعدة حامل هذه الرسالة للأمة. وإن الاستعانة بالغير من أجل تحمل أعباء الرسالة وتقاسمها، ييسر بلوغ الهدف، ويكامل العمل الدعوي الإصلاحي في المجتمع، وعند تحقيق النتيجة تكون ثمرتها محصلة لعمل الجميع ، والكل يسعى من أجل تعزيزها والحفاظ عليها. وبهذا السلوك الجماعي، تتولد في النفس البشرية نزعة الجماعة والاجتماع، وتبتعد عن الأنانية والذاتية، مما يعود بالفائدة على الأفراد والجماعات .

- الاستشعار بعون الله يمنح القوة الإضافية للصمود في وجه التحديات مهما عظمت، ومواجهة الخصوم مهما كثروا . ولنا في رسل الله وأنبيائه قدوة حسنة.

- الحوار والمحاورة يجب أن يدور حول المبدأ ، ويجب أن يتحلى صاحبه بالوضوح في الطرح للأفكار الجديدة مع التحلي بالقوة واللطف، وبالشدة واللين ، وبالهدوء والثقة بالنفس، مع كسر جميع الحواجز الفكرية والنفسية المعيقة للحوار بين المحاور والآخر، مع الانفتاح على الآخر مهما كانت عقيدته ومهما كان متصلبا لمواقفه. فلا سبيل إلى ترك مجال لأفكاره وعناده، بل يجب جره إلى ساحة الحوار، وفضح نواياه، ومن ثم إقامة الحجة عليه. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(الأنفال:42).

- كل إنسان قابل لدعوات الحق مهما ابتعد عن ذلك، لأن الله سبحانه وتعالى خلقه على الفطرة، وبالكلمة الطيبة ننفض الغبار الذي تراكم على هذه الفطرة، فيعود ذلك الإنسان إلى إبصار نور الحق من خلال الكلمة الطيبة، فيكون الحوار معه مثمرا ناجحا، ولعلّ استعمال المحاورة واللّين في القول يذيب الجليد بين المتحاورين ويمكّنهما من التّلاقي والاتّفاق، وتحديد المسار الذي يَخدم غايتيهما وغاية الآخرين.

- عدم الخوض في مسائل جانبية، تخرج بالحوار عن الجادة، وعن الموضوع الحقيقي، وذلك ما يريده الخصوم، لكي يجعلوا الحوار فارغا من معناه، غير محقق لأهدافه الجوهرية، وأفكاره الأصيلة. كان هذا حوار موسى مع فرعون، فماذا عن حوار السّحرة مع فرعون؟.

*‏**حوار السحرة مع فرعون**: لقد جعل الله كيد فرعون في نحره، وتدميره في تدبيره، إذ كان يريد أن يتحدى موسى ومعجزته الإلهية فجمع السحرة وجاءوا بسحر عظيم، لكن حقيقة الحق، أبطلت وهم الباطل، وتلقفت العصا المعجزة حبال السحرة، الذين أيقنوا بعد ذلك أن موسى نبي ورسول من الله، وأن ما جاء به ليس سحرا، وهم أعلم الناس به. فما كان منهم إلا أن يؤمنوا بالله الحق، وبموسى عليه السلام ويتفطنوا لخرافة الطاغية فرعون، ويتحرروا من ظلمه وطغيانه، وينعموا بحرية الإيمان بعيدا عن استبداد فرعون الطاغية، وضغطه الممارس عليهم وعلى أعصابهم .

لقد واجه السحرة فرعون بقوة الإيمان ونور الحق، هذا الإيمان لا يتزعزع، ولا يتزلزل، واستطاعوا بفضله تعالى أن ينتقلوا من سفالة الدنيا إلى علياء الآخرة ، ومن موقف كانوا يبحثون فيه عن مكانة لدى فرعون ومنفعة زائلة- إن كانوا هم الغالبين- إلى موقف إيماني سام ، امنوا فيه بالله ونشدوا رضوانه والفوز بالآخرة ، كما امنوا فيه بموسى عليه السلام ورسالته .قال تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126)"الأعراف.

إن فرعون أنكر على السّحرة إيمانهم قبل أن يأذن لهم، وكأن الإيمان بالله يحتاج إلى إذن فرعوني، كما هو الحال في عملٍ آخرَ من أعمال الحياة .

إذن هي سيرة الطغاة وعقليتهم في كل زمان ومكان، عندما يريدون أن يملكوا على الناس عقولهم وأفكارهم، فالتفكير الحر ممنوع، والإيمان بالله الحق مُحرّم، بدون الإذن من السلطة الرسمية. لقد صُدم فرعون، وأراد أن يخفف عن نفسه وقع الصدمة الكارثيّة عليه، وعلى عرشه المتداعي المنهار، أمام الحق الذي سطع نوره، كيف لا ؟ وهؤلاء

السحرة هم من المقرَّبين إليه، وكان يعوّل عليهم في الانتقام من موسى، لكنّهم يُحطّمون أُفُقَ انتظاره، بتمرّدهم عليه، وتركهم له، وركوبهم سفينة الإيمان مع موسى وهارون، ورفضِهم للسلطة القديمة بكل ما تُمثّله من أفكار .

لكنّ فرعون يريد أن يدفع عنه الشعور بالهزيمة، بادّعائه أن هذه الحركة من السحرة، لم تكن تمرّداً عفوياً صادرا عن قناعة بالرسالة الجديدة، بل هي مؤامرة دُبِّرت بين موسى عليه السلام والسّحرة، واعتبر موسى هو الساحر الكبير، وهو الأستاذ الذي علّمهم السحر، وأراد لهم أن يقوموا بهذه التمثيلية، لإظهاره في موقف المنتصر، في مقابل فرعون الذي يقف موقف المهزوم .

لم يتراجع السحرة عن موقفهم، رغم تهديدات فرعون، بل وقفوا موقف اللامبالاة، ليقولوا له بقوة، لن نؤثرك على ما جاءنا من الحق والبينات، فافعل ما بدا لك، ومهما فعلت، فان ذلك يسعدنا سعادة أبدية، لأننا نفوز بالشهادة في سبيل الله، أما أنت فإنسان زائل، ولست ضمانة لأحد حتى على نفسك. أما الله فهو مولانا، والضمانة الدائمة لنا، لأنه مالك الملك وهو خير لنا وأبقى من كل شيء في الحياة. إنه الموقف الرائع، للإيمان الصامد، بين قوى الكفر والطغيان، وبين قوى الحق والإيمان.

أما نحن فما أحوجنا إلى تَمثُّل هذه المواقف، فيما نواجهه في حياتنا، لكي يكون للفكر الإسلامي مكانٌ بين الأفكار الوافدة المقلَّدة [1].

إن هذه النماذج العظيمة في تاريخ الرّسالات، تطرح أمامنا الشعار القرآني الخالد، في تجسيد عملي رائع، وما عند خير وأبقى للذين امنوا وعلى ربهم يتوكلون. يبقى لموسى– عليه السلام – أن يصارع لإقناع جبهة أخرى وهي قومه، وهم بنو إسرائيل. فكيف كان حواره معهم؟.

***حوار موسى مع قومه**: كانت لموسى عليه السلام مواقف ومحطات عديدة للحوار مع قومه، الذين اتصفوا بالفضولية فأكثروا من طرح الأسئلة عليه دون معنى، ودون جدوى، مما جعل الله سبحانه وتعالى يشدد عليهم ويضيق، ولو سكتوا لكان خيرا لهم، ولم يكلفهم الله بالأكثر مصداقا للحديث النبوي الشريف :"إن بني إسرائيل لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم .﴾ وما يبين هذا الموقف ورد في سورة البقرة، إذ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ

[1] – ينظر: فضل الله محمد حسين ، الحوار في القرآن،ج2، ص 75.

"(71)﴾البقرة . فلم يأخذ بنو إسرائيل الأمرَ على مَحمَل الجدّ، بل اتّخذوه مزاحاً وسخرية بموسى، هذا التصرف الذي أساء للنبي موسى عليه السلام، لأنهم لم يجدوا العلاقة بين معرفة القاتل وبين ذبح البقرة، ولكن موسى عليه السلام واجه الموقف بهدوء أعصاب، وأجوبة هادئة، وبإضافة قيود تشريعية للواجب المفروض، حتى ارتفع إلى المستوى العالي الذي كلّفهم في الأخير مالاً كثيراً .

هذا الأسلوب من الحوار، هو طريقة تربوية عملية تغلق الباب أمام بني إسرائيل، لعدم التلاعب بالأوامر الملقاة إليهم، وليفهموا أن الفضول الجاد أو الهازل يكلف صاحبه كثيرا من الجهد والخسارة، لاسيما إذا كان فضول عبث ولعب واستهزاء بمواقف المسؤولية، التي لا تدع المجال لذلك، لأنها تعبر عن إرادة لا مجال للغموض فيها .

أما ما يمكن أن نستفيده عمليا من هذا الموقف الحواري بين موسى عليه السلام وبين بني إسرائيل فهو الآتي :

- ينبغي على العاملين تناول المسؤوليات الموجهة إليهم من المسؤولين بكل بساطة، وأن لا يكونوا سببا في تحميلها بقيود إضافية مادامت قد صدرت إليهم دون قيد أو شرط .

- وإن كان التقصير في البيان أو إغفال لبعض الجوانب المرتبطة بالمسؤولية ، فهذا يعدّ من واجبات المسؤول الأول، لا من واجبات الرّعيّة. فإنّ لهم الحقّ في ترك ما لم يُبيّن لهم، على أساس القاعدة العقلية التي تقول:" قبح العقاب بلا بيان ".

* **حوار موسى مع العبد الصّالح** : نزلت هذه السورة بسبب ما سأل المشركون- والذين أمْلَوا عليهم من أهل الكتاب - الرسول (ص)، عن قصتي أصحاب الكهف وذي القرنين . قدمت لهذه القصة الثانية قصة لها شبه بها في أنها تَطواف في الأرض لطلب نفع صالح، وهي قصة سفر موسى عليه السلام لطلب لقاء من هو على علم لا يعلمه موسى . وفي سوق هذه القصة تعريض بأهل الكتاب بأن الأولى لهم أن يدُلوا الناس على أخبار أنبياء إسرائيل وعلى سفر لأجل تحصيل العلم والحكمة لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان[1].

قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60)﴾الكهف. فجملة:"وإذ قال موسى"، معطوفة على جملة:" وإذ قلنا للملائكة " (الكهف : 50) عطف القصة على القصة . والتقدير : واذكر إذ قال موسى لفتاه، أي اذكر ذلك الزمن وما جرى فيه . وناسبها تقدير فعل اذكر لأن في هذه القصة موعظة وذكرى كما في قصة خلق آدم. والفتى : الذكَر الشاب، وهو مستعمل مجازاً في التابع والخادم . وفتى موسى : خادمه وتابعه ، فإضافة الفتى إلى ضمير موسى على معنى الاختصاص، وفتى موسى هو يوشع بن نون، ويوشع؛ أحد الرجال الإثني عشر الذين بعثهم موسى عليه السلام، ليتجسسوا في أرض كنعان، في جهات حلب، وحبرون، ويختبروا بأس أهلها وخيرات أرضها، ومكثوا أربعين يوماً في التجسّس .

[1] - ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج15، ص358-359.

وكان يوشع أحد الرجلين اللذين عهد إليهما موسى عليه السلام بأن يقسما الأرض بين أسباط بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام. وأمر الله موسى بأن يعهد إلى يوشع بتدبير أمر الأمة الإسرائيلية بعد وفاة موسى عليه السلام فعهد إليه موسى بذلك فصار نبيئاً من يومئذٍ . ودبر أمر الأمة بعد موسى سبعاً وعشرين سنة . وكتاب يوشع هو أول كتب الأنبياء بعد موسى عليه السلام[1].

وتفصيل هذه القصة وارد في «صحيح البخاري» من حديث : « عمرو بن دينار ويعلى بن مسلم عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس عن أُبَيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئل : أي الناس أعلم؟ فقال: أنا . فعتَب الله عليه إذ لمْ يَردّ العلمَ إليه . فأوحى الله إليه : بلى عبدُنا خَضِرٌ هو أعلم منك. قال: فأين هو؟ قال: بمجمع البحرين. قال موسى عليه السلام: يا رب اجعل لي علَماً أعلم ذلك به. قال : تَأخذ معك حُوتاً في مِكّتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثَمّ ، فأخذ حوتاً فجعله في مِكتل وقال لفتاه يُوشَع بن نون: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال (أي فتاه): ما كلّفتَ كثيراً . ثم انطلق وانطلق بفتاه حتى إذا أتيا الصخرة وضعَا رؤوسهما فنامَا واضطرب الحوت في المِكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سَرَبًا وموسى نائم ، فقال فتاه (وكان لم ينم): لا أوقظه، وأمسك اللّهُ عن الحوت جريه الماء، فصار الماء عليه مثلَ الطّاق، فلما استيقظ(موسى) نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى عليه السلام لفتاه : آتنا غداءنَا لقد لَقينا من سفرنا هذا نصبَاً . قال : ولم يجد موسى النصَب حتى جاوزَ المكان الذي أمره الله به (أي لأن الله ميسر أسباب الامتثال لأوليائه : فقال له فتاه : أرأيتَ إذ أَوَيْنا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره وأتخذ سبيله في البحر عجباً . قال : فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً . فقال موسى : ذلك ما كنا نبغي ، فارتدا على آثارهما قصصاً ، قال : رجعا يَقُصّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى ثوباً فسَلّم عليه موسى . فقال الخَضر : وأنّى بأرضك السّلام»[2].

يقول صاحب الظلال:والقرآن لا يحدد المكان الذي وقعت فيه إلا بأنه «مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ» ولا يحدد التاريخ الذي وقعت فيه من حياة موسى، هل كان ذلك وهو في مصر قبل خروجه ببني إسرائيل أم بعد خروجه بهم منها؟ ومتى؟ بعد الخروج:قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة، أم بعد ما ذهب بهم إليها فوقفوا حيالها لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين؟ أم بعد ذهابهم في التيه، مفرقين مبددين؟

كذلك لا يذكر القرآن شيئا عن العبد الصالح الذي لقيَه موسى. من هو؟ ما اسمه؟ هل هو نبي أم رسول؟أم عالم؟ أم ولي؟.

وهناك روايات كثيرة عن ابن عباس وعن غيره في هذه القصة. ونحن نقف عند نصوص القصة في القرآن. لنعيش «في ظلال القرآن» ونعتقد أن لعرضها في القرآن على النحو الذي عرضت به، دون زيادة، ودون تحديد للمكان والزمان والأسماء، حكمة خاصة.

---

1 – المرجع نفسه، ص360.

2 – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير،ج15، ص363.

ونفهم من سياق القصة فيما بعد- أنه كان لموسى- عليه السلام- هدف من رحلته هذه التي اعتزمها، وأنه كان يقصد من ورائها أمرا، فهو يعلن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة، ومهما يكن الزمن الذي ينفقه في الوصول. وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه القرآن من قوله: «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً» والحقب قيل عام، وقيل ثمانون عاما. على أية حال فهو تعبير عن التصميم، لا عن المدة على وجه التحديد[1] .

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65)﴾الكهف. والأرجح كذلك أن هذا الحوت كان مشوبا، وأن إحياءه واتخاذه سبيله في البحر سربا كان آية من آيات الله لموسى، يعرف بهما موعده، بدليل عجب فتاه من اتخاذه سبيله في البحر، ولو كان يعني أنه سقط منه فغاص في البحر ما كان في هذا عجب. ويرجح هذا الوجه أن الرحلة كلها مفاجآت غيبية. فهذه إحداها.

وأدرك موسى أنه جاوز الموعد الذي حدده ربه له للقاء عبده الصالح. وأنه هنالك عند الصخرة ثم عاد على أثره هو وفتاه فوجداه. ويبدو أن ذلك اللقاء كان سر موسى وحده مع ربه، فلم يُطلع عليه فتاه حتى لَقِياه. ومن ثم ينفرد موسى والعبد الصالح في المشاهد التالية للقصة:﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66)﴾الكهف. بهذا الأدب اللائق بنبي، يستفهم ولا يجزم، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67)وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68)﴾الكهف. ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشري الواضح الأسباب القريب النتائج، إنما هو جانب من العلم اللّدُنّيّ بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذي أراده، للحكمة التي أرادها. ومن ثم فلا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبيا رسولا. لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلي، وبالأحكام الظاهرة، ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المغيبة وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار. لذلك يخشى العبد الصالح الذي أوتي العلم اللدني على موسى ألا يصبر على صحبته وتصرفاته، ويعزم موسى على الصبر والطاعة، ويستعين الله، ويقدم مشيئته[2]:﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69)﴾الكهف. فيزيد الرجل توكيدا وبيانا، ويذكر له شرط صحبته قبل بدء الرحلة، وهو أن يصبر فلا يسأل ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له عن سرها:﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70)﴾الكهف. ويرضى موسى، وإذا نحن أمام المشهد الأول﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾الكهف. سفينة تحملهما وتحمل معهما ركابا، وهم في وسط اللّجّة، ثم يجيء هذا العبد الصالح، فيخرق السفينة!، إن ظاهر الأمر هنا أن هذه الفِعْلة تُعَرّضُ السفينة وركّابَها لخطر الغرق، وتؤدي بهم إلى هذا الشّرّ، فلماذا يُقدم الرّجل على هذا الشّرّ؟.

---

[1] – قطب سيد، في ظلال القرآن، ج4، ص2278.

[2] – قطب سيد، في ظلال القرآن، ج4، ص2279.

لقد نسي موسى ما قاله هو، وما قاله صاحبه، أمام هذا التصرف العجيب الذي لا مبرر له في نظر المنطق العقلي! والإنسان قد يتصور المعنى الكلي المجرد، ولكنه عند ما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى والنموذج الواقعي منه يستشعر له وقعا غير التصور النظري. فالتجربة العملية ذات طعم آخر غير التصور المجرد. وها هو ذا موسى الذي نبه من قبل إلى أنه لا يستطيع صبرا على ما لم يحط به خبرا، فاعتزم الصبر واستعان بالمشيئة، وبذل الوعد، وقبل الشرط. ها هو ذا يصطدم بالتجربة العملية لتصرفات هذا الرجل فيندفع مستنكرا.

نعم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية، كما يظهر من تصرفاته في كل أدوار حياته. منذ أن وكز الرجل المصري الذي رآه يقتتل مع الإسرائيلي، فقتله في اندفاعة من اندفاعاته. ثم أناب إلى ربه مستغفرا معتذرا. ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل، ولم يستطع الوفاء بوعده الذي قطعه أمامه. ولكن الطبيعة البشرية كلها تلتقي في أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعما غير التصور النظري.ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها.

ومن هنا اندفع موسى مستنكرا:﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71)﴾الكهف. وفي صبر ولطف يذكره العبد الصالح بما كان قد قاله منذ البداية:﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72)﴾الكهف. ويعتذر موسى بنسيانه، ويطلب إلى الرجل أن يقبل عذره ولا يرهقه بالمراجعة والتذكير:﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73)﴾الكهف. ويقبل الرجل اعتذاره، فنجدنا أمام المشهد الثاني: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾الكهف. وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها فهذه قتل نفس. قتل عمد لا مجرد احتمال. وهي فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده:﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74)﴾الكهف. فليس ناسيا في هذه المرة ولا غافلا ولكنّه قاصد. قاصد أن ينكر هذا النكر الذي لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له أسبابا والغلام في نظره بريء. لم يرتكب ما يوجب القتل، بل لم يبلغ الحلم حتى يكون مؤاخذا على ما يصدر منه. ومرة أخرى يرده العبد الصالح إلى شرطه الذي شرط، ووعده الذي وعد، ويذكره بما قال له أول مرة:﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75)﴾الكهف. وفي هذه المرة يعين أنه قال له: «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ؟» لك أنت على التعيين والتحديد. فلم تقتنع وطلبت الصحبة وقبلت الشرط.

ويعود موسى إلى نفسه، ويجد أنه خالف عن وعده مرتين، ونسي ما تعهد به بعد التذكير والتفكير. فيندفع ويقطع على نفسه الطريق، ويجعلها آخر فرصة أمامه: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76)﴾الكهف. وينطلق السياق فإذا نحن أمام المشهد الثالث:﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾الكهف. إنهما جائعان، وهما في قرية أهلها بخلاء، لا يطعمون جائعا، ولا يستضيفون ضيفا. ثم يجد أن جدارا مائلا يهم أن ينقض. والتعبير يخلع على الجدار حياة وإرادة كالأحياء فيقول: «يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ» فإذا الرجل الغريب يشغل نفسه بإقامة الجدار دون مقابل!!! وهنا يشعر موسى بالتناقض في الموقف. ما الذي يدفع هذا الرجل أن يجهد نفسه ويقيم جدارا يهم بالانقضاض في قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان، وقد أبوا أن يستضيفوهما؟ أفلا أقل من أن يصيب عليه أجرا يأكلان منه؟

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77)﴾الكهف. وكانت هي الفاصلة. فلم يعد لموسى من عذر، ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال:﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78)﴾الكهف. وإلى هنا كان موسى– ونحن الذين نتابع سياق القرآن– أمام مفاجآت متوالية لا نعلم لها سرا.

وموقفنا منها كموقف موسى. بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة، فلم ينبئنا القرآن باسمه، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا. وما قيمة اسمه؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الإلهية العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة. فعدم ذكر اسمه يتفق مع الشخصية المعنوية التي يمثلها. وإن القوى الغيبية لتتحكم في القصة منذ نشأتها.

ثم يأخذ السر في التجلي..﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79)﴾الكهف. فبهذا العيب نجت السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصبا. وكان الضرر الصغير الذي أصابها اتقاء للضرر الكبير الذي يكنه الغيب لها لو بقيت على سلامتها.﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80)فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81)﴾الكهف. فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد على الزمن بروزا وتحققا..فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه. فأراد الله أن يبدلهما خلفا خيرا منه، وأرحم بوالديه [1].

ولو كان الأمر موكولا إلى العلم البشري الظاهر، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعا. وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه أن يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس. ولا أن يرتب على هذا العلم حكما غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة. ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد. ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)﴾الكهف. فهذا الجدار الذي أتعب الرجل نفسه في إقامته، ولم يطلب عليه أجرا من أهل القرية– وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما– كان يخبئ تحته كنزا، ويغيب وراءه مالا لغلامين يتيمين ضعيفين في المدينة. ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه.. ولما كان أبوهما صالحا فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته [2].

ويختم سيد قطب تفسيره لمضمون الحوار الذي جرى بين موسى عليه السلام والعبد الصالح، بهذه الخاتمة الرائعة، التي تجعل القارئ يسبح في روحانية مطلقة يستحضر فيها عظمة الخالق ،وعظمة حكمته وتقديره، يقول: وفي دهشة السر المكشوف والستر المرفوع يختفي الرجل من السياق كما بدا. لقد مضى في المجهول كما خرج من

---

1 - قطب سيد في ظلال القرآن،ج4، ص2281.

2 – المرجع نفسه ، ص2281.

المجهول. فالقصة تمثل الحكمة الكبرى. وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار. ثم تبقى مُغَيّبة في علم الله وراء الأستار. وهكذا ترتبط– في سياق السورة– قصة موسى والعبد الصالح، بقصة أصحاب الكهف في ترك الغيب لله، الذي يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر، الواقفون وراء الأستار، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار...[1]. أما الأغراض التداولية المستفادة من هذا الحوار، فيمكن تلخيصها في الآتي:

- التواضع سمة العلماء، وفوق كل ذي علم عليم.
- قل لا يعلم الغيب إلا الله، ولا يطلع على غيبه أحد إلا من اصطفى من عباده.
- على طالب العلم أن يتحلى بالصبر، وعدم التسرع ،لأن العجلة من الشيطان.ومن لم يتحمل ألم التّعلم لم يذق لذة العلم.
- والعبرة بالمقاصد والغايات، لا بالأشكال والصور، فالحقيقة ليست في الغالب كما تبدو صورتها للعيان.

هذا ما كان من أمر موسى عليه السلام ، فماذا عن نبي الله لوط عليه السلام؟

*__حوار لوط مع قومه__ : يبدأ لوط مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح. يستنكر استهتارهم ويستجيش في قلوبهم وجدان التقوى، ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة، ويطمئنهم إلى أنه لن يفجعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدى. ثم يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التي عرفوا بها في التاريخ: قال تعالى:﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166)﴾الشعراء. وهي الخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط –الذين كانوا يسكنون عدة قرى في وادي الأردن– وهي الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور، وترك النساء. وهو انحراف في الفطرة شنيع. فقد برأ الله الذكر والأنثى وفطر كلا منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته في امتداد الحياة عن طريق النسل، الذي يتم باجتماع الذكر والأنثى. فكان هذا الميل طرفا من الناموس الكوني العام، الذي يجعل كل من في الكون وكل ما في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود.

فأما إتيان الذكور الذكور فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقق غاية، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه. وعجيب أن يجد فيه أحد لذة. واللذة التي يجدها الذكر والأنثى في التقائهما، إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة. فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط. ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا، لخروجهم من ركب الحياة، ومن موكب الفطرة، ولتعريهم من حكمة وجودهم، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد.

[1] – المرجع نفسه ، ج4، ص2282.

فلما دعاهم لوط إلى ترك هذا الشذوذ، واستنكر ما هم فيه من ترك ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، والعدوان على الفطرة وتجاوز الحكمة المكنونة فيها.. تبين أنهم غير مستعدين للعودة إلى ركب الحياة، وإلى سنة الفطرة[1].فما كان جوابهم إلا أن ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167)﴾الشعراء. وقد كان فيهم غريبا. وفد عليهم مع عمه إبراهيم حين اعتزل أباه وقومه، وترك وطنه وأرضه، وعبر الأردن مع إبراهيم والقلة التي آمنت معه. ثم عاش وحده مع هؤلاء القوم حتى أرسله الله إليهم، ليردهم عما هم فيه، فإذا بهم يهددونه بالإخراج من بينهم، إذا لم ينته عن دعوتهم إلى سواء الفطرة القويم!.

عندئذ لم يبق إلا أن يعالنهم بكراهة ما هم عليه من شذوذ في تقزز واستبشاع: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168)﴾الشعراء. والقلى: الكره البالغ. يقذف به لوط في وجوههم في اشمئزاز. ثم يتوجه إلى ربه بالدعاء أن ينجيه من هذا البلاء هو وأهله:﴿ ربِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169)﴾الشعراء. وهو لا يعمل عملهم ولكنه يحس بفطرته الصادقة أنه عمل مُرد مُهلك. وهو فيهم. فهو يتوجه إلى ربه أن ينجيه وأهله مما سيأخذ به قومه من التدمير. واستجاب الله دعوة نبيه: «فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ» ..

هذه العجوز هي امرأته- كما يذكر في سور أخرى- وقد كانت عجوز سوء تقر القوم على فعلتهم المنكرة، وتعينهم عليها! «ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ. وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً، فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ»الشعراء. قيل :خسفت قراهم وغطّاها الماء. ومنها قرية سَدُوم. ويُظَنّ أنها ثاوية تحت البحر الميت في الأردن. وبعض علماء طبقات الأرض يؤكدون أن البحر الميت يغمر مدنا كانت آهلة بالسكان. وقد كشف بعض رجال الآثار بقايا حِصنٍ بجوار البحر، وبجواره المذبح الذي تُقَدّم عليه القرابين [2].

ويُفصّل القرآن في مبالغة قوم لوط في المعصية، وتحدّيهم لنبيّهم بأن يبعث عليهم العذاب، حتى يتأكدوا من صدق نبوّته. وهذا ردا على تحذيره لهم لما يقترفونه من فاحشة لم يسبق إليها أحد في العالمين غيرهم. وهي أنهم يأتون الرجال، ويقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر .قال تعالى :﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾العنكبوت. وأدخل استفهام الإنكار على جميع التفصيل، وأعيد حرف التأكيد لتتطابق جملة البدل مع الجملة المبدل منها لأنها الجزء الأول من هذه الجملة المبدلة عند قطع النظر عما عطف عليها تكون من الجملة المبدل منها بمنزلة البدل المطابق، وقطع السبيل: قطع الطريق ، أي التصدي للمارين فيه بأخذ أموالهم أو قتل أنفسهم أو إكراههم على الفاحشة. وكان قوم لوط يقعدون بالطرق ليأخذوا من المارة من يختارونه. فقطع السبيل فساد في ذاته وهو أفسد في هذا المقصد .

---

[1] – قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج5، ص2613.

[2] – ينظر: قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج5، ص2614.

والنادي : المكان الذي ينتدي فيه الناس، أي يجتمعون نهاراً للمحادثة والمشاورة وهو مشتق من النَّدْو بوزن العفو، وهو الاجتماع نهاراً. وأما مكان الاجتماع ليلاً فهو السامر، ولا يقال للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا عنه لم يسم نادياً [1].

وأما إتيان المنكر في ناديهم، فإنهم جعلوا ناديهم للحديث في ذكر هذه الفاحشة والاستعداد لها، ومقدماتها كالتّغازل برمي الحصى اقتراعاً بينهم على من يرومونه، والتظاهر بتزيين الفاحشة زيادة في فسادها وقبحها، لأنه معين على نبذ التستّر منها، ومعين على شيوعها في الناس [2].

ففي هذه القصة، قصة لوط يتبدى تبجح الرذيلة واستعلانها، وسفورها بلا حياء ولا تحرج، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ مع الاستهتار بالنذير:﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30)﴾العنكبوت. والأمر في "ائتنا بعذاب الله "، للتعجيز، وهو يقتضي أنه أنذرهم العذاب في أثناء دعوته . ولم يتقدم ذكر ذلك في قصة لوط فيما مضى لكن الإنذار من شؤون دعوة الرسل .

وأراد بالنصر عقاب المكذبين ليريهم صدق ما أبلغهم من رسالة الله. ووصفهم ب "المفسدين"؛ لأنهم يفسدون أنفسهم بشناعات أعمالهم، ويفسدون الناس بحملهم على الفواحش وتدريبهم بها، وفي هذا الوصف تمهيد للإجابة بالنّصر، لأن الله لا يحب المفسدين [3].

فلمّا أعلن قوم لوط عن الفاحشة وتبجحوا بها وبسفورها بلا حياء ولا خجل، حاق بهم العذاب الذي كانوا به يستعجلون. فكل من يستهزئ بآيات الله، ويتعدى حرماته، يكون له مصير قوم لوط .

وفي "سورة هود"، يستعرض القرآن قصة حوار لوط مع الملائكة، الذين أرسلهم الله إليه لينقذوه من قومه، إلا امرأته. هؤلاء فارقوا إبراهيم وذهبوا إلى لوط عليهما السّلام، "فلما جاءوا لوطاً" فحذْف ما دلّ عليه المقام إيجازاً قرآنياً بديعاً. وقد جاءوا لوطاً،كما جاءوا إبراهيم عليهما السّلام، في صورة البشر، فظنهم ناساً وخشي أن يعتدي عليهم قومه بعادتهم الشنيعة، فلذلك سيء بهم. قال تعالى:﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77)﴾هود.

والذّرع : مدُّ الذراع فإذا أسند إلى الآدمِيّ فهو تقدير المسافة. وإذا أسند إلى البعير فهو مَدّ ذراعيه في السير على قدر سعة خطوتِه، فيجوز أن يكون : ضاق ذرعاً تمثيلاً بحال الإنسان الذي يريد مَدّ ذراعه فلا يستطيع مَدّهَا كما يريد فيكون ذَرعه أضيق من معتاده. ويجوز أن يكون تمثيلاً بحال البعير المثقل بالحمل أكثر من طاقته فلا يستطيع

---

[1] - ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج20، ص 241.

[2] – المرجع نفسه، ص240–241.

[3] - ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، ج20، ص241.

مَدّ ذراعيه كما اعتاده . وأيّاً ما كان فهو استعارة تمثيلية لحال مَنْ لم يجد حيلة في أمر يريدُ علمه؟ . وقوله : " هذا يوم عصيب "، قاله في نفسه كما يناجي المرء نفسه إذا اشتد عليه أمر [1].

والعصيب : الشديد فيما لا يرضي . يقال : يوم عصيب إذا حدث فيه أمر عظيم من أحوال الناس أو أحوال الجوّ كشدة البرد وشدة الحرّ . وهو بزنة فعيل بمعنى فاعل ولا يُعرف له فعل مجرد وإنما يقال : اعْصوصب الشرُّ؛ اشتدّ . قالوا : هو مشتق من قولك : عصبتُ الشيء إذا شددته . وأصل هذه المادة يفيد الشدّ والضغط ، يقال : عصب الشيء إذا لَواه ، ومنه العِصابة . ويقال : عصبتْهم السنون إذا أجاعتهم . ولم أقف على فعل مجرّد لوصف اليوم بعصيب . وأراد : أنه سيكون عصيباً لِمَا يَعلم من عادة قومه السيئة وهو مقتض أنهم جاءوه نهاراً [2].قال تعالى: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78)﴾هود. أي جاءه بعضُ قومه، وإنما أسند المجيء إلى القوم لأن مثل ذلك المجيء دأبهم ، فإذا جاء بعضهم فسيعقبه مجيء بعض آخر في وقت آخر . وهذا من إسناد الفعل إلى القبيلة إذا فعله بعضها ، كقول الحارث بن وعلة الجرميّ[3]

قومي همُ قتلوا أمَيْمة أخي فإذا رميتُ يصيبني سهمي.

وقد طوى القرآن ذكر الغرض الذي جاؤوا لأجله مع الإشارة إليه بقوله :"ومن قبل كانوا يعملون السيّئات" فقد صارت لهم دأباً لا يسعون إلاّ لأجله [4].

وبادرهم لوط عليه السّلام بقوله :" يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم" . وافتتاح الكلام بالنّداء وبأنّهم قومه ترقيق لنفوسهم عليه ، لأنّه يعلم تصلبهم في عادتهم الفظيعة كما دلّ عليه قولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ والإشارة ب"هؤلاء "إلى "بناتي". و"بناتي" بدل من اسم الإشارة ، والإشارة مستعملة في العَرض ، والتقديرُ : فخذوهن .

وجملة" هنّ أطهر لكم" تعليل للعرض. ومعنى" هنّ أطهر"، أنهنّ حلال لكم يَحُلْنَ بينكم وبين الفاحشة ، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة قصد به قوّة الطهارة . وقد رُويَ أنه لم يكن له إلاّ ابنتان ، فالظّاهر أن إطلاق البنات هنا من قبيل التشبيه البليغ، أي هؤلاء نساؤهن كبناتي. وأراد نساءً من قومه بعدد القوم الذين جاءوا يُهرعون إليه . وقيل : أراد بنات صلبه، وهو رواية عن قتادة . وإذ كان المشهور أنّ لوطاً عليه السّلام له ابنتان صار الجمع مستعملاً في الاثنين بناء على أن الاثنين تعامل معاملة الجمع في الكلام، كقوله تعالى :"فقد صَغَت قلوبكما "(التحريم : 4).وقيل : كان له ثلاث بنات[5]. وتعترض هذا المحمل عقبتان :

الأولى : أنّ القوم كانوا عدداً كثيراً فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاث؟ .

---

[1] – المرجع نفسه ،ج12، ص124.

[2] – المرجع نفسه، ج12، ص124.

[3] – الهاشمي أحمد، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية بيروت، دط، 1424هـ– 2003م، ص61.

[4] – ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير،ج12،ص.126

[5] – المرجع نفسه،ص127.

الثانية : أن قوله :" هؤلاء بناتي" عرض عليهم كما علمت آنفاً ، فكيف كانت صفة هذه التخلية بين القوم وبين البنات وهم عدد كثير ، فإن كان تزويجاً لم يكفين القوم، وإن كان غير تزويج فما هو؟ .

والجواب عن الأول : أنه يجوز أن يكون عدد القوم الذين جاؤوه بقدر عدد بناته، أو أن يكون مع بناته حتى من قومه. وعن الثاني : أنه يجوز أن يكون تصرف لوط عليه السّلام في بناته بوصف الأبوة ، ويجوز أن يكون تصرفاً بوصف النبوءة بالوحي للمصلحة أن يكون من شرع لوط عليه السّلام إباحة تمليك الأب بناته إذا شاء ، فإن كان أولئك الرهط شركاء في ملك بناته كان استمتاع كل واحد بكل واحدة منهنّ حلالاً في شريعته على نحو ما كان البغاء من بقايا الجاهلية في صدر الإسلام قبل أن ينسخ [1].

والخزي : الإهانة والمذلة. وأراد مذلته، فإذا لحقت الضيف إهانة كانت عاراً على ربّ المنزل. وقد ظن لوط عليه السّلام الملائكة رجالاً مارّين ببيته فنزلوا عنده للاستراحة والطعام والمبيت .

والاستفهام في" أليس منكم رجل رشيد" إنكار وتوبيخ، لأنّ إهانة الضيف مسبّة لا يفعلها إلاّ أهل السفاهة .ولكن القوم أرادوا الإساءة إليه وإذلاله وضيفه: ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79)﴾هود. فصلت جملة" قالوا" عن التي قبلها لوقوعها موقع المحاورة مع لوط عليه السّلام .

و" لقد علمت" تأكيد لكونه يعلم . فأكد بتنزيله منزلةَ من ينكر أنه يعلم لأن حالة في عرضه بناته عليهم كحال من لا يعلم خُلقهم ، وكذلك التوكيد في " وإنك لتعلَم ما نريد" ، وكلا الخبرين مستعمل في لازم فائدة الخبر ، أي نحن نعلم أنك قد علمت ما لنا رغبة في بناتك وإنك تعلم مرادنا . ومثله قوله، تعالى، حكاية عن قوم إبراهيم" لقد علمت ما هؤلاء ينطقون"(الأنبياء : 65) .و" ما " الأولى نافية معلّقة لفعل العلم عن العمل ، و" ما "الثانية موصولة .

والحق : ما يحقّ ، أي يجب لأحد أو عليه ، فيقال: له حق في كذا ، إذا كان مستحقاً له ، ويقال : ما له حق في كذا ، بمعنى لا يستحقه ، فالظاهر أنه أطلق هنا كنايةً عن عدم التعلّق بالشيء وعن التّجافي عنه . وهو إطلاق لم أر مثله ، وقد تحيّر المفسرون في تقريره . والمعنى: ما لنا في بناتك رغبة .

وهنا يبلغ اليأس به حدا كبيرا، ويظهر في قوله تعالى:﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آَوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80)هود. وجوابه بِ "لَوْ أنّ لي بكم قوة " جواب يائس من ارعوائهم. و" لو" مستعملة في التمنّي ، وهذا أقصى ما أمكنه في تغيير هذا المنكر. والباء في" بكم"للاستعلاء ، أي عليكم. يقال : ما لي به قوة وما لي به طاقة. ومنه قوله تعالى :" قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت "(البقرة : 249). والمعنى : ليت لي قوة أدفعكم بها ، ويريد بذلك قوة أنصار لأنّه كان غريباً بينهم . ومعنى" أو آوى إلى ركن شديد" أو أعتصم بما فيه مَنعة ، أي بمكان أو ذي سلطان يمنعني منكم . والركن : الشق من الجبل المتّصل بالأرض. عنئذ قال الملائكة للوط كاشفين سرهم له:﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾هود. هذا كلام الملائكة للوط عليه السّلام كاشفوه بأنّهم ملائكة مرسلون من الله تعالى . وإذ قد كانوا في صورة البشر وكانوا حاضري المجادلة حكى كلامهم بمثل ما تحكى به المحاورات فجاء قولهم بدون

---

[1] – المرجع نفسه، ص128–129.

حرف العطف على نحو ما حكي قول : لوط عليه السّلام وقول قومه . وهذا الكلام الذي كلّموا به لوطاً عليه السّلام وحي أوحاه الله إلى لوط عليه السّلام بواسطة الملائكة ، فإنه لما بلغ بِلُوط توقعُ أذى ضيفه مبلغَ الجزع ونفاد الحيلة جاءه نصر الله على سنّة الله تعالى مع رسله:" حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا "(يوسف: 110)(1).

وابتدأ الملائكة خطابهم لوطاً عليه السّلام بالتعريف بأنفسهم لتعجيل الطمأنينة إلى نفسه لأنّه إذا علم أنهم ملائكة علم أنهم ما نزلوا إلاّ لإظهار الحق . قال تعالى :" ما تنزّل الملائكةُ إلاّ بالحق وما كانوا إذاً منْظرين"الحجر : 8) . ثم ألحقوا هذا التعريف بالبشارة بقولهم :" لن يصلوا إليك" . وجيء بحرف تأكيد النفي للدّلالة على أنهم خاطبوه بما يزيل الشك من نفسه . وقد صرف الله الكفّار عن لوط عليه السّلام فرجعوا من حيث أتوا ، ولو أزال عن الملائكة التشكّل بالأجساد البشرية فأخفاهم عن عيون الكفّار لحسبوا أنّ لوطاً عليه السّلام أخفاهم فكانوا يؤذون لوطاً عليه السّلام . ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81)﴾هود. و(أسْر) أمر بالسُّرى؛ وهو اسم مصدر للسير في الليل إلى الصباح. وفعله: سَرى يقال بدون همزة في أوّله ويقال: أسرى بالهمزة. والقِطْع بكسر القاف: الجزء من الليل .وجملة ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ معترضة بين المستثنى والمستثنى منه. والالتفات المنهي عنه هو الالتفات إلى المكان المأمور بمغادرته كَمَا دَلّت عليه القرينة .

وسبب النهي عن الالتفات التقصي في تحقيق معنى الهجرة غضباً لحرمات الله بحيث يقطع التعلق بالوطن ولو تعلّق الرؤية . وكان تعيين الليل للخروج كَيْلاَ يُلاَقِي ممانعة من قومه أو من زوجه فيشقُّ عليه دفاعهم .

و" إلاّ امرأتَك"، استثناء من" أهلك"، وهو منصوب في قراءة الجمهور اعتباراً بأنه مستثنى من" أهلك"، وذلك كلام موجب، والمعنى : لا تسْر بها، أريد أن لا يعلمها بخروجه، لأنها كانت مخلصة لقومها فتخبرهم عن زوجها . وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو برفع " امرأتك" على أنه استثناء من" أحد "الواقع في سياق النهي، وهو في معنى النفي . قيل : إنّ امرأته خرجت معهم ثم التفتت إلى المدينة فحنّت إلى قومها فرجعت إليهم . والمعنى أنه نهاهم عن الالتفات فامتثلوا ولم تمتثل امرأتُه للنهي فالتفتت ، وعلى هذا الوجه فالاستثناء من كلام مقدّر دلّ عليه النهي . والتقدير : فلا يلتفتون إلاّ امرأتك تلتفتُ(2). وجملة:" إنّ موعدهم الصبح"، مستأنفة ابتدائية قُطعت عن التي قبلها اهتماماً وتهويلاً .

---

1 – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج12، ص130-131.

2 – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج12، ص132-133.

والموعد: وقت الوعد. والوعد أعمّ من الوعيد فيطلق على تعيين الشرّ في المستقبل. والمراد بالموعد هنا موعد العذاب الذي علمه لوط عليه السّلام إما بوحي سابق، وإما بقرينة الحال، وإما بإخبار من الملائكة في ذلك المقام طَوته الآية هنا إيجازاً، وبهذه الاعتبارات صحّ تعريف الوعد بالإضافة إلى ضميرهم .

وجملة" أليس الصبح بقريب"، استئناف بيانيّ صدر من الملائكة جواباً عن سؤال يجيش في نفسه من استبطاء نزول العذاب. والاستفهام تقريريّ، ولذلك يقع في مثله التقرير على النفي إرخاء للعنان مع المخاطب المقرّر ليعرف خطأه. ويعلق سيد قطب على هذا الاستفهام التقريري قائلاً: سؤال لإنعاش نفس لوط بعد ما ضاق، ولتقريب الموعد وتأكيده. فهو قريب. مع مطلع الصباح. ثم يفعل الله بالقوم- بقوته- ما لم تكن قوة لوط التي تمناها فاعله! والمشهد الأخير. مشهد الدمار المروع، اللائق بقوم لوط:

«فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها، وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ»هود ..

فلما جاء موعد تنفيذ الأمر «جعلنا عاليها سافلها» .. وهي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها. وهذا القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان. بل أحط من الحيوان، فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان..[1].

وما يمكن أن نستفيده من أخلاق تربوية سلوكية في واقعنا المعيش ما يلي:

- يجب على الإنسان في هذه الحياة ألا يخرج عن الفطرة الإلهية التي فطره الله عليها ، لأن حكمته سبحانه قد اقتضت ذلك ولمصلحة هذا الإنسان في الدنيا والآخرة.

- اللواط عمل شنيع تتقزز منه النفس المؤمنة ،فهو عمل يغضب الرب سبحانه ، والذي يمارسه عصيانا لله ، فلينتظر عذاب قوم لوط، ولينتظر الأمراض والطّواعين التي لم تكن في الأسلاف، وما الأمراض الخطيرة المستعصية على العلاج في عصرنا إلا بسبب عصيان أوامر الله، وعدم تجنب نواهيه، وما زواج المثليّين وتقنينه في العالم الغربي إلا فعل شيطاني ينذر البشرية بقدوم الأسوأ، تولاّنا الله برحمته ولطفه، وحفظ أمتنا المسلمة من كلّ سوء.

* **حوار شعيب قومه:** شعيب عليه السّلام هو رسولٌ لأهل مدين، وهو من أنفسهم، اسمُه في العربيّه شُعيب عليه السّلام واسمه في التّوراة: (يَثْرُون) ويسمّى أيضاً (رَعْوَئِيلَ) وهو ابن (نويلى أو نويب) بن (رَعْويل) بن (عيفا) بن (مدين). وكان موسى عليه السّلام لما خرج من مصر نزل بلاد مديَن وزوّجَه شعيبٌ ابنتَه المسمّاة (صَفورَه) وأقام موسى عليه السّلام عنده عشر سنين أجيراً [2].

---

[1] – قطب سيد، في ظلال القرآن ،ج4، ص1915.

[2] – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج8، ص240.

وقد ابتدأ الدّعوة بالإيمان لأنّ به صلاح الاعتقاد والقلب، وإزالة الزّيف من العقل. وبيّنة شعيب عليه السّلام التي جاءت في كلامه : يجوز أن تكون أطلقت على الآية لمعجزة أظهرها لقومه عَرفوها ولم يذكرها القرآن، كما قال ذلك المفسّرون. أو أن يكون أنذرهم بعذاب يحلّ بهم إن لم يؤمنوا، أو أن يكون عَرض عليهم أن يظهر لهم آية ، أي؛ معجزة ليؤمنوا، فلم يسألوها وبادروا بالتّكذيب، فيكون المعنى مثلَ ما حكاه الله تعالى عن موسى عليه السّلام :﴿قد جئتكم ببينة من ربّكم فأرسل معي بني إسرائيل قال إن كنتَ جئتَ بآية فأت بها﴾(الأعراف: 105- 106) فيكون معنى:(قد جئتكم) قد أُعِدّت لأنّ تجيئكم، إذا كنتم تؤمنون عند مجيئها. وفي هذا يقول تبارك وتعالى:﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾الأعراف. فلمّا قام الدّليل على صدقه وكان قد أمرهم بالتّوحيد بادئ بدء، لما فيه من صلاح القلب، شرع يأمرهم بالشّرائع من الأعمال بعد الإيمان، وفي دعوة شعيب عليه السّلام قومه إلى الأعمال الفرعيّة، بعد أن استقرت الدّعوة إلى التّوحيد، ما يؤذن بأنّ البشر في ذلك العصر قد تطوّرت نفوسهم تطوّراً، هيّأهم لقبول الشّرائع الفرعيّة ، فإنّ دعوة شعيب عليه السّلام كانت أوسع من دعوة الرّسل من قبله، هودٍ وصالح –عليهم السّلام- إذ كان فيها تشريع أحكام فرعيّة، وقد كان عصر شعيب عليه السّلام قد أظَلّ عَصْرَ موسى عليه السّلام، الذي جاء بشريعة عظيمة ماسّةٍ نواحيَ الحياة كُلَّها . ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85)﴾الأعراف. البخس؛ فسّروه بالنّقص، وزاد الرّاغب في «المفردات» قيداً، فقال: نقص الشّيء على سبيل الظلم ، وأحسن ما رأيت في تفسيره قول أبي بكر بن العربي في «أحكام القرآن»:«البخس في لسان العرب هو النّقص بالتعييب والتّزهيد أو المخادعة عن القيمة أو الاحتيال في التزيد في الكيل والنّقصان منه» فلنبن على أساس كلامه فنقول : البخس هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيق بكمال في نوعه. ففيه معنى الظلم والتّحيّل، وقد ذكر ابن سيدة في «المخصص» البَخس في باب الذهاب بحقّ الإنسان[1].

وحاصل ما أمر به شعيب عليه السّلام قومَه، بعد الأمر بالتّوحيد ينحصر في ثلاثة أصول: هي حفظ حقوق المعاملة الماليّة، وحفظ نظام الأمّة ومصالحها ، وحفظُ حقوق حرّية الاستهداء .

فالأوّل قوله :﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾. فإيفاء الكيل والميزان يرجع إلى حفظ حقوق المشترين، لأنّ الكائل أو الوازن هو البائع، وهو الذي يحمله حبّ الاستفضال على تطْفيف الكيل أو الوزن، ليكون باع الشّيءَ النّاقص بثمن الشّيء الوافي، كما يحسبه المشتري .

وأمّا النّهي عن بخس النّاس أشياءهم فيرجع إلى حفظ حقوق البائع لأنّ المشتري هو الذي يبْخس شيء البائع ليهيّئه لقبول الغبن في ثمن شيئه، وكلا هذين الأمرين حيلة وخداع لتحصيل ربح من المال .

وما جاء في هذا التّشريع هو أصل من أصول رواج المعاملة بين الأمّة، لأنّ المعاملات تعتمد الثّقة المتبادَلة بين الأمّة ، وإنّما تحصل بشيوع الأمانة فيها ، فإذا حصل ذلك نشط النّاس للتّعامل فالمنتج يزداد إنتاجاً وعَرْضاً في الأسواق ، والطَّالبُ من تاجر أو مُستهلك يُقبِل على الأسواق آمِناً لا يخشى غبناً ولا خديعة ولا خِلابة ، فتتوفّر

---

[1] – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير،ج8، ص241-242.

السّلع في الأمّة ، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها وتحسينياتها ، فيقوم نَماء المدينة والحضارة على أساس متين ، ويَعيش النّاس في رخاء وتحابب وتآخ ، وبضد ذلك، وبمقدار تفشيه يختلّ حال الأمّة [1].

وقوله:﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾الأعراف. هذا الأصل الثّالث من دعوته وهو النّهي عن التّعرّض للنّاس دون الإيمان ، فإنّه بعد أن أمرهم بالإيمان بالله وما يتطلّبه من الأعمال الصّالحة ، وفي ذلك صلاح أنفسهم ، أي أصلحوا أنفسكم ولا تمنعوا من يَرغب في إصلاح نفسه ذلك أنّهم كانوا يصدّون وفودَ النّاس عن الدّخول إلى المدينة التي كان بها شعيب عليه السّلام لئلا يؤمنوا به. فالمراد بالصّراط الطريق الموصلة إلى لقاء شعيب عليه السّلام .

والعِوَج بكسر العين عدم الاستقامة في المعاني، وبفتح العين: عدم استقامة الذات، والمعنى: تحاولون أن تصفوا دعوة شعيب المستقيمة بأنها باطل وضلال ، كمن يحاول اعوجاج عود مستقيم .

وذَكّرَهُم شُعيبٌ عليه السّلام عقب ذلك بتكثير الله إياهم بعد أن كانوا قليلاً، وهي نعمة عليهم، إذ صاروا أمّة بعد أن كانوا معشراً .

ومعنى تكثير الله إياهم تيسيره أسباب الكثرة لهم بأن قوّى فيهم قوّة التّناسل، وحفظهم من أسباب المَوَتَان ، ويَسّر لنسلهم اليفاعة، حتّى كثُرت مواليدهم، وقلّت وفياتهم، فصاروا عدداً كثيراً في زمن لا يعهد في مثله مصير أمّة إلى عددهم، فيُعد منعهم النّاس من الدّخول في دين الله سعياً في تقليل حزب الله، وذلك كفران لنعمة الله عليهم بأنّ كثّرهم، وليقابلوا اعتبار هذه النّعمة باعتبار نقمته تعالى من الذين غضب عليهم، إذْ استأصلهم بعد أن كانوا كثيراً فذلك من تمايز الأشياء بأضدادها [2]. وفي هذا يقول تعالى:﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(86)﴾الأعراف. والمراد بالمفسدين، الذين أفسدوا أنفسهم بعقيدة الشّرك وبأعمال الضّلال، وأفسدوا المجتمع بمخالفة الشّرائع ، وأفسدوا النّاس بإمدادهم بالضّلال وصدّهم عن الهدى. ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آَمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87)﴾.الأعراف.

والصّبر: حبس النّفس في حال التّرقب، سواء كان ترقب محبوب أم ترقب مكروه، وأشهر استعماله أن يطلق على حبس النّفس في حال فِقدان الأمر المحبوب، وقد جاء في هذه الآية مستعملاً في القدْر المشترك لأنّه خوطب به الفريقان: المؤمنون والكافرون ، وصبر كلّ بما يناسبه، ولعلّه رجح فيه حال المؤمنين، ففيه إيذان بأنّ الحكم المترقّب هو في منفعة المؤمنين ، وقد قال بعض المفسّرين: إنّه خطاب للمؤمنين خاصة [3].

كان جوابهم عن حجّة شعيب جوابَ المفحَم عن الحجّة ، الصائر إلى الشدّة، المزدهي بالقوة، المتوقّع أن يكثر معاندوه، فلذلك عدلوا إلى إقصاء شعيب وأتباعه عن بلادهم خشية ظهور دعوته بين قومهم ، وبث أتباعه دعوته بين الناس، فلذلك قالوا:﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88)﴾الأعراف. وإيثار وصفهم بالاستكبار- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾- هنا دُونَ الكفر،

---

1 – المرجع نفسه، ص243-244.

2 – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج8، ص248-249.

3 – المرجع نفسه،ص250.

مع أنّه لم يُحك عنهم هنا خطاب المستضعفين، حتّى يكون ذكر الاستكبار إشارة إلى أمّهم استضعفوا المؤمنين كما اقتضته قصة ثمود ، فاختير وصف الاستكبار هنا لمناسبة مخاطبتهم شعيباً بالإخراج أو الإكراه على اتّباع دينهم ، وذلك من فعل الجبّارين أصحاب القوة .

وكان إخراج المغضوب عليه من ديار قبيلته عقوبة متّبعة في العرب إذا أجمعت القبيلة على ذلك، ويسمّى هذا الإخراج عند العرب بالخَلْع، والُمخرَج يسمّى خليعاً. وأكّدوا التوعّد بلام القسم ونون التوكيد: لِيوقن شعيب بأنّهم مُنجزو ذلك الوعيد .

وخطابهم إيّاه بالنداء جار على طريقة خطاب الغضب، كما حكى الله قول آزر خطاباً لإبراهيم عليه السلام :﴿ أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ﴾(مريم : 46) [1].

والقرية (المدينة)؛ لأنها يجتمع بها السكان . والتقرّي؛ الاجتماع . وقد تقدم عند قوله تعالى:﴿أَوْ كالذي مرّ على قرية ﴾(البقرة : 259) ، والمراد بقريتهم هنا هي (الأيكة) وهي (تبوك) وقد رددوا أمر شعيب ومن معه بين أن يُخرجوا من القرية، وبين العود إلى ملّة الكفر، وقد جعلوا عود شعيب والذين معه إلى ملّة القوم مقسماً عليه، فقالوا :(أو لتعودُن) ولم يقولوا: لنخرجنّكم من أرضنَا أو تعودن في ملّتنا، لأنّهم أرادوا ترديد الأمرين في حيّز القسم لأنهم فاعلون أحد الأمرين لا محالة، وأنّهم مُلِحّون في عوْدهم إلى ملّتهم [2].

والعَوْد : الرجوع إلى ما كان فيه المرء من مكان أو عمل، وجعلوا موافقة شعيب إياهم على الكفر عوداً لأنهم يحسبون شعيباً كان على دينهم، حيث لم يكونوا يعلمون منه ما يخالف ذلك، فهم يحسبونه، موافقاً لهم من قبل أن يدعو إلى ما دعا إليه. والاستفهام مستعمل في التعجب تعجباً من قولهم :(أو لتعودن في ملّتنا) المؤذن ما فيه من المؤكّدات بأنّهم يُكرهونهم على المصير إلى ملّة الكفر ، وذلك التعجب تمهيد لبيان تصميمه ومن معه على الإيمان ، ليعلم قومه أنّه أحاط خبراً بما أرادُوا من تخييره والمؤمنين معه بين الأمرين : الإخراج أو الرجوع إلى ملّة الكفر ، شأنَ الخصم اللبيب الذي يأتي في جوابه بما لا يغادر شيئاً مما أراده خصمه في حوارِه ، وفي كلامه تعريض بحماقة خصومه إذ يحاولون حمله على ملّتهم بالإكراه ، مع أن شأن المحقّ أن يشرك للحق سلطانه على النفوس ولا يتوكّأ على عصا الضّغط والإكراه، فيكون ما بعدها أحرى بالتعجب. فالتقدير: أتعيدوننا إلى ملّتكم ولو كنا كارهين !!![3].

وقد تولى شعيب الجواب عمّن معه من المؤمنين ليقينه بصدق إيمانهم.﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾الأعراف(89). واستأنف مرتقياً في الجواب، فبيّن استحالة عودهم إلى ملّة الكفر بأن العود إليها يستلزم كذبَه فيما بلّغه عن الله تعالى من إرساله إليهم بالتوحيد فذلك كذب على الله عن عمد ، لأن الذي يرسله الله لا يرجع إلى الكفر ، ويستلزم كذب الذين آمنوا به على الله حيث

---

1 – المرجع نفسه، ج9، ص5–6.

2 – المرجع نفسه،ص6.

3 – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج9، ص8 .

أيقنوا بأن شعيباً مبعوث من الله بما دلهم على ذلك من الدلائل ، ولذلك جاء بضمير المتكلّم المشارك في كل من قوله :(افترينا) و(عدنا) و(نجانا) و(نعود) و(ربُنا) و(توكّلنا) .

فذكر الإنجاء لدلالته على الإهداء والإعلان بأن مفارقة الكفر نجاة. وهذه البعدية ليست قيداً لـ (افترينا) ولا هي موجب كون العود في ملّتهم دالاً على كذبه في الرسالة ، بل هذه البعدية متعلقة بـ (عُدْنَا) يقصد منها تفظيع هذا العود وتأييس الكافرين من عود شعيب وأتباعه إلى ملّة الكفر، بخلاف حالهم الأولى قبلَ الإيمان فإنهم يوصفون بالكفر لا بالافتراء إذ لم يظهر لهم وجه الحق، ولذلك عقبه بقوله :﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾أي لأن ذلك لا يقصده العاقل فيلقي نفسه في الضلال والتعرض للعذاب .

وقوله:﴿إلاّ أن يشاء الله ربّنا ﴾، تأدُّب مع الله وتفويضُ أمره وأمرِ المؤمنين إليه، أي؛ إلاّ أن يقدّر الله لنا العود في ملّتكم فإنّه لا يسأل عمّا يفعل ، فأمَا عود المؤمنين إلى الكفرِ فممكن في العقل حصوله وليس في الشرعِ استحَالته ، والارتداد وقع في طوائف من أمم [1].وأمّا ارتداد شعيب بعد النبوءَةِ فهو مستحيل شرعاً لعصمة الله للأنبياء.

وقوله :﴿وسعَ ربنا كل شيء علْماً ﴾، تفويض لعلم الله ، أي إلاّ أن يشاء ذلك فهو أعلم بمراده منا. وفي هذه المجادلة إدماج تعليم بعض صفات الله لأتْباعه وغيرهم على عادة الخطباء في انتهاز الفرصة .

ثم أخبر بأنه ومَن تبعه قد توكلوا على الله ، والتوكل : تفويض مباشرة صلاح المرء إلى غيره. وهذا تفويض يقتضي طلب الخير ، أي : رجونا أن لا يسلبنا الإيمان الحق ولا يفسد خلق عقولنا وقلوبنا فلا نفتن ونضل ، ورجونا أن يكفينا شر من يُضمر لنا شراً وذلك شر الكفرة المضمر لهم ، وهو الفتنة في الأهل بالإخراج ، وفي الدين بالإكراه على إتباع الكفر[2] .

ولما لم يفلح القوم مع شعيب في محاورته ومجادلته بالحجة المقابلة للحجة، رأوا أن يلجأوا إلى خداع الناس وتهديدهم لهم، من اتباع شعيب خشية عليهم من أن تحيك في نفوسهم دعوة شعيب وصدْق مجادلته، لأنهم رأوا حجته ساطعة ولم يستطيعوا التغلب عليه في المجادلة ، وصمموا على كفرهم ،و أقبلوا على خطاب الحاضرين من قومهم ليحذروهم من متابعة شعيب ويهددوهم بالخسارة. وقد بين القرآن ذلك في قوله تعالى:﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91)﴾الأعراف. وكان أخذ الرجفة إياهم عقب قولهم لقومهم ما قالوا. وتقدم تفسير:﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾الأعراف. في نظيرها من قصة ثمود. والرجفة التي أصابت أهل مدين هي صواعق خرجت من ظُلّة، وهي السحابة، والأظهر أن يكون أصابهم زلزال وصواعق فتكون الرجفة الزلزال والصيحة الصاعقة.

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (92)﴾الأعراف. وجملة:﴿الذين كذبوا شعيباً ﴾ مستأنفة ابتدائية، والتعريف بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو أن اضمحلالهم وانقطاع دابرهم كان جزاء لهم على تكذيبهم شعيباً .

---

1 - المرجع نفسه،ج9،ص9.

2 – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج9، ص11.

ومعنى:﴿كأن لم يَغنَوا فيها ﴾ تشبيه حالة استئصالهم وعفاء آثارهم بحال من لم تسبق لهم حياة. والتكرير لقوله: ﴿ الذين كذبوا شعيباً ﴾ للتعديد وإيقاظ السامعين، وهم مشركو العرب، ليتقوا عاقبة أمثالهم في الشرك والتكذيب على طريقة التعريض، كما وقع التصريح بذلك في قوله تعالى:﴿وللكافرين أمثالها ﴾(محمد : 10). وضمير الفصل في قوله:﴿كانوا هم الخاسرين﴾يفيد القصر وهو قصر إضافي ، أي دون الذين اتبعوا شعيباً ، وذلك لإظهار سَفه قول الملإ للعامة:﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذن لخاسرون﴾؛ توقيفاً للمعتبرين بهم على تهافت أقوالهم، وسفاهة رأيهم، وتحذيراً لأمثالهم من الوقوع في ذلك الضلال[1] .

ونداؤه قومه نداء تحسر وتبريء من عملهم، قال تعالى:﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾(الأعراف:79). وهو مثل قول النبي(صلى الله عليه وسلم) بعد وقعة بدر، حين وقف على القليب الذي ألقي فيه قتلى المشركين فناداهم بأسماء صناديدهم، ثم قال:لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً. وجاء بالاستفهام الإنكاري في قوله : ﴿فَكَيْفَ آَسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (93)﴾الأعراف. مخاطباً نفسه على طريقة التجريد، إذ خطر له خاطر الحزن عليهم فدفعه عن نفسه بأنهم لا يستحقون أن يؤسف عليهم لأنهم اختاروا ذلك لأنفسهم، ولأنه لم يترك من تحذيرهم ما لو ألقاه إليهم لأقلعوا عما هم فيه، فلم يبق ما يوجب أسفه وندامته [2].

إن بيننا اليوم– ممن يقولون: إنهم مسلمون! – من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية. وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم. يتساءلون أولا في استنكار: وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟.. فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين:﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ ..وهم يتساءلون ثانياً. بل ينكرون بشدة وعنف. أن يتدخل الدين في الاقتصاد، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد، أو حتىّ بالأخلاق من غير اعتقاد.. فما للدين والمعاملات الرِّبويّة؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنهم يتبجّحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده. وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية– النظرية الأخلاقية مثلاً– ويعُدّونها تخليطاً من أيّام زمان! فلا يَذهبَنّ بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى. ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة، ولكنها تدّعي العلم والمعرفة والحضارة، وتتّهم الذين يربطون بين العقيدة في الله، والسلوك الشخصي في الحياة، والمعاملات المادية في السوق.. تتهمهم بالرجعية والتعصّب والجمود!!! وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض. فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد[3].هذا ما عبّر عنه قوم شعيب لشعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87)﴾هود. إنه الاستهزاء بشريعة الله، ويسخر أهل مدين من شعيب– كما يتوقح بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق– فيقولون:«إنك لأنت الحليم الرشيد!» ..وهم يُعْنُون عكس معناها.

---

1 – المرجع نفسه، ص14.

2 – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير ، ج9، ص15.

3 – قطب سيد ، في ظلال القرآن،ج4، ص1920.

فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق! ..

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)﴾هود. ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم.. يتلطف في إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من العلم ما لم يؤتوا، وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات فهو لا يبغي كسباً شخصياً من وراء دعوته لهم فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلو له السوق! إنما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس. وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون [1].

ويخاطبهم في تودد وتقرب، وتذكير بالأواصر القريبة. ثم يأخذ بهم في واد آخر من التذكير، فيطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، فقد يفعل هذا في مثل تلك القلوب، ما لم يفعله التوجيه العقلي اللين، الذي يحتاج إلى رشد وتفكير. ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89)﴾هود. لا يحملنّكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في التكذيب والمخالفة، خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم. وهؤلاء قوم لوط قريب منكم في المكان. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90)﴾. وهكذا يطوف بهم في مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع، لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين[2].

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب، ومن سوء تقدير القيم في الحياة، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك، ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91)﴾هود. فهم ضيّقو الصدور بالحق الواضح، لا يريدون أن يدركوه: وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة، فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي يحملها ويواجههم بها. ففي حسابهم عصبية العشيرة، لا عصبية الاعتقاد، وصلة الدم لا صلة القلب. ثم هم يغفلون عن غيرة الله على أوليائه فلا يضعونها في الحساب[3].

لا عزة التقدير والكرامة ولا عزة الغلب والقهر. ولكننا نحسب حساب الأهل والعشيرة! وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العالية فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة، ولا لحقيقة كبيرة ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبة تؤويه وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه. أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية[4].

---

1 – المرجع نفسه، ص1920.

2 – قطب سيد، في ظلال القرآن،ج4، ص1921.

3 –المرجع نفسه، ص1922.

4 – المرجع نفسه،ص1922.

وعندئذ تأخذ شعيباً الغيرة على جلال ربه ووقاره فيتنصل من الاعتزاز برهطه وقومه ويجابههم بسوء التقدير لحقيقة القُوى القائمة في هذا الوجود، وبسوء الأدب مع الله المحيط بما يعملون. ويلقي كلمته الفاصلة الأخيرة. ويفاصل قومه على أساس العقيدة، ويخلي بينهم وبين الله، وينذرهم العذاب الذي ينتظر أمثالهم، ويدعهم لمصيرهم الذي يختارون.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92)﴾هود؛ أجماعة من البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس، وهم ضعاف، وهم عباد من عباد الله.. أهؤلاء أعز عليكم من الله؟ .. أهؤلاء أشد قوة ورهبة في نفوسكم من الله؟. وهي صورة حسية للترّك والإعراض، تزيد في شناعة فعلتهم، وهم يتركون الله ويعرضون عنه، وهم من خلقه، وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه. فهو البَطَر وجحود النعمة وقلّة الحياء، إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير. والإحاطة أقصى الصّور الحسية للعلم بالشيء والقدرة عليه.

إنها غضبة العبد المؤمن لربه أن يستباح جلاله– سبحانه– ووقاره. الغضبة التي لا يقوم إلى جوارها شيء من الاعتزاز بنسبه ورهطه وعشيرته وقومه.. إن شعيباً لم ينتفخ ولم ينتفش أن يجد القوم يرهبون رهطه، فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذي يريدونه! ولم يسترح ولم يطمئن إلى أن يكون رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه– الذين افترق طريقهم عن طريقه– وهذا هو الإيمان في حقيقته.. أن المؤمن لا يعتز إلا بربه ولا يرضى أن تكون له عصبة تخشى ولا يُخشى ربه! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه، إنما هي لربه ودينه. وهذا هو مفرق الطريق في الحقيقة بين التصور الإسلامي والتصور الجاهلي في كل أزمانه وبيئاته! ومن هذه الغضبة لله. والتنصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه، ينبعث ذلك التحدي الذي يوجهه شعيب إلى قومه وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم– بعد أن كان واحداً منهم– ويفترق الطريقان فلا يلتقيان...[1].

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93)هود. «وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ» ..وامضوا في طريقكم وخطتكم، فقد نفضت يديّ منكم.«إِنِّي عامِلٌ» ..على طريقتي ومنهجي.«سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ» ..أنا أم أنتم؟«وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» ..للعاقبة التي تنتظرني وتنتظركم.. وفي هذا التهديد ما يوحي بثقته بالمصير. كما يوحي بالمفاصلة وافتراق الطريق..

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94)﴾هود. ويسدل الستار هنا. على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة وعلى هذا الافتراق والمفاصلة، ليرفع هناك على مصرع القوم، وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم، أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح، فكان مصيرهم كمصيرهم، خلت منهم الدور، كأن لم يكن لهم فيها دور، وكأن لم يعمروها حيناً من الدهر. مضوا مثلهم مشيعين باللعنة، طويت صفحتهم في الوجود وصفحتهم في القلوب[2]. وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود، حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد.

---

[1] - قطب سيد، في ظلال القرآن،ج4،ص1923.

[2] – المرجع نفسه،ص1923.

*الحوار الأسري في القرآن الكريم:

البحوث الحوارية التي جرت في أسر الأنبياء عليهم السلام بالخصوص تمثل دروسا لنا في علاقاتنا الأسرية والتي يمكن أن نرقى بها إلى مستوى الأسر النموذجية, وتشمل مواعظ قيمة لها أثر كبير على واقع أسرنا وتطورها. فالحوار الإيجابي يمكن أن يحقق نتائج إيجابية – لمن يريد الإقتداء بالأسرة النبوية فيه–, كما أن الحوار السلبي يمثل رادعا لعدم الوقوع في أخطاء وقع فيها أفراد بعض أسر الأنبياء.

فهذه الحوارات تفيد العائلة وأفرادها, كالحوار بين الإخوان, والأب وأبنائه، والأبناء مع أبيهم، ونحوها.

* **حوار يعقوب مع أبنائه:** في القطاعات التي مضت من هذه السورة كان الجدل مع أهل الكتاب، دائراً كله حول سيرة بني إسرائيل، ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم، ومن مواثيقهم وعهودهم، ابتداء من عهد موسى– عليه السلام– إلى عهد محمد– صلى الله عليه وسلم– أكثره عن اليهود، وأقله عن النّصارى، مع إشارات إلى المشركين، عند السمات التي يلتقون فيها مع أهل الكتاب، أو يلتقي معهم فيها أهل الكتاب.

إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق– عليهما السلام– ويعتزون بنسبتهم إليه، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة، وعهده معه ومع ذريته من بعده. ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيا كان ما يعملون! وإن قريشاً لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل– عليهما السلام– وتعتز بنسبتها إليه وتستمد منها القوامة على البيت، وعمارة المسجد الحرام وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب، وفضلها وشرفها ومكانتها [1].

ولما كان من شأن أهل الحق والحكمةِ أن يكونوا حريصين على صلاح أنفسهم وصلاح أمتهم كان من مكملات ذلك أن يحرِصوا على دوام الحق في الناس متَّبَعاً مشهوراً فكان من سننهم التوصية لمن يظنونهم خلفاً عنهم في الناس بأن لا يحيدوا عن طريق الحق ولا يفرطوا فيما حصل لهم منه ، فإن حصوله بمجاهدة نفوس ومرور أزمان فكان لذلك أمراً نفيساً يجدر أن يحتفظ به .

و"الإيصاء"؛ أمر أو نهي، يتعلق بصلاح المخاطب خصوصاً أو عموماً ، وفي فوته ضر ، فالوصية أبلغ من مطلق أمر ونهي فلا تطلق إلا في حيث يخاف الفوات إما بالنسبة للموصى ولذلك كثر الإيصاء عند توقع الموت كما سيأتي عند قوله تعالى :﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي﴾(البقرة : 133)، وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أوصني قال : " لا تغضب " [2].

وذلك ما عمل به إبراهيم وابنه يعقوب عليهما السلام، إذ أوصيا بنيهما، — في حوار يدور حول المبادئ – بالموت على دين الإسلام، قال تعالى:﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا

[1] – قطب سيد، في ظلال القرآن، ج1، ص110.

[2] – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير،ج1،ص 727.

تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)﴾البقرة. فوصية إبراهيم ويعقوب إما عند الموت كما تشعر به الآية، وإما في مظان خشية الفوات . والضمير المجرور بالباء عائد على الملة أو على الكلمة، فإن كان بالملة، فالمعنى أنه أوصى أن يلازموا ما كانوا عليه معه في حياته ، وإن كان الثاني، فالمعنى أنه أوصى بهذا الكلام، الذي هو شعار جامع لمعاني ما في الملة . وعطف يعقوب على إبراهيم هنا إدماج مقصود به تذكير بني إسرائيل (الذي هو يعقوب) بوصية جدهم فكما عرض بالمشركين في إعراضهم عن دين أوصى به أبوهم عرض باليهود كذلك لأنهم لما انتسبوا إلى إسرائيل وهو يعقوب الذي هو جامع نسبهم بعد إبراهيم لتقام الحجة عليهم بحق أتباعهم الإسلام[1] .

وقوله :(يا بني ...) حكاية صيغة وصية إبراهيم، وسيجيء ذكر وصية يعقوب. وقوله:(اصطفى لكم)أي، اختار لكم الدين ، الدين الكامل، وفيه إشارة إلى أنه اختاره لهم من بين الأديان، وأنه فضلهم به لأن اصطفى لكم يدل على أنه ادخره لأجلهم، وأراد به دين الحنيفية المسمى بالإسلام فلذلك قال :﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾. ومعناه، النهي عن مفارقة الإسلام أعني ملة إبراهيم في جميع أوقات حياتهم ، وذلك كناية عن ملازمته مدة الحياة لأن الحي لا يدري متى يأتيه الموت فَنَهْيُ أحدٍ عن أن يموت غير مسلم أمر بالاتصاف بالإسلام في جميع أوقات الحياة فالمراد من مثل هذا النهي شدة الحرص على ذلك المنهي.

وهذا النهي فيه إثبات أن بني إبراهيم ويعقوب كانوا على ملة الإسلام وأن الإسلام جاء بما كان عليه إبراهيم وبنوه حين لم يكن لأحد سلطان عليهم ، وفيه إيماء إلى أن ما طرأ على بنيه بعد ذاك من الشرائع إنما اقتضته أحوال عرضت وهي دون الكمال الذي كان عليه إبراهيم. ولهذا قال تعالى :﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾(الحج : 78)[2].هذه الوصية لأبينا إبراهيم عليه السلام، أوصى بها يعقوب عليه السلام بنيه، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم في صريح الآية الموالية:﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)﴾البقرة. : فالنداء في صدر الآية:"يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون"، هو تنويه بالحنيفية التي هي أساس الإسلام ، وتمهيد لإبطال قولهم :"كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا "(البقرة : 135)وإبطال لزعمهم أن يعقوب كان على اليهودية وأنه أوصى بها بنيه فلزمت ذريته فلا يحولون عنها . وقد ذكر أن اليهود قالوا ذلك، ويدل عليه قوله تعالى :" أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى "(البقرة : 140)فلذلك جيء هنا بتفصيل وصية يعقوب إبطالاً لدعاوى اليهود ونقضاً لمعتقدهم الذي لا دليل عليه كما أنبأ به الإنكار في قوله :" أم كنتم شهداء..."[3]

---

1 – المرجع نفسه، ص728.

2 – ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير،ج1، ص730

3 – المرجع نفسه،ص730.

فالاستفهام هنا غير حقيقي، لظهور أن عدم شهودهم احتضار يعقوب محقق ، فتعين أن الاستفهام مجاز ، ومحمله على الإنكار، لأنه أشهر محامل الاستفهام المجازي ، ولأن مثل هذا المستفهم عنه مألوف في الاستفهام الإنكاري . ثم إن كون الاستفهام إنكارياً، يمنع أن يكون الخطاب الواقع فيه خطاباً للمسلمين، لأنهم ليسوا بمظنة حال من يدعي خلاف الواقع حتى ينكر عليهم ، خلافاً لمن جوز كون الخطاب للمسلمين من المفسرين[1].

فتعين أن المخاطب اليهود، وأن الإنكار متوجه إلى اعتقاد اعتقدوه، يعلم من سياق الكلام وسوابقه، وهو ادعاؤهم أن يعقوب مات على اليهودية، وأوصى بها فلزمت ذريته ، فكان موقع الإنكار على اليهود واضحاً، وهو أنهم ادعوا ما لا قبل لهم بعلمه، فالمعنى ما كنتم شهداء احتضار يعقوب . ثم أكمل الله القصة تعليماً وتفصيلاً واستقصاء في الحجة، بأن ذكر ما قاله يعقوب حين اختصاره، وما أجابه أبناؤه، وليس ذلك بداخل في حيز الإنكار، فالإنكار ينتهي عند قوله : (الموت) والبقية تكملة للقصة [2].

فلما قال هنا :" أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت" ، علم السامع موقع الإنكار، ثم يعلم أن قول أبناء يعقوب" نعبد إلهك" لم يكن من دعوى اليهود حتى يدخل في حيز الإنكار، لأنهم لو ادعوا ذلك لم ينكر عليهم، إذ هو عين المقصود من الخبر. والشهداء، جمع شهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للأمر والشأن، ووجه دلالة نفي المشاهدة على نفي ما نسبوه إلى يعقوب، هو أن تنبيههم إلى أنهم لم يشهدوا ذلك، يثير في نفوسهم الشك في معتقدهم [3].

وقوله تعالى :" قالوا نعبد إلهك" هو من بقية القصة المنفي شهود المخاطبين محضرها. فيكون الكلام نفياً لشهودهم مع إفادة تلك الوصية، أي ولو شاهدتم ما اعتقدتم خلافها. وبهذا تعلمون وجهة الاقتصار على نفي الحضور مع أن نفي الحضور لا يدل على كذب المدَّعي لأن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود ، فالمقصود هنا الاستدراج في إبطال الدعوى، بإدخال الشك على مدعيها [4].

وقوله تعالى :" إذ قال لبنيه" بدل من" إذ حضر يعقوب الموت"، وفائدة المجيء بالخبر على هذه الطريقة دون أن يقال أم كنتم شهداء إذ قال يعقوب لبنيه عند الموت ، هي قصد استقلال الخبر وأهمية القصة وقصد حكايتها على ترتيب حصولها، وقصد الإجمال ثم التفصيل، لأن حالة حضور الموت لا تخلو من حدث هام سيحكى بعدها فيترقبه السامع [5].

وهذه الوصية جاءت عند الموت، وهو وقت التعجيل بالحرص على إبلاغ النصيحة في آخر ما يبقى من كلام الموصي، فيكون له رسوخ في نفوس المَوصين[6]. وجاء يعقوب في وصيته بأسلوب الاستفهام لينظر مقدار ثباتهم

---

1 – المرجع نفسه، ص.730

2 - المرجع نفسه،ص 731.

3 – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج1، 731

4 - المرجع نفسه، ص732.

5 - المرجع نفسه، ص732.

6 - المرجع نفسه، ص732.

على الدين، حتى يطّلع على خالص طويتهم ليلقي إليهم ما سيوصيهم به من التذكير، وجيء في السؤال بـ"ما "الاستفهامية دون "من" لأن "ما" هي الأصل عند قصد العموم، لأنه سألهم عما يمكن أن يعبده العابدون .

واقترن ظرف" بعدي" بحرف (من) لقصد التوكيد فإن (من) هذه في الأصل ابتدائية فقولك : جئت من بعد الزوال، يفيد أنك جئت في أول الأزمنة بعد الزوال، ثم عوملت معاملة حرف تأكيد .

وبنو يعقوب هم الأسباط، أي أسباط إسحاق، ومنهم تشعبت قبائل بني إسرائيل، وهم اثنا عشر ابناً : رأوبين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون ، (وهؤلاء أمهم ليئة) ويوسف وبنيامين (أمهما راحيل) ودان ونفتالي (أمهما بلهة) وجاد وأشير (أمهما زلفة) [1]. وقد أخبر القرآن بأن جميعهم صاروا أنبياء، وأن يوسف كان رسولاً . وواحد الأسباط سبط بكسر السين وسكون الباء وهو ابن الابن أي الحفيد. وجيء في قوله :" نعبد إلهك "معرفاً بالإضافة دون الاسم العلم بأن يقول نعبد الله لأن إضافة إله إلى ضمير يعقوب وإلى آبائه تفيد جميع الصفات التي كان يعقوب وآباؤه يصفون الله بها فيما لقنه لأبنائه منذ نشأتهم ، ولأنهم كانوا سكنوا أرض كنعان وفلسطين مختلطين ومصاهرين لأمم تعبد الأصنام من كنعانيين وفلسطينيين، وحثيين، وأراميين ثم كان موت يعقوب في أرض الفراعنة وكانوا يعبدون آلهة أخرى . وأيضاً فمن فوائد تعريف الذي يعبدونه بطريق الإضافة إلى ضمير أبيهم وإلى لفظ آبائه أن فيها إيماء إلى أنهم مقتدون بسلفهم [2].

وفي الإتيان بعطف البيان من قولهم:" إبراهيم وإسماعيل وإسحاق"، ضرب من محسن الاطراد تنويهاً بأسماء هؤلاء الأسلاف ،كقول ربيعة بن نصر بن قعين :

إنْ يقتلوك فقد ثَلَلت عُروشهم ... بعُتَيْبَةَ بن الحارث بن شهاب.

وإنما أعيد المضاف في قوله :" وإلهك آبائك"، لأن إعادة المضاف مع المعطوف على المضاف إليه أفصح في الكلام، وليست بواجبة، وإطلاق الآباء على ما شمل إسماعيل، وهو عمّ ليعقوب، إطلاق من باب التغليب، لأن العم بمنزلة الأب .

وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم، وهو أصغر من إسماعيل بأربع عشرة سنة، وأمه سارة . ولد سنة 1896 ست وتسعين وثمانمائة وألف قبل ميلاد المسيح، وهو جد بني إسرائيل وغيرهم من أمم تقرب لهم . واليهود يقولون : إن الابن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه وفداه الله هو إسحاق، والحق أن الذي أمر بذبحه هو إسماعيل في صغره حين لم يكن لإبراهيم ولد غيره، ليظهر كمال الامتثال. ومن الغريب أن التوراة لما ذكرت قصة الذبيح وصفته بالابن الوحيد لإبراهيم، ولم يكن إسحاق وحيداً قط، وتوفي إسحاق سنة ثمان وسبعمائة وألف قبل الميلاد، ودفن مع أبيه وأمه في مغارة المكفيلة في حبرون (بلد الخليل) [3] .

---

1 - المرجع نفسه،ص732.

2 – ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج1، ص 733.

3 - المرجع نفسه، ص733-734.

وقوله :" إلها واحداً"، توضيح لصفة الإله الذي يعبدونه فقوله :" إلهاً" حال من" إلهك"، ووقوع (إلها) حالاً من (إلهك) مع أنه مرادف له في لفظه ومعناه، إنما هو باعتبار إجراء الوصف عليه ب"واحداً "، فالحال في الحقيقة هو ذلك الوصف ، وإنما أعيد لفظ "إلها"ولم يقتصر على وصف "واحداً" لزيادة الإيضاح، لأن المقام مقام إطناب ففي الإعادة تنويه بالمعاد وتوكيد لما قبله ، وهذا أسلوب من الفصاحة إذ يعاد اللفظ ليبنى عليه وصف أو متعلق ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعاً ، وليس المقصود من ذلك مجرد التوكيد. ومنه قوله تعالى :﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾.(الفرقان : 72). وقوله :﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾. (الإسراء : 7). وقوله : ﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين ﴾. (الشعراء : 132 ، 133). إذ أعاد فعل أمدكم، وأحسنتم، ومروا. وقول الأحوص الأنصاري[1] :

فإذَا تَزُولُ تَزولُ عن مُتَخَمِّطٍ ... تُخْشَى بَوادِرُه علَى الأَقْران.

وقوله :" ونحن له مسلمون"، جملة في موضع الحال من ضمير" نعبد" ، أو معطوفة على جملة" نعبد" ، جيء بها اسمية لإفادة ثبات الوصف لهم ودوامه، بعد أن أفيد بالجملة الفعلية المعطوف عليها معنى التجدد والاستمرار. هكذا ينتهي الحوار بين يعقوب عليه السلام وبين أبنائه، القصير في شكله العميق في معناه . هذا الحوار الذي كذب ادعاءات بني إسرائيل، وفضح أكاذيبهم على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته.

*محاورات يعقوب(عليه السلام)أبناءه: هذه السورة مكية، نزلت بعد سورة هود، في تلك الفترة الحرجة ..بين عام الحزن، بموت أبي طالب وخديجة، سندي رسول الله– صلى الله عليه وسلم– وبين بيعة العقبة الأولى ثم الثانية، التي جعل الله فيهما لرسول الله– صلى الله عليه وسلم– وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية فرجا ومخرجا بالهجرة إلى المدينة.. وعلى هذا فالسورة واحدة من السور التي نزلت في تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوة، وفي حياة الرسول– صلى الله عليه وسلم– والعصبة المسلمة معه في مكة..[2].

يقص الله سبحانه على نبيه الكريم قصة أخ له كريم– يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم– عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين– وهو يعاني صنوفا من المحن والابتلاءات: محنة كيد الإخوة. ومحنة الجب والخوف والترويع فيه. ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله. ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة، وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة! ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز. ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق في يديه، وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم، وفي يديه لقمة الخبز التي

---

1 - المرجع نفسه،ص734.

2 – قطب سيد، في ظلال القرآن، ج4، ص1949.

تقوتهم! ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقى بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها[1].

وتمثل هذه القصة النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقَدي والتربوي والحركي، وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة. متمثلة في نماذج متنوعة: نموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف، والنبي المطمئن الموصول.. ونموذج إخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة، ومواجهة آثار الجريمة، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة، متميزا فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها.. ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك، إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة.. ونموذج النسوة من طبقة العلية في مصر الجاهلية! والأضواء التي تلقيها على البيئة، ومنطقها كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها، وفي إغرائهن كذلك ليوسف، وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعا. وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها، كما يتجلى في سجن يوسف بصفة خاصة.. ونموذج «العزيز» وعليه ظلال طبقته وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه! .. ونموذج «الملك» في خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيدا عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق.. وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد، وهذا الحشد من الحركات والمشاعر..[2].

بنيت هذه القصة على الحوار، وقد كان للحوار الأسري فيها النصيب الأكبر. ولما للحكم، والعبر المستفادة من هذه الحوارات الأسرية، اقتضى الأمر أن يركز البحث على الجانب الأسري في هذا الحوار.

كما يمكن تقسيم هذه الحوارات إلى وقائع ومشاهد، حتى يتسنى للمطلع عليها استبيان أحداثها، وكيف تمت، وتسارع نموها، إلى أن أفضت إلى النتيجة السّارّة، التي تثلج صدر كل مؤمن محب للخير وأهله. وقد كشفت النهاية عن عواقب الصابرين، وعواقب المجرمين. فالله يمهل ولا يهمل.

* **حوار يوسف مع أبيه**: حوار الثقة والنصيحة والبشارة: وفي هذا الحوار يرفع الستار عن المشهد الأول في هذه الملحمة الحوارية، قال تعالى:﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)﴾يوسف.

لقد كان الابن الصغير يوسف ذي الست سنين، يركن إلى أبيه في بث همومه الخاصة وأسراره، بخلاف بعض الأبناء الذين يبثون أصدقائهم همومهم ولا يصارحون بها آباءهم. لأن الابن تعلم الثقة من أبيه، والأب فتح قلبه لابنه فوجد عنده الدفء والحنان. والصديق والخليل. فهو ليس بحاجة إلى عاطفة خارجية، تتعدى أباه. ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5)﴾يوسف.

---

1 – المرجع نفسه،ص1950.

2 - قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج4، ص1952.

ونصيحة الأب كانت معبرة عن خبرة طويلة، وتجربة مختزلة ومخزنة في صدره، فنهاه عن إخبار إخوته برؤياه لما قد يثير حفيظتهم عليه، خصوصا وأن الشيطان يسعى جاهدا لإثارة الخلافات الأسرية، وقد حذر القرآن الكريم كثيرا منه لما توحيه هذه الرؤية من خلال ما علمه الله[1].

إنها رؤيا الأنبياء. قال تعالى:﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)﴾يوسف.

لهذا أدرك يعقوب بحسه وبصيرته، أن وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لهذا الغلام. لم يفصح هو عنه، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك إلا في نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب. فتوقع يعقوب أن يكون يوسف هو الذي يختار من أبنائه من نسل إبراهيم، لتحل عليه البركة وتتمثل فيه السلسلة المباركة في بيت إبراهيم.

والدرس العملي المستفاد من هذا المشهد الحواري :

– لا بد من تكوين علاقة متميزة بين الأب وأبنائه منذ نعومة أظفارهم، حتى تكون عملية الانفتاح محكمة بين الأب والأبناء في مراحل أعمارهم المتأخرة، والتي يحتاجون فيها إلى النصيحة وتبادل الخبرة، من دون حاجة الرجوع إلى غيرهم ممن هم في نفس مستوياتهم، إذ لن يقدموا لهم في ذلك المجال خبرة تزيد عن خبرتهم، ومعرفتهم وتجربتهم[2].

***حوار المؤامرة والمكيدة:** لقد كان في قصة يوسف وإخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة لمن ينقب عن الآيات ويسأل ويهتم. ويروي القرآن الكريم عن هذا الحوار قائلا:﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9)﴾ يوسف.

وهذا الافتتاح كفيل بتحريك الانتباه والاهتمام. لذلك نشبهه بحركة رفع الستار عما يدور وراءه من أحداث وحركات. فنحن نرى وراءه مباشرة مشهد إخوة يوسف يدبرون ليوسف ما يدبرون. ترى هل حدثهم يوسف عن رؤياه كما يقول كتاب «العهد القديم» ؟ إن السياق هنا يفيد أن لا. فهم يتحدثون عن إيثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم. أخيه الشقيق. ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم، ولكانت أدعى إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقد عليه. فما خافه يعقوب على يوسف لو قص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له،

---

[1]–ينظر :ا المشعل لسيد محي الدين –الحوارات الأسرية في القرآن الكريم–ط1 سنة 2008 دار العصمة مملكة البحرين.ص 27.

[2]– ينظر : المشعل السيد محي الدين –الحوارات الأسرية في القرآن الكريم ص28.

وتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب. حتى توازي القتل. أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله[1].وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا.. والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات! والتوبة التي تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، ليست بالتوبة، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان!

هذا جانب من الحوارات التي نقلها القرآن الكريم، ليحذرنا منها، لما فيها من انعدام الثقة من قبل الأبناء تجاه أبيهم من دون مبرر صحيح. وإن كانوا قد برروها بمبرر غير صحيح.

وينقل لنا القرآن الكريم أمرا مهما، وهو عدم الدقة في المقاييس، حيث بنوا مقياس الحب والتفضيل على القوة والإنتاج المادي، بينما المقياس الذي ينص عليه القرآن هو مقياس التقوى.

كما يستفاد من هذا الحوار خطورة التخطيط السيئ في الأسرة بعيدا عن علم رب الأسرة، والفرد الأكمل عقلا ومعرفة فيها، فهم قد خططوا ليتهموا نفسا عظيمة من نفوس الأنبياء ،كل ذلك لتوهم أن هذا العمل الشنيع، سيؤدي بهم إلى استمالة أبيهم إليهم، وصبه حبه عليهم فقط ،كما حدثوا أنفسهم بالتوبة بعد الجريمة وهم يخططون لها .

أما الغرض التربوي المستفاد من هذا المشهد الحواري :

-ضرورة التواصل بين أفراد الأسرة جميعا، وعدم التخطيط بعيدا عند أنظار أعقلهم، وأكثرهم تجربة، وأوسعهم خبرة.

-والمسار الذي يحفظ، العلاقات بين أفراد الأسرة، هو الحوار الصريح العام، البعيد عن النوايا السيئة. التي تعالج المشاكل الحقيقية، لا الأوهام والشكوك، والظنون الكاذبة.

* **حوار التخفيف من الجريمة**: يتفق الإخوة على قتل يوسف، ولكن العناية الإلهية تسخر واحدا منهم فتوقظ ضميره، فيرتعش لهول ما هم مقدمون عليه. فيقترح حلاً يريحهم من يوسف، ويخلي لهم وجه أبيهم، ولكنه لا يقتل يوسف، ولا يلقيه في أرض مهجورة يغلب فيها الهلاك. إنما يلقيه في الجب على طريق القوافل، حيث يرجح أن تعثر عليه إحدى القوافل فتنقذه وتذهب به بعيداً. قال الله تعالى :﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10)﴾ "يوسف".

حاول أخوهم أن يثنيهم عن ارتكاب جريمة القتل والتصفية، وتمكن هذا الأخ في الأخير من التدخل ، الأمر الذي يعطينا درسا واضحا في الاستفادة ، وهو أن الإنسان إذا استطاع أن يغير منكرا بأي أداة وبأي سبيل عليه أن يغيره ، فما بالنا إذا تعلق الأمر بإزهاق روح بريئة ، أو نفس مؤمنة.

---

[1] - قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج4، ص1973

*حوار الحيلة والكذب: لقد اطمأنوا لفكرة أخيهم بعدم قتل يوسف والإلقاء به في غيابة الجب، وهذا كان أقل ما يشفي حقدهم، ولم يكونوا على استعداد للتراجع فيما اعتزموه. فها هم أولاء عند أبيهم، يراودونه في اصطحاب يوسف معهم منذ الغداة. وهاهم أولاء يخادعون أباهم، ويمكرون به وبيوسف. فلنشهد ولنستمع لما يدور، إذ قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11)﴾. «يا أبانا» ..بهذا اللفظ الموحي المذكر بما بينه وبينهم من آصرة.«مالك لا تأمنا على يوسف؟» ..سؤال فيه عتب، وفيه استنكار خفي، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم، والتسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم يوسف. فهو كان يستبقي يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعي والجهات الخلوية التي يرتادونها لأنه يحبه ويخشى عليه ألا يحتمل الجو والجهد الذي يحتملونه وهم كبار، لا لأنه لا يأمنهم عليه. فمبادرتهم له بأنه لا يأتمنهم على أخيهم، وهو أبوهم، مقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر، ومن ثم يفقد إصراره على احتجاز يوسف. فهي مبادرة ماكرة منهم خبيثة![1]. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(12)﴾ زيادة في التوكيد، وتصويراً لما ينتظر يوسف من النشاط والمسرة والرياضة، مما ينشط والده لإرساله معهم كما يريدون.

ورداً على العتاب الاستنكاري الأول جعل يعقوب ينفي- بطريق غير مباشر- أنه لا يأمنهم عليه، ويعلل احتجازه معه بقلة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئاب:﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) إنني لا أطيق فراقه.. ولا بد أن هذه هاجت أحقادهم وضاعفتها. أن يبلغ حبه له درجة الحزن لفراقه ولو لبعض يوم، وهو ذاهب كما قالوا له للنشاط والمسرة. ولا بد أنهم وجدوا فيها عذراً كانوا يبحثون عنه، أو كان الحقد الهائج أعماهم فلم يفكروا ماذا يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكرة، حتى لقنهم أبوهم هذا الجواب! واختاروا أسلوباً من الأساليب المؤثرة لنفي هذا الخاطر عنه.﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14)﴾ يوسف." لئن غلبنا الذئب عليه ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا وإننا لخاسرون كل شيء، فلا نصلح لشيء أبداً! وهكذا استسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الإحراج.. ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيئته! والآن لقد ذهبوا به، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء. والله سبحانه يلقي في روع الغلام أنها محنة وتنتهي، وأنه سيعيش وسيذكّر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون[2].

نلمس هنا روح الكذب والخديعة للوصول إلى الغرض الدنيء والمأرب الأثيم ... وبعد الاتفاق على الطريقة للنيل من أخيهم، أرادوا أن يبعدوا يوسف عن أبيه، ويخلو لهم وجه أبيهم حسب ظنهم وتصورهم، فقد تظاهروا بالبراءة والإشفاق على يوسف، وهي محاولة خداع لتنفيذ الجريمة المدبرة سلفا، فطالبوا أباهم إرسال يوسف معهم.

---

1 - قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج4، ص1974 .

2 – المرجع نفسه ،ج4، ص1975.

لكن يعقوب عليه السلام وبوحي من الله، ألفتهم إلى خطر الذئب عليه، وبذلك فقد أشار إلى الحيلة التي دبروها، والمؤامرة التي خططوا لها، لعلهم يتراجعون عن غيهم ومضيهم في الجريمة ، إلا أنه لاحياه لمن ينادي .

ومما يستفاد من غرض عملي ودرس تطبيقي من هذا الحوار هو :

رقة يعقوب وتلطفه مع أبنائه وعدم إيذائهم ولو بكلمة جارحة صريحة، تبين لهم أنهم هم الذين سيتسببون في حزنه، وبكائه المستقبلي الطويل على يوسف، إذ قال لهم: انه ليحزنني ولم يقل تحزنونني، وهذا مثال للأدب الراقي في التعامل الأسري من قبل الآباء تجاه أبنائهم.

* **حوارات ما بعد الجريمة :**

حوار الكذب المكشوف: ونده يوسف في محنته في غيابة الجب، يؤنسه ولا شك، ما ألقى الله في روعه، ويطمئنه، حتى يأذن الله بالفرج. ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع، قال الله تعالى :﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15).. لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى. كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس، وهم ينفونها، ويكادون يتهكمون بها. فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس! ﴿جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) ﴾. وبمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب، لطخوه به في غير إتقان. فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب[1]ويصدق فيهم المثل: "كاد المريب أن يقول خذوني"، فيعرض القرآن إلى هذه المواجهة، إذ يقول غز وجل:﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17)﴾. أي وما أنت بمطمئن لما نقوله، ولو كان هو الصدق، لأنك تشك فينا، ولا تطمئن لما نقول.﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ وأدرك يعقوب من دلائل الحال، ومن القميص الذي لم يتمزق، ومن نداء قلبه، أن يوسف لم يأكله الذئب، وأنهم دبروا له مكيدة ما. بل علق يعقوب–عليه السلام– لما رأى القميص، "لم أر في حياتي أحلم من هذا الذئب، يفترس ابني ولا يمزق قميصه! .

وأدرك أنهم يلفقون له قصة لم تقع، ويصفون له حالاً لم تكن، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمراً منكراً، وذللته، ويسرت لهم ارتكابه، وأنه سيصبر متحملاً متجملاً، لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو، مستعيناً بالله على

---

[1] - قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج4، ص1975-1976.

ما يلفقونه من حيل وأكاذيب[1]:﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)﴾ "يوسف"

فمن خلال الدليل المادي، المتمثل في قميص يوسف الذي لم يمزق، ومن خلال دليل الحال وهو مجيء الإخوة وقت العشاء يتباكون، أدرك يعقوب عليه السلام بما لا يدع مجالا للشك أن أبناءه قد أصابوا يوسف بمكروه عن سبق إصرار وتعمد، فما عليه سوى الصبر والاحتساب، عسى الله أن يحدث أمرا كان مفعولا.

في هذا المقطع من الحوار، لم يتمكن إخوة يوسف من إخفاء كذبهم، بل كان كذبا صريحا ، حيث إنهم تعهدوا بحفظ يوسف قبل الخروج به، ووصفوا أنفسهم بالخسران، لو ضاع يوسف منهم ، وإذا بهم يأتون من دونه ، ويدعون دعوى واضحة الكذب من خلال الملابسات التي نقلوها، حول الذئب والقميص، والحال الذي جاءوا فيها أباهم يبكون لذلك لم يتريث يعقوب بوصفهم بخلاف ما يدعون ، حيث استخدم "بل " الاضرابية قائلا : ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ [2].وكانت هذه المكيدة هي المحنة الأولى في حياة النبي الكريم يوسف –عليه السلام-.

ينقل لنا القران الكريم هذا الحوار، في مثل هذه الأجواء الأسرية ليحذر من كل ما من شأنه، أن يزلزل الثقة بين أفراد الأسرة، ويؤدي إلى حالة من عدم الاطمئنان، والاطمئنان والثقة هما صمام الأمان في الأسرة .

لذلك لم يكن يعقوب في بداية الأمر – عندما طلبوا منه السماح ليوسف بالذهاب معهم – فاقدا للثقة بهم بل كان محذرا لهم، من أن يرتكبوا أي حماقة تعود بالمضرة عليهم، وعلى الأسرة جميعا، لكنه الآن وبعد أن أتوا بما يزلزل هذه الثقة بهم، وصفهم بما يتناسب مع واقعهم وكذبهم وخداعهم

*__حوار المراودة، والفتنة الجارفة__: لكن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده، وقد أوتي حكماً وعلماً يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التي لا يقف لها إلا من رحم الله. إنها محنة التعرض للغواية في جو القصور، وفي جو ما يسمونه «الطبقة الراقية» وما يغشاها من استهتار وفجور.. ويخرج يوسف منها سليماً معافى في خلقه وفي دينه، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها..

والآن نشهد ذلك المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير:﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)﴾يوسف.

إن التجربة التي مر بها يوسف– أو المحنة– لم تكن فقط في مواجهة المراودة في هذا المشهد الذي يصوره السياق. إنما كانت في حياة يوسف فترة مراهقته كلها في جو هذا القصر، مع هذه المرأة بين سن الثلاثين وسن الأربعين.

---

[1] - المرجع نفسه، ج4، ص1976.

[2]- ينظر : المشعل السيد محي الدين –الحوارات الأسرية في القرآن الكريم ، ص 53 – .54.

وجو البيئة التي يصورها قول الزوج أمام الحالة التي وجد فيها امرأته مع يوسف:«يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين» .فمن الصعوبة أن يتخلص يوسف من امرأة العزيز وهو في بيتها طيلة هذه المدة. خاصة إذا كانت ثقافة أهل القصر كثقافة العزيز،التي لمسناها فيه من خلال ردة فعله تجاه ما قامت به زوجته من مراودة ليوسف على الفاحشة.وقد استقبل الأمر ببرودة تدل إما على الديوثة وقلة الغيرة، وإما على العقل والحلم والحكمة في التعامل مع هذه القضايا وفي هذه المواقف تحديدا في تلك الفترة لدى علية الناس.

لكن الله سبحانه عصمه من الوقوع في كيد هذه المرأة، وأدركته عنايته سبحانه، وقد بين القرآن ذلك، ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمّ بها ، فقدم الجواب على شرطه للاهتمام به . ولم يقرن الجواب باللاّم التي يكثر اقتران جواب" لولا "بها لأنه ليس لازماً ولأنه لما قُدم على" لولا" كُره قرنه باللام قبل ذكر حرف الشرط ، فيحسن الوقف على قوله:"ولقد همت به" ليظهر معنى الابتداء بجملة" وهَمّ بها" واضحاً. وبذلك يظهر أن يوسف عليه السّلام لم يخالطه همّ بامرأة العزيز لأن الله عصمه من الهمّ بالمعصية بما أراه من البرهان [1].

ولما رآ يوسف برهان ربه، حاول أن يفر ويهرب، ولكن زليخة لحقت به. ولما ألفيا سيدها لدى الباب، تسبق يوسف للشكوى، على حد المثل القائل:" ضربني وبكى، فسبقني واشتكى": وعلى حد قول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عن النساء : "يتظلمن وهن الظالمات، ويتمنعن وهن الراغبات". يصف القرآن هذا المشهد بقوله تعالى:﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25)﴾ولكن عناية الله تتدخل بإيجاد شاهد حق،ويصدق يوسف في دفع التهمة عن نفسه، بالدليل القطعي وهو جهة تمزق القميص كما سيأتي لاحقا في الآية التي تفضح ذلك.. ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27)﴾يوسف. وتظهر الحقيقة بقوة الحق.وشهادة رجل من أهلها.

كان مع العزيز رجل من أهل امرأته ، وهو الذي شهد وكان فطناً عارفاً بوجوه الدلالة . وسمي قوله شهادة لأنه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف عليه السّلام على سيدته أو دحضه . وهذا من القضاء بالقرينة البينة (الدليل المادي). قال تعالى:﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28)﴾لأنها لو كانت أمسكت ثوبه لأجل القبض عليه لعقابه، لكان ذلك في حال استقباله له إياها، فإذا أراد الانفلات منها تخرق قميصه من قُبُل ، وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار وإعراض . ولا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص، هو دليل مادي، لكشف محاولة امرأة العزيز جعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه ، والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها، فأراد أن يقيم دليلاً على صدقها، فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السّلام [2] .

وعندها يحاول العزيز تلطيف الأجواء وتهدئة النفوس، يدعو يوسف إلى الإعراض وعدم الاكتراث بفعلة المرأة، وكأن شيئا لم يكن. ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ(29)﴾ يوسف. فالعزيز بعد أن خاطبها بأن ما دبّرته هو من كيد النساء، وجه الخطاب إلى يوسف عليه السّلام بالنداء، ثم أعاد الخطاب

---

[1] – ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير،ج12، ص253.

[2] - بن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير،ج12، ص257.

إلى المرأة . وهذا الأسلوب من الخطاب يسمى بالإقبال، وقد يسمى بالالتفات بالمعنى اللغوي، وهو عزيز في الكلام البليغ [1].

فهذه البيئة، هي بيئة الطبقة المترفة دائماً. ويوسف كان فيها مولى وتربى فيها في سن الفتنة (أو سن المراهقة كما يصفها علماء النفس المحدثون).. هذه هي المحنة الطويلة- محنة القصر- التي مر بها يوسف، وصمد لها، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة. ولسنه وسن المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد-كل هذه المدة- قيمة في تقدير مدى الفتنة، وخطورة المحنة ، والصمود لها ، هذا الأمد الطويل.

*حوار الاستدراك، والكيد الإلهي: قال الله تعالى :﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62)﴾ " يوسف " .

هذه الخطوة هي من الخطوات التي جعلها الله سببا، للم شمل العائلة التي تشتت واجتماعها من جديد، بعد الافتراق الطويل.

فكانت أجواء الحوار بين يوسف وإخوته هادئة لم يثر فيها يوسف أي مشكلة، ولم يظهر فيها أي انتقام، رغم قدرته عليه، لما هو عليه من الملك والسلطان، لكنه كان حليما متسامحا .

فقد عرف يوسف إخوته دون أن يعرفوه، وأراد أن يعيش أخوته أجواء من المحبة والمودة فيما بينهم، ولم يحاول أن يثير الضغائن والأحقاد التاريخية الماضية، إذ هو صاحبها والمتحكم فيها، فهو الذي يملك حق الرد كما يقال، فهي مسألة شخصية وهذا بخلاف القضايا المبدئية التي ليس من حق أحد أن يتنازل عنها أو فيها .[2]

*حوار الثقة المتزلزلة: قال الله تعالى :﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66)﴾ "يوسف".

---

[1] – المرجع نفسه،ج12، ص259.

[2] - ينظر : المشعل السيد محي الدين –الحوارات الأسرية في القرآن الكريم ،ص53-54.

تقول الحكمة، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ذلك ما يدل من خلال حوار يعقوب مع أبنائه عندما طلبوا منه إحضار أخ يوسف، فطلب يعقوب منهم ضمانات ومواثيق، كي لا يفرطوا في أخيهم كما فرطوا في يوسف من قبل ، وهذا دليل على فقدان الثقة لدى يعقوب تجاه أبنائه وبالتالي فقدان الثقة بين أفراد الأسرة ، بسبب موضوعي وهو الغدر والخيانة اللذين صدرا من أخوة يوسف من قبل .

ومع ذلك أعطاهم يعقوب فرصة أخرى ، يؤكد صفة التوكل على الله والاعتماد عليه أولا وأخرا ، وهو موقن أن الله تعالى لن يضيع أبناءه ، وعقد الثقة على الإرادة الإلهية ، لا على ما جاء به أبناؤه من المواثيق ، فالرقابة الإلهية تمثل الشهادة العظمى عليهم وعلى كل شيء [1].

* **الفائدة التربوية في هذا الحوار**: نلمس في هذا الحوار الروح الأبوية التي تحاول بقدر الإمكان، التفاعل مع الأبناء مهما أخطأوا، لكن في جو من التذكير بالخطيئة، والجريمة حتى لا تتكرر مرة أخرى، مع التأكيد على الرقابة الإلهية التي تحكم الواقع الأسري، بل الواقع البشري العام .

***حوار الأبوة الحانية** :قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67)﴾ " يوسف "

تتمثل في هذا الحوار الحالة الأبوية الحانية المفعمة بالعطف المشحون بالإشفاق ، حيث أن يعقوب كان يسعى ألا يتعرض أبناؤه إلى ما يؤدي إلى نزول الشر أو الضر عليهم حتى ولو لم يكن يعتقد اعتقادا جازما بتأثير هذه الأمور بعيدا عن المشيئة الإلهية فبرغم ما فعله به أبناؤه إلا أنه حافظ على الروح الأبوية التي ترعى الأسرة وتحفظها في بقيتها الباقية .

وفي هذا الحوار يؤكد –عليه السلام – روح التوكل على الله ، والتي يستفاد من التأكيد عليها في كل مرة .

ضرورة إيجاد هذا الجو من الارتباط بالله في الأجواء الأسرية دائما وأبدا في حالات الشدة والرخاء وفي العسر واليسر.[2]

***حوار المكيدة الإلهية** : قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ

1- المرجع نفسه ، ص 57-58.

2- ينظر : المشعل السيد محي الدين –الحوارات الأسرية في القرآن الكريم ، ص61.

(70) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79)﴾ "يوسف "

و في هذا الحوار نلمس روحا من التشدد النسبي من قبل يوسف عليه السلام، حيث إنه لم يقبل بأي طرح طرحوه عليه، لأنه يريد انقاد الأسرة والتمهيد لجمعها بعد التفرق والتشتت، فكان لزاما عليه يواصل في الاستفادة من التسديد الإلهي الذي أمره الله تعالى أن يمضي فيه.

***الدرس المستفاد من هذا الحوار:**

-يجب أن يحرص كل فرد من أفراد الأسرة على لم شملها, ورأب الصدع الذي قد يطالها.

-السعي إلى تحقيق المصلحة العامة للأسرة, رغم الأضرار الجانبية التي قد تحدث أو تنجر عن ذلك.

-الاعتماد على بعض الأسباب الظاهرة التي من شأنها أن تكون طريقا للجمع لا للتفريق.

-تجنب الضغائن, ونسيان الأحقاد الماضية, وعدم اجترار المشاكل التي قد تعيد الأزمة من جديد.

***حوار الأخوة الصادق:** قال الله تعالى:﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82﴾"يوسف".

يمثل هذا الحوار، حالة الصدق وحالة تحمل المسؤولية تجاه الأب ، فلما علم الأخ الأكبر أنه لا يتمكن من الرجوع إلى أبيه ومعه أخوه الذي أخذه يوسف عليه السلام أشار على إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ، ويتحدثوا معه بمنتهى الصراحة ، وينقلوا له الصورة التي تضر تظهر من الحال التي شاهدوها .

وكان ينبغي أن تعيش الأسرة هذا الأمر (الصراحة) من بداية أمرها ، حتى لا يحصل ما حصل ، فلو كانت الصراحة والصدق ، هما المسيطران على واقعها ، لما حصل فيها شيء من تلك الأمور التي نغصت صفوها ، ولو

كانت الثقة المتبادلة هي الحاكم ، لقوية وتأكدت من خلال الأساليب التي تعمل على تأكيدها ، ولما أنجز الأمر إلى مثل هذا الوضع الأليم ، ولكن حكمة الله اقتضت ذلك .

تلمس أن الأخ الأكبر قد عاش لحظة ندم، في مواجهة أبيه، فقرر ألا يغادر مصر حتى يطلبه أبوه، أو يحدث الله تعالى له أمرا حكيما من أموره سبحانه، سواء أن كان بالموت أو بأمر آخر .

وهناك من يقول أن هذا الأمر يبدوا غير صحيح لما فيه من البعد عن الأب ، والذي يعقد المسألة أكثر ، فلو كان بالقرب من الوالد وإخوته لتمكنوا أن يصلوا إلى حل أوضح للمشاكل التي تمثل مصيرا مشتركا لهم ، ولكننا نقول اقتضت حكمة الله ذلك ، وزيادة على ذلك فان يعقوب يطمئن أكثر لحال ابنه الذي أمسك به يوسف ، مادام أخوه الأكبر بجانبه ، ولعل في هذا رسالة مشفرة إلى الأب ، والله عليم حكيم .[1].

***حوار انعدام الثقة**: قال الله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86)﴾ "يوسف"

وهو الحوار الثالث الذي نقله القران الكريم بعد الجريمة، حوار تزلزل الثقة، مع بقاء مقدار منها، لكن في هذا الحوار نراها قد انعدمت ورفعت ، مع أن أبناء يعقوب كانوا صادقين في دعواهم . والسبب تكرر الغدر والكذب منهم لأكثر من مرة ، الأمر الذي جعل الوالد المشفق يظهر لأبنائه عدم تصديقه لما يقولون مكن خلال قوله :" بل سولت لكم أنفسكم أمرا " وينعزل عنهم ، فيما حكاه القران ، وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم .

وفي قولهم تالله تفتأ تذكر يوسف احتمالان، احتمال الإشفاق على أبيهم مما هو فيه من الحزن، واحتمال التوبيخ وهو الأقرب، لما كانوا يعيشونه من سلوك تجاه يوسف وتصور تجاهه، وتجاه أبيهم . فلو أرادوا التسلية والإشفاق لاستعملوا عبارات دالة على ذلك من دون لبس أو غموض بل في قوله: إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون، إشارة إلى هذه الاستفادة.[2]

***الدرس التربوي المستفاد من هذا الحوار** :

ـــ حالة الانفصال بين الأب والأبناء وخطورتها على وحدة الأسرة .

---

[1]- - ينظر : المشعل السيد محي الدين –الحوارات الأسرية في القرآن الكريم ، ص 69– ص70

[2]- - ينظر : المشعل السيد محي الدين –الحوارات الأسرية في القرآن الكريم ، ص 73 – ص 74

ـــ تحذير القران الكريم من خلال هذه الصورة لعدم وقوع الأسر فيها .

ـــ القضاء على كل المقدمات والممهدات لحدوث مثل هذه المشاكل ، ويصير الأمر إلى السوء.

ـــ الالتفات إلى الواقع ، ودرء المفاسد قبل حلول المصائب . واللبيب يدرس من تجارب الآخرين.

***حوار الأبوة الصادقة:** قال الله تعالى : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87)﴾ "يوسف" .

ـــ الاقتداء بالوالد ، وتحكمه في أمور الأسرة . مهما حصل من الأبناء .

ـــ الدعوة إلى المحبة ، ورعاية شؤون الأبناء فيما بينهم ، مهما حدثت من منغصات ومكدرات .

ـــ الأمل في الله في كل الأمور ، لأنه القادر على كل شيء ولا ييأس المرء من روح الله .

* **حوار مع العزيز** : وهو حوار التذلّل:قال الله تعالى :﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88)﴾"يوسف" .

ونلمس في هذا الحوار روح التذلل الذي عاشها إخوة يوسف، فخطابهم له، ب"يا أيها العزيز" وطلبهم التصدق عليهم يوحي بذلك. فأين عزتهم إذ ألقوا بيوسف في غيابت الجب؟ وكذلك التحذير من الظلم وعواقبه، فان الباغي تدور عليه الدوائر، والله سبحانه وتعالى ينصف المظلوم ولو بعهد حين .

***حوار التسامح** : قال الله تعالى : ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)﴾ "يوسف " .

يظهر في هذا الحوار البعد الإنساني المتمثل في العفو عند المقدرة. فان يوسف قد ذكر إخوته بجريمتهم لا لينتقم منهم ، ولكن ليقول لهم (لا تثريب عليكم اليوم). وقد سامحهم على فعلتهم مادامت القضية ترتبط به شخصيا. وأنا سأستغفر لكم الله انه غفور رحيم .[1] ويذكرهم بأنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين، وكذلك إخوته لو صبروا واتقوا لكانوا كذلك : وما إرساله القميص لأبيه ليرتد بصيرا ،إلاّ مقدمة منه ليأتوه بأهله أجمعين حتى تجتمع الأسرة وتعيش السعادة بعد العناء .

---

[1]- ينظر : المشعل السيد محي الدين –الحوارات الأسرية في القرآن الكريم ، ص 85– ص 86

* **الدرس التربوي المستفاد**: -بذل الأبناء قصار جهودهم، من أجل رفع الغبن عن الأسرة وأزماتها وأن يعملوا ما بوسعهم من أجل إسعادها ورفاهيتها وهدايتها .

* **حوار الأبوة الحانية** : قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98)﴾ "يوسف ". يبين لنا هذا الحوار موقف الاستهزاء والسخرية الواضحة من الأبناء نحو أبيهم، لما قال لهم إني أجد ريح يوسف لولا أن تفندون، لكنهم لا يعلمون أن أباهم قد علمه الله، لذلك قالوا له لازلت في ضلالك القديم، وهو كلام غير مؤدب، مع الوالد، ولا يليق أن يوجه إلى الأب في مقام يعقوب عليه السلام، لأن أصل التعامل الأسري، إن يبنى على الرحمة والمحبة والاحترام المتبادل ناهيك عن أن الله سبحانه ربط طاعته بطاعة الوالدين. والعجيب في أمر يعقوب، أن كل تلك المعاملات من أبنائه لم تؤثر في أبوته وعطفه عليهم، بل أصر على تلمس الدعاء والمغفرة لهم من الله سبحانه ، لأخطائهم وذنوبهم إنها صفات الأنبياء والرسل[1].

*__حوار التذكير بالنعم الإلهية__: قال الله تعالى :﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)﴾ (يوسف). هذا الحوار هو مسك الختام للحوارات السابقة في هذه السورة الشريفة، فهذا الحوار الذي يدعوا الأسرة إلى أن تشكر نعم الله التي لا تحصى، مثلما عدها يوسف عليه السلام في الأخير، فراح الأخير يؤكد على كل تلك النعم، وبعدها إحسانا إلهيا إليه والى أسرته، وهو ما ينبغي أن يحمل الأسرة على الشكر لله أولا وأخرا.

*__الدرس العملي المستفاد من الملحمة الحوارية__:

إنه دعوة صريحة للتأمل في نعم الله وعدم الغفلة عنها، وخاصة نعمة الجمع بعد الفرقة والتشتت، فهي دعوة الى التأمل في الشريط الحياتي للأسرة، وما حدث خلاله من مطبات وثغرات وأخطاء، يجب على الأسرة العاقلة ألا تتورط فيها وأن تشكر الله على نعمه التي لولاها ما ذاق الإنسان حلاوة الحياة وطعمها .

وخلاصة القول فيما ورد من عبر وعظات في هذه السورة-وما دار فيها من حوار أسري متكامل، عالج العلاقة التي تربط أفراد الأسرة هي الآتي:

[1]- ينظر : المشعل السيد محي الدين -الحوارات الأسرية في القرآن الكريم ، ص89

- التأكيد على الثقة المتبادلة في الأسرة .

- بث أجواء النصيحة والمشورة الحسنة بين أفراد الأسرة الواحدة .

-التحذير من أجواء الكذب والغش والخداع، وكل ما يهدم الثقة بين الأفراد، لأنه بزوال الثقة، تغيب الطمأنينة والأمن .

-التعاون لحل المشاكل التي تزعزع بنيان الأسرة واستقرارها .

-عدم القطيعة التامة مهما حصل من المشاكل التي تسيء إلى بعض الأفراد في الأسرة .

-التسامح والعفو والصفح عند الخطأ .

-العودة إلى الله في إصلاح ما فسد من العلاقات الأسرية، فهو نعم المولى ونعم المعين.

ننتقل بعد هذا إلى الحوار القرآني مع أهل الكتاب، وأهل الكتاب فئتان؛ قلة مؤمنة وكثرة كافرة. فكيف تعامل القرآن الكريم من كلتا الفئتين؟ ذلك ما سنتعرض إليه في الفصل الثاني ...

الفصل الثاني: *الحوار القرآني مع أهل الكتاب.

المبحث الأول: القرآن الكريم والفئة المؤمنة من أهل الكتاب.

المبحث الثاني: القرآن الكريم والفئة الكافرة من أهل الكتاب.

المبحث الأول:* القرآن الكريم والفئة المؤمنة من أهل الكتاب.

القرآن الكريم كتاب حوار، فكيف يا ترى حاور القرآن الكريم أهل الكتاب؟ وكيف أفحمهم؟ وكيف كان هذا الحوار بنّاءً مؤثّراً ومغيّراً في السّلوكات والذّهنيات؟ وكيف تعامل أهل الكتاب مع هذا الخطاب وهذا الحوار الحضاري الراقي؟ وما هي العبر والعظات، والأغراض والمقاصد المتوخاة من هذا الخطاب الحواري؟. علما بأن أهل الكتاب فئتان، قلّة مؤمنة، وكثرة كافرة ظالمة. فكيف تعامل القرآن الكريم مع الفئة المؤمنة من أهل الكتاب؟ وما الصّفات التي وصف بها القرآن الكريم هذه الفئة؟.

***القرآن الكريم يدعو إلى التواصل مع أهل الكتاب:** قال الله تعالى:﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:64). تبيّن هذه الآية أن القرآن الكريم هو أول كتاب دعا إلى الحوار بين أتباع الديانات، وبين الثقافات. وهنا يدعو صراحة إلى الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب؛ فالله سبحانه وتعالى يأمر الرسول(صلى الله عليه وسلم) بأن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة تجمعهم، أي: قلْ يا محمد "يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم". والنداء هو طلب لمد جسور الحوار. والغرض من هذه الدعوة هو التفاهم والالتقاء على نقاط مشتركة، من شأنها أن تجمع الكلمة وتوحد الصّف والموقف. وذلك في وضوح فكري ودعوي، وكلمة سواء؛ أي قائمة على العدل والإنصاف، بالمصارحة والمطارحة للفكر والتصوّرات، وبوضوح من حيث الأسلوب والطريقة[1]. هذا الحوار قائم على النّدّية والتسامح، لا مجال فيه لإظهار الغلبة أو الإقصاء.

وقد جيء في هذه المجادلة في هذه الآية بحجة، وهي عبادة الله وحده، ونبذ إشراك غيره سبحانه في الإلهية، فالجملة المبتدأ بها، بمنزلة التأكيد لجملة قبلها في المباهلة ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾(آل عمران:61). فالأولى حجة عليهم بضعف ثقتهم باعتقادهم، ومدلول هذه الثانية، حجة عليهم بصحة عقيدة الإسلام. والمقصود بأهل الكتاب هنا، هم النصارى؛ لأنهم هم الذين اتخذوا المخلوق ربّاً وعبدوه مع الله[2]. والفعل "تعالوا" فعل طلبي يدعو إلى الاجتماع على كلمة سواء. وهو اسم فعل لطلب القدوم، وهو في الأصل أمر من الفعل "تعالى"، ومضارعه "يتعالى" إذا قصد العلوّ،

---

[1] - ينظر الشابندر غالب حسن ، الآخرة القرآن، مركز دراسات فلسفة الدين، وزارة الثقافة، بغداد، 2005، ص 74.

[2] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 268.

فكأنهم أرادوا به في الأصل أمراً بالصّعود إلى مكان عالٍ تشريفاً، ثم شاع حتى صار لمطلق الأمر بالقدوم أو الحضور[1]. فالكلمة السواء تتعالى بمن ينشدها، وترتفع به في المنزلة والقدر وتجعله عزيزاً. كيف لا يعلو وقد عبَدَ الله العزيز.

وأطلقت "الكلمة" في الآية، على الوجيز من الكلام؛ كقوله تعالى:﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ (المؤمنون:100). و"سواء" بمعنى؛ الاستواء. وقيل: بمعنى العدل، وقيل: بمعنى القصد، لا شطط فيها؛ أي؛ بمعنى ما يستوي فيه جميع الناس، فإنّ اتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله لا سوية، ولا عدل فيه، وهو ظلم لا يقبله الحق تعالى.

وعبارة "بيننا وبينكم"، القصد منها هو؛ بين الرسول(صلى الله عليه وسلم)، والمسلمين المؤمنين برسالته من جهة، وبين أهل الكتاب المشركين من جهة أخرى. والقصد من قوله تعالى:﴿ألاّ نعبد إلاّ الله﴾ هو تعريض بالنصارى، الذين عبدوا المسيح. وقوله سبحانه:﴿فإن تولّوا﴾، استخدم "إنْ" لأنها تفيد الشك في وقوع التّولّي منهم. فالسياق المقامي يهدف إلى الصّلاح، فيصير من النادر وقوع فعل الشرط منهم (تولّوا). أما إن كان منهم ذلك، فقد صاروا في حكم الميْؤوس من إسلامهم، فعليكم أن تُعرضوا عنهم، وأمسكوا أنتم بإسلامكم، وأشهدوهم على أنكم باقون على إسلامكم؛ لئلاّ يقولوا بأنّ المسلمين قد عجزوا عن الاسترسال في معالجتهم؛ لأنهم سلّموا بما هم عليه أهل الكتاب، وأنهم على حقّ.

*__من أهل الكتاب صادقون__... : قال المولى جلّ وعلا:﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(آل عمران:75).

هذه الآية معطوفة على سابقتها، وهاتان الآيتان تكشفان عما يكنّه اليهود من حسد في معاملة المسلمين بطريقة منحرفة خارجة عن ملّة إبراهيم، مع أنهم ادّعوا أنهم أوْلى النّاس بإبراهيم. فالقرآن الكريم في هذه الآية يفضح خيانة طائفة منهم وفريق منهم. ففريق يؤدّي الأمانة تعففاً عن الخيانة، وفريق لا يؤديها متعلّلاً بإباحة دينهم الخيانة لغير اليهود. وقيل من الفريق الأوّل المؤدي الأمانة (عبد الله بن سلام)، ومن الفريق الثاني (فنحاص بن عازوراء)؛ وكلاهما من يهود يثرب.

والمقصود والغرض من الآية؛ هو ذم الفريق الثاني، حين زعم إباحة الخيانة في دين اليهود، وهذا الصنف هو الذي ضُرب به المثل، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك.

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 264 - 265.

ولما استهل الخطاب القرآني الآية، استهلّها بمن التبعيضية، ليقصد طائفة بعينها تستحق المدح، وطائفة أخرى تستحق الذّم والقدح. وهذا الموقف القرآني من أهل الكتاب، يبيّن إنصاف الإسلام وعدالته، فهو لم يعمّم العقاب على أهل الكتاب كلِّهم، ولا يحكم عليهم جميعاً، وإنما يعامل كلَّ فريق بما يليق من جزاء، فالجزاء من جنس العمل.

وتقديم المسند (الخبر) على المسند إليه (المبتدأ) للتعجيب، ففي التقديم الأول؛ تعجيب من قوة الأمانة، مع إمكان الخيانة ووجود العذر لصاحبها. وفي الثاني؛ للتعجيب من أن يكون الخوَن خلقاً لمتبع كتاب من كتب الله. وما يدعو إلا العجب أكثر قوله تعالى:﴿ذلك بأنهم قالوا﴾. وعُدِّيَ الفعلُ "تأمنه" بالباء ليشمل الأمانة بالوديعة، والأمانة بالمعاملة على الاستئمان[1].

وقد جُعل القنطار والدينار مثلين للكثرة والقلة، والمقصود ما يفيد الفحوى من أداء الأمانة فيما هو دون القنطار. ووقوع الخيانة فيما هو فوق الدينار. وقوله:﴿إلاّ ما دمت عليه قائما﴾، القصد منه هنا؛ الحرص والمواظبة؛ أي لا يؤديه إليك إلا في مدّة دوامك عليه، أو دوام قيامك عليه، بمعنى؛ إلحاحك عليه. والدوام حقيقته استمرار الفعل، وهو مجاز عن طول المدة، والمعنى؛ إدامةُ المطالبة، لا عينُ القيام.

والقصد التداولي من هذا التمثيل؛ هو أن من حفظ الكثير وأدّاه، فالقليل أولى، ومن خان اليسيرأو ضيّعه، فذلك في الكثير أكثر[2]. وقدّم الجار والمجرور "عليه قائما" للاهتمام بالمجرور، ففي تقديمه معنى الإلحاح، أي؛ إذا لم يكن قيامك عليه لا يرجع لك الأمانة.

وأرادوا "بالأُمّيّين" مَن ليسوا من أهل الكتاب في القديم. وحرف "في" هنا للتعليل والتقدير "في معاملة الأميين". والمعنى؛ ليس علينا في أكل حقوقهم حرج، ولا إثم، و"السبيل"؛ طريق المؤاخذة. ولعلّهم أرادوا الأمّيين بمعرفة التوراة، أي؛ الجاهلين، كناية عن كونهم ليسوا من أتباع موسى عليه السلام[3].

والقرآن الكريم يكشف عن خُلُق عجيب في أهل الكتاب - من باب التعميم والتغليب، لأن أكثريتهم كذلك - وهو استِخْفافُهم بحقوق المخالفين لهم في الدين، واستباحةُ ظِلّهم، مع اعتقادهم أن الجاهل والأميّ جدير بأن يُهضمَ حقُّه. وقد جاء في الإصحاح (23) من الكتاب المقدس:« لا تقرض أخاك برباً فِضّة أو رِباَ طعام،

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 286 .

[2] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص 116.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 288 .

وللأجْنبيّ تَقرِض برِباً ». وعن الكلبي قالت اليهود: الأموال كلّها كانت لنا، فما في أيدي العرب منها، فهو لنا، وإنهم ظلمونا وغصبونا، فلا إثم علينا في أخذ أموالنا منهم.

وقد كذّبهم الله في هذا الزعم فقال عزّ من قائل:﴿ويقولون على الله الكذب﴾؛ أي كذبوا على الله بادعائهم أن هذا الذي قالوه وجدوه في كتابهم التوراة. ورُوي عن سعيد بنِ جُبيْر أنه لما نزل قوله تعالى: ومن أهل من إن تأمنه، إلى قوله: وهم يعلمون. قال النبي(صلى الله عليه وسلم): كذَب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلاّ وهو تحت قدَميّ هاتين، إلاّ الأمانة فإنها مؤَداة إلى البَر والفاجر[1].

وقوله:﴿وهم يعلمون﴾ حال؛ أي يتعمدون الكذب مع علمهم بأنه كذب. وهذا تمرد وعصيان لله سبحانه. والله يعلم بأنهم يعلمون ويكذبون، فلا حجة لهم في الآخرة.

***الفئة المؤمنة الخيِّرة من أهل الكتاب:** قال الله تعالى:﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:113 – 114). وقال سبحانه:﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(آل عمران:199).

يحكم القرآن الكريم على أهل الكتاب بأنهم ليسوا سواء، والضمير العائد (الواو) هو إشارة إلى أهل الكتاب المتحدث عنهم آنفاً؛ وهم اليهود. وهذه الجملة تتنزل من التي بعدها منزلة التمهيد، وكلمة "سواء" بمعنى المماثل؛ أي: من التسوية، والسياق هنا متضمن سؤالاً هو: من هم هؤلاء الذين ليسوا سواء؟ فيكون البيان للإبهام "أمة قائمة"، والأمة بمعنى الفريق، والإظهار هنا للاهتمام بهذ الأمة[2]. وإطلاق صفة أهل الكتاب عليهم مجاز علاقته اعتبار ما كانوا عليه، لأنهم صاروا الآن من المسلمين.

ولم يأت بالتبعيض الذي يتمثل في الجار والمجرور، فلم يقل:"منهم أمة قائمة"، والغرض والقصد هو تعميم الثناء ليشمل الصالحين من اليهود، والصالحين من النصارى، فلا يختص الثناء بالصالحين من اليهود فقط. فهؤلاء الصالحون من اليهود كانوا متمسكين بدينهم قبل بعثة عيسى عليه السلام، مستقيمين عليه. ومنهم الذين آمنوا

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 289 .

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج3، ص57.

بعيسى واتبعوه، وكذلك صالحوا النّصارى قبل بعثة محمد(صلى الله عليه وسلم)، وكانوا مستقيمين على شريعة عيسى (عليه السلام)، وكثير منهم أهل تهجد في الأديرة والصوامع، وقد صاروا مسلمين بعد البعثة المحمدية[1].

و"الأمة القائمة"؛ هي الجماعة، أو الطائفة، تعمل بدينها على الوجه الحقّ؛ لا هي متراخية فيه، ولا مستهزئة به. ولفظ "آناء الليل"؛ يعني وقت الليل، وجملة "وهم يسجدون" حال، أي؛ يتهجدون في الليل بتلاوة كتابهم، فقُيّدت تلاوتهم الكتاب بحالة سجودهم. وهذا الأسلوب أبلغ وأبين. وعبارة "يسارعون في الخيرات"، أي؛ يرغبون في الاستكثار من الخيرات، لا يكتفون أو يرضون بالقليل منها. والمسارعة المبادرة إلى الخير، والاعتناء بالسير السريع لبلوغ الخير، أو بلوغ المطلوب. وحرف الجر "في" للظرفية المجازية، وكأن الخيرات طريق يسير فيه السائرون، وهم يسرعون فيه ليقطعوه.

والإشارة بلفظ "أولئك"؛ إلى الأمة المتصفة بتلك الأوصاف، القصد منه؛ التنبيه على أنهم استحقوا هذا الوصف المذكور بعد اسم الإشارة، بسبب ما سبق اسم الإشارة من الأوصاف[2]. فما سبق كان حُجّة لهم، وما بعد اسم الإشارة كان نتيجة لهم أيضاً. فالاستحقاق يأتي بعد العمل والبذل، والقيام بما أوجب الله سبحانه وتعالى، فقد حكم الله عليهم بالصّلاح، وكفى بالله شهيدا.

واستكمالاً لذكر الفرق بين تلقي الإسلام من قبل أهل الكتاب، يقول الله تبارك وتعالى:﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(آل عمران:199). وهذا فريق من أهل الكتاب يكتم إيمانه، ولا يظهره خوفاً من قومه؛ مثل "النجاشي ملك الحبشة"؛ فلم يحرّفوا دينهم، وكان هذا الفريق غيرَ معروف، لأنه لو كان معروفاً بإيمانه صراحة، لماَ وصفته الآية بأنه من أهل الكتاب، وهذا النوع، عكس ما وصف به المنافقون؛ فحاله يختلف عن حالهم.

والسياق الذي نزلت فيه الآية هو –كما روى ابن عباس– أن المنافقين قالوا عن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) لما صلى صلاة الغائب على النّجاشي: أُنظروا إليه يصلّي على نصرانيّ ليس على دينه، ولم يره قطّ[3]. ونعلم أن النجاشي قد اعتنق الإسلام خُفْيَة، وإلاّ لما صلّى الرسول(صلى الله عليه وسلم) عليه عند وفاته. ولعلّ وفاة

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص 58.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج4، ص 58.

[3] - ينظر:المرجع نفسه ، ص 207.

النجاشي حصلت قبل غزوة أُحُد. وقيل: إن هذه الآية قُصِد بها عبدُ الله بنُ سلاّم، ومُخَيْريق؛ وهما من يهود المدينة، كذا مَن آمن مِن نصارى نجران؛ أي الذين أسلموا ورسول الله بمكة، إن صحّ خبرُ إسلامهم[1].

وجيء باسم الإشارة في قوله تعالى:﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾؛ لقصد التنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما اتُّصفوا به من صفات الإيمان الصادق، ولم يغيّروا دين الله، من أجل مال أو هوىً. وهذه الأسباب هي التي جازاهم عليها ربُّهم الجزاء الأوفى.

أما قوله تعالى:﴿إنّ الله سريع الحساب﴾؛ فقد أشار من خلاله، إلى أنه – سبحانه- يبادر لهم بأجرهم في الدنيا، ويجعله لهم يوم القيامة[2]. فهو مُعجَّل على حاله ومُؤخَّر. وأيّ نعمة تضاهي هذه النعمة؟، فالله سبحانه سريع الحساب، ويوَفّي المؤمنين الصابرين أجورَهم بغير حساب.

***فرصة أهل الكتاب للتّوبة، بعد إقامة الحُجّة:** قال الله تعالى:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾(المائدة:15). وقال عز من قائل:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة:19).

يُقبل القرآن الكريم في هاتين الآيتين بالموعظة على أهل الكتاب، وقد بعث الله سبحانه وتعالى خاتم أنبيائه محمد(صلى الله عليه وسلم) لإقامة الحُجّة عليهم، ولكي يبيّن لهم ما كانوا يخفونه من الكتاب، ومع ذلك فإنه يطمئنهم بأنه يعفو عن كثير. ومعنى يعفو؛ يُعرض ولا يُظهر. وعفا عن المذنب، بمعنى؛ ستر عنه ذنبه. ويجوز أن يُراد هنا معنى الصّفح والمغفرة؛ أي؛ ويصفح عن ذنوب كثيرة، أو بمعنى؛ يبيّن لكم دينكم ويعفو عن جهلكم[3].

وجملة﴿قد جاءكم من الله نور﴾؛ بدل اشتمال من جملة﴿قد جاءكم رسولنا﴾؛ حتى يُبيّنَ أنه رسول، اشتمل على مجيء الهدى والعلم. والحرف "قد"؛ لإفادة التحقيق لمضمون جملة البدل. وقد أضاف الضمير "نا" إلى ذاته سبحانه، والدّال على العظمة في كلمة "رسولنا"؛ حتى يبين أنه رسول من عند الله، كما بعث موسى وعيسى من عند الله أيضاً. وقد جاء ليبيّن لهم كثيراً ممّا يُخفون، فقد أخفوا صفة محمد(صلى الله عليه وسلم)، وأخفوا أمر الرّجم،

---

1 - ينظر: ابن عاشور الطاهر ج4، ص 207.

2 - ينظر: ، المرجع نفسه ، ص 207.

3 - ينظر: المرجع نفسه، ج6، ص150

والرسول(صلى الله عليه وسلم) يبيّن لهم ذلك، رغم أنه عليه الصلاة والسلام لم يقرأ كتاباً، ولم يتعلّم علماً من أحد، فلما أخبرهم بأسرار ما في كتابهم، كان ذلك إخباراً عن الغيب، فيكون معجزاً[1].

كما أنه- صلى الله عليه وسلم-، لم يكن يظهر كثيراً مما يكتمه أهل الكتاب، لأن الدين ليس في حاجة إليه ولا إلى إظهاره، والفائدة في ذلك أنهم يعلمون كون الرسول(صلى الله عليه وسلم) عالماً بكل ما يخفونه(وهذا الذي يسمى بلازم فائدة الخبر)، فيصير بذلك داعياً لهم إلى ترك الإخفاء لئلاّ يُفتضَحوا[2]. والمقصود بالنور محمد(صلى الله عليه وسلم)، وبالكتاب القرآن. وهناك من فسر النور بالإسلام، والكتاب بالقرآن، فالنور الظاهر يتقوى به البصر على إدراك الأشياء الظاهرة، والنور الباطن هو الذي تتقوى به البصيرة على إدراك الحقائق والمعقولات[3].

وفي الآية التاسعة عشرة من سورة المائدة، يكرر الخطاب القرآني موعظته لأهل الكتاب، ودعوتهم، بعد أن تبيّن لهم فساد عقائدهم، وغرور أنفسهم بياناً لا يدع للمنطق متمسكاً بتلك الضلالات. فقد كرر قوله:﴿يا أهلا الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم﴾، والتكرار للتوكيد، إلاّ أنه ذكر في الآية الثانية أن مجيء الرسول(صلى الله عليه وسلم) على فترة من الرسل، لكي يذكرهم بأن كتبهم مصرِّحة بمجيئه(صلى الله عليه وسلم) عقب رسلهم، وليريهم أن مجيئهم لم يكن بدعاً من الرسل، إذكانوا يجيئون على فتر بينهم. والمراد يبيّن لكم هو بيان الشريعة[4].

وقوله:﴿على فترة من الرسل﴾، حال من ضمير لكم، ويجوز أن يتعلق بالفعل "يبيّن"، لأنّ البيان انقطع في مدة الفترة. و"على" بمعنى "بعد"، والفترة انقطاع عمل ما. والحرف "من" للابتداء؛ أي فترة من الزمن ابتداؤها مدة وجود الرسل، أي أيام إرسال الرسل. والمراد بالرسل: رسل أهل الكتاب المتعاقبين؛ من موسى إلى المسيح، والفترة بين البعثة وبين رفع المسيح، وكانت نحو خمسمائة وثمانين سنة[5].

و﴿أن تقولوا﴾ تعليل لقوله: قد جاءكم، لقطه معذرة أهل الكتاب عند مؤاخذتهم في الآخرة. وكذلك تقريع لهم في الدنيا على ما غيّروا من شرائعهم، لئلا يكون من معاذيرهم أنهم اعتدوا تعاقب الرسل، ولما مضت عليهم فترة دون إرسال رسول، لا يلامون على إهمال شرائعهم، وأنهم لو جاءهم رسول لاهتدوا. والمعنى أن تقولوا: ما جاءنا

---

1 - ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج11، ص326

2 - ينظر: المرجع نفسه، ج11، ص327

3 - ينظر: المرجع نفسه، ج11، ص327

4 - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص157- 158.

5 - ينظر: المرجع السابق، ج6، ص159.

رسول في الفترة بعد موسى، أو بعد عيسى، وليس المراد: ما جاءنا رسول إلينا أصلاً، فإنهم لا يدّعون ذلك، وكيف وقد جاءهم موسى وعيسى؟[1].

والسبب في إرسال الرسول إليهم؛ لينفي قولَهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير. والتقدير؛ أن لا تقولوا. وقرينة السياق والمقام تدل على ذلك. أو بمعنى؛ كراهية أن تقولوا. وقد ذهب ابن عاشور إلى البناء على أن حرف (أن) تخلص المضارع للاستقبال، فتقتضي أنّ قول أهل الكتاب: ما جاءنا بشير ولا نذير، غير حاصل في حال نزول الآية. وهذا التخليص لـ "أن" للمستقبل يكون في الغالب ولا يكون مطّرداً. وقد ذهب آخرون إلى أنها تفيد المصدرية؛ مثل قوله تعالى:﴿وأن تصوموا خير لكم﴾(البقرة:183)[2]. وصَرْفُ "أن" عن إفادة الاستقبال يعتمد على القرائن الواردة في السياق، وهو أن أهل الكتاب قد قالوا: هذا العذر لمن يلومهم مثل الذين اتبعوا الحنيفية؛ كأمية بن أبي الصلت، وزيد بن عمرو بن نفيل، أو قاله اليهود لنصارى العرب. و"الفاء" في﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾ هي فاء الفصيحة، وقررت معنى التعليل، أي: لئن قلتم ذلك فقد بطل قولكم إذ قد جاءكم بشير ونذير[3]. وبذلك ترتفع العلة ويزول العذر. وقوله:﴿والله على كل شيء قدير﴾ يشير إلى أن حصول الفترة واحتياج الخلق إلى بعثة الرسل، كان الله قادراً على البعثة، وكان رحيما كريما بخلقه[4]. ومن رحمته وكرمه أن بعث الرسل إليهم.

***وعد الله لأهل الكتاب ودعوتهم إلى الإيمان:** قال الله تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(المائدة:65 – 66). وقال أيضاً:﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(المائدة:68).

لما بالغ القرآن الكريم في ذم أهل الكتاب، وتهجين سلوكاتهم مع الرسل، ومع شرع الله، بيّن لهم الجزاء الذي كان ينتظرهم لو آمنوا بالله واتقوه. وهذا الجزاء سعادة الآخرة والدنيا؛ وسعادة الآخرة تتمثل في نوعين هما: إحداهما: رفع العقاب عنهم، وثانيتهما: إيصال الثواب إليهم، وهذا مصداقاً لقوله تعالى:﴿لكفّرنا عنهم سيّئاتهم، ولأدخلناهم جنات النعيم﴾. فالرّفع للسيئات، والمكافأة بالجنات.

---

1 - ابن عاشور الطاهر، ج6، ص160.

2 - المرجع نفسه، ج6، ص160

3 -المرجع نفسه، ج6، ص160

4 - ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج11، ص331

وقد أردف المولى جل وعلا قوله: "آمنوا" بـ"واتقوا"، والتقوى تعني؛ طاعة الله وحده، لا لغرض من أغراض الدنيا العاجلة[1]، مثلما يفعل المنافقون. والمراد بأهل الكتاب في هذه الآية؛ هم اليهود، والمراد بـ"آمنوا" أي آمنوا بمحمد(صلى الله عليه وسلم)، فكأن الله سبحانه، يدعوهم إلى الخير الذي ينتظرهم بطريقة التّعريض، بعدما ذمّهم على أفعالهم في السّابق. وقد أكّد المولى عزّ وجلّ وعده إيّاهم لو آمنوا واتّقوا، بحرف اللاّم في قوله: "لكفّرنا"، و"لأدخلناهم". واللام من مؤكدات الخبر.

ويذكر سبحانه الطيبات والخيرات وسعادات الدنيا، لو آمنوا به وبرسوله - في الآية الموالية: (66) - وأقاموا التوراة والإنجيل. والإقامة تتمثل في أوجه:

أ - أن يعملوا بما فيها من الوفاء بعهود الله التي ذكرت فيها، والإقرار باشتمالها على العلامات الدالة على بعثة محمد(صلى الله عليه وسلم).

ب - إقامة التوراة بإقامة أحكامها وحدودها، كما يقال: أقام الصلاة إذا قام بحقوقها.

ج - أقاموها نصب أعينهم لئلاّ يزلّوا في شيء من حدودها.

أما قوله تعالى:﴿وما أنزل إليهم﴾، قد يقصد به القرآن الكريم، وقد يقصد به ما أنزل من كتب على سائر الأنبياء. وهذه الكتب كلها بشّرت بمبعث محمد(صلى الله عليه وسلم).

وأما قوله في جواب الشرط:﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾، يستلزم أن اليهود لما أصرّوا على تكذيب محمد(ص) أصابهم القحط والشدة. ووصل بهم الأمر إلى أن قالوا:﴿يد الله مغلولة﴾ – تعالى عن ذلك - فالله تعالى بيّن أنهم لو تركوا ذلك الكفر لانقلب الأمر، وحصل الخصب والسعة[2]. وقوله:﴿من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾، القصد منه ما يأتي:

1 - المبالغة في شرح السعة والخصب، لأن هناك فوقاً وتحتً. والمعنى: لأكلوا أكلاً متصلاً كثيراً. كما يقول المثل: فلان في الخير من فرْقِه إلى قدمِه؛ والمراد تكاثف الخير وكثرته عنده.

2 – الأَكل مِنْ فَوْقُ كناية عن نُزُولِ القَطْرِ، وَمِنْ تَحْتِ الأَرْجُلِ كناية عن حُصُول النَّبَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سورةِ الأعراف:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ﴾(الأَعْرَافِ: 96).

3 - كثرة الأشجار المثمرة، وكثرة الزّروع المُغَلّة.

4 - المرَادُ أَنْ يَرْزُقَهُمُ الجِنَانَ اليَانِعَةَ الثِّمَارِ، فَيَجْتَنُونَ مَا تَهَدَّلَ مِنْ رؤوس الشَّجَرِ، وَيَلْتَقِطُونَ مَا تَسَاقَطَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ.

5 – أَنْ يَكُونَ هَذَا إِشَارَةً إِلَى مَا جَرَى عَلَى اليَهُودِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَبَنِي النَّضِيرِ مِنْ قَطعِ نَخِيلِهِم وَإِفْسَادِ زُرُوعِهِم وَإِجْلَائِهِم عَنْ أَوْطَانِهِم[3].

[1] - ينظر: الرازي الفخر، مفاتيح الغيب، ج12، ص398.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج12، ص398.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ج12، ص399.

وقوله تعالى:﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾، فمَعْنَى الِاقْتِصَادِ فِي اللُّغَةِ الِاعْتِدَالُ فِي الْعَمَلِ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ. والاقتصاد هو العمل المؤدي إلى الغرض. وفِي "الْأُمَّةِ الْمُقْتَصِدَةِ": قد يُرَاد مِنه الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَمْ يَمِيلُوا إِلَى طَرَفَيِ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ. وقد يُرَادُ به الْكُفَّارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَكُونُونَ عُدُولًا فِي دِينِهِمْ، وَلَا يَكُونُ فِيهِمْ عِنَادٌ شَدِيدٌ وَلَا غِلْظَةٌ كَامِلَةٌ[1].

أما قوله تعالى:﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، يتضمن معنى التَّعَجُّبِ وَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا أَسْوَأَ عَمَلَهُمْ، وَالْمرَادُ: مِنْهُمُ الْأَجْلَافُ الْمذْمُومُونَ الْمبْغَضُونَ الَّذِينَ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِمُ الدَّلِيلُ وَلَا يَنْجَعُ فيهم القول[2]. ولقد ذم الله تبارك وتعالى عملهم وسلوكهم، فالعمل هو المخصوص بالذم؛ فالعيب عيب العمل، لا عيب الذات.

*مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن:** قال الله تعالى:﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(العنكبوت:46). في هذه الآية يبيّن الله تبارك وتعالى طريقة إرشاد ودعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهي المجادلة بالتي هي أحسن؛ فالجدال لا يكون بالعنف، وإنما يكون بالحوار الهادئ المبني على الحجة والبرهان، ويكون باللين لا بالسيف. حتى إن رفضوا هذه الحجج وهذه الأدلة والبراهين، فلا يدعونا القرآن الكريم إلى استعمال القوة معهم، وإكراههم على الاعتراف، أو التسليم بما نعرضه عليهم؛ من دعوة الحق، وإلى طريق مستقيم. ويجب عدم الاستخفاف بآرائهم.

والآية تستهل بنفي ثم يليه استثناء، وهذا الأسلوب يفيد الحصر، أو القصر، أي: يقصر المجادلة على التي هي أحسن. والنفي مبطّن بالنهي، أي: لا تخرجوا عن الجدال بغير التي هي أحسن مع أهل الكتاب. ثم يستثني طائفة منهم وهي الطائفة الظالمة، والمقصود بها المشركون الذين قالوا بإثبات الولد لله سبحانه، وقالوا بثالث ثلاثة. وإنّ الشرك لظلم عظيم. فهؤلاء يجادلون بالتي هي أخشن، بتهجين مقالهم، وتبيين جهلهم[3].

ثم يأتي قوله تعالى:﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾العنكبوت. فعل كلامي طلبي تضمن الأمر، والغرض منه التبليغ والتكليف به. ومحتوى التبليغ هو دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بمحمد(صلى الله عليه وسلم) مثلما آمن محمد(صلى الله عليه وسلم) بموسى وعيسى ورسل اله جميعهم. لأن الله الذي بعث موسى وعيسى، وبعث محمداً(صلى الله عليه وسلم) هو إله واحد، وعلى المسلمين والمؤمنين أن يعبدوه وحده لا يشركون به أحداً ولا شيئاً.

والآية السالفة دعوة إلى المؤمنين بإلزامهم ترك مجادلة المشركين، وكذلك ترك مجادلة أهل الكتاب إذا تعرض المسلمون لذلك. فالمجادلة تعرض في أوقات السلم كما في أوقات القتال. والمقصود بهذه الآية اليهود؛ فهم الذين كانوا كثيرين في المدينة، أما النصارى فتمثلوا في نصارى نجران فقط[4].

---

[1] - ينظر: الرازي الفخر، مفاتيح الغيب، ج12، ص399

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج12، ص399

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ج25. ص63

[4]- ينظر:ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج21، ص6.

وقوله تعالى:﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: بأحسن من مجادلتكم المشركين، أو بأحسن من مجادلتهم إياكم. وقد يقصد بالمفاضلة المبالغة في الحُسن، أي: إلاّ المجادلة بالحسنى. وهذا الخُلُق يجعل الطرف الآخر متقبِّلاً للحوار، وللأفكار التي تُطرَح عليه. وفي هذا السلوك اعتراف بالآخر وإشفاق عليه، كي لا ينفر من الدعوة، ولا ييأس الاقتناع بالحجة.

وهذا ما يسمى تحرير محلّ النزاع، وتقريب شُقّة الخلاف؛ وهو أن يقال قد اتفقنا على كذا وكذا فلْنَحْتَجَّ على ما عدا ذلك. لأن المجادلة وال حاجة تقع في نقاط الاختلاف، لا في نقاط الوفاق والاتفاق.

وقوله عز وجل:﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: كلانا - أنتم اليهود ونحن المسلمين - مسلمون لله تعالى، لا نشرك معه غيره. وتقديم على عامله في قوله: "له مسلمون" لإفادة الاختصاص تعريضاً بالمشركين الذي لم يُفرِدوا الله تعالى بالإلهية[1]. فالتقديم للتخصيص، أي: لله دون غيره.

قال الله تعالى:﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾(البيّنة:1 - 3). وقال أيضاً:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾(البيّنة:6).

لقد وردت هذه الآيات مورد إقامة الحجة على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب والمشركين، بأنهم مُتنصّلون من الحق، متعلّلون للإصرار على الكفر، عناداً. وذهب صاحب التحرير إلى، صرف التركيب عن استعمال ظاهره إلى استعمال مجازي، على طريقة المجاز المرسل المركّب، من قبيل استعمال الخبر في الإنشاء، واستعمال الاستفهام في التوبيخ. لكن - يقول صاحب التحرير- أمّا مِن أيّ أنواع المجاز هو، فمِمّا لم يَحُمْ أحد حوله. وهذا القول« مَسُوقٌ مَسَاقَ نَقْلِ الْأَقْوَالِ الْمُسْتَغْرَبَةِ الْمُضْطَرِبَةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَدَمِ ثَبَاتِ آرَاءِ أَصْحَابِهَا، فَهُوَ مِنَ الْحِكَايَةِ لِمَا كَانُوا يَعِدُونَ بِهِ فَهُوَ حِكَايَةٌ بِالْمَعْنَى كَأَنَّهُ قِيلَ: كُنْتُمْ تَقُولُونَ لَا نَتْرُكُ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ حَتَّى تَأْتِيَنَا الْبَيِّنَةُ »[2].

والغرض منه والقصد هو تعريض بالتوبيخ بأسلوب الإخبار المستعمل في إنشاء التعجب، أو الشكاية من صلف المخبَر عنه. يقول صاحب التحرير:« وَهُوَ اسْتِعْمَالٌ عَزِيزٌ بَدِيعٌ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (التَّوْبَة:64)، إِذْ عَبَّرَ بِصِيغَةِ يَحْذَرُ وَهُمْ إِنَّمَا تَظَاهَرُوا بِالْحَذَرِ وَلَمْ يَكُونُوا حَاذِرِينَ حَقًّا وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿ قُلِ اسْتَهْزِؤُا ﴾، فَالْخَبَرُ مُوَجَّهٌ لكل سامع»[3].

لقد تعلل المشركون بهذا القول الذي صدر من أهل الكتاب في البدء؛ تعلّل به المشركون لأهل الكتاب حتى يدعوهم إلى اتباع اليهودية أو النصرانية، فيقولوا: لم يأتنا رسول كما أتاكم. كما تقرر تعلل أهل الكتاب بهذا القول حين يدعوهم النبي(صلى الله عليه وسلم) للإسلام. قال تعالى:﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾(آل عمران:183). وقريب منه قوله تعالى في أهل الكتاب:﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾(البقرة:89).

---

1 - ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج21، ص8.

2 - المرجع نفسه، ج30، ص471.

3 - المرجع نفسه ، ص471 – 472.

وحاصل المعنى: أنكم كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه من الدين حتى تأتينا البيّنة؛ أي العلامة التي وعدنا بها. فجعل الله ذلك تمهيداً وتوطئة لقوله بعده:﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة فيها كُتُب قيّمة﴾[1]. والانفكاك: الإقلاع، وهو مطاوع فَكَّهُ إذا فصله وفرّقه. ويُستعار لمعنى أقلع عنه؛ أي: منفكين عن كفرهم تاركين له. سواء أكان كفرهم إشراكاً بالله أم كفراً بالرسول(صلى الله عليه وسلم).

وهذا القول صادر من اليهود في المدينة والقرى التي حولها. ويتلقفه المشركون بمكة الذين لم ينقطعوا عن الاتصال بأهل الكتاب منذ ظهرت دعوة الإسلام، يستفتونهم في ابتكار مخلّص يتسللون به عند ملام من يلومهم على الإعراض عن الإسلام. وكذلك المشركون حول المدينة من الأعراب.

والبيّنة: الحجة الواضحة والعلامة على الصدق. وهي أحسن ما تُترجَم به العبارة الواقعة في كتب أهل الكتاب، مما يحوم حول معنى الشهادة الواضحة لكل متبصّر، كما وقع في إنجيل متّى لفظ "شهادة لجميع الأمم".

ولعل التعريف في لفظ "البيّنة" تعريف العهد الذهني؛ وهو أن يُراد معهود بنوعه، لا بشخصه، ومنه قول زهير: وما الحرب إلاّ ما علمتم وذقتم .. ويجوز أن يكون المقصود بالبيّنة وصايا أنبيائهم فهي معهودة عند كل فريق منهم، وإن اختلفوا في تخيّلها، وابتعدوا في توهّمها، بما تُمليه عليهم تخيّلاتهم واختلافاتهم. فالبيّنة تعبّر عن المعنى الوارد في كلامهم، ولذلك نرى مادتها متكررة في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

وتقديم أهل الكتاب على المشركين هنا - مع أن كفر المشركين أشد من كفر أهل الكتاب - لأن لأهل الكتاب السبق في هذا المقام، فهم الذين بثّوا بين المشركين شبهة انطباق البيّنة الموصوفة بينهم. فأيدوا المشركين في إنكار نبوة محمد(صلى الله عليه وسلم) بما هو أتقن من ترّهات المشركين. إذ كان المشركون أمّيين لا يعلمون شيئاً عن أحوال الرسل والشرائع، فلما صدمتهم الدعوة المحمدية فَزِعوا إلى اليهود ليتلّقوا منهم ما يردّون به على تلك الدعوة.، وخاصة بعدما هاجر النبي(صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة. إذاً فالمشركون هم تبع لأهل الكتاب[2]. ولذلك كان التقديم لأهل الكتاب عليهم حتى يبطل دعواهم، لأنهم هم أصحابها في الأصل.

ويجوز أن يكون قوله تعالى:﴿رسول من الله﴾ كلاماً مستأنفاً، مبنياً على سؤال يثيره سائل عن صفة هذه البيّنة. كما يجوز أن يكون "رسول" بدلاً من البيّنة، فيقتضي أن يكون من تمام لفظ "البيّنة"، وذلك بإبطال ما زعموه، وإبطال معاذيرهم، وإقامة الحجة عليهم بأن البيّنة التي ينتظرونها قد حلّت. ولكنهم لا يتدبرون أو لا ينصفون، أو لا يفقهون. والتنكير - هنا - لكلمة "رسول" للنوعية، والمراد منها تيسير ما يستصعب؛ كتنكير لفظة "أيام" في قوله تعالى:﴿أياماً معدودات﴾(البقرة:184). وقوله عز وجل:﴿ألمص كتاب أنزل إليك﴾(الأعراف:1- 2). وهو يفيد أن البيّنة هي الرسول(صلى الله عليه وسلم).

والتلاوة: إعادة الكلام دون زيادة عليه ولا نقص منه، سواء أكان مكتوباً أم محفوظاً عن ظهر قلب. والكلام المقصود هو الوحي المنزّل عليه(ص). وتعدية الفعل "يتلو" إلى "صحفاً" مجاز مرسل مشهور ساوى الحقيقة. قال تعالى:﴿وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب﴾(العنكبوت:48).، وهو باعتبار المتلوّ مكتوباً، وإنما كان رسول الله(صلى

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص472.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج30، ص475.

الله عليه وسلم) يتلو عليهم القرآن عن ظهر قلب، ولا يقرأه من مصحف؛ فمعنى يتلو صحفاً أي؛ يتلو ما هو مكتوب في صحف، والقرينة ظاهرة، وهي اشتهار كونه (صلى الله عليه وسلم) أمّياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

ووصف الصحف بالمطهّرة؛ طهارة مجازية، أي: كون معانيها لا لبس فيها، ولا تشتمل على ما فيه تضليل. وهذا تعريض ببعض ما في أيدي أهل الكتاب من التحريف والأوهام. وهو ما يستلزم من الكلام. ووصف الصحف بالكتب، والقصد منه أن الصحف التي يُكتب فيها القرآن تشمل ما تضمنته كتب الرسل السابقين مما هو خالص من التحريف والباطل. كما قال تعالى:﴿مصدّقا لما بين يديه﴾(البقرة:97). وقال:﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾(الأعلى:18 - 19). فالقرآن زبدة ما في الكتب الأولى، ومجمع ثمرتها، فأطلق على ثمرة الكتب اسم، "كتاب" على وجه مجاز الجزئية.

ولفظ "القيّمة" الذي يعني شديدة القيام، مجاز في الكمال والصواب. وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس، تشبيهاً بالقائم؛ لاستعداده للقيام بالعمل النافع، وضده؛ العِوَج. قال تعالى:﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا﴾(الكهف:1 - 2). أي؛ يجعل فيه نقصَ الباطل والخطإ، فالقيّمة؛ مبالغة للقائم، مثل السيد للسائد، والميّت للمائت، وتأنيث الوصف لاعتباره وصفاً للجميع[1].

وقوله تعالى:﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد جاءتهم البيّنة﴾(البينة:4)، المقصود بهذه الآية تسلية الرسول(ص)، أي:« لَا يَغُمَّنَّكَ تَفَرُّقُهُمْ فَلَيْسَ ذَلِكَ لِقُصُورٍ فِي الْحُجَّةِ بَلْ لِعِنَادِهِمْ، فَسَلَفُهُمْ هَكَذَا كَانُوا، لَمْ يَتَفَرَّقُوا فِي السَّبَبِ وَعِبَادَةِ الْعِجْلِ، إِلَّا بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ »[2]. والمقصود بالبيّنة هنا؛ هو مجيء عيسى (عليه السلام)، فهي عادة قديمة لهم. هكذا تعامل القرآن الكريم مع الفئة المؤمنة من أهل الكتاب. فكيف تعامل مع الأكثرية الكافرة؟...

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص477.

[2] - المرجع نفسه، ج30، ص479.

المبحث الثاني: القرآن الكريم والفئة الكافرة من أهل الكتاب.

لقد اتصفت هذه الفئة بكل الصفات التي تبعدها عن الله سبحانه ومنها؛ الحسد، والعمل على ردة المؤمنين، والجدال بالباطل، والكفر وكتمان الحق، والتعنت والتطاول على الله، والغلو في الدين، والعدوانية على المسلمين!! ولقد دعاهم القرآن الكريم إلى ترك هذه الصفات السيئة والتحلي بصفات المؤمنين الطاهرين. فهل نفعتهم أوامر القرآن ونواهيه؟

*__حسد أهل الكتاب للمؤمنين__: قال الله تعالى:﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(البقرة:105). تكشف هذه الآية سبب امتناع اليهود عن الإيمان بالقرآن، إذ لما قيل لهم آمنوا بما نُزّل على محمد، قالوا:﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾(البقرة:91). فليس سبب تمسكهم بما أنزل عليهم هو الذي دفعهم إلى تكذيب ما أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) والكفر به، بل السبب الحقيقي يكمن في حيدهم محمداً وما أنزل عليه من هدي، وكذلك ما أنزل للمسلمين من خير[1].

إن الله تعالى وصف هؤلاء اليهود بالكفر قبل أن يذكر أنهم من أخل الكتاب. إنه الحقد والحسد الدفين. فقد كانوا قبل مجيء محمد(صلى الله عليه وسلم) بالرسالة من ربه على أمل أن يكون هذا النبي من نسلهم وعشيرتهم. ولكن لما بُعث من العرب ثارت ثائرتهم، وكرهوا أن يكون هذا الخير في العرب ومن العرب، واعتقدوا أنهم سلبوهم ميراث النبوة.

فنفي الود هو نفي محبة الخير، لأن الذي يحب الخير يتمناه، وهؤلاء لا يتمنون الخير للمؤمنين. وفي قوله: ﴿الذين كفروا﴾ إفادة الشمول والعموم، حتى يشمل هذا الحكم اليهود والنصارى، وهم "أهل الكتاب"[2]. وحكم عليهم بالكفر، لأنهم لم يتبعوا ما جاءت به كتبهم من قبل، وقد ذُكر وكُتب فيها الرسول محمد(صلى الله عليه وسلم)، أي؛ في التوراة والإنجيل، وقد أمرتهم هذه الكتب باتّباع الحق، والإيمان بهذا النّبي، لكنّهم حسدوه وحسدوا المؤمنين به، وناصبوهم العداء.

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 652.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص 653.

ولما اقتضى الحال أن الكافرين من غير أهل الكتاب يحسدون أيضاً المؤمنين، هنا عطف المشركين على أهل الكتاب، للاحتراس. ولكي يَحكُم على الجميع من الكافرين. والتنزيل، دون الإنزال لحكاية الواقع؛ إذ القرآن نزل منجماً؛ لتسهيل حفظه وفهمه وكتابته، وللتيسير على المكَلَّفين في شرع الأحكام تدريجاً[1].

والخير؛ هو النّعمة والفضل. والمقصود به هنا؛ النبوّة وما أيّدها من الوحي والقرآن والنّصر، وهو المعَبَّر عنه بالرحمة في قوله تعالى:﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾. وهذا يتضمّن ردّاً من الله عليهم. فالله سبحانه أراد الخير لنبيّه وللمؤمنين، وإن كانوا هم لا يريدونه، ويختص برحمته من يشاءُ اختصاصَه بالرّحمة. فمفعول المشيئة محذوف. والمشيئة؛ هي الإرادة، أي؛ إرادة الله جارية على وَفْق حِكمته، والنبوّة لا تحصل بالاكتساب والجُهد؛ لأن الله هو الذي يصطفي من أراده لها، لخَطَر أمْرها، بخلاف غيرها من الفضائل ؛كالصّلاح والعلم. فرُبّ فاسق صَلُحت حالُه. ورُبّ جاهل مُطْبِق، صار عالماً بالسّعي والاكتساب. ومع هذا فلا بدّ لصَاحبها من استعداد في الجملة، ثم وراء ذلك، التوفيق وعناية الله تعالى[2].

وقوله:﴿والله ذو الفضل العظيم﴾، تذييل؛ لأن الفضل يشمل إعطاء الخير، والمعاملة بالرحمة، وهذا التقرير غرضه التّنبيه، على أنّ واجبَ مريدِ الخيرِ التّعرضُ لفضل الله تعالى، والرّغبةُ إليه[3]. ويتجلّى ذلك في تخلّيه عن المعاصي والخبائث، وتحلّيه بالفضائل والطاعات، ليكون أهلاً لمحبة الله تعالى. ومن عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشّدة. وكثير من أهل الكتاب لا يحسدون المؤمنين، ويكرهون الخير لهم فحسب، بل ويحاولون جاهدين ردّهم عن دينهم، وإعادتهم إلى الكفر بعد الإيمان**!!**.

***أهل الكتاب،والعمل على رِدّة المؤمنين**: قال الله تعالى:﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة:108).

1- ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج1، ص 653.

2 - ينظر: المرجع نفسه ، ص 654.

3 - ينظر: المرجع نفسه ، ص 654.

سياق الآية (سبب النزول): قال ابن عباس:« نزلت في نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد وقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم؟ ولو كنتم على الحق ما هُزمتم. فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم!! »[1]. وقال الواحدي رحمه الله: «نزلت في معاذ بنِ جبل، وعمّار بنِ ياسر حين دعاهما اليهود إلى دينهم »[2].

من خلال السياق الذي نزلت فيه هذه الآية، يتبيّن حسد أهل الكتاب، وخاصة اليهود منهم. فإذا كانوا لايودّون هذا الدين الذي جاء من عند الله، وأرسل به محمد(صلى الله عليه وسلم)، فمقتضى القول إنهم يودون بقاء المؤمنين على كفرهم بإعادتهم إليه، وإكراههم عليه إن استطاعوا.

يذكر ابن عاشور أنه ذكر في تفسير "ابن عطية" و"الكشاف"، و"أسباب النّزول للواحدي" أن حُذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، أتَيَا بيت المدْرَاس*، وفيه فنْحاص بنُ عازوراء، وزيد بن قيس، وغيرهما من اليهود، فقالوا لحذيفة وعمار: ألم تروا إلى ما أصابكم؟ ولو كنتم على الحق ما هُزمتم. فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم!!. فردّا عليهم وثبتَا على الإسلام.

إنّ تمنّي أهل الكتاب ألاّ ينزل دين إلى المسلمين، يستلزم تمنيهم أن يتّبع المشركون دين اليهود أو دين النصارى، حتى يعمّ ذلك الدين جميع بلاد العرب. فلما جاء الإسلام ضاقت صدروهم، وشرِقَت لذلك. فأما علماؤهم وأحبارهم، فخابوا وعلموا أن ما صار إليه المسلمون خير مما كانوا عليه من الشرك. لأنهم صاروا موحّدين لله، مؤمنين بأنبيائه ورسله وكتبه. وفي ذلك إيمان بموسى وعيسى، فقد حازوا الفضل جميعه. وإن لم يؤمنوا ويتبعوا دين اليهود والنصارى.

وأما عامّة اليهود وجهلتهم فقد بلغ بهم الحسد والغيظ إلى مودة أن يرجع المسلمون إلى الشرك، ولا يبقون على هذه الحال الحسنة الموافقة لدين موسى في معظمهن وهذا من بعد ما تبيّن لهم الحق من جهة التوحيد والإيمان، بخلاف الشرك. وكذلك من بعد ما تبيّن لهم صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وهذا الود هو بسبب الحسد، "فحسداً" حال من ضمير ودّوا؛ أي أن هذا الود لا سبب له إلاّ الحسد لا الرغبة في الكفر[3].

---

[1] - الواحدي، أسباب النزول، ص 23.

[2] - الواحدي، أسباب النزول ، ص 79.

* بيت تعليم التوراة لتلامذة اليهود.

[3] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 670.

وقوله:﴿من عند أنفسهم﴾ إشارة إلى أن هذا الحسد متأصل في صدورهم، بما ينطوي عليه من الغيظ. فالعِنديّة (عند)، دالة على الاستقرار، ودالة على تمكن الحسد منهم ومن أنفسهم.

والله سبحانه يأمر المسلمين بالعفو والصفح عنهم في هذا الموضع، لأن هذا السلوك الذي صدر من أهل الكتاب يثير حفيظة المسلمين، لأنهم لا يريدون أن يعودوا إلى الكفر. كما لا يريد أحدهم أن يقذف في النار، مصداقاً لقوله تعالى:﴿وكرّه إليكم الفسوق والعصيان﴾(الحجرات:7). فمن يودّ لهم ذلك، هو ألد أعدائهم، فالله لا يريد لهم الانتقام من اليهود، بل يريد لهم أن يكونوا قدوة في الفضائل، ورأسها العفو والحلم[1].

فمن خلال هذا الفعل الكلامي الطّلبي، يريد الله سبحانه أن يهدي المسلمين إلى صفات المروءة، وصفات العظماء، وهاتان الصفتان هما: العفو والحِلم والصفح هي صفات المولى تبارك وتعالى، وبذلك يكون المسلمون خير خلفاء الله في الأرض بالعفو عند المقدرة، وبالصفح الجميل؛ وهما من مكارم الأخلاق.

وقوله تعالى:﴿حتى يأتي الله بأمره﴾؛ أي حتى يجيء ما فيه شفاء غليلكم. وقيل: هو إجلاء بني النضير، وقتل قريظة. وقيل: الأمر بقتال الكتابيين، أو ضرب الجزية. ويعضد هذا القول قوله تعالى:﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾، الذي هو تعليم المسلمين فضيلة العفو. والغرض منه هو أن الله سبحانه يقدر على كل شيء، وبإمكانه أن ينتقم متى أراد وكيفما أراد. لكن الله يعفو ويصفح؛ فالأَوْلى بالمسلمين أن يعفوا ويصفحوا أيضاً.

ومن الإشارات التداولية استخدام الخطاب القرآني ضمير الغائب، عند حديثه عن الصفات السيئة لأهل الكتاب، أما عندما يأتي إلى خطاب المؤمنين، فيستخدم هنا الضمير "كُم" الخاص بالمخاطَب. فدلالة "ودّ أهل الكتاب" هنا هو« ودّ النفس ورغبة القلب والشهوة، التي تهفو إليها الأهواء من وراء كل كيد، وكل دسّ، وكل مراء، وكل جدال، وكل تلبيس »[2]. وليس الودّ الحب الصافي النقي من كلّ غيرة وحسد، بل الودّ هو تمنّي الخير للناس جميعاً.

*****جدال أهل الكتاب وجهلُهم**: قال الله تعالى:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(آل عمران:65- 66). والمعنى هو انتقال من الدعاء إلى كلمة الحق السواء، إلى الإنكار عليهم محاجتهم الباطلة للمسلمين في دين إبراهيم، فالمحاجة فرع عن المخاصمة في الدعوى، والقصد منها إبطال مساواة

---

[1] - ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج1، ص 670.

[2] - قطب سيد ، في ظلال القرآن، مج1، ص 414.

دين محمد(صلى الله عليه وسلم) لدين إبراهيم عليه السلام، أي: قل لهم يا محمد لم تحاجون وتنازعون في إبراهيم فيما أديانكم وكتبكم لم تنزل إلاّ بعد فترة من بعث إبراهيم بالذات.

لقد شاع – فيما نزل من القرآن في مكة، وبعدها– أن الإسلام الذي جاء به محمد(صلى الله عليه وسلم)، يرجع إلى الحنيفية دين إبراهيم، وأن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً. وقد أعلن هذا بين المشركين في مكة، وبين اليهود في المدينة، وبين النصارى في وفد نجران. وقد عُلم أن المشركين كانوا يدّعون أنهم ورثة شريعة إبراهيم، وسدَنة بيته. وكان أهل الكتاب قد ادّعوا أنهم على دين إبراهيم؛ وهذا ادّعاء منهم أنهم على ملّته، انتحلوه ليدعوَ كلُّ فريق منهم إلى دينه بين العرب، وخاصة النّصرانية. فقد كان دعاتها يحاولون انتشارها بين العرب. فممّا يروّجون له لقبول ديانتهم؛ أن يقولوا: إنها ملّة إبراهيم.

وقد رُويَ أن وفد نجران قالوا للنبي(صلى الله عليه وسلم) حين دعاهم إلى اتباع دينه: على أيّ دين أنت؟ قال: على ملّة إبراهيم. قالوا: فقد زدت فيه ما لم يكن منه. فعلى هذه الرواية يكون المخاطَب في الآية بالخصوص هم النصارى. وتنازعت اليهود والنصارى أيضاً، وادّعى كلُّ فريق أنه على دين إبراهيم دون الآخر. وهنا يكون الخطاب موجهاً إليهما معاً؛ يهود ونصارى[1].

والقرآن الكريم عندما يستخدم لغة المحاججة، فهي ليست لغة نفي فكري، وليست لغة تصوّر يؤمن به شخص أو أمة؛ فكل إنسان حر في تصوره العقدي، ولا ينبغي أن يسلب هذا الحق[2]. لا إكراه في الدين، ولكن الصراع يكون بالحجة، والبرهان والحق أحق أن يتبع.

وقوله تعالى:﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلاّ من بعده﴾، يكون منعاً لقولهم: فقد زدت فيه ما ليس منه. والمقصود؛ إبطال أن يكون الإسلام هو دين إبراهيم (عليه السلام). وتفصيل هذا المنع هو؛ أنكم لا قبل لكم بمعرفة دين إبراهيم، فمن أين لكم أن الإسلام قد زاد فيما جاء به على دين إبراهيم؟ فإنه لا مُستند لكم في علمكم بأمور الدّين إلاّ التوراة والإنجيل، وهما قد نزلا بعد إبراهيم. فمن أين يُعلم ما كانت شريعة إبراهيم حتىّ يُعلم المزيد عليها؟[3].

وذكر التوراة على هذا؛ لأنها أصل الإنجيل، ودين اليهود هو التوراة، ودين النصارى هو الإنجيل، وكلاهما نزل بعد إبراهيم. فكيف يكون شريعة له؟! وبهذه المحاجة يثبت أن الإسلام على دين إبراهيم. وقوله تعالى:﴿وما

---

[1] - ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج3، ص 271.

[2] - ينظر: الشابندر غالب حسن ، الآخر في القرآن، ص 66 – 67.

[3] - ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير ، ج3، ص 271 – 272.

أنزلت التوراة والإنجيل إلاّ من بعده﴾، يدل على أن علمهم في الدين منحصر فيهما، وهما نزلا بعد صحف إبراهيم، فلا جائز أن يكونا عينَ صحف إبراهيم!! وهذا ما يبطل قولهم: إن الإسلام زاد على دين إبراهيم. ولا يدل على أنّهم على دين إبراهيم؛ لأن التوراة والإنجيل لم يرد فيهما التصريح بذلك، وهذا هو الفارق بين انتساب الإسلام، وانتساب اليهودية والنصرانية إلى إبراهيم (عليه السلام). قال تعالى:﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلما﴾.

أما قوله تعالى:﴿والله يعلم﴾؛ فالقصد منه أن الله أنبأ في القرآن بأنه أرسل محمداً(صلى الله عليه وسلم) بالإسلام دين إبراهيم، وهو أعلم من اليهود والنّصارى، ولم يمتنّ الله عليكم بهذا العلم في التوراة والإنجيل، فأنتم لا تعلمون ذلك، فلمّا جاء الإسلام وأنبأ بذلك، أردتم انتحال هذه المزية، وحسدتم المسلمين ورسولهم في هذه النعمة، فكانت الحجة أقوى من ادّعائكم، ولم يبق لكم عذر في أن تقولوا: إن مجيء التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم مشترك الإلزام لنا ولكم، فإن القرآن أنزل بعد إبراهيم، والدّليل المذكور في القرآن أبطل ادّعاءهم[1].

وفعل القول المتمثل في الاستفهام﴿فلِمَ تحاجون؟﴾؛ مقصود منه التّنبيه على الغلط، وقوله:﴿في إبراهيم﴾؛ المقصود في دينه، فهذا من تعليق الحكم بالذّات، والمراد حال من أحوال الذّات يستفاد من المقام. وهنا يفيد الإنكار، والغرض منه النّهي، أي؛ فلاَ تُحاجون.

وقوله:﴿ها أنتم حاججتم﴾؛ المقصود به التنبيه، ويأتي مثل هذا التركيب في مقام التعجب، والإنكار والتنبيه، ونحو ذلك. ولذلك يؤكد هذا التركيب غالباً باسم إشارة بعده نحو: ها أنا ذا، وها أنتم أولاء، أو هؤلاء. وقوله:﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾؛ تكميل للحجة؛ أي إن القرآن هو من عند الله، أثبت أنه ملّة إبراهيم، وأنتم لم تهتدوا لذلك لأنّكم لا تعلمون[2]. وهذا كقوله:﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾(البقرة:140).

وقوله:﴿أفلا تعقلون؟﴾ فعل كلامي يتضمن معنى الاستفهام. والغرض منه التّعجب من حال هؤلاء، الذين يدّعون أشياء لا يعلمونها بل يجهلونها. وهو نوع من الردع لهم، والتوبيخ، لأنهم يهرفون بما لا يعرفون؛ حالهم كحال الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري. ومن اتّصف بهذه الصفة كان أحمق، يستحسن أن يردّ عليه بالصّمت، لأن الصّمت في هذه الحال أبلغ من المقال.

---

[1] - ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج3، ص 273.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج3، ص 274.

ولما كانت طريقة أهل الكتاب هي العدول عن الحق، والإعراض عن قبول الحجة، بيّن القرآن الكريم أنهم لا يقتصرون على هذا القدر، بل يجتهدون في إضلال مَن آمن بالرسول(صلى الله عليه وسلم)؛ كقولهم: إن محمداً - عليه الصلاة والسلام - مقرّ بموسى وعيسى، ويدّعي لنفسه النبوة. وبيّن هذا قوله تعالى:﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(أل عمران:69).

إن الغرض من هذا الخبر، هو تنبيه المؤمنين على ألاّ يغتروا بكلام اليهود، لأنهم يعلمون أن الإسلام حق، ولا يريدون للمؤمنين هذه النعمة، ولذلك يحاولون ردهم إلى الكفر، حتى يتساوَوا معهم في الإثم، وهذا حسدا من عند أنفسهم.

والحرف "مِن" يفيد التبعيض، لأن أهل الكتاب ليسوا سواء في الكفر، بل منهم طائفة مؤمنة معتقدة وقائمة، كما وصفها القرآن ذاتُه. قال تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(المائدة:66). وقال عزّ من قائل:﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(آل عمران:113).

وقوله:﴿وما يضلون إلاّ أنفسهم﴾، القصد منه؛ أنهم يهلكون أنفسهم بما يصيبهم من عقاب الله، على مقصدهم إضلال المؤمنين. ثم إنهم حرموا أنفسهم عن معرفة الهدى والحق، لأن الذي انحرف عن الحق هو الضّال، وكذلك الخيبة والحسرة التي تلفّهم؛ لأنهم لم يحقّقوا مبتغاهم في إضلال المسلمين، ولم يكترث المسلمون لمحاولاتهم التضليلية، بل تمسكوا بالحق أكثر فأكثر. فخاب أمل اليهود والنصارى، وخسروا، وتحطم أفق انتظارهم. حيث اعتقدوا شيئاً، ولاح لهم أن الأمر بخلاف ما تصوّروه[1]. ثم قال سبحانه:﴿وما يشعرون﴾، أي ما يعلمون أن هذا العمل يضرهم، ولا يضر المؤمنين.

*‌**كفر أهل الكتاب بآيات الله وكتمانهم الحق:** قال الله تعالى:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(آل عمران:70 – 71). في هاتين الآيتين يلتفت المولى عز وجل إلى خطاب اليهود بفعل طلبي تمثل في الاستفهام الإنكاري؛ إذ ينكر عليهم تصرفهم تجاه آيات الله والمعجزات التي أراهم إياها، ولذلك قال:﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، فقد شاهدوها عيانا، وقد كانوا في حال وعي تام، لكنهم تمردوا وضلوا، وأرادوا أن يضلوا المؤمنين عن هذه الآيات. ثم يكرر سبحانه وتعالى النداء. والغرض التداولي منه، أو القصد منه هو التوبيخ، وتسجيل باطلهم، ويوبخهم كذلك لما ألحقوه بالدين الحق من الأكاذيب

[1] - الرازي الفخر، مفاتيح الغيب، ج8، ص 255.

والخرافات والتأويلات الباطلة، وكتمانهم الحق الذي جاء به محمد(صلى الله عليه وسلم) مع علمهم به، وكذلك تحريفهم كتبهم بما يتناسب مع أهوائهم، وهم يعلمون كل ذلك، ولكنهم لم يعملوا بشيء منه.

ولم يتوقّفوا عند هذا الحدّ، بل استعملوا كلّ الحيل والمكائد لصدّ المؤمنين عن الإيمان بالله، والكفر بما جاء به خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وسلم). يقول الله تعالى:﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(آل عمران:72).

هذه الآية عطفت مع الآية (69) من السورة نفسها،﴿ودّت طائفة﴾، فالطائفة الأولى حاولت الإضلال بالكلام والمجاهرة به، أما هذه الطائفة فحاولت الإضلال ورد المؤمنين إلى الكفر بالمخادعة. وقيل إن المقصودين بالطائفة هم طائفة من اليهود؛ منهم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وغيرهما من يهود خيبر[1]. حيث أغواهم العُجب بدينهم، فتوهموا أنهم قدوة للناس، فلما أعيتهم المجاهرة بالمكابرة، دبروا للكيد مكيدة أخرى، فقالوا لطائفة من أتباعهم: آمنوا بمحمد أول النهار، مظهرين أنكم صدقتموه، ثم اكفروا آخر النهار ليظهر أنكم كفرتم به عن بصيرة وتجربة، فيقول المسلمون ما صرف هؤلاء عنّا إلاّ ما انكشف لهم من حقيقة أمر هذا الدين، وأنه ليس هو الدين المبشر به في الكتب السالفة[2]، ففعلوا ذلك.

وقوله:﴿على الذين آمنوا﴾ حكاية لما قاله اليهود، والذين آمونا هم أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم)، ووصف أتباع محمد بالإيمان هو تنويه من العلي القدير بصدق إيمانهم. وعبارة "وجه النهار" تعني أوّله، وعبارة "لعلهم يرجعون" تعني بعد أن يحصل لهم الارتياب في دينهم فيرجعون إلى دينكم، ويقولون إن أهل الكتاب أعلم منا حقاً. وقيل: آمنوا بصلاته إلى البيت المقدس فإنه الحق في أول النهار، واكفروا بصلاته أخر النهار إلى الكعبة لعلهم يرجعون إلى قبلتكم[3].

والغرض والقصد من هذا السلوك الفعلي الإنجازي، هو التشكيك في دين الإسلام، لكي يعود المؤمنون عن إيمانهم. ولكن الله هدَى المؤمنين وثبّتهم، وخاب كيدُ اليهود، وخسِروا، لأن الفضل بيد الله وحده، يؤتيه من يشاء من عباده، والله واسع عليم.

---

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص 279 – 280.

2 - المرجع نفسه، ج3، ص 280.

3 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: البردولي وإبراهيم أطفيش، ج4، دار الكتب المصرية، القاهرة 1964، ص 111.

***كفر أهل الكتاب وصدهم المؤمنين السبيل:** قال الله تعالى:﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(آل عمران:89 - 99).

يعود القرآن الكريم إلى الطلب من الرسول(صلى الله عليه وسلم) أن يبلّغ أهل الكتاب أوامر الله ونواهيه، بأسلوب فيه جدال بالتي هي أحسن. وتبدأ الآية ب"قل" أي يا محمد، ونادِ، أو توجّه بالنداء إلى أهل الكتاب. والنداء يتضمن معنيين أو غرضين: الأول مدح، والثاني تعريض وذم. الأول مدحيّ، والثاني قدحيّ. فأمّا المدحِيّ فالله كرّمهم بالكتب السماوية، وبعث فيهم أنبياء، وحصتهم من الأنبياء والكتب لم تظفر بها أمة غيرهم.

والثاني غرض قدحي؛ أي: كيف يكفرون وقد أرسل الله إليهم الرسل، وأيّدهم بالمعجزات، وأنزل عليهم التوراة والإنجيل، وبشّر بمحمد(صلى الله عليه وسلم) فيهما، وهم يعلمون ذلك. لكن عملهم كان مخالفاً لكل ما جاء في كتبهم، ومخالفاً للرسالة التي جاء بها الأنبياء. فقد رضوا لأنفسهم بالهوان والذل في إعراضهم عن الحق. ثم يذكر القرآن الأمر الذي كان من الله إلى نبيّه، والذي طلب منه تبليغه إلى أهل الكتاب؛ وهو﴿لِمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾. فهذا الفعل الكلامي المتضمن معنى الاستفهام يحمل غرض الإنكار المبطن بالتوبيخ، ثم يردف هذا الاستفهام بجملة﴿والله شهيد على ما تعملون﴾، وهي في موضع الحال، لأن أهل الكتاب يوقنون بعلم الله تعالى، وأنه لا يخفى عليه شيء، فجحودهم لآيات الله مع اليقين بها، هو أشد إنكاراً[1].

يتكرر هذا الأسلوب في الآية الموالية، والتكرار للإشفاق من جهة، وللتنبيه من جهة ثانية، والتحذير والتوبيخ من جهة ثالثة. وقوله:﴿قل يا أهل الكتاب لِمَ تصدّون عن سبيل الله من آمن﴾، استفهام كان الغرض منه التوبيخ والإنكار على مجادلتهم لإضلال المؤمنين، بعد أن أنكر عليهم ضلالهم في نفوسهم في الآية السابقة. ﴿لِمَ تكفرون بآيات الله﴾. و"سبيل الله" مجاز القصد منه دين الله تعالى الحق، فهو كناية عن موصوف. والمراد بالصد هن سبيل الله إنما محاولة إرجاع المؤمنين إلى الكفر بتشكيكهم في دينهم. وأم صدّ الناس عن الحج إلا الكعبة، وترغيبهم في حج بيت المقدس، فبتفضيله على الكعبة[2].

وقوله:﴿تبغونها عوجا﴾ أي: تريدون وتطلبون الاعوجاج لهذه أو هذا السبيل، فيخرج المؤمنون عن الطريق المستقيم الذي أمرهم الله باتّباعه. أي: أنتم ضد الاستقامة. وهذه معانٍ تضمنها قوله:تبغونها عوجا. وعوجا اسم

---

1 - ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج4، ص 25.

2 - ينظر: المرجع نفسه، ج4، ص 26.

مصدر، لأن المصدر الحقيقي هو اعوجاج، والاعوجاج يظهر في الأشياء المحسوسة الملموسة. أما العِوج فيخص الأفكار؛ أي تصوير هذه الأفكار للمؤمنين باطلة زائفة[1]. وعوج الأفكار والعقول اخطر من اعوجاج الأشياء والجُسوم. والسبيل المعوجّة هي سبيل الشّرْك، وما هم عليه من الدين بعد تحريفه ونسخه.

وقوله تعالى:﴿وأنتم شهداء﴾ حال توازن الحال التي قبلها في قوله سبحانه:﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ ومعنى "وأنتم شهداء" أي: وأنتم عالمون أنها سبيل الله. وفي هذا إحالة على ما في ضمائرهم مما لايعلمه إلاّ الله. والقصد من هذا القول هو كشفهم على حقيقتهم ووخز قلوبهم لعلهم يرجعون باللائمة على أنفسهم. لذلك عقب المولى عز وجل بقوله:﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾. وأسلوب النفي هذا، الغرض منه هو التهديد والوعيد، والتذكير بأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ويحمل هذا القول معنى قوله في موعظتهم في الآية التي قبلها﴿والله شهيد على ما تعملون﴾[2]. واستعمال حرف "الباء" الزائد للتوكيد، وإعطاء الكلام قوة مؤثرة في السّامع، فالله سبحانه لا تأخذه سِنة ولا نوْم، وهو السميع العليم.

***خيريّة أمّة محمد(صلى الله عليه وسلم)، وفسوق أهل الكتاب:** قال الله تعالى:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(آل عمران:110). لقد حكم الله سبحانه على أمة الرسول(صلى الله عليه وسلم) بأنها خير أمة أخرجت للناس، بصيغة الماضي الدال على التوكيد. والغرض من هذا التقرير لخيرية محمد(صلى الله عليه وسلم) هو تعليل بالدعوة إلى الخير، وحتى تحافظ هذه الأمة على هذه الشهادة من الخالق عز وجلّ.

ولكن، كيف تبوّأت هذه الأمة مقام الخيرية؟ فالله سبحانه وتعالى يذكر ويقدّم نتيجة قبل عرض حججها، وأسبابها التي مهّدت لهذه الأمة أن تحوز هذه المكانة عند الله وبين الأمم. إنّ من هذه الأسباب وهذه الحجج: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله. وهذه أحوال عائدة على الضمير "كنتم". ولذلك فالشيء الذي نالوا به هذه الخيرية يجدر بهم أن يحافظوا عليه، ويؤكد عليهم فرضه، إن كان قد فرض عليهم من قبل.

والإشارة في الخطاب ب"كنتم" القصد منها أصحاب الرسول(صلى الله عليه وسلم)، فالمراد بالأمة الجماعة. وأهل العصر النبوي، مثل القرن أو العصر. ويظهر هذا المعنى في قوله تعالى:﴿وادّكر بعد أمة﴾(يوسف:45)، أي بعد مدة طويلة كمدة عصر كامل.

---

[1] - ينظر: المرجع نفسه، ص 26.

[2] - ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير ، ج4، ص 27.

ولا شك في أن الصحابة عاشوا أفضل القرون التي ظهرت في العالم، لأنّ رسولهم أفضل الرسل، ولأنّ الهدي الذي كانوا عليه لا يماثله هجي أصحاب الرسل الذين مضوا من قبل. قال النبي(صلى الله عليه وسلم): « خير القرون قرني»[1].

وقد يكون الخطاب قاصداً بالضمير كل المسلمين في كل جيل ظهروا فيه، وهي دعوة إلى كل مسلم بحسب قدرته ومبلغ علمه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى الإيمان بالله. كل بحسب موقعه، وذلك قصد التغيير نحو الأفضل الذي يرضاه الله، بدءاً بالأهل والولد، ووصولاً إلى جميع أهل البلد. وفي هذا السلوك ضمان بأن الخير لا ينقطع من المسلمين[2]. وتحصل لهم الخيرية باستمرار، بحصول أسبابها ووسائلها؛ لأنهم اتصفوا بالإيمان، والدعوة إلى الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿أُخرجت للناس﴾؛ أي كنتم خير الأمم التي وجدت في عالم الدنيا، أخرجها الله موجد الأمم، والسائق إليها ما به تفاضُلها. والمراد بالناس؛ جميع البشر من أول الخليقة. وقد قُدّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على "تؤمنون بالله"؛ لأن السياق والمقام يقتضيان ذلك، ولأن الصفتين الأوليين في هذا المقام، مسوقتان للتنويه بفضيلة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[3]. وهما مثالان تطبيقيان يدلان على الإيمان بالله، إذ الإيمان فعل وقول، والاعتقاد بالله يصدّقه الفعل والقول، وذلك هو الإيمان الثابت المحقق.

فالإيمان قُصد به التفضيل على المشركين، وذِكْر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قُصد بهما التفضيل على أهل الكتاب، الذين أضاعوا ذلك بينهم. قال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾(المائدة:97). إلاّ فئةٌ قليلة بين قومهم - مثل عبد الله بن سلام - فلم يكونوا جمهرةَ[4] الأمة، وسوادَها الأعظم.

وقد استدل العلماء على أن الإجماع حجة بهذه الآية، وأنه معصوم من الخطأ، بناء على أن التعريف في لفظ "المعروف"، والتعريف في لفظ "المنكر" للاستغراق. فإذا أجمعت الأمة على حُكم لم يجزْ أن يكون ما أجمعوا عليه منكراً، وتعيّن أن يكوون معروفاً، لأن الطائفة المأمورة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضِمْنِهم. ولا يجوز سكوتها

[1] - ينظر: المرجع نفسه، ج4، ص 48.
[2] - ينظر: ابن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير ، ج4، ص 49.
[3] - ينظر: المرجع نفسه، ج4، ص 50.
[4] - ينظر: المرجع نفسه، ج4، ص 51.

عن منكر يقع، ولا عن معروف يُترك. فلو أجمعوا على منكر عند الله خطأً منهم، لما كان منكراً حتّى تنهَى عنه طائفة منهم، لأن اجتهادهم غايةُ وُسْعهم.

لما فضّل الله أمة محمد(صلى الله عليه وسلم) على أهل الكتاب، القصد منه تنبيه أهل الكتاب على أنهم قادرون على أن يحصلوا هذا الفضل. ولو أن الآية تعريض بهم؛ لأنهم تردّدوا في اتّباع الإسلام، وكذلك كان وفد نجران متردداً في أمر الإسلام.

وأهل الكتاب يشمل اليهود والنصارى، لكن المقصود الأول بالخطاب هنا هم اليهود، لأنهم كانوا مختلطين بالمسلمين في المدينة. وقد أسلم منهم على يد النبي(صلى الله عليه وسلم) نفر قليل. والمقصود بـ"أهل الكتاب"،من بقي بوصف أهل الكتاب، وهو وصف لا يبقى عليهم بعد أن يتديّنوا بالإسلام. وجيء بالاحتراس في قوله تعالى:﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾، أي: من أهل الكتاب من آمن بمحمد(صلى الله عليه وسلم)، وهم قليل، وأكثرهم لم يؤمنوا به، وهو الفريق الفاسق عن دينه، محرّف له، مناوِئ لأهل الخير، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، مثل الذين سمّموا الشّاة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) في خيبر، والذين حاولوا أن يرموا عليه صخرة في المدينة[1].

***تعنّت الفئة الكافرة وتطاولها على الله– سبحانه– وأنبيائه (عليهم السلام):** قال الله تعالى:﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾(النساء:153).

إن التعبير بالفعل المضارع "يسألك" لقصد استحضار حالتهم العجيبة في هذا السؤال حتى كأن السامع يشهد الموقف ويراهم، وكذلك للدلالة على تكرار السؤال وتجدده المرة بعد الأخرى، والإلحاح في هذا السؤال لقصد التحدي والتعجيز والإعنات. والغرض من هذا الوصف للحال بالمضارع هو التعجيب من هذا السؤال؛ والسائلون هم اليهود، وأن أسلافهم سألوا موسى مِن قبلُ ؛ بأن ينزّل عليه الله معجزةً ، قبل ما أنزلت الألواح فيها الكلمات العشر على موسى[2].

و"الفاء" في عبارة ﴿فقد سألوا موسى﴾ هي الفاء الفصيحة؛ تتضمن كلاماً مراداً منه التعجيب، فلا تعجب من أسئلتهم، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك!! وسلوكهم هذا ليس جديداً، بل هو طبع في أسلافهم. فالشيء من

---

[1] - ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج3، ص57.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج6، ص 13 - 14.

منبعه لا يُستغرب. والقصد من هذا الكلام هو تثبيت قلب النبي(صلى الله عليه وسلم) وتَسْلِيَتُهُ ، وكذلك بيان لمدى قبحهم وجراءتهم. وإظهار أن الرّسل، لا تأتي بإجابة عن مقترحات الأمم في طلب المعجزات، بل إرادة الله هي التي تصنعها، وتأتي بها مؤيدة للأنبياء، عند تحديهم لأقوامهم المكذبين لهم. فالله جل وعلا أعلم حيث يضع رسالاته، وهو أحكم الحاكمين.

ولكن، هل كان اليهود صادقين في طلب رؤية الله سبحانه؟ فالذي يطلب رؤية الشيء يريد التأكد من وجوده، واليهود من بني إسرائيل يعلمون بوجود الله، المعجزات تكفيهم للدلالة على وجود الله، والنعم التي أنعم بها عليهم تؤكد ذلك. لكنهم جاحدون متكبرون مجادلون معاندون ومراوغون. وقد يكون السؤال تعجيزياً لموسى كما أسلفنا. يعلق الشعراوي على هذا الكلام بقوله:« والذي شجعهم على أن يقولوا ما قالوه.. طلب موسى "عليه السلام" من الله سبحانه وتعالى أن يراه »[1].

فطَلَبُ المشركين اليهود لا يتسم بالموضوعية، بل هو بُعدٌ عن الحقّ، وتخبّط واضطراب فكريّ، يصف حالهم المزرية، لماّ لم يؤمنوا بالرسالة. فقد قالوا عن القرآن: إنه سحر. وعندما سئلوا: لماذا لم يسْحركم القرآن إذن؟ فليس للمَسْحور إرادة مع السّاحر. لم يجدوا الإجابة!!! وقالوا عن القرآن: إنّه شعر، فتعجّب منهم القوم، وهم أُمّة الشعر!! وقد سبق لهم أن علّقوا المعلّقات على جدار الكعبة[2].

إن القصد والغرض من سؤالهم، هو رفضهم الإيمان بمحمد(صلى الله عليه وسلم). فالكتاب قد نزل، كما نزل كتاب موسى من قبل. وما داموا قد صدّقوا نزول الكتاب على موسى، فيستلزم أنهم يصدّقون نزول الكتاب على محمد(صلى الله عليه وسلم). فلماذا لا يصدّقون؟؛ إنهم يريدون أن ينزّل القرآن جملة واحدة، كما نزَل الكتاب على موسى!!، وقولهم: "من السماء"؛ وكأنهم يتصرفون تصر؛ف أسلافهم، الذين قالوا لموسى: أرنا الله جهرة، فهم يريدون أن يكون الكلام مباشراً من الله لهم!!![3].

ويُروى أن كعبَ بنَ الأشرف، والجماعةَ الذين كانوا حوله، أرادوا أن ينزِل الوحي على كلّ واحد منهم بكتاب، فيقول الوحي لكعب: يا كعب آمن بمحمد!!! فكيف يتدخلون في مسألة الوحي، وهم قد نَسبوا التّنزيل إلى رسول الله؟ ورسول الله، ما قال إنّي نزّلت، بل قال: أُنْزِلَ عَلَيَّ[4].

---

[1] - ينظر: ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، ج6، ص15.

[2] - ينظر: الشعراوي، التفسير، ج5، ص 2775.

[3] - ينظر: الرجع نفسه، ج5، ص 2775.

[4] - ينظر: الرجع نفسه، ج5، ص 2776.

وقوله تعالى:﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾. فالصاعقة؛ صوت مزعج يأتي من أعلى، وبعد ذلك ينزل قضاء الله، إمّا بأمر مُهلك، وإمّا بنار تحرق، وإمّا بريح تدمّر. والظلم؛ هو أن تجعل حقاً لغير صاحبه، بعد أن تكون أخذته من صاحبه. أو تضع شيئاً في غير موضعه، وسؤالهم هذا هو لون من ألوان الظلم. لأنهم لا يَقْدِرون على الإحاطة بما يطلبون رؤيتَه، لأن الإحاطة بالمدْرَك بالأعين، هي نوع مِن القُدرة عليه. وحاشا لله أن ينقلب القادر الأعلى مقدوراً عليه!!، فهذا الذي طلبوه، هو مطلق الظلم ونهايته.. لأن الله عز وجلّ قال:﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾(الأنعام:103). إنه الله سبحانه القادر الذي يدرك كلّ شيء، ولا يدركه شيء.

فالصاعقة التي أخذتهم، نتيجة، والسّبب، هو ظلمهم لأنفسهم؛ لأنهم سألوا نبيّهم ما لا ينبغي، ولا يجوز لهم أن يسألوه، أو يسألوا عنه. والقصد من عقاب الله لهم بالصاعقة، هو ترهيبهم وزجرهم؛ كي لا يعودوا إلى فعلتهم. لكن هذا العقاب لم يرْدعهم، فاتخذوا العجل إلهاً من بعد ما جاءتهم البينات الدالة على وحدانية الله، واتخاذهم العجل إلهاً، أعظم جرماً من السؤال الذي سألوه نبيّهم. ومع ذلك فإن الله سبحانه عفَا عنهم، وآتى موسى عليه السلام سلطاناً مبيناً، فصار يزجرهم ويؤنّبهم، وأحرق لهم العجل الذي اتخذوه إلهاً[1]. وهذا الأسلوب في معاملتهم القصد منه، تأديبهم، وتحذيرهم، من تجرُّئهم على الله، وينبّههم على عدم مقابلة الجميل بالنُّكران والكُفران.

***غلوّ أهل الكتاب في الدّين، وتأليههم المسيحَ ابنَ مريم:** قال الله تعالى:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾(النساء:171). هذا الخطاب موجّه إلى النصارى، وقد خوطبوا باسم أهل الكتاب، تعريضاً بأنهم خالفوا كتابهم. فالنداء هنا خاص بالنصارى، الذين قالوا بأن عيسى بن مريم ابنُ الله وثالثُ الآلهة، وهذا شرك أو إشراك بالله. والله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وبعد نداء النصارى، يأتي فعل النّهي عن الغلو في الدين، والغلو؛ تجاوز الحدّ المألوف؛ مشتق من غلوة السّيف، وهي منتهى اندفاعه. واستعيرت صفة السّهم هذه، للدّلالة على الزيادة على المطلوب من المعقول، أو المشروع في المعتقدات، والإدراكات، والأفعال.

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص15.

والغلوّ في الدين هو أن يُظهر المتدين ما يفوق الحدّ الذي حدّد له الدين. وما ضلال النّصارى، وما تكذيب أهل الكتاب لرسلهم، إلاّ بسبب غلوّهم في دينهم. فقد تجاوزوا الحدّ الذي طلبه منهم دينهم. فاليهود تجاوزوا التوراة ببغض الرسل، والنصارى تجاوزوا الإنجيل إلى اتخاذ عيسى إلهاً، أو ابناً لله– تعالى الله عما يقولون– ومع الكفر بمحمد (صلى الله عليه وسلم). وجعلوا مريم عليها السلام صاحبة لله - سبحانه وتعالى عن ذلك - وقد استخدم الخطاب القرآني أسلوب القصر ب"إنما" وهو قصر إفراد، أي؛ إن عيسى عليه السلام مقصور على صفة الرسالة، والكلمة، والروح، لا يتجاوز ذلك إلى ما يُزاد عليه في تلك الصّفات، من كونه ابناً لله، واتحاد الإلهية به، وكون مريم صاحبة. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لم يتخذ صَاحبة ولا ولداً.

ووصف المسيح بأنه كلمة الله، وصف جاء التعبير به في الأناجيل، ففي صدر إنجيل يوحنا نقرأ ما يلي: « في البدء كانت الكلمة، والكلمة كان عند الله - ثم قال - والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا ». وهكذا حكاه القرآن، فدل على أنه من الكلمات الإنجيلية. فمعنى ذلك؛ أنه أثر كلمة الله. والكلمة هي التّكوين، وهو المعبّر عنه في الاصطلاح ب"كُنْ". فإطلاق الكلمة على التكوين مجاز القصد منه تعلّق القدرة[1].

ومعنى﴿ألقاها إلى مريم﴾ أي؛ أوصلها، وتأنيث الضمير في "ألقاها"، والمراد؛ كلمة أمر التكوين. ووصفُ عيسى بأنه روح الله، وصف وقع في الإنجيل، وقد أقره القرآن الكريم في هذه الآية، فهو مما نزل حقاً، والروح من عناصر الحياة، لكنها نسبت إلى ذات الله، لأنها وصلت إلى مريم دون تكوّن في نطفة. وبهذا امتاز عن بقية الأرواح، ووُصف بأنه مبتدأ من جانب الله، وكأن حظوظ الحيوانية مجردة منه. وقيل: الروح هي النفخة[2]. والعرب تسمي النفس روحاً، والنفخ روحاً.

هذان الوصفان وقعا في كلام الإنجيل، وهما "الكلمة، والروح"، أو في كلام الحواريين، وصفاً لعيسى عليه السلام. وكانا مفهومين في لغة المخاطَبين يومئذ. فلما غيّرت اللّغات، وساء الفهم في إدراك الحقيقة والمجاز، تسرّب الضلال إلى النصارى في سوء وضعهما، فأُريد التّنبيه على ذلك الخطأ في التأويل. أي إن وصف المسيح بكلمة الله، أو بروح الله، ليس في شيء من ذلك ما يؤدي إلى اعتقاد أنه ابنُ الله، أو أنّه إله. وتصدير جملة القصر بأنه رسول الله، يدل على أن عيسى عليه السلام مخلوق، وعبد لله، فالله لا يرسل إلهاً مثله. ففي هذا كفاية على معنى الكلمة والروح[3].

---

1 - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص52.

2 - ينظر: المرجع نفسه، ج6، ص52

3 - ينظر: المرجع نفسه، ج6، ص53

ثم يأتي الخطاب القرآني بفعلين كلاميين: الأول أمر، والثاني نهي. والغرض من الفعل الأول هو أنه إذا وضح كل ما بيّنه الله لكم أيها النصارى، فلا تبقى لكم حجة إلاّ أن تؤمنوا بالله وحده، وبرسله، لأنكم أفسدتم إيمانكم لماّ وصفتهم الله بما لا يليق بجلاله سبحانه، وعليكم أن تؤمنوا بجميع رسله، فلا تكفروا بأحد منهم.

ونفي الإلهية عن عيسى، لا يعني نفي الرسالة عنه. وقوله تعالى:﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾. هنا فعل قول تضمن معنى النهي، وهو يفيد طلب الكف، والتوقف عن قول مثل هذا الكلام، الذي يردده النصارى في دينهم، مثلما يردد المسلمون الشهادة في إسلامهم. ومن عوائد النّصارى أن يُشيروا إلى التّثليث بالأصابع الثلاثة: الإبهام، والخنصر، والبنصر[1]. والمقصود من الآية؛ النهي عن النطق بالمشتَهر من مدلول هذه الكلمة، وعن الاعتقاد بها. لأن أصل الكلام الصدق، والقصد، فلا ينطق أحد إلاّ عن اعتقاد.

وفي الأمر والنّهي، رَدْع وزجر وتحذير، كي لا يعود النصّارى إلى ترديد مثل هذه الشعارات، التي تضرّ بمعتقدهم وبدينهم، وتضرّ بهم هم أنفسِهم. يقول تعالى:﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾(المائدة:73). ويدّعي النصارى في تثليثهم بأن مجموع الثلاثة هو واحد؛ أي؛ ثلاثة آلهة في إله واحد!!! ويقولون: هو جوهر واحد وثلاثة أقانيم، فما معنى هذا الهراء؟ قل لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا، أو لذهب كلّ إله بما يملك!!

والأقانيم مفردها أُقنوم، وجاء في القاموس إنها كلمة رومية بمعنى الأصل، وفسرها التفتازاني في كتاب "المقاصد" بالصّفة. وعبّروا عن الثلاثة بـ(آبا- ابنا - روحا قدسا)؛ أي؛ أقنوم الذات، وأقنوم العلم، وأقنوم الروح. وهذا عند نصارى اليونان القدامى.

والملاحظ أنهم أهملوا ذكر صفات تقتضيها الإلهية؛ مثل: القِدم، والبَقاء، فسموا أقنوم الذات بالأب، وأقنوم العلم بالابن، وأقنوم الحياة بالروح القدس!! لأن الإنجيل أطلق اسم الأب على الله - تعالى عن ذلك - وأطلق اسم الابن على المسيح رسوله، وأطلق اسم الروح القدس، على ما كُوّن به المسيح في بطن مريم. ولما اشتبهت عليهم المعاني أخذوا بالظواهر فاعتقدوا أن الأرباب ثلاثة، وهذا أصل النصرانية، وبذلك قاربوا عقيدة الشرك[2]. ويقولون إن المسيح صار ناسوتاً لاهوتياً، إذ يقولون: في عيسى لاهوتية من جهة الأب، وناسوتية - أي إنسانية - من جهة الأم!!

---

1 - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص54

2 - ينظر: المرجع نفسه، ج6، ص55

وقوله تعالى:﴿انتهوا خيراً لكم﴾؛ فعل كلامي تضمن معنى النهي، الذي يأمر بالكف والانتهاء عن هذا الكلام، الذي لا يقول به عاقل حرّ. والأمر مُبَطّن بالنّهي، حيث امتزجت الصيغة بمدلول الفعل. والقصد منه التهديد. أي؛ إذا لم تنتهوا عن ذلك فلا تنتظروا خيراً، وهذا كلام مستلزم ممّا سبقه.

ثم يأتي بقصر الألوهية على الله الواحد سبحانه، فكلمة "سبحانه"، تفيد قوة التنزيه لله، عن أن يكون له ولد. والدلالة على غلطِ وضلالِ مُثبتيه، فإنّ الإلهية تنافي أن تكون أباً، أو تتخذ ولداً، وذلك لاستحالة الفناء، والاحتياج، والانفصال، والمماثلة للمخلوقات. والبنوّة تستلزم ثبوت هذه المستحيلات، لأن النسل قانون كوني للموجودات، لحكمة استبقاء النّوع، والناس يتطلّبونها لذلك، وللإعانة على لوازم الحياة. وفيها انفصال المولود عن أبيه، وفيه أن الابن مماثل لأبيه، فأبوه مماثل له[1]. وكما يقال: الولد نسخة من أبيه.

و"سبحان"، اسم مصدر "سبّح"، وليس مصدراً صريحاً له، لأنه لم يسمع له فعل سالم. وقوله: أن يكون له ولد، متعلق بـ(سبحان). وقد حذف حرف الجر "عن" في هذا الموضع، والتقدير: سبحانه عن أن يكون له ولد. وجملة﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾؛ تعليل لسبحان أن يكون له ولد. لأن الذي له ملك السماوات والأرض، قد استغنى عن الولد، وقد قدّم الجار والمجرور في هذه الجملة "له" لغرض التّخصيص، أي له وحده لا شريك له في ملكه. والكل عبيده، والابن ليس بعبد[2].

وقوله:﴿وكفى بالله وكيلا﴾. والوكيل؛ الحافظ. والمراد هنا، حافظ السموات والأرض، أي؛ حافظ الموجودات كلها. وحذف مفعول "كفى" لإفادة العموم، أي؛ كفى كل أحد، أو كل مخلوق، لذلك توكّلوا عليه. وهذا يُستلزم مما سبق من الكلام. فالتقرير في هذه الفاصلة، يفيد الأمر بالتوكل على الله وحده، لا على من تزعمونه ابناً. فالتوكّل يكون على الحي الذي لا يموت، لا غير.

*__عدوانية أهل الكتاب للمسلمين، لإيمانهم بالله، وبالرسول (صلى الله عليه وسلم)__: قال الله تعالى:﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(المائدة:59 – 60).

---

1 - ينظر:الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص58

2 - ينظر: المرجع نفسه، ج6، ص58

بعد معرفة سبب نزول هذه الآية، يُعلم أن المخاطبين قد ظلموا بطعنهم في الإسلام والمسلمين؛ وهم أهل الكتاب، وتحديداً اليهود منهم. إذ ذكر الواحدي وابن جرير عن ابن عباس قال:« جَاءَ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ فِيهِمْ أَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ، وَرَافِعُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ، وَعَازِرٌ، وَزَيْدٌ، وَخَالِدٌ، وَأَزَارُ بْنُ أَبِي أَزَارٍ، وَأَشْيَعُ، إِلَى النَّبِي فَسَأَلُوهُ عَمَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ مِنَ الرُّسُلِ، فَلَمَّا ذَكَرَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَالُوا: لَا نُؤْمِنُ بِمَنْ آمَنَ بِعِيسَى وَلَا نَعْلَمُ دِينًا شَرًّا مِنْ دِينِكُمْ وَمَا نَعْلَمُ أَهْلَ دِينٍ أَقَلَّ حَظًّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ- إِلَى قَوْلِهِ- وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ »[1].

فخص بهذه المجادلة أَهْلَ الْكِتَابِ وخصوصاً اليهود، كَما ينبئ بِهِ الْمَوْصُولُ وَصِلَتُهُ فِي قَوْلِهِ: مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُجَادَلَةُ لَهُمْ بِأَنَّ مَا يَنْقِمُونَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي دِينِهِمْ لَا يَجِدُونَ إِلَّا الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَبِمَا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَزِيَادَةُ الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ عليه[2].

والخطاب يتضمن فعلاً كلامياً، ورد بصيغة الاستفهام، والغرض منه الإنكار والتعجب. فالإنكار دل عليه الاستثناء﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾. والتعجب دل عليه أن مفعولات تنقمون كلها محامد، لا يحق نقمها!! وكل ذلك ليس حقيقاً بأن يُنقم. فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر. فما وجه النّقَم منه؟

والمعنى: أَيْ ما تَنْقِمُونَ مِنَّا إلاّ إيماننا وفسق أكثركم، أي تنقمون تخالف حالينا فهو نقم حسد، ولذلك فالمقام مقام إنكار وتعجيز كما يفيد قوله:﴿وأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ﴾ غرضه التّهكّم. أي تنقمون منا أننا آمَنَّا كَإِيمَانِكُمْ وَصَدَّقْنَا رُسُلَكُمْ وَكُتُبَكُمْ، وهذا يدعو إلى العجب من نقمكم لنا!! أماَ أَنَّنا آمَنَّا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا فذَلِكَ أمر لَا يُهِمُّكُمْ!! وَنَحْنُ لَا نَمْلِكُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ. وبهذا يصير الِاسْتِفْهَامِ إِنْكَارٌ فَتَعَجُّبٌ فَتَهَكُّمٌ، تَوَلَّدَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ وَكُلُّهَا أغراض مُتَوَلِّدَةٌ مِنِ اسْتِعْمَالِ الِاسْتِفْهَامِ فِي مَعَانٍ كِنَائِيَّةٍ[3].

ثم يطرد في الآية الموالية في التهكم بهم والعجب من رأيهم، مع تذكيرهم بمساوئهم، فقال: قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله.. وهذا ، تعريض وتهكم باليهود؛ لأنهم قالوا للمسلمين: لا دين شر من دينكم!! وهو ما عُبّر عنه بالفعل تنقمون. والقرآن الكريم يستخدم في هذا المقام مقابلة الغلظة بالغلظة. والمثوبة هي العطية النافعة، ويصح إطلاقها على الشيء النفيس، وعلى الحقير. وقد جعلها القرآن الكريم في هذه الآية تمييزاً لاسم الزيادة في الشّر، وهذا هو التهكّم عينه، لأن اللعنة، والغضب، والمسخ، ليست مثوبات!! و« الْيَهُودَ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَسْلَافًا مِنْهُمْ

---

[1] - المرجع نفسه، ج6، ص243.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير ج6، ص243

[3] - المرجع نفسه ، ج6، ص245.

وَقَعَتْ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ وَالْغَضَبُ مِنْ عَهْدِ أَنْبِيَائِهِمْ، وَدَلَائِلُهُ ثَابِتَةٌ فِي التَّوْرَاةِ وَكُتُبِ أَنْبِيَائِهِمْ»[1]. واسم الموصول "مَنْ"، كناية عنهم.

وعرض صفات أجدادهم، المقصود منه؛ هو تعيير اليهود المجادلين بمساوئ أسلافهم، إِبْكَاتًا لَهُمْ عَنِ التَّطَاوُلِ. وإذا كان هذا ديْدنهم أَزْمَانَ قيام الرُّسُل والنبيئين بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَهُمْ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ أَسْوَأُ حَالًا وَأَجْدَرُ بِكَوْنِهِمْ شَرًّا، فَيَكُونُ الْكَلَامُ ذَمّاً لهم جميعاً، هم وأسلافهم. لأنّ مُوجِبَاتِ اللَّعْنَةِ وَالْغَضَبِ وَالْمَسْخِ قَدِ توفرت فيهم[2]. وقد ارتكبوها مثل أسلافهم. فيعمّهم ما حُكم على الأسلاف منهم. فكانوا شرّ خلف لشرّ سلف.

***غلوّ أهل الكتاب في الدين، وعبادتهم الأهواء، وضلالهم:** قال الله تعالى:﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(المائدة:77). لما تكلم الله سبحانه وتعالى عن أباطيل اليهود أولاً، ثم تكلم عن أباطيل النصارى ثانياً، وأقام الحجج والأدلة القاهرة على بطلانها وفسادها. خاطب مجموع الفريقين في هذه الآية فقال:﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾. والغلوّ نقيض التقصير، أو هو الإفراط، ومعناه؛ الخروج عن الحدّ، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، ودين الله بين الغلوّ والتقصير. وقوله جلّ وعلا: "غير الحق" أي: غلواً باطلاً، لأن الغلو في الدين نوعان:« غُلُوُّ حَقٍّ، وَهُوَ أَنْ يُبَالَغَ فِي تَقْرِيرِهِ وَتَأْكِيدِهِ، وَغُلُوُّ بَاطِلٍ وَهُوَ أَنْ يُتَكَلَّفَ فِي تَقْرِيرِ الشُّبَهِ وَإِخْفَاءِ الدَّلَائِلِ، وَذَلِكَ الْغُلُوُّ هُوَ أَنَّ الْيَهُودَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ نَسَبُوهُ إِلَى الزِّنَا. وَإِلَى أَنَّهُ كَذَّابٌ، وَالنَّصَارَى ادَّعَوْا فِيهِ الإِلَهِيَّةَ »[3].

وفعل القول "لا تغلو" الغرض منه التحذير، وطلب الكف عن هذا الغلو الذي يخرج بهم عن الطريق المستقيم وعن الحق. ثم يتبع هذا الفعل الكلامي بفعل طلبي آخر، فينهاهم عن اتباع الأهواء، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. فالأهواء هنا المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة. والله سبحانه قد ذمّ الهوى في القرآن الكريم[4]. فلا يقال: فلان يهوى الخير، إنما يقال: يريد الخير ويحبه. وقال بعضهم: الهوى إله يُعبَد من دون الله. وقيل: سمّي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار.

ولقد وصف الله أهل الكتاب بثلاث درجات في الضلال، فبيّن أنهم كانوا ضالين من قبل، ثم كانوا مُضِلِّين لغيرهم، ثم ذكر أنهم استمروا على ضلالتهم تلك، حتى إنهم الآن ضالون كما كانوا. والغرض والقصد هو العقاب الذي ينتظرهم في هذه الحال. وكذلك بعدهم عن الله تعالى. وقد يقصد بالضلال: الضلال عن الدين والضلال عن طريق الجنة[5]. والله عز وجل في هذا الوصف يجمع بينهم وبين أسلافهم، فقد شملهم الحكم جميعاً ابناً عن أب، وأباً عن جدّ. فالخطاب لعموم أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

---

[1] - المرجع نفسه، ج6، ص246

[2] - ينظر:المرجع نفسه، ج6، ص247

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ج12، ص411.

[4] - ينظر: نفسه، ج12، ص411

[5] - ينظر: الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب، ج12، ص411.

وقوله تعالى:﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: ضلوا في دينهم من قبل مجيء الإسلام، وضلوا بعد ذلك عن الإسلام. ولعلّ الخطاب كان تنفيراً للنصارى من أن يسلكوا في دينهم ما سلكه اليهود في دينهم[1]. لأن النصارى يبغضون اليهود ويعرفون أنهم على ضلال.

*جزاء الكفار من أهل الكتاب والمشركين: قال الله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ﴾(البيّنة:6). بعد أن أنحى القرآن الكريم على أهل الكتاب والمشركين معاً، ثم خصّ أهل الكتاب بالطعن في تعلّاتهم، والإبطال لشُبُهاتهم التي يتابعهم المشركون عليها. أعقبه بوعيد الفريقين جمعاً بينهما كما بدأ في أول السورة. لأنّ ما سبق من الموعظة كافٍ في تدليل أنفسهم للموعظة.

وقدّم أهل الكتاب على المشركين في الوعيد استتباعاً لتقديمهم عليهم في سببه كما تقدم في أول السورة. ولأن معظم الرد كان موجّهاً إلى أحوالهم. ولأنه لو آمن أهل الكتاب لقامت الحجة على أهل الشرك.

وتأكيد الخبر بـ"إنّ" للرد على أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم لا تمسَّهم النار إلاّ أياماً معدودات، "فإنّ" الظرفية التي اقتضاها الحرف "في" تفيد أنهم غير خارجين منها، وتأكّد ذلك بقوله تعالى:﴿خالدين فيها﴾. وأما المشركون فقد أنكروا الجزاء أساساً.

والإخبار عنهم بأنهم في نار جهنم إخبار بما يحصل في المستقبل، بقرينة مقام الوعيد، فإن الوعيد كالوعد يتعلق بالمستقبل. وجملة﴿أولئك هم شر البريّة﴾ كالنتيجة لكونهم في نار جهنم خالدين فيها، وهو إخبار يسوء عاقبتهم في الآخرة. وأُريد بالبريئة البشر، فلا اعتبار للشياطين في هذا الاسم. ومعنى ذلك أنهم أشد الناس شراً، فقد فاضلهم البشر بالشر والعياذ بالله. لأن شر من أشر التي على وزن أفعل التفضيل.

وكانوا كذلك، لأنهم ضلوا وأضلوا، فأما أهل الكتاب فلأن لديهم كتاباً فيه هدى وتور فعدلوا عنه. وأما المشركون فلأنهم كانوا على الحنيفية فأدخلوا فيها عبادة الأصنام، ثم إنهم أصرّوا على دينهم بعدما شاهدوا دلائل صدق محمد(صلى الله عليه وسلم)، وما جاء به القرآن من إعجاز وإنباء في كتب أهل الكتاب. وذلك مما لم يشاركهم فيه غيرهم، فقد اجتنوا لأنفسهم الشر، من حيث كانوا أهلاً لنوال الخير، فحسرتهم على أنفسهم يوم القيامة أشد من حسرة من عداهم، فكان الفريقان شراً من الوثنيين والزنادقة في استحقاق العقاب، لا فيما يُرجى منهم من الاقتراب.

وإقحام اسم الإشارة "أولئك" بين اسم "إنّ" وخبرها للتنبيه على أنهم أحرياء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة، من أجل الأوصاف التي ذكرت فيهم قبل اسم الإشارة. وتوسيط ضمير الفصل "هم" لإفادة اختصاصهم بأنهم شر البريئة، لا يشاركهم في ذلك غيرهم من فرق أهل الكفر[2].

وهكذا يُسدل القرآن الكريم السّتَار على أهل الكتاب بتوعُّدِ الله إياهم أنهم في النار خالدين فيها، جزاء بما كانوا يصنعون، وهم على علم بما يفعلون أيضاً. وبعد هذا ننتقل إلى حوار القرآن بني إسرائيل، وبيان فضل الله ونعمِه عليهم...

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص291.

2 - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص483 - 484.

الفصل الثالث *محاورة القرآن بني إسرائيل، وذكر نعم الله عليهم.

المبحث الأول: نعم الله على بني إسرائيل.

الفصل الثاني: وعيد الله بني إسرائيل.

المبحث الثالث: أفعال الكلام في الحوار مع أهل الكتاب وقوتها الإنجازية..

المبحث الأول:* نعم الله على بني إسرائيل. لقد ورد ذكر بني إسرائيل في القرآن الكريم ثلاثا وثلاثين مرة، دعت ثلاث منها بني إسرائيل –إلى ذكر نعم الله عليهم– دعوة مباشرة. كما عبر القرآن عن هذه النعم بـ" آية بينة"، كما ورد في الآية (211) من سورة البقرة. وبين القرآن الكريم أن بني إسرائيل لم يشكروا الله على نعمه، وقابلوها بالجحود والنكران. ومن النعم التي ذكرها الله في كتابه، ما يلي:

* **بنو إسرائيل وظلم فرعون:** يذكر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بنعمه عليهم، التي لا تُعدّ؛ إذ قال جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(البقرة:49). وقال أيضاً:﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(الأعراف:141).

يقول سيد طنطاوي في تفسير هاتين الآيتين:« اذكروا يا بني إسرائيل وقت إذ نجّيناكم من آل فرعون، الذين كانوا يعذّبونكم أشد العذاب وأصعبه، ويبغون استئصالاً لأعقابكم، وامتهاناً لكرامتكم، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم، ويستبقون نفوس نسائكم »[1]. وقال الألوسي في قوله تعالى: سوء العذاب؛ كأنه قال ما الذي ساموهم إياه؟ فقال: يذبّحون أبناءكم ويستَحْيون نساءكم[2]. وهذا من متضمنات القول.

فما مدلول اللفظتين أو المفردتين المعجميتين "نجّى"، و"أنجى" عندما أورد التعبير القرآني في الآية الأولى: نجّيناكم، وفي الثانية: أنجيناكم؟ يقول الشّعراوي: "نجّيناكم" الكلام هنا من الله. أما "أنجيناكم" فالكلام من موسى عليه السّلام.

وذكر آل فرعون دون فرعون، مع أنه الآمر بتعذيب بني إسرائيل، تنبيهاً على أن هؤلاء المكلفين ببني إسرائيل كانوا يتجاوزون الحد المأمور به من قبل فرعون في الإعنات والمبالغة – على عادة المنفِّذين – أو العباد المأمورين، فإنهم أقل رحمة وأضيق نفوساً من ولاة الأمور، كما قال الراعي النّميْري يخاطب عبد الملك بن مروان:

إنّ الذين أمرتهم أن يعدلوا لم يفعلوا مما أمرت فتيلا[3]

وإنّ كلمة "نجّى" تكون وقت نزول العذاب، لتخليصهم منه، وكلمة "أنجى" بمنع العذاب عنه، وإبعاد عذاب فرعون نهائياً[4]. فالله سبحانه وتعالى يذكرهم مرة بمنع العذاب عنهم أثناء وقوعه على يد فرعون، ومرة ثانية بإبعاده عنهم نهائياً، وذلك عندما أهلك فرعون وجنوده إلى غير رجعة[5]. أما جملة "يسومونكم" فعلها مِن"سام"، والسّمة

---

[1] - ينظر: طنطاوي محمد سيد ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مطبعة السعادة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر،ط3 ، 1407هـ– 1978م.

[2] - الألوسي، روح المعاني، مج1، ج2، دار الفكر 1987، ص 254.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 490.

[4] - ينظر: الشعراوي، تفسير، مج 1، ص 324 - 325.

[5] - ينظر: المرجع نفسه، ص 325.

العلامة، والمعنى؛ أن العذاب قد بلغ ببني إسرائيل أشدّه، بحيث صار علامة على وجوههم، وترك آثاره على مجريات حياتهم. فكان آل فرعون يذبّحون صغار بني إسرائيل قطعاً لنسلهم، ويسبون أُمّهاتهم استعباداً لهنّ.

أما لفظتا يذبّحون، ويقتّلون فتعنيان المبالغة في الذبح والتقتيل، وهما عملية إبادة، تدل على بشاعة الجريمة وبشاعة مُرتكبيها. تلك التي قام بها فورعون وآلُه ضدّ بني إسرائيل. ولكن رغم هذه المعاناة لم نجد ردّ فعل من جانب بني إسرائيل يُعبّر عن رجولتهم، وعن الدعوة إلى التّحرّر من هذا الاستعباد، لأنهم أحرص الناس على حياة كما وصفهم القرآن الكريم.

وقيل: إنّ الاستحياء من الحياء، أي؛ كان آل فرعون يفتشون النّساء في أرحامهن، ليعرفوا هل بهنّ حمل. وهذه إهانة، وهتك للعرض. إذ تسبّب هذا التصرف في عذاب نفسي، وإذلال لبني إسرائيل، ناهيك عن العذاب البدني من جَلد وأشغال شاقة وغير ذلك[1].

إن الغرض التداولي من سرد هذه الحقائق التاريخية، هو التذكير بأنعم الله على بني إسرائيل، لذلك يقتضي من يهود اليوم الذين يزعمون أنهم امتداد لأسلافهم بني إسرائيل القدامى، ألاّ يمارسوا الظلم على أبناء فلسطين... لكنّ نفوسهم جبلت على الظلم، فهي تسعى لاستعباد غيرها. وأقسى أنواع الظلم ذلك الذي يصدر من ضعيف عندما يَقْوى ويتَحَكّم؛ كما يقول خليل مطران:

يا للضعيفين استبدّا بي وما   في الظّلم مثل تحكم الضعفاء[2]

والخطاب صريح ومباشر تفصح عنه الإشارة بالضمير الجمعي"كم" الذي تكرر في الآيتين، وضمير المخاطب يزيد في المواجهة قوة وتأثيراً؛ أي؛ لولا لطف الله لقطع فرعون نسلهم، ولانقرضوا، وغاب عنصرهم إلى الأبد. فعَلَى بني إسرائيل أن يشكروا الله، ويحمدوه على نعمه؛ لأنه نجّاهم، وأنجاهم من فرعون وزبانيته.

أما من ناحية الفساد الأخلاقي الذي أراد فرعون أن ينشره في بني إسرائيل، فهو قتل الرجال والإبقاء على النساء، كي تنتشر الجرائم الجنسية، والإباحية والسّحاق. لأن الجنس أمر فطري تحتاج إليه النفس البشرية، فكان الغرض والمقصد إفساد المجتمع الإسرائيلي، ونشر الرذيلة فيه، لكي لا يتحقق له الأمن والسكينة. لأن الله تعالى يقول:﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾(الروم:21). والفعل المضارع في "يذبحون ويستحيون" يدل على الاستمرارية في الذبح والاستحياء، فالجمل حالية تفسيرية لسوء العذاب، أي هذه حالهم المستمرة على سوء العذاب، والابتلاء من الله، القصد منه بيان ثناء الشّاكرين، وبيان رِضَى الصّابرين.

***ابتلاء بني إسرائيل في قدرتهم على الصّبر:** قال الله تعالى:﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ

---

[1] - الشعراوي، تفسير القرآن، مج 1، ص 325.

[2] - خليل مطران، .قصيدة "المساء".

أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) ﴾(البقرة:249 – 251). أراد الله سبحانه وتعالى اختبار بني إسرائي على الصّبر والتّحمّل، والطّاعة لربهم، ثم لقائدهم الذي همّ بالذهاب بهم لدخول ارض فلسطين، وقد طلب منهم ألاّ يشربوا من النهر الذي ابتلاهم الله به، إلاّ للضرورة. لكن القوم من بين إسرائيل رفضوا هذا الأمر وشربوا من النهر إلا قليل منهم، وهذا القليل هو الذي انتصر على جالوت وجنوده، وقتل داود جالوت وحرر بيت المقدس من الكفار.

يقول الألوسي في قوله تعالى: "مبتليكم" أي ؛« معاملكم معاملة من يريد أن يختبركم، ليظهر للعيان الصادق منكم والكاذب »[1]. وما دام الله سبحانه قد بعث إليهم ملكاً، فيقتضي هذا خروجهم للقتال معه، هذا الملك الذي كانوا قد سألوا نبياً لهم أن يرسله الله لهم.

ومن متضمنات القول هنا هو الرضا بهذا الملك، وبمجيء التابوت، وتجنيد الجنود، لأنّ ذلك مما تدل عليه جملة: فصل طالوت بجنوده؛ أي قطع وابتعد بهم، وتجاوزوا مساكنهم وقراهم[2]. أي انفصل عن بيت المقدس مصاحباً إياهم لقتال العمالقة.

وجملة:فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يطعمه فإنه مني، تتضمن معنى عدم الشرب، وعدم الإكثار منه إلاّ للحاجة. فالخبر هنا مبطّن بالنهي عن الشرب؛ فمن شرب تبيّن عدم صبره، وعدم طاعته، ومن لم يشرب تبيّن صبره وصدق إيمانه بالله، ومن اغترف غرفة فإن الله مسامح فيها.

والغرض والحكمة من منعهم من الشرب، هو اختبارهم على قدرة تحملهم، ومدى مخاطرهم بأنفسهم، وعزمهم على عصيان ما تأمرهم به أنفسهم من ملذات، حتى يواجهوا عدوهم، فينتصروا عليهم. لأن الذي لا يستطيع الانتصار على نفسه لا يكون له ذلك على عدوه. والنهر -كما يقول ابن عاشور – هو نهر الأردن، فشرب الماء بكثرة يُذهب النشاط، ويدعو إلى الراحة، وخاصة إذا كان شرب الماء بعد التعب، فإنه يثقل صاحبه، فلا يقوى على الركض والجهد، ولا على تخطي الحواجز والصعاب، وهو ما يستلزم من القول، وقد ورد على سبيل الاستعارة المكنية للتأكيد على قوة الصبر وكثرته. و"تثبيت الأقدام" القصد منه هو عدم الفرار والخوف، فشبه عدمه بثبات القدم في المأزق[3]. وقد نصرهم الله تعالى على عدوهم، لأنهم آثروا أمر الله على رغبات أنفسهم، ولتكون كلمة الله هي العليا. ومن بين المقاصد التداولية المستفادة من هذه الآيات ما يلي:

– التكوين والتدريب الخاص الذي يجب أن يتلقاه الجيش قبل ملاقاة العدو، والتضحية بالنفس والنفيس من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا. فلا مجال للاستسلام، ولا للعصيان أو التمرد أو التراجع، ومن الأفضل الإبقاء على القليل الصالح الصابر المحتسب، والاعتماد عليه، من التعويل على الكثير الواهن الفاشل الذي يسعى من أجل رغبات نفسه وأهوائها. فقليل من النحل أفضل من كثير من الذباب.

---

[1] - الألوسي، روح المعاني، مج 1، دار الفكر، ط 1978، ص 129.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 497.

[3] - المرجع نفسه، ج2، ص 499.

- إن الله تعالى يحب الذين يقاتلون في سبيله، وما النصر إلاّ من عند الله. ووحدة القيادة، ووحدة الجماعة من وحدة الهدف والمقصد. فإن كان المقصد إرضاء الله، فالله يتولى الحفاظ على هذه الوحدة وتماسكها.

- السمع والطاعة للقائد، والتخطيط الدقيق، والمنهج السليم، من الأسباب التي تُكلل بالنصر، وتعود على الأمة بالخير والفلاح.

- الانتصار لا يتوقف على قوة العدد والعتاد، بل على الإيمان والتوكّل على الله، والعزم على الانتصار. فالانتصار للقوة المعنوية. وهذا ما تؤكده الآيات السابقة:﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾، وهؤلاء ظنّوا أنهم مُلاقو ربّهم. أما الذين رضوا بالحياة الدنيا، واعتبروا بالقوة المادية فقالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، والفرق شاسع بين الفئتين والفريقين، فكان النصر للفئة المؤمنة بالله وبلقائه.

تختتم هاتان الآيتان بفاصلة، هي بمثابة نتيجة آل إليها تدافع بين طالوت وجالوت؛ جالوت المفسد في الأرض، وطالوت المصلح، وهي سنّة اقتضتها حكمة الله خالق هذا الكون، والناموس الذي يسير عليه. هذا التدافع هو الذي يقي الأرض والإنسان من الفساد، ويعود على البشرية بالنفع والصلاح.

يقول الشعراوي:« لولا وجود قوة الحق أمام قوة الباطل لفسد العالم، فلو سيطرت قوة واحدة في الكون لفسد، فالدفع هو الرد على المراد الفاسد، فإن كان المراد للناس أن يوجدوا الشر، فإن الله يدفعه بأيدي المؤمنين ولولا أن الله دفع بالقلة المؤمنة الكثرةَ الكافرة مِن عدوّهم لفسدت الأرض، فالدفع هو الرد على المراد، والله يدفع ولكن بأيدي خلقه »[1]. قال الله تعالى:﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة:14).

ولولا: امتناع لوجود، وأصلها "لو، ولا النافية". والمعنى لولا وجود الدفع لفسدت الأرض. وهذا يعني أن الجهاد في سبيل الله يشكل سياج الأمن والأمان للناس جميعاً، لأن الفساد في الأرض لا ينتشر ولا يتفشى في المجتمع إذا وجدت قوة تجابهه وتجاهده. إن الباطل يتحرك في غفلة من الحقّ وأهلِه. ومعنى الآية؛ أنه لولا حماية الله ومعيّته للمؤمنين، وإمداده إياهم بالنصر، لفسدت الأرض[2].

يقول ابن عاشور:« ذيّلت هذه الآية العظيمة كل الوقائع العجيبة التي أشارت بها الآيات السالفة، لتدفع عن السامع المتبصّر ما يخامره من تطلّب الحكمة في حدثانِ هذه الوقائع، وأمثالها في هذا العالم، ولكون مضمون هذه الآية عبرة من عبر الأكوان، وحكمة من حكم التاريخ، ونُظُمِ العمران التي لم يهتد إليها أحد، قبل نـزول هذه الآية »[3]. إن إضافة الدفع إلى ذات الله تعالى، هو من باب المجاز، لأنه هو الذي قدّره وقدّر أسبابه؛ فهو من باب ﴿وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى﴾(الأنفال:17).

---

1 - الشعراوي، التفسير، مج2، ص 1059 – 1085.

2 - الأصفهاني الراغب، المفردات في غريب القرآن، تح: سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص 502.

3 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 500.

وأصل معنى الدفع؛ الضرب باليد للإقصاء عن المرام، وهو ذَبٌّ عن مصلحة الدّافع. أي؛ لولا وقوع دفع بعض الناس بعضاً آخر، بتكوين الله وإيداعه قوة الدفع وبواعثه في الدفع، لفسدت الأرض أي؛ لفسد مَن على الأرض، واختلّ نظام ما عليها. ففضل الله على الناس فضل عظيم.

إن مثل هذه الأمثال في القرآن الكريم تسوق للإنسان العبر والعظات، لتقوية النفوس على الصبر والاحتساب لله، والثقة فيه سبحانه، وكذلك الاستعداد لمواجهة أهل الباطل، وما أكثرهم! أولئك الذين يترصّدون للمؤمنين كل طريق، وأن يكون شعار المؤمن هو الجهاد؛ جهاد النفس والعدوّ، وأن النّصر من عند الله وحده، ولا يتحقق ذلك إلاّ بتوفر شروطه وأسبابه مصداقاً لقوله تعالى:﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾. والعدوان عدوّ داخلي وهو نفس الإنسان، وعدو خارجي وهم أهل الفساد والباطل، ولا ينتصر المؤمن على العدو الخارجي إلاّ بانتصاره على العدو الداخلي، والقياس على هذا. ولذلك فإصلاح النفس كفيل بنفي كل أسباب الهزيمة. والابتلاء من الله ما هو إلاّ تربية إيمانية جهادية للمؤمن، وليس تعذيباً للنفس، أو حِرمانها من احتياجاتها الضرورية في الحياة؛ فالفرق بين هذا وذاك، أن هذه الابتلاءات وغيرها، هي التي أخفق بنو إسرائيل في اجتيازها، إلاّ قلة قليلة منهم، كان لها شأن عظيم عند الله سبحانه وتعالى.

* **تفضيل الله بني إسرائيل على العالمين:** لقد فضّل الله تعالى بني إسرائيل على العالمين بالنبوة والمُلك والإمامة. قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة:20). وقال عز من قائل:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(الجاثية:16).وقد عدّ موسى عليه السلام لبني إسرائيل ثلاث نِعم عظيمة هي:

أولاها: أن فيهم أنبياء، ويجوز أن يكون هذا في عمود نسبهم فيما مضى مثل: يوسف، والأسباط، وموسى وهارون. ويجوز أن يراد أنه أراد نفسه، وذلك بعد موت أخيه هارون، لأن هذه القصة وقعت بعد موت هارون، فيقول قوله أنبياء جمعاً أريد به الجنس، فانحصر في فرد يومئذ؛ كقوله تعالى:﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾(المائدة:44). يريد محمداً - صلى الله عليه وسلم - أو أراد من ظهر في زمن موسى من الأنبياء. وموقع النعمة في إقامة الأنبياء بينهم أن في ذلك ضمان الهدى لهم، والجري على مراد الله تعالى منهم، وفيه أيضاً حُسن ذكر لهم بين الأمم وفي تاريخ الأجيال[1].

وثانيها: أن جعلهم ملوكاً، وهذا تشبيه بليغ، أي كالملوك في تصرفهم في أنفسهم وسلامتهم من العبودية التي كانت عليهم من القبط، وجعلهم سادة على الأمم التي مروا بها من العمالقة والكنعانيين... واستعمل فعل "جعل" في معنى الاستقبال مثل: أتى أمر الله (النحل:1)، قصداً لتحقيق الخبر، فيكون الخبر بشارة لهم بما سيكون[2]

---

1 - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص 161.

2 - المرجع نفسه، ص 161.

وثالثها: أنه أتاهم ما لم يؤت أحد من العالمين، ويجوز أن يكون معنى "ما" قد قُصد منه شيئاً واحداً مما خص الله به بني إسرائيل. ويجوز أن يكون مجموع أشياء؛ إذ أتاهم رزقهم المن والسلوى أربعين سنة، وتولى تربية نفوسهم بواسطة رسله.

وفعل القول المتمثل في النداء "يا قوم"، يتضمن معنى التنبيه، و"اذكروا"، يتضمن الطلب، بقصد النصح والإرشاد إلى الطريق الصحيح؛ وهو مقابلة النعمة بالشكر، لأنه خصّهم دون غيرهم بهذه النعم. هذا في سورة المائدة. أما آية الجاثية، فيقصد فيها بالكتاب؛ الزّبور والإنجيل، وكذا للتوراة؛ ومعظم أحكام عيسى عليه السلام من التوراة.

ويقصد بالحكم، القضاء وفصل الأمور بين الناس. والنبوّة؛ حيث كثر فيهم الأنبياء– عليهم السلام – ما لم يكثر في غيرهم. ورزقناهم من الطيبات كالمن والسلوى، وفضلناهم على العالمين، حيث آتيناهم ما لم يؤت غيرهم من فلق البحر، وتظليل الغمام، فالتفضيل، فالتفضيل كان من بعض الوجوه فقط. أما من جهة المرتبة والثواب فلا ينافي في ذلك أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - عليهم من وجه آخر، ومن جهة المرتبة والثواب[1]. لقد أنعم الله على بني إسرائيل بنعم الدين بنعم الدين؛ الكتاب والحكمة والنبوة، وبنعم الدنيا في وقله تعالى:﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ وذلك أن الله عز وجل وسّع عليهم في الدنيا، فأورثهم أموال فرعون وديارهم، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفضّلهم على العالمين؛ أي كانوا أكبر درجة وأرفع منقبة ممن سواهم في وقتهم. وبهذا المعنى قال المفسرون: إن المراد وفضلناهم على عالميْ زمانهم[2]. ومعنى إيتائهم هذه الأمور الثلاثة؛ إيجادها في الأمة وإيجاد القائمين بها، لأن نفع ذلك يعود على الأمة جمعاء؛ فكل فرد من الأمة كمن أوتي تلك الأمور. وأما رزقهم من الطيبات فبأن يسّر لهم امتلاك بلاد الشام التي تفيض لبناً وعسلاً؛ كما في التوراة في وعد إبراهيم.. وترد عليها سلع الأمم المقابلة لها على سواحل البحر، فتزخر مراسيها بمختلف الطعام واللباس والفواكه والثمار والزخارف.. وأما تفضيلهم على العالمين فبأن جمع الله لهم بين استقامة الدين والخلق، وبين حكم أنفسهم بأنفسهم، وبث أصول العدل فيهم، وبين حسن العيش والأمن والرخاء، ما لم يتيسّر لأمم زمانهم[3]. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لقد أنعم الله على بني إسرائيل بنعم لا تعد ولا تحصى، كمّاً ونوعاً، لكنهم تنكروا لربهم الذي خلقهم، وأراهم الآيات والمعجزات العديدة. فلم يسبق لأمة أن أكرمها الله بمثل ما أكرم بني إسرائيل بهذه النعم مجتمعة، وهذا الرزق الدائم، النازل من السماء دون جهد أو تعب، وكان ها التفضيل لمؤمنيهم الصالحين، أما العُصاة والفجرة فقد مُسخوا قردةً وخنازير.

هذه حقائق تصنف تداولياً في خانة التّقريرات، ووصف الحقائق التي منّ بها الله تعالى على بني إسرائيل. وهنا يتساءل كل عاقل فيقول: لماذا لم يبصر بنو إسرائيل هذه النعم؟ ولم يقابلوها بالشكر؟ ولماذا كان منهم الصّدود والعصيان؟ وستبقى هذه النعم حُجة عليهم إلى يوم الدين.

---

1 - ينظر: الألوسي، روح المعاني، ج13، ص 146.

2 - ينظر: الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب، ج27، ص 675.

3 - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص 346.

إن أفضلية بني إسرائيل - كما يقول الرازي - كانت محصورة في عالم زمانهم، لأن أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - لم تكن موجودة، وجاءت بعدهم، فهي خراج زمانهم وعالمهم[1].

أما خيرية أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(آل عمران:110)، فهي ثابتة بصريح القرآن الكريم، فثبت أن كل ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل، إنما يراد به ذكر أحوال سابقة[2]. وإن هذه الخيرية استحقتها أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) بهذه الصفات الثلاث وهي: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله.

أما بنو إسرائيل فكانوا ممن فقد هذه الصفات، إذ قال فيهم المولى عز وجل:﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(المائدة: 79). ولذلك استحقوا اللعنة على لسان داود وعيسى بن مريم عليهما السلام، لأنهم عصوا وكانوا يعتدون.

إن ما يمكن ملاحظته من قيم تداولية في الآية، هو التلطّف في الخطاب والتأدّب فيه من قبل موسى عليه السلام، والذي غرضه والقصد منه؛ الإشفاق على بني إسرائيل. ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام:﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾. ففي هذه النّبرة غاية الرفق والإشفاق على قومه.

* **تحقيق الأمن النفسي والغذائي لبني إسرائيل:** قال الله تعالى:﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(البقرة:57). وقال أيضاً:﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(يونس:93). وقال كذلك:﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾(طه:80 - 81).

لقد امتنّ الله على بني إسرائيل بنعم كثيرة؛ منها المسكن الوافر، والظلّ السّماوي، إضافة للغذاء الرّبّاني، وامتنّ عليهم أيضا - إضافة إلى هذه النعم - بالأمن النفسي والأمن الغذائي؛ الأمن من الجوع، والأمن من الخوف. فإبراهيم الخليل دعا ربّه قائلاً:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:126).

و"المنّ"؛ أداة صمغية جوية، ينزل على شجر البادية شبيه الدقيق المبلول، فيه حلاوة إلى الحموضة، ولونه إلى الصفرة، ويكثر في بوادي (تركستان)، ولم يكن يعرف في برية سيناء. وقد وصفته التوراة[3] بأنه دقيق مثل القشور يسقط ندى كالجليد على الأرض، وهو مثل بزر الكزبرة أبيض، وطعمه كرقاق بعسل، وسمّته بنو إسرائيل منّاً. كان ينزل عليهم في الصّباح الباكر، ليلتقطوه قبل أن تحمى الشمس، لأنها تذيبه، وقد أكلوه أربعين سنة[4].

---

1 - ينظر: الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب، ج27، ص 675.

2 - ينظر: الشنقيطي الأمين ، أضواء البيان، مج7، د ط، مكتبة ابن تيمية، القاهرة 1988، ص 351.

3 - سفر الخروج، الإصحاح 16،

4 - سفر العدد، الإصحاح 11.

وأما السلوى؛ فهي اسم جنس جمعي، واحده سلواة، وقيل واحده وجمعه سواء. وهو طائر بري لذيذ اللحم، سهل الصيد، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضاً، وسمّي هذا الطائر أيضاً السُّمّانى بضم السين وفتح الميم، مخففة كحُبارى، وهو اسم يقع للواحد والجمع أيضاً. وأما المفرد فهو سُمّاناة[1].

وفي قوله تعالى:﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾، هو فعل قول تضمن معنى الأمر، والغرض منه مقابلة النعمة بالشكر؛ أي كلوا واشكروا الله على ما رزقكم من الطيبات. ثم أردف عز وجل:﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾. فلا أحد من المخلوقات يستطيع أن يظلم الله - حاشا لله - وفي هذه نستنتج أن هناك كلاماً محذوفاً مقدراً؛ أي لم يقابل بنو إسرائيل هذه النعم بالشكر، وبالتالي يبيّن الله أنهم بهذا التصرف، وهذا السلوك قد ظلموا أنفسهم، ولم يظلموا من أحسن إليهم وأكرمهم.

إن عدم الظلم للمنعِم يقتضي أن رد فعل بني إسرائيل هو العصيان وعدم الشكر، فكان التعقيب من الخالق جل وعلا أنهم ما ظلموا إلا أنفسهم. وقد استعمل التعبير القرآني الفعل "يظلمون" الدال على المضارع ليفيد به معنى الاستمرار؛ أي هذا هو سلوكهم وديدنهم، فهم لم يظلموا أنفسهم مرة واحدة، بل مرات، وهم مستمرون على هذه الحال. فالتعبير عن ظلمهم أنفسهم بالفعل"كانوا يظلمون" يدل على أن ظلمهم أنفسهم كان يتكرر منهم؛ لأنك لا تقول في ذم إنسان كان يسيء إلى الناس إلاّ إذا كانت إساءته تصدر منه المرة تلو الأخرى[2].

وكذلك نجد معنى الكلمة في القرآن الكريم، يتغيّر بحسب السياق، فإذا تأملنا الفعلين: "أنزل ونزّل" نجد أن الفعل في المرة الأولى قد دلّ على الإنزال مرة واحدة، أما في المرة الثانية فدلّ على تكرار الإنزال مرات ومرات. فكان الله تعالى ينزل عليهم المن والسلوى طيلة أيام الأسبوع، ويضاعف لهم الإنزال يوم الجمعة، ويقطع عنهم ذلك يوم السبت[3].

يقول فاضل السامرائي:« إن استعمال نزّل قد يكون للتدرج والتكثير، وقد يكون للاهتمام والمبالغة، فالتنزيل قد يستعمل فيما هم أهم وأبلغ من الإنزال، وأكثر تأثيراً، ولدواعي الحاجة وطول الزمن »[4]. وقال الراغب الأصفهاني:« التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرقاً ومرة بعد أخرى، والإنزال عام.. وإنما خص لفظ الإنزال دون التنزيل لأن القرآن نزل دفعة واحدة إلى السماء الدنيا ثم نزل منجّماً ». فكان الله يُنزل الطعام على بني إسرائيل كلما جاعوا، وبحسب حاجاتهم إليه.

لقد كان موقف بني إسرائيل من هذه النعم التنكر والاستمرار في الكفر والعناد، بدليل الفاصلة التي ختمت بها الآية﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾(البقرة:57)، التي جاءت بعد تنكر اليهود لعديد من النعم، وهو ما اقتضته هذه الفاصلة؛ فمقتضى القول هو إنكارهم النعمة، والنتيجة المترتبة عن هذا السبب - وهو الإنكار والجحود - عادت عليهم بالخسران وظلم أنفسهم. وهذه سنة الله في خلقه، مصداقاً لقوله تعالى:﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 510.

[2] - ينظر: طنطاوي سيد، بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص 369.

[3] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص509.

[4] - السامرائي فاضل صالح، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمار - عمان - الأردن، ص 64.

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(النمل:40). وقال تعالى أيضاً:﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(إبراهيم:7). وهذا الخاطب تنبيه لبني إسرائيل في المدينة ولفت أنظارهم إلى ماضي أجدادهم، وتحذيرهم من سيرة أسلافهم. فالغرض التداولي هو التذكير للتنبيه والتحذير من أن يقتفي اليهود - الذين كانوا يعايشون المسلمين في المدينة - آثار أسلافهم. وجملة: وما ظلمونا، جملة إخبارية والمقصد، والغرض منها التهديد والوعيد الشديدين؛ وهو انتظار بني إسرائيل الانتقام الماحق إذا لم يتوبوا من جرائمهم، ولم يتوقّفوا عن السخرية من أنبياء خالقهم.

أما الفاصلة الثانية التي تُختتم بها آية سورة طه، هي قوله تعالى:﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾(طه:81)ن ففعل القول (كُلوا) يتضمن معنى الأمر، أو الطلب من بني إسرائيل أن يتمتعوا برزق الله، فقد أباح لهم الطيبات من الرزق، ثم يأتي بعده فعل قول آخر يتضمن معنى النهي. والغرض التداولي منه هو التحذير من الطغيان، لأنه نتيجة تؤدي إلى غضب الله؛ ومن يحلل عليه غضب الله فإنه يهوي مادياً ومعنوياً، جسدياً وروحياً، دنيوياً وأخروياً. فنهاية الفاصلة تدلل على الهبوط المعنوي السريع والأكيد، لأن الفعل ماض مقترن بقد التي تفيد التحقيق؛ وهي علامة من علامات اللعنة والطرد من رحمة الله. يصير بنو إسرائيل وكأنهم لم ينعموا في هذه الحياة قط، بسبب قوة السقوط التي أنستهم ذلك. فالغرض التداولي من النهي الوارد في الآية، هو الزجر عن الطغيان والعصيان[1].

* **أهمية الأمن النفسي والغذائي للإنسان:** إن العلاقة بينهما وثيقة، والتكامل بينهما شديد، وغياب أحدهما يحدث خللاً واضحاً في حياة الإنسان من حيث الطمأنينة والسلام، والهدوء وراحة البال. فالأمن الغذائي يحقق الراحة الجسدية، والأمن النفسي يحقق الراحة المعنوية، وكلاهما قوام الحياة الطبيعية الهنيّة الصالحة.

والأمن الغذائي تتقاسمه جميع المخلوقات، وهو حاجة ملحّة لها؛ فقد بيّن القرآن الكريم نتيجة الكفر وعواقبه من خلال القرية التي مثّل لها في آيات القرآن، يسوق العبرة ولموعظة لأولى النهى والأبصار. يقول تعالى:﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(النحل:112).

يعلّق صاحب الظلال قائلاً:« ويجسّم التعبير الجوع والخوف، فيجعله لباساً، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقاً، لأن الذوق أعمق أثراً في الحس من مساس اللباس للجلد، وتتداخل في التعبير استجابات الحواس، فتضاعف مس الجوع والخوف لهم، ولذعة تأثيره وتغلغله في النفوس. حتى يصل إلى كلّ خلية في الجسم، ويؤثر فيها كما يؤثر فيها ما يصل إليها من الطعام والشراب»[2].

فإذا كان للخوف والجوع هذا التأثير والألم النفسي، فإن الأمن والرزق يذيقان الإنسان لباس الراحة والطمأنينة، ويتغلغلان في كيانه المادّي والروحيّ، فتقوى علاقته بخالقه. قال جلّ وعلا:﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ

[1] -ينظر: الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب، ج22، ص 83.

[2] - قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج4، ص 2199.

مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(قريش:3 - 4). وهكذا يجمع القرآن بين الأمن النفسي، والأمن الغذائي، اللذين تحققا لبني إسرائيل، ومع ذلك لم يعبدوا الله، بل لم يشكروه مجرّد شكر!!!

إن شدة القوّة المتضمنة في الفعل "أذاقها" تعطي الصورة تأثيراً في نفس السّامع، ولكن كيف يتحوّل الجوع الجوع والخوف إلى لباس؟ ذلك ما أجاب عنه الشيخ الشعراوي، قائلاً:« الجوع يظهر أولاً كإحساس في البطن، فإذا لم يجد طعاماً عوّض من المخزون في الجسم من شحوم. فإذا ما انتهت الشحوم، تغذى الجسم على اللحم، ثم بدأ ينحت العظام. ومن شدة الجوع نلاحظ على البشرة شحوباً، وعلى الجسم نحولاً وذبولاً، ثم ينكمش ويجفّ وبذلك يتحوّل إلى شكل خارجي على الجلد، وكأنه لباس يرتديه الجائع، لذلك يمكن التعرف عليه من مظهره »[1]. وهكذا يكون الجوع لباساً ظاهرا للعيان.

وفي معنى الفعل "أذاقها لباس الجوع"، ما يدل على التهكّم والسّخرية، حيث جعل طعامهم ولباسهم جوعاً وخوفاً. فالتذوق يكون في الغالب للحلاوة والطعام اللذيذ، لكنّه استُخدم في غير سياقه الأصلي للدلالة على معنى وغرض تداولي آخر، وهو الاستهزاء والسخرية والتهكم، جزاء لمن يكفر بنعم الله.

* **نعمة البعث بعد الصّعق في الدنيا:** قال الله تعالى:﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة:55- 56). في الآية تذكير بنعمة أخرى،« نشأت بعد عقاب على جفاء طبع فمحلّ النّعمة والمنّة هو قوله: "بعثناكم"، وما قبله، تمهيد له وتأسيس لبنائه، والقائلون هم أسلاف المخاطَبين، لأنهم قالوا لموسى (عليه السلام): لن نومن لك حتى نرى الله جهرة. والظاهر أن هذا القول وقع منهم بعد العفو عن عبادتهم العجل»[2]. وإن السائلين هم السّبعون الذين اختارهم موسى للميقات، وهم المعبّر عنهم في التوراة بالكَهَنَة وبشُيُوخ بني إسرائيل[3]. ومعنى"لن نؤمن لك"، يحتمل أنهم توقعوا الكفر إن لم يروا الله تعالى؛ أي؛ إنهم يرتدّون في المستقبل عن إيمانهم الذي اتصفوا به من قبل. ويحتمل أنهم أرادوا الإيمان الكامل الذي دليله المشاهدة. لأن لفظ "لن" لنفي المستقبل. قال سيبويه: لا لنفي يفعل، ولن لنفي سيفعل[4]. وهذا التصرف من بني إسرائيل يدل على عجرفتهم، وقلّة اكتراثهم بما أوتوا من النّعم، وقلة اعتبارهم بما شاهدوا من المعجزات، حتى أرادوا رؤية الله جهرة وعيانا، وهدّدوا موسى (عليه السلام) - إن لم يرهم الله - بالردّة والعصيان.

والجَهْرَة بمعنى؛ الظهور الواضح، وانتصب "جهرة" على المفعول المطلق، لبيان نوع الفعل "نرى"، لأن من الرؤية ما يكون لمحة، أو مع سائر شفاف، فلا تكون واضحة[5]. و"جهرة" أفصح نطقاً لخفّته، ولذلك لم يقل "عيانا" لأن

1 - الشعراوي محمد متولي، التفسير، ج2، ص 8253.

2 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 505 - 506.

3 - المرجع نفسه، ص 506.

4 - المرجع نفسه، ص 506.

5 - ينظر:المرجع نفسه، ص 507.

العين أدخل في الحلق وأثقل من الجيم، وإيقاع الجيم المشربة والهاء والراء حَسَنٌ على السّمع، والقرآن الكريم قمّة الفصاحة والبيان.

أما الأسلوب الخبري، الذي ورد فيه وصف وتقرير، وتذكير بما صدر من بني إسرائيل في حق الله تعالى، وحقّ موسى عليه السلام، تضمّن غرض الطلب؛ بمعنى اذكروا نعمتي حين قلتم لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتكم الصاعقة، ثم أحييتُكم لِتتوبوا عن بَغيكم، وتتخلّصوا من العقاب وتفوزوا بالثواب.

ومما يمكن استخلاصه من متضمنات هذا القول هو غرض آخر، يفيد التحذير لمن كان في زمان نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، عن فعل ما يستحق بسببه أن يفعل به ما فُعل بأسلافهم أولئك. والمعنى الآخر هو التعريض بأولئك الذين تصرّفوا مع النبي (صلى الله عليه وسلم) مثلما تصرف أسلافهم مع نبيهم موسى (عليه السلام)؛ فهي رسالة لهم تُعْلمهم بنتيجة ذلك التصرف. ثمّ إنّ الغرض الذي نفهمه هو تسْلية الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وطمْأنته، وتثبيت قلبه على الصبر، كما صبر أولوا العزم من الرسل. وهذه الآية هي حجّة على أولئك الذين قالوا: لو صحّت نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) لكان أولى الناس بالإيمان به هم أهل الكتاب. وهكذا يبيّن القرآن أن هؤلاء الأسلاف؛ أسلاف بني إسرائيل من يهود ونصارى- وتحديداً بني إسرائيل- مع مشاهدتهم تلك الآيات الباهرة على نبوة موسى (عليه السلام)، كانوا يرتدّون كلّ وقت، ويتحكّمون عليه، ويخالفونه، فلا يُتعجّب من مخالفتهم محمداً (صلى الله عليه وسلم)، وإن وجدوا في كتبهم الأخبار عن نبوّته.

وآخر هذه الأغراض المستفادة من هذه الآية، هو أن محمد (صلى الله عليه وسلم) مع أنه كان أمّياً لن يشتغل بالتعليم البتة، فإخباره عن هذه القصص التي حدثت لبني إسرائيل، دليل على أن يكون ذلك عن وحي من الله سبحانه وتعالى[1].

يقول ابن كثير:« طلب الرؤية ليس لذاته، ولم يكونوا صادقين فيه، وإنما هو من باب العناد والجدل، والتجرّؤ على الله عز وجل »[2]. وقوله عز من قائل:﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾(البقرة:55). فحرف "الفاء" يفيد الترتيب والتعقيب، وهذا يدل على أن الصّعق كان بعد طلب الرؤيا مباشرة. لذا فهو نتيجة لمقدّمة، وعقوبة على فعل منكر. وجملة "تنظرون" تفيد أن العقوبة نزلت عليهم وهم يشاهدونها؛ وفي مشاهدتها رعب وخوف أخذ بمجامع قلوبهم قبل أن يأخذ العذابُ أجسادهم[3].

لقد كانوا ينظرون بعيونهم إلى القدرة الإلهية التي تجلّت لهم، حين صُعقوا، وحين بُعثوا، أو في الحالين معاً؛ فانتظار كل واحد منهم للصعق وانتظار دوره، كان له تأثير على النفس، وكذلك بعثُهم بعد موتهم. فمَن ينظر إلى الناس وهم مُصْعقون- ثمّ تدبّ فيهم الحياة فجأة، فتتحرك هذه الأجسام رويداً رويداً، فتقوم وهم ينظرون إلى هذا الحدث العظيم- لاشك أنه يصاب بالذهول والشّرود . ورغم كل هذا فما شكروا، وما تابوا!!!

---

1 - ينظر: الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب، ج3، ص 518.

2 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص 518.

3 - طنطاوي سيد، بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص 367.

ويذكّرنا القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة:259). فعُزيْر نظر واعتبر، واتّعظ واطمأن قلبه، واليهود نظروا وعصوا، ولم تؤمن قلوبهم، واستمروا في كفرهم وعنادهم[1]. وعبارة﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة:56)، فحرف "ثمّ"، يفيد الترتيب والتراخي، وهذا يدل على أنهم مكثوا فترة قبل أن يبعثوا من موتهم، كما دل العطف "بثمّ" أن بين أخذ الصّعقة والبعث زمناً، نتصور فيه المهلة والتأخير، والتعبير القرآني دقيق ومدلوله عميق.

يعلق سيّد قطب على تصرّف بني إسرائيل - الذين اختارهم موسى، لأن يكونوا من رجاله– قائلاً:« والذي طلب هذا هم السبعون المختارون منهم، الذين اختارهم موسى لميقات ربّه، فإذا كان هؤلاء الصّفوة منهم، فكيف حال العامّة الكَفرة؟! »[2].

* **فضل الله، وعفوه عن بني إسرائيل:** قال الله تعالى:﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة:51 - 52). تذكير بآخر نعمة من نعم الله لبني إسرائيل، استخلف عليهم هارون أخاه، ومكث على الطور أربعين ليلة، وأنزلت التوراة عليه في الألواح، فقرّبه الله إليه، وكلّمه، وأسمعه صرير القلم.

في هذه الفترة صوّر السامري عجلاً من الذهب لبني إسرائيل، ونثر عليه من التراب الذي قبضه من حافر دابة جبريل عليه السلام، حين تقدم على فرعون في دخول البحر، فخرج من العجل صوت كأنه خُوار، وقال لبني إسرائيل هذا هو إلهكم وإله موسى. وبدلاً من أن يستهدي بنو إسرائيل بكتاب الله الذي جاء به موسى، اتخذوا العجل من بعده إلهاً، وهذه الآية تبيّن مدى بلادة أسلاف بني إسرائيل، وجهالتهم وعنادهم، والنتيجة أنهم ظلموا أنفسهم. ورغم ذلك فالله سبحانه وتعالى عفا عنهم، لعلهم يشكرون، وينتبهون إلى خطيئاتهم.

يعلّمنا الله تعالى من هذا العرض، حكمة وغرضاً تداولياً، هو أن الإنسان يتعامل بالعفو عند المقدرة، وأن يمنح الفرص للمخطئين ليتوبوا، ولا يسرع في الحكم عليهم، وعقابهم. فترك فسحة من الوقت للمخطئ كفيل للتأكد من سلوكه، ومن نيته. فالفائدة هنا فائدة تربوية بامتياز، فرغم جريمة اليهود، وتطاولهم على الله، وقدرة الله عليهم، إلاّ أنه سبحانه لم ينتقم منهم، بل عفا عنهم وتجاوز عن أخطائهم.

يقول الشعراوي:« الإنسان حين يذنب ذنباً، يضعف إيمانه، ويتأثر قلبه، ولو لم تُشرّع التوبةُ والعفوُ من الله لزاد الناس في معاصيهم، وغرقوا فيها، وأصيبوا بالإحباط والقنوط واليأس »[3]. لكن اليهود كلما فتحت لهم باب التوبة

---

[1] - ينظر: الرازي الفخر، مفاتيح الغيب، ج7، ص 29.

[2] - قطب سيد، في ظلال القرآن، مج3، ص 1376.

[3] - ينظر: الشعراوي محمد متولي، التفسير، ج1، ص 336.

رفضوها، وكلما نزلت عليهم نعمة من الله تنكروا لها، وكلما رأوا معجزة تمادوا في ضلالهم وعصيانهم، فطباعهم ليست كطباع سائر البشر!!!

إنّ عفو الله عن بني إسرائيل كان تفضّلاً وتكرماً منه سبحانه، حتى ولو أنهم لم يتوبوا، ولذلك فأحسن الدعاء - كما ورد عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) — "اللهم إنك عفوّ كريم تحب العفو فاعف عنّي". والله سبحانه يبقي باب التوبة مفتوحاً حتى تصل الروح إلى الحلقوم، وحتّى تطلع الشمس من مغربها.

* **إهلاك الله فرعون، وإنجاؤه بني إسرائيل:** قال الله تعالى:﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾(طه:80). تفتتح هذه الآية بأسلوب النداء، وهو دعوة إلى بني إسرائيل كي يذكروا إنجاء الله لهم من فرعون، وكان عدوّاً لهم، ويذكروا إذ قرّبهم الله منه في جانب الطّور الأيمن، ورزقهم من الطيبات، ونزّل عليه المنّ والسلوى.

في هذه الآية - كما أسلفنا - تذكير بني إسرائيل وتنبيههم من غفلتهم، أو تغافلهم، ورسالة تحمل أغراضاً تداولية منها: ألا يغتروا ولا يكفروا بالنعمة، وألاّ يرتكبوا الأخطاء التي مورست ضدّهم، فيطبقوها على الشعوب الأخرى، بعدما أنجاهم الله ورزقهم من الطيبات وفضّلهم على العالمين. فالقوي لا يغترّ بقوته، والضعيف بالصبر والإيمان يصير قوياً عزيزاً، والله عز وجل– بهذا النداء – يشفق عليهم، ويريد لهم الخير، ويشعرهم بمعيته سبحانه، أفلا يشكرون؟!

لقد كانت معظم المعجزات والنعم لبني إسرائيل حسّيّة، لأنهم لا يؤمنون إلاّ بالماديات، ولأن النعم الحسية أكثر تأثيراً في النفس والقلب. لكن قلوب هؤلاء القوم كانت كالحجارة أو أشد قسوة.

الكفر والتكبر والظلم والتمرد والعصيان، مآل كل ذلك الهلاك والدمار، تحقيقاً لسنن الله في خلقه، وفرعون هو رمز للفراعنة في كل عصر ومصر، وموسى وقومه رمز للمؤمنين بالله وحده في كل مكان وآن. والصبر مفتاح الفرج ونهايته يبشر بها القرآن الكريم قائلاً:﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾(الأعراف:137). فلولا فضل الله وعفوه ما نجوا من ظلم فرعون.

* **وعد الله بني إسرائيل بدخولهم الأرض المقدسة:** قال الله جل وعلا:﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(المائدة:21- 26).

يستهل المولى سبحانه هذه الآيات من سورة المائدة، بفعل طلبي تضمن النداء، والله تعالى عندما ينادي بني إسرائيل فلأمرٍ مهمّ، وأمره إيّاهم فيه خير لهم، وقد وعدهم بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم. لكن فيها قوماً جبارين، فالله سبحانه يجعل لبني إسرائيل وراء كل محنة منحة، ووراء كل ابتلاء نعمة.

وكانت الأرض المقدسة بلاداً طيبة كثيرة النعم، وهؤلاء الأقوام الجبارون، وإن كانت أجسامهم عظيمة إلاّ أن قلوبهم ضعيفة. وهذه الحقائق أخبر بها الرجلان اللذان أنعم الله عليهما، فقالا لبني إسرائيل الذين كانوا مع موسى عليه السلام: إذا دخلتم عليهم الباب فإنكم تغلبونهم، فعليكم أن تتوكلوا على الله فقط[1]. لكن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام:﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:24)، فهم لا يريدون القتال، ولا يستجيبون لأمر الله، ولا يطيعون موسى عليه السلام، بل يريدون الاستفادة من النعم والغنائم والمتاع فحسب، دون أن يبذلوا جهداً، أو يُضَحّوا بنفْس أو نفِيس.

لقد تضمن فعل القول "ادخلوا" معنى الأمر بوجوب الدخول، والقرينة الدالة على هذا الأمر الذي ورد على وجه الاستعلاء والإلزام، هو قوله تعالى:﴿التي كتب الله لكم﴾، وكذلك من خلال التحذير والتهديد الذي ينتظرهم، إن لم ينفّذوا أمر الله، وهو الخسران. فعدم تلبيتهم لأمر الله، يؤدي إلى نتيجة سيئة هي من جنس فعلهم، وهي الخسران المبين، لأنهم أخلوا بالوعد ونكثوه.

أما النداء الآخر، فكان من بني إسرائيل لموسى (عليه السلام)، وهو متضمّن غرض التحجّج بأن الأرض المقدسة يسكنها جبّارون، لا يقدرون على دخولها ما داموا فيها. وهذا التهرّب من تنفيذ أوامر الله، هو من الحيل التي جُبل عليها بنو إسرائيل، وقد أكدوا رفضهم بقوله عز وجل على لسانهم:﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾(المائدة:22). إن الغرض من تكرار التوكيد، والجمل المؤكدة، هو إصرارهم وتعنتهم وعصيانهم لما كتب الله لهم، ولطلب موسى عليه السلام منهم ذلك.

و"الأرض المقدسة"؛ هي الأرض المطهرة من الآفات، ومن الشرك. وقد جعلت مسكناً وقراراً للأنبياء من قبل. وقيل: إنها دمشق، وفلسطين، وبعض الأردن[2].

وقوله تعالى على لسان موسى:"كتب الله لكم"، فيه وجوه؛ **أَحَدُهَا**: كتب في اللوح المحفوظ أنها لكم، و**ثانيها**: وهبها الله لكم، و**ثالثها**: أمركم بدخولها. وقد حرّمها الله عليهم بعد ذلك لمـّا تمردوا وعصوا. وقيل: إن الوعد بقوله تعالى:﴿كتب الله لكم﴾ مشروط بقيد الطاعة، فلما انتفى الشرط انتفى المشروط. وقيل: إنها محرّمة عليهم أربعين سنة، فلما مضى الأربعون سنة حصل ما كتب. وعبارة﴿كتب الله لكم﴾ أي كما وعدكم الله بها، فإن كنتم مؤمنين حقا فإن الله سينصركم على القوم الذين فيها، ويسلطكم عليهم، وأن تقدموا دون خوف أو جبن أو هلع[3].

ثم يأتي بفعل قول آخر يتضمن غرض النهي المبطن بالتحذير والتهديد، في قوله سبحانه:﴿ولا ترتدوا على أدباركم﴾، وفيه عدة فوائد منها؛ **أولا**: لا ترجعوا عن الدين الصحيح إلى الشك في نبوة موسى عليه السلام،

---

[1] - ينظر: الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب، ج11، ص 332.

[2] - ينظر: المرجع نفسه ، ج11، ص 332.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ج11، ص 332 - 333.

فيصيرون كافرين بالإلهية والنبوة. **ثانياً**: لا ترجعوا عن الأرض التي أمرتكم بدخولها، إلى الأرض التي خرجتم منها. ويرى أن القوم كانوا قد عزموا على الرجوع إلى مصر[1].

أما قوله تعالى:﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ ففيه وجوه؛ **أحدها**: خاسرين في الآخرة؛ فإنه يفوتكم الثواب، ويلحقكم العقاب. **وثانيها**: ترجعون إلى الذل. **وثالثها**: تموتون في التّيه، ولا تَصِلون إلى شيء من مطالب الدّنيا ومنافع الآخرة. وهذه نتائج كلّها يؤول إليها إعراضهم، وتوليهم الأدبار، وعدم تلبية أمر نبيهم، الذي هو من ربهم سبحانه وتعالى.

ومعنى "جبارين" يحتمل وجهين؛ **الأول**: الجابر بمعنى العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد. **والثاني**: رجل جبار إذا كان طويلاً عظيماً قوياً تشبيهاً بالجبار من النخل، وكان القوم غاية في القوة وعظم الأجسام[2]. ثم قال القوم: إنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون. وهذا القول غرضه الرفض واستبعاد الدخول، ويؤكده السياق الداخلي الذي ورد في الآية متمثلاً في التأكيد، بأن ولن التي تفيد نفي الاستقبال، وحتى التي تفيد التأكيد، أو التي بمعنى "إلى أن"، وإن الشرطية الدالة على الشك، لأن خروج القوم ليس سهلاً، ولا يكون بالتي هي أحسن بل بالمجابهة والمقاتلة.. فهم بقولهم هذا يرفضون النزال مع هؤلاء القوم، ويعصون أمر الله ونبيّه.

إنهم يعبّرون عن الاستبعاد واستحالة دخول الأرض المقدسة الذي عبّر عنه القرآن في آية أخرى بقوله تعالى:﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾(الأعراف:40). هذه الآيات تخلّلها الحوار، وجاء دور الرجلين المؤمنيْن وهما: يوشع بن نون من سِبْط أقوامهم، وكَالِب من سَبْط يهوذا؛ اللذين بعثهما موسى للتّجسّس على الأرض المقدسة (أرض الشام)، وفلسطين تحديداً، فوجدا الأرض ذات ثمار وأعناب ولبن، وعسل، ووجدا أهلها معتزّين، طِوال القامات، ومدنهم حصينة. فلما سمع بنو إسرائيل ذلك بكوا وتذمروا من موسى، وقالوا: لو متنا في أرض مصر لكان خيراً لنا من أنْ تُغنم نساؤنا وأطفالنا. فقال يوشع وكالب: إنْ رضى الله عنّا يدخلنا هذه الأرض، ولكن لا تعصوا الرّبّ، ولا تخافوا أهلها، فالله معنا. فأبى القوم دُخولَ الأرض، وغضب الله عليهم، وقال موسى: لا يدخل أحدٌ مَنْ سِنُّه عشرون سنة فصاعداً هذه الأرض إلاّ يوشع، وكالب. وكُلّكم ستدفنون في هذا القفر، ويكون أبناؤكم رعاة فيه أربعين سنة[3].

فالرجلان كانا يخافان الله تعالى، الذي أنعم عليهما بالشجاعة، وهذا ما يفسره السياق الخارجي ويدل عليه؛ وهو سياق الموقف، والحال التي كان القوم عليها. وقد ذكر خوف الرجلين، الذي يفيد غرض التّعريض بالذين عصوا، ولم يستجيبوا لله ولا لنبيهم[4]. والخوف من الله وخشيته، نعمة لعباده المتقين، وطمأنينة لهم، وشجاعة لهم على أعدائهم، والانتصار عليهم.

وقول الرجلين للقوم﴿ادخلوا الباب عليهم﴾؛ أراد باب قريتهم، وهو الباب الذي في سُورِه. فإذا ما فتح غنموا تلك الأرض. والباب بهذا المعنى؛ هو دَفّة عظيمة، تغلِق فُرْجَةً في السّور وتسُدُّها، وإزالةُ السّدّ يُعدّ فتحاً. كما أمَرا

[1] - ينظر: الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب ، ج11، ص 333.

[2] - ينظر: المرجع نفسه ، ج11، ص 332.

[3] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص 164.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ج6، ص 165

القوم بالتوكّل على الله الذي يؤَكّدُ الإيمان به، ولذلك ذيّل بقولهما﴿إن كنتم مؤمنين﴾، لأن الشك في صدق الرسول مبطل للإيمان[1]. ولكن القوم لم يكترثوا لموعظة الرجلين، وأكّدوا الامتناع الثاني من الدخول، بعد المحاورة أشد توكيد، دل عليه بثلاثة مؤكدات هي: إنّ، ولن، وأبداً.

طلب بنو إسرائيل من موسى (عليه السلام) معجزة أخرى، عندما قالوا:﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾، فطلبوا أن يهلك الله الجبارين بدعوة موسى. غير أن الغرض الذي يفهم من هذين الفعلين الطلبيّيْن "اذهب" و"قاتلا" هو العصيان الذي هو كبيرة من الكبائر، وخاصة في التولّي يوم الزحف، وعصيان أمر الله تعالى في الجهاد. لذلك وصفهم المولى تبارك وتعالى بالقوم الفاسقين الذي خرجوا عن طاعته.

هنا يناجي موسى ربه، بأن يحاسبه على نفسه، ولا يحاسبه على فعلة القوم الفاسقين، وأن يلطف به وبأخيه، وأن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، ولا يؤاخذهما بجرمهم.

ولعل القصد من هذا هو التحكّم بنبيّهم، وإيقاف الضّالين على غلطهم؛ إذ تعب موسى في إرشاد قومه، وإصلاحهم، ورفع درجته عند الله. وأما عصيانهم لموسى ولخالقهم فزادهم مشقة إلى مشقة، وتعباً إلى تعب في التيه والضلال.

وقد بقي بنو إسرائيل في جهات ضيّقة، يسيرون الهوينى على طريق غير منتظم، حتى بلغوا جبل (نيبو) على مقربة من نهر الأردن، وهناك توفي موسى (عليه السلام)، وهناك دفن، ولا يعرف موضع قبره[2]. ولم يدخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة حتى عبروا الأردن بقيادة يوشع بن نون خليفة موسى (عليه السلام)، وقد نهى الله موسى عن الأسى على قومه، لأنهم لا يستحقون ذلك، باعتبارهم كانوا قوماً فاسقين.

يعلق الشعراوي على قول الله تعالى:﴿التي كتب الله لكم﴾ الذي اختلف فيه العلماء وتساءلوا: أهي كتابة كونية، أم كتابة شرعية؟، وطرحوا العديد من المسائل فيها. يقول:« لو كانت الكتابة كونية لكان اللاّزم أن يدخلوها، لكنّه قال: إنها محرّمة عليهم، ثم قال: إذا هي إرادة شرعية وليست كونية، فإن أطاعوا الله وتشجعوا ودخلوا الأرض المقدسة، فإنهم يأخذونها، وإن لم يطيعوا فهي محرمة عليهم. إذاً فلا تناقض بين أن يقول سبحانه أنه كتبها لهم، ثم بعد ذلك يقول: فإنها محرّمة عليهم.. فإن دخولها بشجاعة ولم يخافوا ممن فيها، واستبسلوا ووثقوا أن وراءهم إلهاً قويا سيساندهم فإنهم سيدخلونها. أما إن لم يفعلوا ذلك فهي محرّمة عليهم »[3].

والغرض التداولي من تكرار أسلوب النداء، هو زيادة استحضار القوم أذهانهم[4]. والتكرار للتذكير أيضاً، والتذكير يهدف إلى تشجيعهم على التّحمّل بما كلّفوا به؛ لأن النفس ميّالة إلى السّهل، ولا تقوى على الصعب إلاّ عند ذوي العزائم. وبنو إسرائيل ليسوا كذلك؛ فهم لا يتحملون المشقة والصعاب. فالمقام يقتضي ذلك من موسى

1- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ج6، ص 165.

2 - ينظر: المرجع نفسه، ج6، ص 167.

3 - الشعراوي، التفسير، ج5، ص 3051.

4 - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص 162.

عليه السلام، لأنه جرّبهم وخبِرهم، إذاً لا مانع من التكرار مرتين بل مرات عديدة لتحقيق هذا القصد وهذا الغرض، لأن العبرة بالمقاصد، والمقاصد هي التي اقتضت هذا التكرار في النداء.

ونجد النداء تضمن معنى الإشفاق على القوم، وتميز بأدب جمّ، وصدق ظاهر، وقصد نبيل، وهدف شريف. يقول صاحب الظلال: فحُقّ لموسى أن يُشفِق عليهم، وهو يدعوهم دعوتَه الأخيرة، فيحشد فيها ألمع الذكريات، وأكبر البُشْريات، وأضخم المشجّعات، وأشد التحذيرات[1].

أما من جانب قومه، فقد تضمن فعل القول لديهم، والمتمثل في الأمر غرضاً دالاً على الغلظة والفضاضة، والوقاحة وقلّة الأدب. وهذا جرّاء جُبْنِهم وخذلانهم لغيرهم، بعدم دخول الأرض المقدسة. يصف القرآن هذا الموقف، ويقول على لسانهم:﴿فاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:24). إن الغرض من الفعل "اذهب أنت وربك" هو تكبّر وتطاول على موسى، وعلى الله سبحانه. ولم يقولوا "وربّنا"، بل نسبوا الضمير العائد على لفظ الجلالة إلى موسى (عليه السلام)، وكأن الله تعالى ليس بربّهم، ولم يمنّ عليهم من قبلُ بالعديد من النّعم. فبدلاً من أن يعترفوا بعجزهم وقلّة حيلتهم، ودفع الثّمن، والنّهوض للقتال، أساءوا الأدب مع الله، وتنكّروا لنعمه. هكذا هي وقاحة العاجز الذي لا تكلّفه وقاحةُ اللّسان إلا حدّ اللّسان، أما النّهوض بالواجب فيكلّفه وخز السّنَان[2].

وعبارة ﴿إنّا ها هنا قاعدون﴾ تتضمن قولاً محذوفاً تقديره: ننتظر يا موسى أن تقاتل مع ربك، وتأتينا بالنصر على طبق من ذهب، ولو أدى ذلك إلى قتلك، ونحن بانتظار الغنيمة. أما إذا كان ثمن النصر مواجهة الأعداء، فلا نريد مُلكاً ولا أرضاً للميعاد. إن هؤلاء القوم يريدونها تخْلية من الجبارين من قبل حلول العاجزين المنهزمين.

وإذا تأملنا بداية الآية ونهايتها في قوله تعالى:﴿ادخلوا عليهم الباب... إن كنتم مؤمنين﴾، نجد ارتباطاً وثيقاً وتناغماً عجيباً، إذ هناك ترابط بين السبب والنتيجة، أو بين الجواب المتقدم والشرط المتأخر؛ بمعنى قلب العجز على الصدر، فلا يمكن أن يدخلوا الباب على العماليق إلاّ إذا تمكن الإيمان من قلوبهم، وأُشْربوا الإيمان إشراباً. أو هم قد اشربوا العجل فلا شجاعة لهم ولا إيمان، وما النصر إلا من عند الله.

أما قوله تعالى في الآية المماثلة للآية الأخرى﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾(المائدة:22). وقوله عز من قائل:﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:24). فوجوه الاتفاق بين الآيتين تتمثل فيما يلي:

- **الآية الأولى**: نَفَت الدخول الذي اشتمل على تأكيدين وشرط.

– والمؤكد الأول: هو ضمير الجماعة، وقد أكّد بنون التوكيد الثقيلة.

– والمؤكد الثاني: لن النافية للحاضر والمستقبل، وهذا يؤكد أن الذين رفضوا الدخول تاهوا وماتوا قبل دخول طالوت وجالوت؛ فقد صدقوا في قولهم وهم كاذبون.

– **الشرط**: تمثل في خروج الجبارين من الأرض المقدسة (المائدة:22).

- **الآية الثانية**: اشتملت على ثلاثة مؤكدات، وشرط، وقلة أدب، وتبجح، وكفر بواح، وأنانية مفرطة.

---

[1] - قطب سيد، في ظلال القرآن، مج2، ص 869.

[2] - المرجع نفسه، ص 870.

- المؤكد الأول: الأداة "إن" الداخلة على ضمير المتكلمين الذي يبيّن موقفهم الجماعي.

- المؤكد الثاني: الأداة "لن" النافية للحاضر والمستقبل.

- المؤكد الثالث: لفظ "أبداً" الذي يفيد تأكيد النفي المشروط. وهذا دليل آخر على موت الذين قالوا هذا الكلام، وعلى عدم دخولهم الأرض المقدسة. قال الشعراوي:« كل الذين قالوا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها لم يعش منهم أحد ليدخل هذه الأرض »[1].

- **الشرط**: ما داموا فيها. وأشار ابن عاشور إلى هذه المؤكدات بقوله:« وأكدوا الامتناع الثاني من الدخول بعد المحاورة بثلاث مؤكدات، فكان أشد، أمّا "إنّا" المضاف إليها ضمير جماعة المتكلمين، فيدلل على رغبتهم جميعاً وهي إشارة إلى الإجماع الحاصل على الرفض. ولن التي تنفي المستقبل، وكلمة أبدا التي تفيد معنى على الإطلاق أو بالمطلق »[2].

لقد صدق الله العظيم في وصف اليهود، فلو أن المسلمين والعرب اليوم تحلوا باليقظة والعزة والإيمان بالله، ورابطوا على الثغور، ما كان لليهود ليعيشوا في أرض الأنبياء فساداً. والدليل رباط متواضع في قطاع غزة يحسب له اليهود ألف حساب. وقد حاولوا - عبثاً - كسره لكنهم ولّوا منهزمين خائبين، ولم يستطع اليهود دخول غزة، وبذلك تحقق قوله تعالى:﴿إنا لن ندخلها ما داموا فيها﴾.

* **العبرة بالقلة المؤمنة لا بالكثرة الفاسقة:** بين محاورة بني إسرائيل لموسى عليه السلام، ومشاورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه، بيان لمواقف مختلفة، وأغراض وغايات متباينة، تولّدها هذه الأحداث في أزمنة وأمكنة متشابهة، والقاسم المشترك فيها هو الجهاد في سبيل الله.

نجد قلة مع موسى على السلام تؤثر الجهاد، وكثرة تحب القعود؛ قلة تبغي رضى الله، وكثرة تسعى وراء ماديات الحياة في دنيا الفناء، وتخذل نبيها وتعصي ربها. أما مع محمد (صلى الله عليه وسلم) فأصحابه رضوان الله عليهم أجمعوا كلمتهم على أن يقاتلوا معه صفّاً كأنهم بنيان مرصوص، ويعزّروه وينصروه، حتى ولو خاض بهم عباب البحر.

ولم يشهد التاريخ، ولم يسجل يوماً ولو حادثة واحدة ولّى فيها المسلمون أدبارهم في الحرب. أما في صف الشرك والمشركين واليهود والنصارى، فقد حدث منه كثير. لقد ترجم الصحابة الكرام هذا الموقف بقولهم للرسول (صلى الله عليه وسلم): لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فهذا موقف أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وذاك موقف بني إسرائيل.

ومن الملاحظات التي يمكن استخلاصها مما سبق، ما يأتي:

- لقد كشف الحوار الذي دار بين الله وبين بني إسرائيل، وبين بني إسرائيل وأنبيائهم إخفاق هؤلاء في الابتلاء، فلم يقابلوا خالقهم بالشكر والصبر، بل قابلوه بالجحود والنّكران والقنوط، وكانوا أنفسَهم يظلمون.

---

[1] - ينظر: الشعراوي، التفسير، ج5، ص 3064.

[2] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص166.

- إن طغيان فرعون الذي بلغ به حد محاولة إبادة بني إسرائيل، بتقتيل الأبناء واستحياء النساء، وكان البلاء عظيماً. لكن الله سبحانه أنجى بني إسرائيل، وأهلك فرعون وزبانيته وتركهم عبرة للتاريخ.

- على الأمة أن تحيي فريضة الجهاد، مثلما يحاربها أعداؤها بتهمة الإرهاب، وأن تُعِدّ مناهج تربوية، وإستراتيجيات محمكة لإعادة مجدها الضائع، وتوفير السلم في هذا العالم الذي يعاني فيه الإنسان من تبعات الحروب الصليبية للغرب وثقافته الهدامة.

- العمل على رصّ الصّفوف: والاستعانة بالله، وإعداد النشء والتدريب البدني والعسكري والروحي، من شأنه أن يكون صمام الأمان، الذي يقي الأمة العربية والإسلامية من كيد الكائدين، وتربّص المتربصين.

- إن أفضلية بني إسرائيل كانت محصورة بزمان ومكان معيّنين. أما أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد شملتها الخيرية منذ بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى أن تقوم الساعة، ويرث الله الأرض ومن عليها.

- يجب توفير الأمن النفسي، والأمن الغذائي للأمة، حتى تكون عزيزة قوية، تأكل مما تنتج وتلبس مما تنسج، سلاحها وقرارها بيدها، لا بيد أعدائها. ويجب العودة إلى الحضارة الخضراء المنتجة، والمدرّة للمال والثروة. فالأمة التي تبقى أسيرة غذاء تناله من أعدائها، أمة لا مستقبل لها وآيلة إلى الزوال. ولذلك قيل: أعط غيرك تكن سيده وخذ من عند غيرك تكن عبداً له!!

ولا يمكن العودة إلى هذه القيم وهذه المعالم والنهوض بالأمة من جديد إلاّ إذا طبقت الأمة تعاليم القرآن الكريم، واتبعت سنة نبيها الكريم محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

بعد عصيان بني إسرائيل وتمرّدهم على الحق، ومقابلتهم نعمة الله بالكفر، وأنبياءه بالاستهزاء والسخرية، يهددهم الله تبارك وتعالى، ويتوعدهم في القرآن الكريم، بأن ينالهم عذاب شديد يوم القيامة. ذلك ما نقرؤه في خطابه إلى بني إسرائيل في المبحث الموالي...

المبحث الثاني*وعيد الله بني إسرائيل، وعقابهم.

لم يستمع بنو إسرائيل لنداء الحق سبحانه، ولم يحافظوا على العهود والمواثيق التي عاهدوا الله عليها، بل خانوا الأمانة ونكثوا العهد ونقضوا الميثاق، فكان التحذير والتهديد من الله لهم والتوعّد بالعقاب يوم القيامة. ومن الآيات التي انطوت على التهديد والوعيد وسوء العاقبة لهم، نستعرض ما يلي:

* **ميثاق بني إسرائيل، وتحذير الله لهم:** قال الله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(المائدة:12). ناسب ذكر ميثاق بني إسرائيل عقب ذكر ميثاق المسلمين تحذيراً من قوله تعالى:﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾(المائدة:7). والغرض منه تحذير المسلمين من أن يكون ميثاقهم كميثاق بني إسرائيل[1]. والعبرة والعظة المستفادتان منه هما: من تفرد بعد هذا الميثاق، فقد ضل سواء السبيل. وقد ذكر الله تعالى مقدمات لهذا الميثاق، كانت شروطاً لتحقيق نتائج (إجابات) مرجوة ومبتغاة. وهذه المقدمات أو الشروط هي: أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وآمنتم برسلي، وعزرتموهم، وأقرضتم الله قرضاً حسناً. وقد بدأت هذه المقدمات بنتيجة وهي الأهم في النتائج المذكورة، بعد عدّ شروطها. وهذه النتيجة هي﴿وقال الله إني معكم﴾، فمن كان الله معه فقد كان معه كل شيء، ومن لم يكن الله معه لم يكن معه شيء، وفقد كل شيء.

وقد أخّر الخطاب القرآني نتيجتين أخريين إذا ما طُبق هذا الميثاق وحُفظ، وهما:﴿لأكفّرنّ عنكم سيئاتكم﴾، و﴿لأدخلنّكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. وهذا خاص بمن يحفظ العهد، ويطبق الميثاق المتضمن عبادة الله وطاعته. أما إذا كان الأمر غير ذلك، وكان الكفر بعد الميثاق، فما بعد الحق إلاّ الضلال. فمن لم يلتزم بأوامر الله التي أكّدها واستهلّها باللاّم الموطّئة للقسم، التي يقصد بها تأكيد حصول المكافأة والثّواب لمن يلتزم بهذه الأوامر. وإن وردت أفعال الكلام بصيغة الماضي، إلاّ أن الغرض منها هو الأمر والطلب؛ أي؛ أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وآمنوا برسلي، وعزروهم وأقرضوا الله قرضاً حسنا، حتّى أكفّر عنكم سيئاتكم، وحتى أدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار. وقد أكّد حصول النتيجة باللام ونون التوكيد الثقيلة، والتوكيد يفيد التحقيق؛ هذا إن حافظ بنو إسرائيل على ميثاق الله. وتأكيد الخبر الفعلي "بقد" و"اللام" للاهتمام، كما هو التأكيد "بإنّ"، "إنّي معكم"، وليس ثمّ

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص 139.

متردّد ولا منزّل منزلته[1]. والبعث أصله التوجيه والإرسال، ويُطلق مجازاً على الإقامة والإنهاض؛ كقوله تعالى:﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾(يس:52). ثم شاع هذا المجاز حتى أطلق على إثارة الأشياء، وإنشاء الخواطر في النفس[2]. ثم الالتفات البارع والعدول، عن طريق الغيبة إلى طريق المتكلم﴿ولقد أخذ الله﴾ إلى قوله:﴿ثم بعثناكم﴾ والنقيب؛ الموكول إليه تدبير القوم، لأن ذلك يجعله باحثاً عن أحوالهم، فيطلَق على الرئيس وعلى قائد الجيش وعلى الرائد. ومنه حديث بيعة العقبة أنّ نقباء الأمصار يومئذ كانوا اثني عشر رجلاً. ويجوز أن يكون المراد بنقباء بني إسرائيل في الآية هم رؤساء جيوش، ويجوز أن يكونوا رُوّاداً وجواسيس، وكلاهما واقع في حوادث بني إسرائيل[3].

وقد أقام موسى عليه السلام من بني إسرائيل اثني عشر رئيساً على جيش بني إسرائيل، على عدد الأسباط المجندين، فجعل لكل سِبط نقيباً، وجعل لسبط يوسفَ نقيبين، ولم يجعل لسِبط لاوي نقيباً، لأن اللاّويّين كانوا غير معدودين في الجيش، إذ هم حفظة الشريعة. وكان ذلك في الشهر الثاني من السنة الثانية من خروجهم من مصر في برية سيناء.

وقد يكون المعنى؛ هو أن موسى قد بعث اثني عشر رجلاً من أسباط إسرائيل، لاختبار أحوال الأمم التي حولهم في أرض كنعان، وهم غير الإثني عشر نقيباً الذين جعلهم رؤساء على قبائلهم. ومن هؤلاء يوشع بن نون من سبط أفرايم، وكالب بن يفْنة من سبط يهوذا؛ وهما الوارد ذكرهما في قوله عز وجل:﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ (المائدة: 23).

والمعية في قوله تعالى:﴿إنّي معكم﴾، معية مجازية، القصد منها؛ تمثيل للعناية والحفظ والنصر. وقال عزّ مِن قائل:﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(طه:46). وقال سبحانه:﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾(الحديد:4). وهذا القول وقع وعداً على الوفاء بالميثاق؛ فهو من أفعال الوعديات؛ أي أعدكم، والالتزاميات التي دلّت عليها التوكيدات الواردة في الآية؛ اللام الموطئة للقسم، ولام جواب القسم ﴿لئن أقمتم الصلاة... لأكفّرنّ﴾. ولعلّ هذا بعض ما تضمنه الميثاق. و﴿لأكفرنّ عنكم سيئاتكم﴾ هو بعض ما شمله قوله تعالى:﴿إني معكم﴾.

---

[1] - ينظر: المرجع نفسه، ج6، ص 139.

[2] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص 139 - 140.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ج6، ص 140.

ومعنى التّعزير؛ النصر، وهو مبالغة في عزره إذا نصره، وأصله المنع، لأنّ الناصر يمنع المعتدي على منصوره. ومعنى﴿وأقرضتم الله قرضاً حسنا﴾، هي الصدقات غير الواجبة. والضلال للسبيل هو الحياد عن الطريق المستقيم، والانحراف إلى التيه.

* **ميثاق بني إسرائيل في العبادات والمعاملات:** يتوجه الله تعالى إلى بني إسرائيل، ويذكّرهم بالميثاق الذي أخذه عليهم، والذي يتضمّن عبادة الله وحده لا شريك له، والإحسان إلى الوالدين، وذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وأن يقولوا للناس حسنا، ون يقيموا الصلاة في وقتها، وأن يؤتوا الزكاة. لكنّ بني إسرائيل لم يسمعوا للتّذكير، وتولّوا عنه، ما عدا فئة قليلة منهم، وكان حالهم هو الإعراض والصدود والثبات عليه، فكان هذا الإعراض صفتهم وديْدنهم. ذلك ما صرّح به القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾(البقرة:83). لقد كلّف الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بأشياء خاصة هي؛ التكليف الأول: لا تعبدون إلا الله. وهناك قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي "يعبدون" بالياء، والباقون بالتاء. ووجه "الياء" أنهم غيب أخبر عنهم، ووجه "التاء" أنهم كانوا مخاطبين، والاختيار هنا للتاء، وما يرجح هذه القراءة قوله جل وعلا: وقولوا للناس حسنا، فدلت المخاطبة على التاء[1]. وقد اختلف الدارسون في موضع "يعبدون" من الإعراب على خمسة أقوال:

- قال الكسائي: رفعه على سقوط "أن"، والتقدير "أن لا يعبدوا". ويستشهد بقول طرفة: ألا أيها اللاّئمي أحضر الوغى... أراد أن أحضرَ.

- والقول الثاني: موضعه رفع على أنه جواب للقسم. كأنه قيل: وإذ أقسمنا عليهم لا يعبدون. وأجاز هذا الوجه الكسائي والفراء والمبرد والزجاج.

- والقول الثالث: قول قطرب أنه يكون في موضع الحال، فيكون موضعه نصباً، كأنه قال: وإذ أخذنا ميثاقكم غير عابدين إلاّ الله.

- والقول الرابع: قول الفراء: إنّ موضع "لا تعبدون" على النهي، إلاّ أنه جاء على لفظ الخبر، فورد بالرفع والمعنى على النهي. والذي يؤكد كونه نهياً أمور: **أحدها** قوله: أقيموا، **وثانيها:** أنه ينصره قراءة عبد الله وأبيّ "لا تعبدوا".

1 - ينظر: الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب، ج3، ص 585.

وثالثها: أن الإخبار في معنى الأمر والنهي آكد وأبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه تُسُورِع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه[1]. وهو غرض من الأغراض التّداولية.

- والقول الخامس: التقدير "أن لا تعبدوا"، تكون "أن" مع الفعل بدلاً من الميثاق.

لما أمر الله تعالى بني إسرائيل بعبادة الله وحده، ونهى عن عبادة غيره، لا شك في أن هذا مسبوق بالعلم بذاته سبحانه، وبالعلم بوحدانيته، ومسبوق أيضاً بكيفية تلك العبادة التي لا سبيل إلى معرفتها إلاّ بالوحي والرسالة.

والتكليف الثاني: قوله **وبالوالدين إحساناً**، وهنا يردف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لوجوه:

- **أحدها**: أن نعمة الله تعالى على العبد أعظم، فلا بد من تقديم شكره على شكر غيره. ثم بعد نعمة الله، نعمة الوالدين أعمّ النعم، وذلك لأن الوالدين هما الأصل والسبب في كون الولد ووجوده، كما أنهما منعمان عليه بالتربية. وأما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود، بل بالتربية فقط، فثبت أن إنعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد الله تعالى.

- **وثانيها**: أن الله عز وجل هو المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة، والوالدان هما المؤثران في وجوده بحسب العرف الظاهر. فلما ذكر المؤثر الحقيقي، أردفه بذكر المؤثر بحسب العرف الظاهر.

- **وثالثها**: أن الله سبحانه لا يطلب من العبد عوضاً - البتة - على إنعامه، بل المقصود هو محض الإنعام، والوالدان كذلك، فإنهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضاً مالياً ولا ثواباً. فمن هذا الوجه أشبه إنعامهما إنعام الله تعالى.

- **رابعها**: أن الله تعالى لا يمل من الإنعام على العبد، ولو أتى العبد أعظم الجرائم، فإن الله تعالى لا يقطع عنه مواد نعمه، وروادف كرمه، وكذا الوالدان لا يملاّن ولا يقطعان عن الولد مواد منحهما وكرمهما، وإن كان مسيئاً إليهما.

- **خامسها**: كما أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده، بالاسترباح وطلب الزيادة، ويصونه عن البخس والنقصان، فكذلك الحق سبحانه متصرف في طاعة العبد، فيصونها من الضياع. ثم إنه جل وعلا يجعل أعماله التي لا تبقى كالشيء الباقي أبد الآباد؛ كما في قوله عز وجل:﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:261).

[1] - ينظر: المرجع نفسه، ج3، ص 585.

- **ساديها**: أن نعمة الله وإن كان أعظم من نعمة الوالدين، ولكن نعمة الله معلومة بالاستدلال، ونعمة الوالدين معلومة بالضرورة، إلاّ أنها قليلة مقارنة بنعم الله، وبذلك تكون نعم الوالدين كالتالية لنعم الله تعالى[1].

لقد اتفق أكثر العلماء على وجوب تعظيم الوالدين وإن كانا كافرين. ويدل على ذلك وجوه: **-أحدها**: أن في قوله تعالى:﴿وبالوالدين إحسانا﴾ غير مقيّد بكونهما مؤمنيْن، فدلّت هذه الآية على أن الأمر بتعظيم الوالدين إنما هو لمحض كونهما والدين، وذلك يقتضي العموم. وكذلك الاستدلال بقوله تعالى:﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا الله﴾.

-ثانيها: قوله تعالى:﴿فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾، وهذا نهاية المبالغة في منع إيذائهما. وفي آخر الآية قال عز من قائل:﴿وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾، فصرّح ببيان السبب في وجوب هذا التعظيم.

-ثالثها: أن الله تعالى حكى عن إبراهيم الخليل عليه السلام كيف تلطّف في دعوة أبيه لينقله من الكفر إلى الإيمان في قوله سبحانه:﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾(مريم:42). ثم إن أباه كان يؤذيه، ويذكر الجواب الغليظ، وهو عليه السلام كان يتحمّل ذلك. وإذا ثبت ذلك في حق إبراهيم عليه السلام، ثبت مثله في حق هذه الأمة، لقوله تعالى:﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(النحل:123). والإحسان إلى الوالدين يكون بألاّ يؤذيهما ابنهما البتة، ويوصل إليهما من المنافع قدر ما يحتاجان إليه، فيدخل فيه دعوتهما إلى الإيمان إن كانا كافرين، وأمرهما بالمعروف على سبيل الرفق إن كانا فاسقين[2].

- **التكليف الثالث**: قوله تعالى﴿**وذي القربي**﴾ وفيه مسائل: **الأولى**: يدخل في القرابة الأحفاد والأجداد، ولا يدخل الآباء والأبناء، أو الأصول والفروع، وقيل يدخل الكل. والعرب يحفظون الأجداد العالية فيتسع نسلهم وكلهم أقارب. فلهذا قال الشافعي رضي الله عنه: يرتقي إلى أقرب جد ينسب إليه ويعرف به وإن كان كافرا. وذكر أن قرابة الأم فإنها تدخل في وصية العجم ولا تدخل في وصية العرب على الأظهر. لأنهم لا يعدّون ذلك قرابة، أما لو قال "لأرحام فلان" دخل فيه قرابة الأب والأم.

الثانية: إن حق ذ ي القربي كالتابع لحق الوالدين، لأن الإنسان إنما يتصل به أقرباؤه بواسطة اتصالهم بالوالدين. والاتصال بالوالدين مقدم على الاتصال بذي القربى. فلهذا أخّر الله ذكره عن الوالدين. والسبب العقلي في تأكيد

---

[1] - ينظر: الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب، ج3، ص586 - 587

[2] - ينظر الرازي الفخر، مفاتيح الغيب ، ج3، ص587.

رعاية هذا الحق أن القرابة مظنة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة. فلو لم يحصل شيء من ذلك لكان ذلك أشق على القلب وأبلغ، ولهذا وجبت رعاية حقوق الأقارب[1].

- **التكليف الرابع**: قوله تعالى﴿**واليتامى**﴾ وفيه مسألتان: **الأولى**: اليتيم الذي مات أبوه حتى يبلغ الحلم. وجمعه أيتام ويتامى. ولا يقال لمن ماتت أمه يتيم. هذا في الإنسان. أما في غير الإنسان فيُتمه من قبل أمه.

الثانية: اليتيم كالتالي لرعاية حقوق الأقارب، وذلك لأنه لصغره لا يُنتفع به، وليُتمه وخلوّه عمن يقوم به يحتاج إلى من ينفعه. والإنسان قلما يرغي في صحبة هذا. وإذا كان هذا التكليف شاقاً على النفس كانت درجته عظيمة في الدين.

- **التكليف الخامس**: قوله تعالى:﴿**والمساكين**﴾، وفيه مسائل:

الأولى: "المساكين" واحدها مسكين. أُخذ من السكون، كأن الفقر سكنه، وهو أشد فقراً من الفقير عند أكثر أهل اللغة، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه، واحتجوا بقوله تعالى:﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾(البلد:16). وعند الشافعي فالفقير أسوأ حالاً، لأن الفقير مشتق من فقار الظهر، كأن فقاره انكسر لشدة حاجته، وهو قول الأنباري. واحتجوا عليه بقوله تعالى:﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾(الكهف:79). جعلهم مساكين مع أن السفينة كانت لهم. **والثانية**: إنما تأخرت درجتهم عن اليتامى، لأن المسكين قد يكون بحيث ينتفع به في الاستخدام، فكان الميل إلى مخالطته أكثر من الميل إلى اليتامى، ولأن، المسكين أيضاً يمكنه الاشتغال بتعهد نفسه ومصالح معيشته، واليتيم ليس كذلك. فلذلك قدّم الله ذكر اليتيم على المسكين. **والثالثة**: الإحسان إلى ذوي القربى واليتامى، لا بد أن يكون مغايراً للزكاة، لأن العطف يقتضي التغاير، والاقتضاء مبدأ تداولي.

- **التكليف السادس**: قوله تعالى:﴿**وقولوا للناس حسنا**﴾. وفيه مسائل:

الأولى: قراءة حمزة والكسائي "حَسَناً" بفتح الحاء والسين على معنى الوصف للقول، كأنه قال:"قولوا لناس قولاً حسناً". وقرأ الباقون بضم الحاء وسكون السين، واستشهدوا بقوله تعالى:﴿وقولوا للناس حُسْنا﴾(العنكبوت:8). **والثانية**: قد يقال لمَ خوطبوا ب"قولوا" بعد الإخبار؟ والجواب في ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنه على طريقة الالتفات؛ كقوله تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾(يونس:22). **وثانيها**: فيه حذف؛ أي قلنا لهم قولوا. **وثالثها**: الميثاق لا يكون إلاّ كلاماً، كأنه قيل: قلت لا تعبدوا وقولوا.

---

[1] - ينظر، المرجع نفسه ج3، ص587.

والثالثة: اختلفوا في أن المخاطب بقوله تعالى:﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾(البقرة: 83). من هو؟ فيحتمل أن يقال: إنه تعالى أخذ الميثاق عليهم أن لا يعبدوا إلا الله، وعلى أن يقولوا للناس حُسنا، ويحتمل أن يقال: إنه تعالى أخذ الميثاق عليهم أن لا يعبدوا إلاّ الله، ثم قال لموسى وأمته: قولوا لناس حُسنا. والكل ممكن بحسب اللفظ. وهذا من محاسن العادات ومكارم الأخلاق[1]. وهذا الفعل الكلامي بوصف التداوليين يحمل ما يحمل من صفات التأدب والكياسة والتخلق الرفيع. والغرض التداولي هو النصح والإرشاد، وتربية الإنسان على القيم العليا والمثل السامية.

والرابعة: ومنهم من قال: إنما يجب القول الحسن مع المؤمنين، أما مع الكفار والفُسّاق فلا، والدليل عليه وجهان: **الأول**: أنه يجب لعنهم وذمهم والمحاربة معهم، فكيف يمكن أن يكون القول الحسن معهم؟ **والثاني**: قوله تعالى: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾(النساء:148). فأباح الجهر بالسوء لمن ظُلم. ومنهم من قال: إن هذا القول دخله التخصيص، فيحصل احتمالان: **أحدهما**: أن يكون التخصيص واقعاً بحسب المخاطَب، وهو أن يكون المراد قولوا للناس حُسنا في الدعاء إلى الله تعالى وفي الأمر بالمعروف. فعلى الوجه الأول يتطرق التخصيص إلى المخاطَب دون الخطاب. وعلى الثاني يتطرق إلى الخطاب دون المخاطَب.

أما الذين قالوا إنه يجب لعنهم وذمهم، فلا يمكنهم القول الحسن معهم. يقول صاحب التفسير الكبير: لا نسلّم أنه يجب لعنهم وسبّهم، والدليل عليه قوله تعالى:﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام:108). ولكن نسلّم بهذا، لكن لا نسلّم أن اللعن ليس قولاً حسناً، وبيانه أن القول الحسن ليس عبارة عن القول الذي يشتهونه ويحبونه، بل القول الحسن هو الذي يحصل انتفاعهم به. ونحن إذا لعناهم ليرتدعوا به عن الفعل القبيح كان ذلك المعنى نافعاً في حقهم. فكان ذلك اللعن قولاً حسناً ونافعاً - فهو باطل يراد به حق - . وإذا سلّمنا أن اللعن ليس قولاً حسناً، ولكن لا نسلّم أن وجوبه ينافي وجوب القول الحسن، فلا منافاة بين كون الشخص مستحقاً للتعظيم بسبب إحسانه إلينا، ومستحقاً للتحقير بسبب كفره. وإذا كان كذلك فلِمَ لا يجوز أن يكون وجوب القول الحسن معهم.

وكذلك لِمَ لا يجوز أن يكون المراد من قوله تعالى:﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ﴾ (النساء:148). هو كشف حال الظالم ليحترز الناس منه؟ وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم:« اذكروا الفاسق بما فيه كي يحْذَرَه الناس ».

[1] - ينظر، الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب، ج3، ص588

والخامسة: الدعوة إلى الإيمان تكون بالقول الحسن دائماً:﴿قولا له قولاً ليّناً﴾(طه:44). وقال الله لمحمد (صلى الله عليه وسلم): ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران:159). وأما دعوة الفُسّاق فالقول الحسن فيه معتبر. قال تعالى:﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:125). هذا في الأمور الدينية الأخروية. أما في الأمور الدنيوية، فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلطف في القول، لم يحسن سواه، فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخلة في قوله تعالى:﴿وقولوا للناس حسنا﴾(العنكبوت:8) [1].

والسادسة: ظاهر الآية يدل على أن الإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين كان واجباً عليهم في دينهم. وكذا القول الحسن للناس، لأن أخذ الميثاق يدل على الوجوب[2]. ويظهر هذا من خلال أفعال الكلام التي وردت بصيغة الأمر، وهذا يقتضي وجوب إنجاز ما تضمنته هذه الأفعال، لأنه تعالى ذمهم على التولّي عنه. هذا ما يفيد الوجوب والأمر في شرعنا أيضاً. ويمكن أن نستدل على أن التصديق واجب على الناس إن لم تندفع حاجتهم بالزكاة حتى وإن لم تجب هذه الزكاة علينا. لذلك يلزمنا التصدق على من اشتدت به الحاجة.

- التكليف السابع والثامن: وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. والغرض من هذه التكاليف الثمانية لتحصل لبني إسرائيل المنزلة العظمى عند ربهم. لكنهم تولّوا وأساءوا إلى أنفسهم ولم يتلقوا نِعَم ربهم بالقبول، مع توكيد الدلائل والمواثيق عليهم، وذلك يزيد في قبح ما هم عليه من الإعراض والتولي. واختلفوا فيمن المراد بقوله تعالى:﴿ثم توليتم﴾ على ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنه من تقدم من بين إسرائيل. **وثانيها**: أنه خطاب لمن كان في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) من اليهود، يعني: أعرضتم بعد ظهور المعجزات كإعراض أسلافكم. **وثالثها**: من تقدم ومن تأخر[3]. ووجه القول إذا كان الكلام الأول في المتقدمين فظاهر الخطاب يقتضي أن آخره فيهم أيضاً.

لقد ساق الله الحجج على بني إسرائيل، ثم بيّن توليهم من بعد إلاّ قليلاً منهم، فإنهم بقول على ما دخلوا فيه. وكما أن الله قد لزم المتقدمين بالتمسك بهذه العهود والمواثيق هو لازم للمتأخرين، لأنهم يعلمون ما في التوراة من حال محمد (صلى الله عليه وسلم) وصفته وصحة نبوته. فيلزمهم من الحجة ما لزم أسلافهم. ثم إن الله تعالى يبيّن نهاية قبح أفعال بني إسرائيل - إلاّ قليلاً منهم - ويكون قوله عز وجل:﴿وأنتم معرضون﴾ مختصاً بالذين كانوا في زمان محمد (صلى الله عليه وسلم)؛ أي إنكم بمنزلة المتقدمين الذين تولوا بعد أخذ هذه المواثيق، فإنكم بعد

---

1 - الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب، ج3، ص589

2 - المرجع نفسه، ج3، ص590

3 - المرجع نفسه ، ص590

اطّلاعكم على صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) أعرضتم وكفرتم به، فكنتم بهذا الإعراض بمثابة أولئك المتقدمين في ذلك التّولّي.

* **بنو إسرائيل وقتلهم النفس، وسفكهم الدماء**: الخطاب الموجه إلى بني إسرائيل: في قول الله تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾(البقرة:84) يحتمل وجوهاً، ويتضمن أقوالاً هي:

أحدها: أنه خطاب موجه لعلماء اليهود في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم). **وثانيها**: أنه خطاب مع أسلافهم، وتقديره وإذ أخذ الله ميثاق آبائكم. **وثالثها**: أنه خطاب للأسلاف وتقريع للأخلاف. ومعنى أخذنا ميثاقكم، أي؛ أمرناكم وأكّدنا الأمر، وقبلتم وأقررتم بلزومه ووجوبه. وأما قوله تعالى:﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾، فمن متضمنات هذا القول ما يلي:

أحدها: إذا كان اللجوء إلى قتل النفس لتخليصها من عالم الفساد، واللحوق بعالم النور والصلاح، وثقل على صاحبها أمر من الأمور، فإذا انتفى كون الإنسان ملجأ إلى قتل نفسه صحّ كونه مكلفاً به.

وثانيها: المراد لا يقتل بعضهم بعضاً، وجعل قتل الآخر الذي يرتبط به دينا ونسباً جعل نفسه كنفسه. **وثالثها**: أنه إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه لأنه يقتص منه. ورابعها: لا تتعرضوا لمقاتلة من يقتلكم فتكونوا قد قتلتم أنفسكم. وخامسها: لا تسفكون دماءكم، أي دماء من قواكم في مصالح الدنيا بهم فتكونون مهلكين لأنفسكم[1].

وأما قوله تعالى:﴿ولا تُخرجون أنفسكم﴾، فيتضمن وجهين؛ الأول: لا تفعلوا ما تستحقون بسببهم أن تخرجوا من دياركم. والثاني: المراد النهي عن إخراج بعضهم بعضا من ديارهم، لأن ذلك مما يعظم فيه المحنة والشدة حتى يقرب من الهلاك.

وأما قوله تعالى:﴿ها أنتم أقررتم وأنتم تشهدون﴾، فيه وجوه؛ أحدها وهو الأقوى: أي ثم أقررتم بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه وأنتم تشهدون عليها كقولك فلان مُقرّ على نفسه بكذا؛ أي شاهد عليها. وثانيها: وأنتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق.

وقد نزّل القرآن الكريم الخلف من بني إسرائيل منزلة السلف. وهذا يظهر من خلال الضمائر التي يقصد بها مجموع الناس خاصة إذا تعلقت بها الأحكام بمصلحة جامعة، أو مفسدة جامعة. ولذلك أسند سفك الدماء إلى ضمير السافكين﴿لا تسفكون دماءكم﴾. ولكن هذا النهي وهذا التحذير لم يلقيا آذاناً صاغية عند بني إسرائيل،

---

1 - ينظر:الرازي الفخر، مفاتيح الغيب، ج3، ص591.

فها هو القرآن الكريم يفضح هؤلاء في قوله تعالى:﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة:85).

ذهب صاحب الكشاف إلى أنه من تشبيه الغير بالنفس لشدة اتصال الغير بالنفس في الأصل أو الدين، فإذا قتل لمتصل به نسباً أو ديناً، فكأنما قتل نفسه[1]. والعطف بـ"ثم" في قوله:﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ للترتيب الرتبي؛ أي وقع ذلك كله، وأنتم هؤلاء تقتلون. والخطاب لليهود الحاضرين في وقت نزول القرآن، والإشارة بـ "هؤلاء" دليل على ذلك، لأنه لا يشار إلى الغائب، نحو قولهم: ها أنا ذا، وها أنتم أولاء. وزيادة اسم الإشارة غرضه التعيين..... الضمير. وهذا استعمال عربي يختص في الغالب بمقام التعجب من حال المخاطَب[2].

والمراد من استعمال الإشارة بعد الضمير هو التوسع في الإخبار، فمن أجل ذلك صحّ أن يقال: أنا ذلك، إذا كانت الإشارة إلى متقرر في ذهن السامع. وإذا أرادوا العناية بتحقيق هذا الاتحاد بين المسند والمسند إليه جاءوا "بها" التنبيه، فقالوا: ها أنا ذا، يقوله المتكلم لمن يشك أنه هو، على نحو قول الشاعر:[3]

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول: كان أبي

فإذا كان السبب الذي صحّح الإخبار معلوما اقتصر المتكلم على ذلك، وإلاّ أتبع ذلك التركيب بجملة تدل على الحال التي اقتضت ذلك الإخبار، ولهم في ذلك مراتب:

الأولى: ثم أنتم هؤلاء تقتلون، **الثانية**:﴿ها أنتم أولاء تحبونهم﴾(آل عمران:119). وفيه:"ها أنا ذا لديكما"، قاله أمية بن أبي الصلت. **والثالثة**:﴿ها انتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾(النساء:109). والغرض من هذه الأساليب هو التعجب من حال بني إسرائيل، أو حال المخاطبين الذين يعودون لما نُهوا عنه أو يستمرون فيه. ويستفاد معنى التعجب في أكثر مواقعه من القرينة، كما تقول لمن وجدته حاضراً، وكنتَ لا تترقب حضوره:"ها أنت ذا". والأظهر أن يكون الضمير واسم الإشارة مبتدأ وخبراً، والجملة بعدها حالاً. وقيل: هي مستأنفة لبيان منشأ التعجب. واختلف النحاة في وقوع الضمير بعد "ها" التنبيه. هل يتعين أن يعقبه اسم الإشارة أم لا؟

---

1 - ينظر: ينظر:الرازي الفخر، مفاتيح الغيب، ج3، ص100

2 - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص586

3- قاله الحجّاج بن يوسف، في تأديبه للفتية الثلاثة الذين انتهكوا حظر التجوّل ليلا. وقيل : إن البيت للإمام علي رضي الله عنه.

وأما قوله تعالى:﴿تقتلون أنفسكم﴾ حال أو خبر، وقد عبّر عن ذلك بالفعل المضارع لقصد الدلالة على التجدد، وأن ذلك من شأنكم. وكذلك قوله سبحانه:﴿وتخرجون فريقاً منكم﴾[1]. والمقصود بهذه الخطابات كلها هم أسلاف الحاضرين من المخاطبين[2]. وقد أشارت هذه الآية إلى ما حدث بين اليهود من التخاذل، وإهمال ما أمرتهم به شريعتهم.

والأظهر أن المقصود يهود بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع. وأراد من ذلك ما حدث بينهم في حروب بُعاث القائمة بين الأوس والخزرج قبل الهجرة بخمس سنين، فكانت اليهود تتقاتل وتجلي المغلوبين من ديارهم وتأسرهم. ثم لما ارتفعت الحرب جمعوا مالاً وفدوا به أسرى اليهود الواقعين في أسر أحلاف أحد الفريقين من الأوس والخزرج. فعيّرت العرب اليهود بذلك وقالت: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم؟ فقالوا: قد حرّم علينا قتالهم، ولكننا نستحي أن نخذل حلفاءنا وقد أُمرنا أن نفدي الأسرى. فذلك قوله تعالى:﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾. فالواو للعطف على "تقتلون" و"تخرجون". والغرض من هذا الإخبار والقصد منه هو التوبيخ على هذا الفعل الذي صدر منهم، وهو يدخل في إطار نكث العهد، لأنه كان في جملة ما نهاهم الله عنه. وقد تكون الواو للحال وما بعدها جملة حالية[3]. وفي قوله تعالى تعالى:﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾، الغرض منه تشنيع وتبليد لهم، إذ توهموا القربة فيما هو من آثار المعصية!! أي؛ كيف ترتكبون الجناية وتزعمون أنكم تتقربون بالفداء؟ وإنما الفداء المشروع هو فداء الأسرى من أيدي الأعداء لا من أيديكم، فهلاّ تركتم موجب الفداء؟ والقربة لا تكون إلاّ إذا كانت غير ناشئة عن معصية[4].

ومعنى﴿ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ ﴾، فأسارى جمع أسير، وقيل هو جمعُ جمعٍ مفرده أسرى، وتفادوم بمعنى؛ تفدوهم فداء صريحاً. والمحرّم هو: الممنوع. ومادة "حرم" في كلام العرب للمنع، والحرام الممنوع منعاً شديداً، أو الممنوع منعاً من قبل الدين. ولذلك قالوا: الأشهر الحُرُم، وشهر المحرّم[5].

وقوله تعالى:﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ فعل كلام تضمن الاستفهام الإنكاري، والقصد منه التوبيخ، أي كيف تعمّدتم مخالفة التوراة في قتال إخوانكم، واتبعتموها في فداء أسراهم، وسمى الاتباع والإعراض كفراً، على طريقة الاستعارة، والقصد منه تشويه المشبه، وإنذاره، وتحذيره، ووعيده، لأن تعمد المخالفة للكتاب قد

---

[1] - ينظر: ابن عاشور،التحرير والتنوير ، ج1، ص588.

[2] - ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج1، ص160.

[3] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص590.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص590.

[5] - ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص591.

تفضي بصاحبها إلى الكفر به. ووقوع فعل الكلام "فتؤمنون" في حيّز الإنكار القصد منه التنبيه على أن الجمع بين الأمرين عجيب، أو يدعو إلى العجب، لأن جحود ما هو قطعي من الدين، ومعلوم بالضرورة هو مروق من الدين وكفر بواح.

وقوله جل وعلا:﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾، فالفاء فصيحة عاطفة على الاستفهام الإنكاري، والقصد هو التوبيخ. و"الخزي" ذلّ في النفس طارئ عليها فجأة لإهانة لحقتها، أو معرّة صدرت منها، أو حيلة أو غلبة تمشت عليها. وهو اسم لما يحصل من ذلك. والمراد بالخزي: ما لحق باليهود من المذلة بعد تلك الحروب بإجلاء بني النضير عن ديارهم، وقتل بني قريظة، وفتح خيبر، وما قدّر لهم من الذل بين الأمم[1]. وهذا حال من يخون العهد، ويؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه الآخر، إن هو إلاّ خزي في الحياة الدنيا وفي الآخرة يردّ إلى أشد العذاب، فلا يخفف عنهم ولا هم ينصرون.

* **بنو إسرائيل بين هوى النفس، وقتل الأنبياء:** قال الله تعالى:﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة:87). لقد أنحى القرآن الكريم على بني إسرائيل في فعالهم مع الرسول موسى عليه السلام، بما قابلوه من العصيان والتبرم والتعلل في قبول الشريعة، وبما خالفوا من أحكام التوراة بعد موته إلى قرب مجيء الإسلام. ثم انتقل إلى الإنحاء عليهم بسوء معاملتهم للرسل الذين أتوا بعد موسى مثل: يوشع، وإلياس، وأرمياء، وداود، وعيسى الذي جاء مبشراً. لكن مقابلة بني إسرائيل لأولئك الرسل كانت بالإعراض والاستكبار وسوء الصنيع، وتلك أمارة على أنهم إنما يعرضون عن الحق، لأجل مخالفة الحق أهواءهم، وإلاّ فكيف لم يجدوا من خلال هاته العصور ومن بين تلك المشارب ما يوافق الحق، ويتمحّض للنّصّ؟ وإن قوماً هذا دأبهم يرثه الخلف عن السلف لجديرون بزيادة التوبيخ، ليكون هذا حجة عليهم في أن تكذيبهم للدعوة المحمدية مكابرة وحسد.

وقوله تعالى:﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾، يعود على الرسل المذكوين من قبل هذا الكلام. والفاء للسببية والاستفهام وللتعجب من طغيانهم ومقابلتهم جميع الرسل في جميع الأزمان بمقابلة واحدة تساوى فيها الخلف السلف، مما دل على أنّ ذلك سجية في الجميع.

وتقدمت همزة الاستفهام على الفاء لأنها من أدوات الصدارة، وباعتبارها متأصلة في الاستفهام؛ إذ هي الحرف الموضوع للاستفهام الأكثر استعمالاً فيه. وأما غيرها فكلمات أشربت معنى الاستفهام؛ منها ما هو سم مثل (أين)،

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص591.

ومنها ما هو حرف تحقيق (هل) فإنه بمعنى (قد). وأصل (هل) (أهل) ولما كثر دخول الهمزة عليه حذفوها لكثرة الاستعمال[1].

والقصد والغرض التداولي من أسلوب الاستفهام "أفكلّما"، هو التوبيخ والتعجب من شأنهم؛ أي بني إسرائيل. وقوله:﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾، فق كذّب بنو إسرائيل الرسل، وبلغ بهم الأمر إلى قتل البعض منهم. يقول صاحب الكشاف: هلاّ قيل: وفريقاً قتلتم؟ فلم ترد الصيغة بالماضي لفعل القتل من وجهين: **الأول**: أن تراد الحال الماضية، لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب. **والثاني**: وفريقا تقتلونهم بعدُ، لأنكم تحومون حول قتل محمد (صلى الله عليه وسلم) لولا أنّي أعصمه منكم[2]. ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة. وكل العجب أن يستمر منكم ذلك، واستمراره دال على أنه سجية فيكم، وليس لعارض عرض لبعض الرسل وفي بعض الأزمنة. والتقدير: آستكبرتم كلّما جاءكم رسول؟ فقدّم الظرف للاهتمام لأنه محل العجب. وقد دلّ العموم الذي في "كلّما" على شمول التكذيب، أو القتل لجميع الرسل المرسلين إليهم لأن عموم الأزمان يستلزم عموم الأفراد المظروفة فيها. ومعنى "تهوى" مضاري هوِيَ: إذا أحبّ. والقصد منه ما تميل إليه أنفسهم من الانخلاع عن القيود الشرعية والانغماس في أنواع الملذات والتصميم على العقائد الضالة[3].

والاستكبار والاتصاف بالكبر، وهو الترفع عن اتّباع الرسل، وإعجاب المتكبرين بأنفسهم، واعتقادهم بأنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل، ويكونوا أتباعاً لهم والسين والتاء في الفعل للمبالغة. وهو مقدمة لنتيجة، أو سبب لمسبب، المسبب والنتيجة عن "استكبرتم" هو "فريقا كذبتم وفريقا تقتلون".تقديم المفعول لما فيه من الدلالة على التفضيل، فناسب أن يقدم للدلالة على ذلك. وهذا استعمال عربي كثير في لفظ فريق وما في معناه[4]. وجاء بالفعل "تقتلون" في صيغة المضارع عوضاً عن الماضي لاستحضار الحالة الفظيعة، وهي حالة قتلهم رسلهم، مع ما في صيغة تقتلون من مراعاة الفواصل، فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النظم.

***مسخ الله المعتدين في السّبت:** قال الله جل شأنه:﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة:65 - 66). هذه جملة من

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص597.

[2] - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص162.

[3] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص598.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص598.

الأخبار التي ذكرها الله تعالى. والغرض التداولي منها والقصد هو التذكير؛ تذكير اليهود بما أتاه سلفهم من الاستحفاف والاستهزاء بأوامر الله تعالى.

يقول ابن عاشور: إن هذه القصة المشار إليها بهذه الآية ليست من القصص التي تضمّنتها كتب التوراة؛ مثل القصص الأخرى المبتدأة بـ"إذْ"، لأن هذه القصة متواترة عندهم؛ بل هذه القصة وقعت في زمن داود عليه السلام. فكانت غير مسطورة في الأسفار القديمة، وغير معروفة لعلمائهم وأحبارهم، فأطلع الله تعالى نبيّه محمداً (صلى الله عليه وسلم)، وتلك معجزة غيبية، وأوحى إليه في لفظها بما يدل على أن العلم بها أخفى من العلم بالقصص الأخرى، فأسند الأمر فيها لعلمهم إذ قال:﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ﴾.

والاعتداء؛ هو تجاوز الحد والغاية، مخالفة الحق وظلم الناس، لكن المراد في هذه الآية هو اعتداء الأمر الشرعي، واعتداء على أمر الله تعالى من عهد موسى بأن يحافظوا على حكم السبت، وعدم الاكتساب فيه، ليتفرغوا فيه للعبادة بقلب خالص من الشغل بالدنيا. فكانت طائفة منهم من سكان "أيلة"، وتُعرف اليوم بـ"العقبة"، تقع على خليج صغير من البحر الأحمر في أطراف مشارف الشام. فقد رأى هؤلاء السكان من بني إسرائيل تكاثر الحيتان يوم السبت بالشاطئ، فقالوا لو حفرنا لها حياضاً، وشرعنا إليها جداول يوم الجمعة، فتمسك الحياض الحوت إلى يوم الأحد، فنصطادها. وفعلوا ذلك فغضب الله تعالى عليهم، لهذا الحرص على الرزق أو لأنهم يشغلون بالهم يوم السبت فيما تحصّل لهم، أو لأنهم تحيّلوا على اعتياض العمل في السبت[1]، واعتقدوا أنهم أذكياء، وهذا الأمر لم تمتد إليه شريعتهم، فعاقبهم الله سبحانه عقاباً مميزاً.

والسبت مصدر سبتَتِ اليهود إذا عظّمت يوم السبت، والله سبحانه ابتلى اليهود، فما كان يبقى حوت في البحر إلاّ أخرج خرطومه يوم السبت، فإذا مضى تفرقت هذه الحيتان، فحفروا حياضاً عند البحر وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم على السبت[2].

وقوله تعالى:﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾، يحتمل تصيير أجسامهم أجسام قردةٍ، مع بقاء الإدراك الإنساني، وهذا قول جمهور العلماء والمفسرين، ويحتمل أن يكون تصيير عقولهم كعقول القردة مع بقاء أجسامهم

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص544.

[2] - ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج1، ص147.

على شكل الهيكل الإنساني، وهذا قول مجاهد. والعبرة تستفاد من كلا الاعتبارين، والأول أظهر؛ لأن فيه اعتبارهم بأنفسهم واعتبار النّاس بهم. بخلاف الثاني[1] الذي يقول بمسخ القلوب لا مسخ الذّوات.

وهذا الأمر التكويني كان لأجل العقوبة على ما اجترأوا، واستخفوا بالأمر الإلهي، حتى تحيّلوا عليه، وفي ذلك دليل على أن الله تعالى لا يرضى بالتحايل على تجاوز أوامره ونواهيه، فإن شرائع الله تعالى مشروعة لمصالح وحكم؛ والتحيّل على خرق تلك الحكم جراءة على الله، ولا حجة لمن ينتحل جواز الحيل.

وقوله تعالى:﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ عاد فيه الضمير على العقوبة المستفادة. والنكال: هو العقاب الشديد الذي يردع المعاقَب عن العودة للجناية، ويردع غيره عن ارتكاب مثلها. ويقال: نكّل به تنكيلاً ونكالاً بمعنى؛ عاقبه بما يمنعه من العود لارتكاب المعاصي.

والمراد بقوله تعالى:﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾، يعني أن تلك الفعلة كانت آخر ما فعله ينو إسرائيل، فكانت موعظة للأمم القريبة منها، وهي المقصودة بـ"لما بين يديها"، وكذل للأمم البعيدة عنها؛ أي "لما خلفها". والموعظة هي الترهيب من الشر[2]، والتحذير من العواقب السيئة.

أما في الآية الثانية من سورة الأعراف، فقد غُيّر الأسلوب الخبري الذي يخبر عن بني إسرائيل، فابتدئ ذكر هذه القصة بأن يسأل سائل بني إسرائيل الحاضرين عنها، لأنهم يعلمون هذه القصة، وأخفوها، فلم يشيروا إليها في كتبهم التي حرفوها، ولكنها كانت مروية من قبل أحبارهم. وافتتحت بالسؤال، لإشعار يهود العصر النبوي بأن الله أطلع نبيّه عليه الصلاة والسلام عليها، وعلى تاريخ بني إسرائيل، وهم كانوا يكتمونها. وهذه القصة بمثابة الموعظة للأمة فيما اجترحته من مخالفات ومعاصٍ، قد يكون لها أثر فيما بعد تعيّر به. أما إذا اتعظت ورجعت إلى الصواب فلا يؤثر فيها التعيير على الإطلاق[3]، لأنه من لا يخطئ لا يصيب ومن لا يتعثر لا ينهض. إلاّ بني إسرائيل!!!

والغرض التداولي والقصد من السؤال هو التحدي، والوخز على سوء تلقي اليهود الدعوة المحمدية بالمكر والحسد. فالسؤال هنا في معنى التقريع والتوبيخ، وعدّ سوابق عصيانهم؛ أي ليس عصيانهم لك يا محمد ببدع، فتلك

---

[1] - ينظر: ابن عاشور،التحرير والتنوير ، ج1، ص544.

[2] - ينظر: نفسه ، ص546.

[3] - ينظر: المرجع نفسه ، ص547.

طبيعتهم ورثوها عن أسلافهم، وليس السؤال للاستفادة، لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أُعلِم بذلك من جانب ربّه سبحانه وتعالى[1]. والسؤال عند العرب على نوعين:

الأول: أن يسأل السائل عمّا لا يعلمُه ليعلَمَه، والآخر: أن يسأل على وجه التقرير حين يكون السائل يعلم حصول المسؤول عنه، ويعلم أن السائل عالم، وأنه إنما سأله ليقرره[2]. والسؤال في الآية من النوع الثاني؛ سؤال للتقرير لا للاستعلام.

* **لعنة الله بني إسرائيل، لفعلهم المنكر**: قال الله تعالى:﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(المائدة:78 - 79). قال أكثر المفسرين: إن الذين عناهم الخطاب في هذه الآية هم أصحاب السبت، وأصحاب المائدة؛ أما أصحاب السبت فهو أن قوم داود؛ وهم أهل "أيلة" لما اعتدوا في السبت بأخذ الحيتان، قال داود اللهم العنهم، واجعلهم آية، فمُسخوا قردة. وأما أصحاب المائدة، فإنهم لماّ أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا قال عيسى: اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازير.

قال بعض العلماء إن بعض اليهود، كانوا يقولون إننا أبناء الأنبياء تفاخراً منهم، فذكر الله تعالى هذه الآية لتدل على أنهم ملعونون على ألسنة الأنبياء أنفسهم؛ هؤلاء الأنبياء الذين ادعى بنو إسرائيل بأنهم أبناؤهم. وقيل: إن داود وعيسى عليهما السلام بشّرا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وأنهما لعَنا من يكذّبه[3].

أما قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾، فالمعنى أن ذلك اللعن كان بسبب أنهم يعصون ويبالغون في العصيان[4]. فقدّم النتيجة وهي اللعن على المقدمة وهي العصيان والعدوان. وعبّر عن العدوان بصيغة الفعل المضارع ليفيد معنى الاستمرار وعدم الانقطاع. وهو الصفة التي لازمتهم من أول بني بُعث فيهم إلى آخر رسول إلى البشرية.

ويفصّل الخطاب القرآني في السبب الذي أدى بهم إلى هذه النتيجة؛ وهي اللعنة، وهو أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه؛ بمعنى لا ينهى بعضهم بعضاً. روى ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال:« من

---

1 - ينظر: الرازي، التفسير الكبير، ج12، ص412.

2 - ينظر: المرجع نفسه، ج12، ص412.

3 - ينظر: الرازي، التفسير الكبير، ج12، ص412.

4 - ينظر: المرجع نفسه، ج12، ص412.

رضي عمل قوم فهو منهم، ومن كثّر سواد قوم فهو منهم ». والمعنى الآخر في التناهي عن المنكر هو الانتهاء عنه، والكف عنه[1].

ثم تأتي الفاصلة في قوله تعالى:﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾، لتفيد ذم ما كان يصنع هؤلاء، وباسطة اللام المتصلة بفعل الذم، لتفيد معنى القسم على حقارة ووضاعة ما كانوا يفعلون، أي أقسم لبئس ما كانوا يفعلون، وهو ارتكاب المعاصي والعدوان، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2]. فكانوا يعاودون المنكر، ويوفرون كل الأدوات اللازمة للمناكر، ويصرون على فعل المنكرات، ولا أحد يكف الآخر عنه. والتعبير كما أسلفنا بالماضي ثم المضارع﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾؛ لغرض هو أن ذلك الأمر قديم فيهم، وأنه متكرر الحدوث معهم، ولذلك أتبعتهم اللعنة إلى يومنا هذا.

والقصد التداولي، والعبرة، والعظة التي يمكن أن نخرج بها من هذه الآية هي أن الأمة يجب أن يتناهى أفرادها عن المنكر، ويتعاونون على المعروف، حتى لا يصيب الأمة ما أصاب بني إسرائيل. فالساكت عن المنكر مشارك فيه، وملعون أيضاً. والدال على الخير كفاعله، ومأجور أيضاً. فعلى المجتمع المسلم ألاّ يضيع صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يعطّلهما في الحياة، ومجالاتها المختلفة، وإلاّ سيصيبه ما أصاب بني إسرائيل، لأن الأسباب نفسَها تؤدي إلى النتائج ذاتِها.

***فساد بني إسرائيل، وعلوّهم في الأرض:** قال الله تعالى:﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾(الإسراء:4 - 5). القضاء: بمعنى الحكم والتقدير، وأنه ذكر في الكتاب. والقضاء إلى بني إسرائيل يفيد معنى الإبلاغ؛ أي أنهينا. ويجوز أن يكون الكتاب هو التوراة[3]. وقد يكون الكتاب كتاباً آخر من كتبهم، وهو الأسفار المسماة بكتب الأنبياء: أشعياء، وأرمياء، وحزقيال، ودانيال، وهي في الدرجة الثانية من التوراة. والإفساد مرتين ذكر في كتاب أشعياء وكتاب أرمياء. والكتاب مقصود به الكتب.

وجملة "لتفسدُنّ" بيّنت جملة "وقضينا إلى بني إسرائيل" وهذه الآية تشير إلى حوادث عظيمة بين بني إسرائيل وأعدائهم من أمتين عظيمتين؛ **الأولى:** بينهم وبين البابليين، **والثانية:** بينهم وبين الرومان، فعبّر عن النوعين بمرتين، لأن كل مرة كانت تحتوي على ملاحم. فالمرة الأولى؛ هي مجموع حوادث "الأسر البابلي"، وهي غزوات "بختنصر"

---

1 - ينظر: الرازي، التفسير الكبير، ج12، ص412.

2 - ينظر: المرجع نفسه ج12، ص412.

3 - ينظر: الإصحاح، 26 - 28 - 30..

ملك بابل، وآشور بلاد أورشليم. والغزو الأول كان سنة(606)قبل المسيح، حيث أسر جامعات كثيرة من اليهود، وسمي **الأسر الأول**. ثم غزاهم غزواً ثانياً يسمى **الأسر الثاني**، وهو أعظم من الأول كان سنة 598 ق،م. وأسر ملك يهوذا وجمعاً غفيراً من الإسرائليين، وأخذ الذهب الذي هيكل سليمان وما فيه من الآنية النفيسة. والأسر الثالث كان سنة 588 ق.م، غزاهم بخْتُنَصَّر وسبى كل شعب يهوذا، وأحرق هيكل سليمان، وبقيت أورشاليم خراباً يباباً. ثم أعادوا تعميرها كما تذكر الآية﴿ثم رددنا لكم الكرّة﴾(الإسراء:6). هذا في **المرة الأولى**.

أما **المرّة الثانية**؛ فهي سلسلة غزوات الرومان بلاد أورشاليم. وإسناد الإفساد إلى ضمير بني إسرائيل، إشارة تفيد أنه إفساد من جمهورهم، بحيث تعدّ الأمة كلها مفسدة، وإن كانت لا تخلو من صالحين. والعلوّ مجاز في الطغيان والعصيان؛ كقوله تعالى:﴿إنّ فرعون علاً في الأرض﴾(القصص:4). وهو تشبيه معقول بمحسوس، أو إلباس المعنوي ثوب المحسوس توضيحاً للصورة.

و"الوعد" مصدر بمعنى "الموعود"، ومثل ذلك قوله تعالى: وكان موعداً مفعولا، أي معمولا منفذاً. وإضافة "وعد" إلى أولاهما بيانية. والمقصود هو أولى المرتين من الإفساد والعلوّ. و"البعث" هو السير إلى بني إسرائيل وتهيئة أسبابه، وهو بعث تكوين وتسخير، لا بعث بأمر روحي. وتعدية "بعثنا" بحرف الاستعلاء "على" تضمّن معنى التسليط،كقوله سبحانه:﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ (الأعراف:167).

والعباد؛ المملوكون، وهم عباد الله. فإذا قُصد المملوكون بالرقّ، قيل: عبيد لا غير، والمقصود بعباد الله هنا هم الأشوريون، أهل بابل، وهم جنود بختنصر. والبأس؛ هو الشوكة، والشدة في الحرب؛ كقوله تعالى:﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾(النمل:33).

وجملة "فجاسوا" عطف على "بعثنا"، فهو مما قضى الله في الكتاب. والجوس: التخلل في البلاد، وطرقها ذهاباً وإياباً لتتبع ما فيها. وهنا أُريد تتبع المقاتلة، فهو جوسُ مَضرَّة، وإساءة بقرينة السياق. و"خلال"؛ وسط الشيء الذي يتخلل منه. قال تعالى:﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾(الروم:48). و"الديار" أي؛ دياركم، وهي ديار بلد أورشليم. فقد دخلها جيش "بختنصر"، وقتل الرجال وسبَى، وهدّم الديار، وأحرق المدينة وهيكل سليمان بالنار. وأسر كل بني إسرائيل، وبذلك خلت بلاد اليهود منهم. ويدل على ذلك قوله تعالى:﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾الإسراء:7.

إن الله سبحانه وتعالى منّ على بني إسرائيل، وأنعم عليهم نعماً لا تُعدّ ولا تحصى، فبرغم ابتلائه إياهم، بأن سلط عليهم أعداء قتلوا منهم ما قتلوا وسبوا ما سبوا واسروا ما أسروا، إلاّ أن لطف الله يدركهم دائماً، فيقويهم على أعدائهم فيتمنعوا منهم، ويعيدهم إلى الأرض التي أخرجوا منها. يقول سبحانه:﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾(الإسراء:6 - 8).

و"إذا" ظرف لما يستقبل من الزمان جيء به في صيغة الماضي لتحقيق وقوع ذلك. والمقصود نبعث عليكم عبادا لنا فيجوسون، ونرد لكم الكرة عليهم ونمددكم بأموال وبنين ونجعلكم أكثر نفيراً. ف"ثم" تفيد التراخي الرتبي والتراخي الزمني معاً. والرد: الإرجاع، وجيء بفعل "رددنا" ماضياً جريا على الغالب في جواب "إذا" كما جاء شرطها فعلا ماضياً في قوله تعالى:﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا﴾(الإسراء:5). أي؛ إذا يجيء يبعث. والكرّة؛ الرّجعة إلى المكان الذي ذهب منه.

وقوله "عليهم"؛ حال من الكرّة، لأن رجوع بني إسرائيل إلى أورشليم، كان بتغلّب ملك "فارس" على ملك "بابل". وكان بنو إسرائيل واقعين في أسر البابليين، وتابوا إلى الله وندموا، فسلّط الله ملوك فارس على ملوك بابل الأشوريين، فهزموهم، ثمّ فتح "داريوس" ملك فارس باب سنة 538 ق.م، وأذن لليهود سنة 530 ق.م في أن يرجعوا إلى أورشليم، ويجدّدوا دولتهم. وذلك نصر انتصروه على البابليين، إذ كانوا أعوانا للفرس عليهم. وتحقق وعد الله لهم بالنصر.

وقوله تعالى:﴿وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا﴾، هو من جملة ما قضى الله من الموعود الذي وعدهم به[1]. و"نفيراً" تمييز لـ"أكثر"، فهو تبيين لجهة الأكثرية. والنفير: اسم للجماعة التي تنفر مع المرء من قومه وعشيرتهن ومنه قول أبي جهل: لا في العير ولا في النفير. والمقصود من الآية: جعلناكم أكثر مما كنتم قبل الجلاء. والغرض هو الامتنان بما يناسب المقام. وقال جمع من المفسرين: أكثر نفيرا من أعدائكم الذي أخرجوكم من دياركم؛ أي؛ إنه أفنى معظم البابليين في الحروب مع الفرس، حتى صار عدد بني إسرائيل في بلاد الأسر أكثر من عدد البابليين[2]. وهي قدرة الله التي تتدخل عندما يعود الإنسان إلى ربه.

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص32.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج15، ص33.

لا شك في أن بعد هذا الرد للكرة، وهذا النصر على الأعداء، وهذا الإرجاع إلى الأرض التي أخرج منها بنو إسرائيل، يقابل بالشكر والصلاة. ولذلك خاطبهم المولى تبارك وتعالى بقوله:﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾، أي: إننا نرد لكم الكرة لأجل التوبة وتجدّد الجيل، وقد أصبحتم في حالة نعمة، فإن أحسنتم كان جزاؤكم حسنا، وإن أسأتم أسأتم لأنفسكم. فكما أهلكنا مَنْ كان قبلكم بذنوبهم، فقد أحسنا إليكم بتوبتكم، فاحذروا الإساءة كي لا تصيروا إلى مصير مَن قبلكم[1]. وهذا من متضمنات ما اشتملت عليه هذه الآية. والقصد منها، والغرض التداولي المستفاد هو؛ التحذير من العودة إلى ممارسة ما مارسه أسلافهم. فإن عادوا عاقبهم الله بمثل ما عاقب به أسلافهم. وقد تكرر الفعل "أحسنتم"؛ ويقصد به الاهتمام بذلك الفعل، وتكرر في القرآن الكريم. قال تعالى:﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾(الشعراء:130)، وقال:﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾(الفرقان:72)([2]). وقوله عز من قائل: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم...﴾

والآخرة ضد الأولى، أي المرة الآخرة وليست المرة الأولى. أما اللامات المقترنة بـ"ليسوؤوا، وليدخلوا، وليتبّروا" فهي للتعليل، وعلى الكسر باتفاق القراءات المشهورة، لا على السكون. والتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عباداً لنا لِيسوؤوا وجوهكم.. وهذا متعلق بما دلّ عليه قوله في وعد أولاهما. والتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عليكم عباداً لنا ليسوؤوا وجوهكم.. وليست عائدة إلى قوله:﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ (الإسراء:5). لأن الذين أساؤوا ودخلوا المسجد هذه المرة أمة غير الذين جاسوا خلال الديار، حسب شهادة التاريخ وأقوال المفسرين.

والضمير "الواو" في ليسوؤوا وليدخلوا، عائدان إلى عباد لنا، والسياق يقتضي بعد الزمن بين المرتين، فكان هذا الإضمار من الإيجاز. والضمير في قوله:﴿كما دخلوه﴾ يعود إلى العباد المذكورين في المرة الأولى. و"سوء الوجوه" تسليط أسباب المساءة، والكآبة عليهم حتى تبدو على وجوههم. لأن ما يخالج الإنسان من غم وحزن، أو فرح ومسرة يظهر أثره على الوجه دون غيره من أعضاء الجسد. و"دخول المسجد" دخول غزو، دلت عليه قرينة التشبيه في الآية كما دخلوه أول مرة، والتتبير؛ الإهلاك والإفساد[3]. و"ما عَلَوا": فالعُلوّ هو علوّ مجازي، القصد منه الاستلاب والغلب.

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ج15، ص33.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج15، ص34.

[3] - ينظر المرجع نفسه ، ص34.

وقد وعد الله تعالى بني إسرائيل هذه المرة، توقع الرحمة دون رد الكرّة. فكان إيماءً وقصداً إلى أنهم لا ملك لهم بعد هذه المرة. وفي سنة أربعين قيل المسيح دخلت - مملكة بني إسرائيل - اللاويين - تحت نفوذ الرومان، وأقاموا عليها أمراء من اليهود كان أشهرهم "هيرودس". ثم تمردوا للخروج على الرومان، فأرسل قيصر روما القائد "سيسيانوس" مع ابنه القائد "طيطوس" بالجيوش في حدود سنة أربعين بعد المسيح، فخرجت أورشليم واحترق المسجد، واسر "طيطوس" نيفاً وتسعين ألفاً من اليهود، وقتل في تلك الحروب نحو ألف ألف. وبقي منهم شرذمة قليلة، إلى أن وافاهم الإمبراطور الروماني "أدريانوس" فهدم أورشليم، وخربها ورمى قناطير الملح على أرضها كي لا تعود صالحة للزراعة، وذلك سنة 135م. وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض، وتفرقوا في الأرض ولم تخرج أورشليم من حكم الرومان إلاّ حين فتحها المسلمون زمن عمر بن الخطاب سنة 16 هـ صلحاً مع أهلها، وهي تسمى يومئذ (إيلياء).

أما قوله:﴿وإن عدتم عدنا﴾ فهو شرط متضمن معنى الترهيب، ومعطوف على الترغيب في قوله:﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾. والقصد من هذا الشرط هو التحذير والتهديد من العودة إلى الإفساد؛ فعودتكم إلى الإفساد يعني عودتنا إلى عقابكم، أي عدنا لمثل ما تقدم من عقاب في الدنيا تسلطه عليكم[1].

وجملة﴿جعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾ القصد منها أنّ ما ذكر قبلها من عقاب دنيوي، وأن وراءه عقاب الآخرة؛ وهو العقاب الأشد والأنكى. والمقصود "بالكافرين" هو كل المخاطبين وغيرهم. والقصد كذلك هو أن عقاب الدنيا ليس مقصوراً على ذنوب الكفر، بل هو منوط بالإفساد في الأرض، وتعدي حدود الشريعة. ففي المرة قتل بنو إسرائيل الأنبياء وقتلهم الكفر، وفي المرة الآخرة كذّبوا عيسى عليه السلام[2]. ومن يفعل هذا المنكر فإن جهنم تحاصره يوم القيامة، فلا يستطيع الخروج من العذاب.

***بنو إسرائيل واتهامهم عيسى عليه السلام بالسحر:** قال الله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(الصف:6). هذه الآية عطف على التي قبلها،﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(الصف:5). يأتي هنا بتتمة لقصة موسى عليه السلام، يذكر مثال آخر مسوق لقوم حادوا عنة طاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من غير أن يفيد تحذيراً للمخاطبين من المسلمين. والآية دعوة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن يذكر ما قاله

---

[1] - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ج15، ص38.

[2] - ينظر: المرجع نفسه ج15، ص39.

عيسى ابن مريم لبني إسرائيل حين ناداهم "يا بني إسرائيل"ن وهم الذين اشتهروا بهذا الاسم، ولم يذكروا، ولم يطلق عليهم "قوم موسى"، إلا في حياة موسى عليه السلام، لأنهم صاروا أمة وقوما بسبب موسى وشريعته[1].

ولقد بعث الله عيسى عليه السلام مرسلاً ومؤيداً بشريعة موسى، فوجّه إليهم الخطاب، ولم يكونوا قد اتبعوه ولا صدقوه، ولم يكونوا قوماً خالصين له. فأراد الخطاب القرآني بهذا النداء أن يبتدئهم بالدعوة تدريجياً[2]، إني رسول الله أُرسلت إليكم بالوصف الذي وُصفت به في التوراة، ومصدقاً بالتوراة، وبكتب الله جميعاً مما تقدم وتأخر، مبشراً برسول يصدّق التوراة على مثل تصديقي، اسمه أحمد. وقوله تعالى: أحمد يحتمل معنيين أحدهما: المبالغة في الفاعل؛ يعني أنه أكثر حمداً لله من غيره، وثانيهما: المبالغة في المفعول، يعني أنه يُحمد بما فيه من الإخلاص والأخلاق الحسنة أكثر ما يُحمد غيره[3].

لقد أخبر عيسى بني إسرائيل بمجيء رسول من بعده، لأن بني إسرائيل لم يزالوا ينتظرون مجيء رسول من الله يخلصهم من المتسلطين عليهم، فكان وعد عيسى كوعد من سبقه من أنبيائهم. وفاتحهم به في أول الدعوة اعتناءً بهذه الوصية. والقصد منها تنبيه بني إسرائيل على أنه ليس المخلّص المنتظر، وأنّ المخلّص يأتي من بعده وهو محمد (صلى الله عليه وسلم)[4]. وقد وصف الله سبحانه بعض صفات هذا الرسول لموسى عليه السلام في قوله تعالى حكاية عن إجابته دعاء موسى: ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون. إلى قوله سبحانه:﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(الأعراف:157). وأوصى عيسى عليه السلام بالرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) في هذه الآية وصية جامعة لما تقدمها من وصايا الأنبياء وأجملها إجمالاً عن طريق الرمز. وهو أسلوب من أساليب أهل الحكمة والرسالة[5]. وذكر القرآن الكريم تبشير عيسى بمحمد عليهما الصلاة والسلام، وما أوذي به موسى من قومه، وما أوذي به عيسى من بني إسرائيل، هو تأييد وتثبيت وتسلية للرسول (ص)، وخلاصة ذلك أن ما لقيه محمد من قومه، هو نظير ما لقيه عيسى من بني إسرائيل.

---

1 - ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ج28، ص180.

2 - ينظر: المرجع نفسه، ج28، ص181.

3 - ينظر: الرازي، التفسير الكبير، ج29، ص528.

4 - ينظر: ابن عاشور،التحرير والتنوير، ج28، ص182.

5 - ينظر: المرجع نفسه، ج28، ص183.

وقوله: "فلما جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين"؛هو مناط الأذى؛ أي فلما جاء بالمعجزات قالوا: هذا سحر أو هو ساحر[1]. وقد حصل أذى القوم لهذين الرسولين بهذا القول. فبدلاً من الإيمان برسالة عيسى الذي بشر بمحمد، والإيمان برسالة محمد الجامعة للرسالات والخاتمة لها، والإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) خاتم الأنبياء والرسل، بدلاً من هذا كله نجد أن المشركين كذبوا برسالة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كما كذب بنو إسرائيل برسالة موسى وعيسى، وأعرضوا عنهما. فماذا بعد الحق إلاّ الضلال.

نخلص – بعد هذا العرض للآيات القرآنية المهددة لبني إسرائيل العصاة والمتوعّدة إياهم بالعذاب الشديد يوم القيامة –إلى سرد أفعال الكلام الواردة في حوار أهل الكتاب، والإشارة إلى قوتها الإنجازية على حد تعبير "سورل".

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص187.

المبحث الثالث:*أفعال الكلام في حوار أهل الكتاب وقوتها الإنجازية.

تعددت أساليب الإنشاء الطلبي – أفعال الكلام في اصطلاح أوستين – في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل وانحصرت في أربعة أساليب هي: الأمر، النهي، الاستفهام، النداء. وخرجت في مجملها عن أغراضها ومقاصدها إلى أغراض ومقاصد أخرى تذكيرية وفنية وجمالية، تسهم في خدمة المقصد والغرض الرئيس المتوفر في الآيات كلها.

***فعل القول بصيغة الأمر**: يعدّ أسلوب الأمر في البلاغة العربية واحدا من أفعال الكلام الإنجازية المنشئة للأفعال في واقع الناس، وهو أسلوب أو فعل قولي مباشر، يهدف من ورائه إلى تغيير حال أو واقع ما.

و يأتي فعل الأمر، ضمن أفعال التنفيذ والتوجيه، ويكون إما بغرضه الأصلي الذي هو طلب التنفيذ على وجه الاستعلاء والإلزام، وإما بغرض وقصد آخر، يقتضيه السياق والحال، وعندها يخرج فعل الأمر إلى وظيفة أخرى وغرض آخر، غير الغرض الأصلي له. وعندها يكون الفعل الإنجازي غير مباشر. والأفعال الإنجازية كلها أفعال قصدية. تهدف إلى التأثير والتغيير.

والقرآن الكريم يعج باللغة المتضمنة لهذا النوع من الأساليب التي تتخذ من الأمر صيغة لها لتحقيق مقاصد وأغراض إضافية، وخاصة تلك المتعلقة، بمخاطبة ومحاورة بني إسرائيل، أو أهل الكتاب عموما. والحوار الذي ورد على لسان موسى عليه السلام تجاه قومه أو العكس، لخير دليل على ما نقول .

وغالباً ما يبنى أسلوب الأمر، أو فعل القرار في لغة الخطاب القرآني على طرفين : الأول ويمثله الطرف الأدنى، وهم بنو إسرائيل(أهل الكتاب) فيما بعد. والثاني يمثله خليفة الله في الأرض، سواء أكان نبيا مرسلا أم مصلحا خيّا([1]). ولو تفطّن بنو إسرائيل لما خصّهم الله سبحانه وتعالى به من العناية والاهتمام. ولما أقدموا على سوء الأدب واللجاجة والكبر والعناد والكفر، ولهذا كان لفعل الأمر وصيغته القولية أهمية بالغة في تحريك النفوس وردعها وزجرها، وكانت له تلك الأغراض والمقاصد، التي تكشف للمطّلع على البعد السلوكي لبني إسرائيل، ولأهل الكتاب عموما، عبر العصور .

لقد اقتصرت لغة الحوار خاصة ولغة الخطاب عامة في بني إسرائيل على صيغة فعل الأمر، ولم ترد صيغة أخرى، ووردت في أكثر من سبعين موضعا، توزعت في عمُومها على النّحو الآتي :

–خطاب من الله تعالى إلى بني إسرائيل والعكس .

---

[1] – ينظر ،لافي محمد محمود زقوت، لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل، ماجستير، جامعة النجاح، نابلس ، فلسطين، ص76.

-خطاب من موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل والعكس .

-خطاب من محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى اليهود والعكس .

-خطاب بني إسرائيل بعضهم لبعض .

وخطاب الله لبني إسرائيل كان مباشرا ولم يرد بوساطة موسى عليه السلام، لأنه تعلق بأوامر الله سبحانه، وكانت الأوامر عبارة عن أفعال كلامية، تحمل في مضمونها مقاصد تنفيذية وتوجيهية، وتحمل أوامر وتوصيات تدعو إلى التكليف بأعمال تعود بالفائدة على أهل الكتاب وبني إسرائيل على وجه الخصوص.

و من أمثلة ما جاء في هذا الغرض قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾.(البقرة(40). وكذلك الآية :﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ"البقرة(47)﴾. وكذلك الآية :﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ "البقرة(122)﴾. والله سبحانه وتعالى يتوجه بهذا الفعل القولي المتمثل في الأمر، لتذكير بني إسرائيل بالنعم التي أنعمها عليهم، والأمر المباشر هذا المتمثل في صيغة (أذكروا)، هو أكثر تأثيرا فيهم، خاصة إذا تعلق باليهود المعاصرين للنبي محمد(صلى الله عليه وسلم)في المدينة المنورة.

وهذا الخطاب يقتضي أغراضا متضمنة في هذه الصيغ"اذكروا نعمتي...أوفوا بعهدي..أياي فارهبون"؛ وما يمكن فهمه من افتراصات مسبقة في هذه الأوامر؛ كفرهم بالنعمة، وخلفهم للوعد، وخيانتهم للعهد، وعصيانهم لله، والقصد المتضمن في هذه الأوامر، هو ما نفهمه من أفعال كلام إنجازية غير مباشرة، فحواها هو؛ لماذا تكفرون بالنعمة التي أسبغها الله عليكم؟ وتنسون ذكر الله دائما، ومعجزة المائدة خير دليل. ولماذا هذا الخلف للعهد والوعد، وعدم الخوف من الباري عز وجل؟. إنها انحرافات خطيرة في السلوك والمعتقد، يجب تصحيحها وإلا فمن ورائها الخسران. فالذكر قولي باللّسان، والوفاء عمليّ بالسلوك، والرّهبة خشوع وخوف من الله بالقلب.

وقد وردت آيات في سور أخرى(الأعراف-والمائدة)،كان الغرض منها، تعنيف بني إسرائيل والدعوة إلى قتالهم، والقصاص منهم. كما نجد أن الآيات المتضمنة لهذه المقاصد قد اقترن فعل الأمر فيها بالظرف المتعلق بالأداة "إذ".

فالأمر المباشر الوارد من الله لبني إسرائيل، قد تضمن الغرض والقصد الحقيقي لهذا الأمر، وإن تضمن أغراضا أخرى، كالتهديد والوعيد، كما في قوله تعالى:﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48)﴾البقرة. ولعل تذكير الله بالنعم التي أنعمها على أسلافهم، هو دليل على ما يتضمنه هذا التذكير من معاني التكريم والتفضيل لهؤلاء القوم، ولكن هؤلاء لا يفقهون حديثا!!!

أما أفعال الأمر المتضمنة لمعنى الدعاء، فوردت على ألسنة القلّة المؤمنة، أو على لسان موسى (عليه السلام)، ونلحظ هذا جليا في دعاء هذا النبي، في حربه ضد جالوت﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250)﴾البقرة.

إن لغة الخطاب كانت ممعنة في توصيف الوضع العقدي والسلوكي والنفسي لبني إسرائيل، فهم قوم يتسمون بكل مظاهر الكبر، واللجاجة، والحمق، والكفر-وهذا ديدنهم- فكيف يستجيبون لمحمد(صلى الله عليه وسلم)، وهم لم يستجيبوا لمن أنعم عليهم بكلّ هذه النعم والخيرات؟!

أما صيغة الأمر التي وردت على ألسنة خلفاء الله في الأرض من الأنبياء والمصلحين، فقد غلب عليها طابع التدرّج، إذ بدأت بأسلوب التلطف والنّصح والإرشاد كما يظهر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)﴾. (البقرة). وكذلك قوله:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21)﴾ المائدة. وكذلك:﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)﴾ الأعراف. وغير ذلك ...فقد طلب منهم التوبة إلى الله، بقتل أنفسهم، وطالبهم بذكر نعمة الله عليهم، وبدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، وعدم التولي في القتال، ودعاهم إلى الاستعانة بالله والصبر، حتى يورثهم الله الأرض، ومن شاء من عباده المتقين.

ثم يأخذ الأسلوب طابع التحفيز والإثارة من خلال الإباحة والامتنان؛ نحو قوله تعالى:﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161)﴾الأعراف. والإكرام في قوله عز وجل:﴿) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) ﴾المائدة.

ولما كفر بنو إسرائيل، ولم يكن إيمانهم إيمانا حقيقيا، ارتفعت نبرة الخطاب وحدّته، وأخذت طابع المحاججة، والتكذيب، والتبكيت، والتعجيز، ويظهر ذلك في قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) ﴾البقرة. وكذلك قوله:﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93)﴾آل عمران.ثم يأخذ الأمر معنى إضافيا ، الغرض منه التعجيز ، نحو قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94)﴾البقرة.ذلك أن تمني الموت ليس من سماتهم وأخلاقهم المألوفة،

لكنها من سمات الأبرار المقربين الذين يشتاقون إلى لقاء الله عز وجل [1]. فكان الادعاء منهم وكان من الله أن أبطل دعاواهم على الفور. وشتان الصادقون في إيمانهم والكاذبون.

ثم يأخذ الخطاب بصيغة الأمر طابع الإهانة والتحقير، نحو قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)﴾البقرة.وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97)﴾طه.

ولعل استخدام صيغة الأمر على لسان موسى عليه السلام نحو،"اقتلوا...اهبطوا...فاذهب"، يعبر عن الحالة النفسية التي ألمت بموسى عليه السلام، وهي أن نفسه تعبت من تصرفات هؤلاء القوم ،فهذه الصيغ توحي بأغراض كلامية، تظهر من خلال السياق ومن خلال شدة القوة الكلامية المتضمنة في هذه الأفعال، والدالة على تذمر نفس موسى منهم، وأمله في أن لايرى هؤلاء، إما بالموت، وإما بالهبوط إلى مصر وبعدهم عنه، وإما بالذهاب والتيه.

ولما لم يجد موسى عليه السلام استجابة من بني إسرائيل لدعوته، تضرع إلى الله عز وجل بالدعاء، بأن يفرق بينه وأخاه وبين القوم الفاسقين ،وذلك ما أشارت إليه الآية:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) ﴾المائدة[2].

ويبدو لنا من خلال استعراضنا لطريقة الخطاب من الله سبحانه، ومن أنبيائه إلى بني إسرائيل، أنها كانت متسمة باللين والهدوء والتخلق والكياسة والتأدب في بادئ الأمر، ولما جحد بنو إسرائيل نعم الله، وهذه الرسائل، تغيرت لهجة الحوار والخطاب بما يتناسب وطباع هؤلاء القوم، لأن الحديد بالحديد يفلح.

أما خطاب بني إسرائيل لأنبيائهم فقد اتصف بمظاهر الكبر والعناد والغرور، ولم يأخذ طابع التدرج-كما رأينا سلفا في خطاب الله وأنبيائه- بل كان خطابا واحدا وبعبارة جاهزة، ترددت على ألسنتهم مع كل الأنبياء الذين بعثهم الله إليهم، ومن ذلك صيغة الأمر الواردة على ألسنتهم في سورة البقرة ،في قوله تعالى:﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70)﴾البقرة. فهم لا يؤمنون بالله، ولذلك يأمرون موسى بأن يقوم

---

[1] - ينظر صافي محمود، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه.ج1، ،مؤسسة الإيمان ، ط4 ، 1998 م ،بيروت،ص204.

[2] - ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ-1987م، ص319.

بالدّعاء، وكأن فاصلا ما، يفصلهم عن الخالق عز وجل، ولم يقولوا "ادع لنا ربنا"، وإنما "ربك"، بكاف الخطاب تكبرا وعلوا، لا احترام فيه للنبي ولا تأدب معه، وكأنهم يخاطبون بشرا عاديا،لا نبيا مرسلا.!!!

ولعل تكرار هذا المطلب ثلاث مرات متتالية، يكشف عن حقيقة الشخصية الإسرائيلية المتعجرفة، كيف لا؟ وهي الشخصية التي تجرأت على الله سبحانه، وطلبت رؤيته جهارا!!! ويظهر ذلك من خلال فعل الأمر "أرنا" في قولهم لموسى عليه السلام، كما جاء على لسانهم وبينه القرآن:﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (153) ﴾النساء.إن صيغة الأمر هذه، تكشف عن الضلال، والكفر، والفجور الذي بلغه بنو إسرائيل، فبعد كل المعجزات السابقة واللاحقة، ها هم يطلبون من موسى أن يجعل لهم إلها معبودا من دون الله!، يظهر ذلك في قوله تعالى:﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)﴾ الأعراف.واستخدام فعل القول وهو فعل طلبي"اجعل" ممعن دقة الوصف، لطلبهم المعصية من نبيهم، فهم يريدون توريط نبيهم في الكفر والضلال معهم، وهذا التصرف منهم دليل آخر على سفه عقولهم، وانحطاط أخلاقهم، وبذاءة أقوالهم، وبلادة أفكارهم وتفكيرهم، وسوء عقيدتهم، وفساد إيمانهم [1]. ويؤكد هذا المعنى، تلك الصيغة التي تبرز ردة فعلهم، عندما أمرهم موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة، في قولهم لنبيهم:﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24)﴾ المائدة. تأمل في فعل الأمر"اذهب" وما فيه من سوء أدب وخلق، وكذلك"فقاتلا" وما فيه من قلة أدب مع الله سبحانه وتعالى عما يصفون، فهذين الناتجين عن بني إسرائيل يمثلان ويظهران قبح الألوان التي تشكلت من خلالها الصورة الحقيقية للإسرائيلي، في زمن موسى عليه السلام، هذه الصورة التي لن تتبدل ولن تتغير مهما إسرائيليو اليوم، ومن سار في فلكهم أن ينمقها، ويمسح عنها عار القرون الماضية. وهي الصورة ذاتها مع الأنبياء من بعد موسى عليهم السلام.

فقد طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملِكاً يقودهم في القتال. قالوا:﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾(البقرة:246). وقالوا للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم):﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾(النساء:46). يريدون بذلك شتيمته، والدعاء عليه

[1] – ينظر: طنطاوي محمد سيد، بنو إسرائيل في القرآن والسنة، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 1997م، ص498 .

بالصمم[1]. وبقولهم: "راعنا" يقصدون رميه بالرعونة، ويوهمون أنهم يقولون (راعنا): أي؛ احفظنا، ورميه بذلك لما يتوهمونه من ميل فيه، يقال: الرّعن؛ أنف الجبل، لما فيه من ميْل[2].

أما خطاب بني إسرائيل تجاه بعضهم بعضاً، فكان بمظهرين متقابلين هما: مظهر الشخصية السلبية التي ظهرت في قوله تعالى﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾(البقرة:135﴾.ومظهر الشخصية الإيجابية التي تحض على الإقدام والتضحية في سبيل الله، يظهر ذلك في قوله تعالى:{قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا}(المائدة :23).

إن الحوار في القرآني الكريم، والذي هو جزء من الخطاب القرآني عامة، ليُتيح للمتأمل أن يتغلغل في نفسية الشخصية الإسرائيلية، ويسبر أغوارها، بعملية جراحية تشريحية، ينفذ من خلالها إلى ما تنطوي عليه هذه الشخصية من حب للحياة، وصدود عن الإيمان بالله، وإعراض عن رسالاته، وحقد على أنبيائه، وعلى خَلقه من عباده المؤمنين على مرّ العصور. هذه الشخصية لا يمكن أن تشفى من أمراضها النفسية العدائية تجاه الآخر. ووجودها يبقى مشكّلاً خطراً على الإنسانية جمعاء. فلا حوار ينفع معها، ولا تفاوض، وإنما تنفع معها القوة، والقوة فقط.

***فعل القول المتمثل في "النهي"**:الأصل في النهي أن يكون لطلب الكفّ عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام. وقد يؤتى به لتحقيق أغراض بلاغية، يمكن إدراكها من خلال السياق[3]. وللنهي صيغة واحدة هي المضارع المقرون ب"لا" الناهية الجازمة، وقد وردت هذه الصيغة في الحوار القرآني؛ في خطاب بني إسرائيل في أكثر من خمسة عشر موضعاً، على النحو التالي:

- نهي من الله عز وجل، أو من نبيّه عليه السلام، لبني إسرائيل.
- نهي من اليهود بعضهم لبعض.
- نهي من الله لموسى عليه السلام، ولمحمد -صلى الله عليه وسلم.

ويشكل النهي من الله تعالى المحور الرئيس في هذا الأسلوب. وغالباً ما يفيد أغراضاً حقيقية، رغم ما يتضمنه من معانٍ ومقاصد أخرى تداولية، تستفاد من سياق الكلام؛ كالنصح والإرشاد؛ كما في قوله تعالى﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾البقرة:42)، وقوله﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾(المائدة:77)، أو التحذير والتهديد؛ كقلوه تعالى:﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾النساء:154).

---

[1] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ-2006م،ج3، ص376.

[2] - الأصفهاني الراغب ، المفردات في غريب القرآن، ص204.

[3] - السكاكي، مفتاح العلوم، ص320.

ويغلب على صيغة النّهي طابع التطلف والأناة، خاصة تلك التي وردت على لسان موسى عليه السلام. ولعل استخدام واو الجماعة يسهم في تعزيز معنى التلطف، لأنّ المثل يقول: إذا عمّت خفّت؛ كقوله تعالى﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾المائدة:21). أما خطاب بني إسرائيل فيما بينهم، فيبيّن عبقريتهم، وإصرارهم على البقاء في انحلالهم وكفرهم، وظلمهم ورفضهم للآخر، نحو قوله تعالى﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾آل عمران:73). إنهم يتواصون بالباطل.

ولما كانت هذه طبيعة بني إسرائيل، التي لم يفد فيها النصح والإرشاد، والتحذير، والتهديد، كان خطاب الله لموسى عليه السلام﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾، وكان خطابه لمحمد (صلى الله عليه وسلم)﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾المائدة:68). وتجدر الإشارة إلى أن التيئيس لم يرد إلا في سورة المائدة؛ وهي آخر ما نزل من القرآن في بني إسرائيل، ذلك أنها أخذت تعنّف القوم، وتحض المسلمين على قتالهم، وطردهم خارج المدينة المنورة.

***فعل القول المتمثل في الاستفهام**: يشكل الاستفهام أسلوباً طلبياً رئيسياً من أساليب لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل. وتكمن أهميته في أنه ينقلنا إلى أغراض ومقاصد تداولية حيّة، من خلال المعاني الحقيقية التي تفرضها الرموز اللّغوية، أو المعاني الإضافية التي يفرضها سياق المقام والحال، والتي تبرز جوانب فنية وجمالية لمشاهد حيواتية مختلفة.

والاستفهام في تعريف البلاغيين ومفهومهم هو« طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، يستخدم على حقيقته في مواضع معيّنة. وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى أغراض ومعان بلاغية أخرى متعددة، نفهمها من خلال سياق الحال، والظروف والملابسات التي يساق فيها الخطاب. وأدوات الاستفهام هي: الهمزة، وهل، ومتى، وأيّان »[1]. ويتطلب الاستفهام طرفين أساسيين في الخطاب، أو الحوار؛ وهما: المرسِل والمستقبِل، إضافة إلى الرسالة. وقد توزعت لغة الحوار في الخطاب القرآني، في أسلوب الاستفهام على النحو الآتي:

– خطاب الله تعالى لبني إسرائيل؛ وقد لاحظنا خروج الاستفهام – في هذا المقام – عن مقصده الحقيقي، فلم يكن الفعل فيه إنجازيا مباشرا، بل كان فعلا إنجازيا غير مباشر وأدّى الاستفهام مقاصد أخرى، يمكن أن تدرك في حينها، عندما تستعرض نماذج من هذا الخطاب:

– خطاب موسى عليه السلام بني إسرائيل، وخطاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم.
– خطاب بني إسرائيل تجاه أنبيائهم.

---

[1] - السكاكي، مفتاح العلوم، ص308 - 309.

- خطاب بني إسرائيل بعضهم لبعض.

لقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي لمعان أخرى، تطلبها الموقف السياقي، في أكثر من سبعين موضعاً. ففي خطاب الله تعالى الموجه لبني إسرائيل، خرج الاستفهام في مجمله إلى أغراض، ومقاصد تداولية، غير المقاصد الحقيقية لهذا النوع من التراكيب اللغوية. وقد شكّل الأسلوب الإنكاري المحور الرئيس فيها. كقوله تعالى:﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾(البقرة:100). ولم ترد هذه الصيغة "أوكلّما" إلا في بني إسرائيل، وهي صيغة تستخدم لتأكيد الإنكار؛ ذلك أن نبذ العهد يكون أكثر قبحاً بعد العقد، وأن الاستكبار يكون أكثر قبحاً في حضرة النبي الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)[1]. وغالباً ما يتضمن الإنكار معانيَ إضافية؛ كالإنكار الممزوج بالتوبيخ والتقريع، والتعجب؛ نحو قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:44). فقد ورد أن أحباراً من اليهود كانوا« يأمرون من نصحوه في السرّ من أقاربهم، وغيرهم باتّباع محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهم لا يتبعونه »[2].

وكذلك الإنكار الممزوج بالتقريع، نحو قوله تعالى:﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾(الأعراف:148)[3]، وكذلك البقرة:85 - 87 - 91 - 108 - 133/ والنساء: 53/ والمائدة:74 - 75/ والأعراف:169/ والتوبة:30.

وقد يأخذ الخطاب من خلال الاستفهام طابع الأمر، كقوله تعالى:﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾(آل عمران:20) ؛ أي؛ أسلموا. ولعل ذلك يتضمن دلالة التوبيخ والتنديد؛ فهم أهل كتاب سماوي، فيجب ألاّ يتأخروا عن الإسلام، لأنهم هم المعنيون به أولاً قبل غيرهم. وكان الأجدر بهم أن يتّبعوا النبي محمدا (صلى الله عليه وسلم) قبل غيرهم؛ لأنهم يعرفون نعته ووصفه[4]. يقول الرازي:« إنما جاء بالأمر على صورة الاستفهام؛ لأنه بمنزلته في طلب الفعل والدعوة إليه، إلاّ أن في التعبير عن معنى الأمر بلفظ الاستفهام فائدة زائدة، وهي التعبير بكون المخاطب معانداً بعيداً عن الإنصاف؛ لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة لم يتوقف بل في الحال يُقبل. ونظيره قولك لمن لخّصت له المسألة في غاية التلخيص والكشف والبيان، هل فهمتها؟ فإن فيه الإشارة إلى كون المخاطب بليداً قليل الفهم »[5]. وهذا الأسلوب، خارج عن مقتضى الظاهر، لإفادة أغراض أخرى إنجازية متضمنة في الخطاب الظاهر.

ومهما يكن الأمر،فإن بني إسرائيل أنكروا نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأخذوا يتهافتون على حطام الدنيا الفانية، ويقولون بأنهم أبناء الله وأحبّاؤه، ويستغفر لهم، ويؤوّلون الكتاب بما يحقق رغباتهم الوضيعة في هذه الحياة. وهنا تتجه لغة الخطاب إلى أسلوب الاستفهام التقريري، نحو قوله تعالى:﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ

---

[1] - ينظر، فودة عبد العليم السيد، أساليب الاستفهام في القرآن، ، مؤسسة دار الشعب ، القاهرة، دط . دت .ص22 - 23.

[2] - الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، الكشاف، ج1، ص161.

[3] - ينظر؛البقرة، المائدة، الأعراف، التوبة.

[4] - يوسف عبد الكريم محمود، أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم - غرضه، إعرابه، ، مطبعة الشام، ط1، د.ت، دمشق، ص28.

[5] - الرازي، التفسير الكبير، ج7، ص213.

أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾(الأعراف:169). وقد يتضمن التقرير معاني إضافية؛ كالتعجب، والحثّ .كقوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾(النساء:60). ومعنى التحذير، كقوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾(النساء:44)[1]. وقد يتجه أسلوب الاستفهام إلى معنى التعجب، كقوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾(آل عمران:23). والتعجب هنا للنبي (صلى الله عليه السلام) مِنْ فعل أولئك الذين يبدّلون كلام الله بما يتوافق مع أهدافهم ورغباتهم.

ولعل من أبرز المعاني التداولية التي يمكن الاستفادة منها، من خلال هذا الفعل الكلامي الذي يتمثل في الاستفهام، وأغراضه ومقاصده الحقيقية والإضافية التي يمكن أن يجود بها سياق الكلام. هو أن هذا النوع من أفعال الكلام له قيمة تربوية، يجدر أن يعمّقها في نفوس الخاصة والعامة من المسلمين. ذلك أن الخطاب – وإن كان موجّهاً إلى بني إسرائيل– فإنه يقصد بالأساس المسلمين جميعا، حتى لا يتورطوا، ولا يحدث لهم ما حدث لبني إسرائيل، جراء عنادهم وعصيانهم؛ فهذا الخطاب أو الحوار يتضمن غرضاً ومقصداً عظيماً، ألا وهو تحذير الأمة المسلمة من الاتصاف بصفات بني إسرائيل، والتخلق بأخلاقهم الوضيعة.

يظهر ذلك من خلال أسلوب التعجب المتضمن معنى التوبيخ والتقريع، كما في قوله تعالى:﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾(المائدة:76). وكذلك ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾(آل عمران:66)، و﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾(المائدة:43) و﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة:75).

وكذلك التهكّم الذي يستفاد من خلال قوله تعالى:﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾(المائدة:60). وهذه البشرى الأليمة، لأولئك القوم، لو كانوا يفقهون ما كانت إلاّ نتيجة لسلوكهم، وبغيهم، وإفسادهم في الأرض. ويظهر ذلك من خلال الاستفهام المتضمن معنى النفي، كما في قوله تعالى:﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:147).

ويظهر لنا من خلال أسلوب الاستفهام، وما خرج إليه من أغراض ومقاصد بلاغية أخرى من خطاب الله تعالى لبني إسرائيل، طابع التدرج في الخطاب. فمن الإنكار والتقرير والتعجب، والأمر، والتهويل، والتهديد، والوعيد إلى التهكم والنفي.

ولعل ذلك يطابق مراحل النمو في بني إسرائيل، لأن القرآن العظيم نزل منجماً، فكان يساير الأحداث والوقائع، وهي حاصلة، ليعالجها، وكذلك عرض مثل هذه الصفات والمعاني التي وردت من خلال الاستفهام الخاص ببني إسرائيل، هو من باب الإسهام في تثبيت صفاتهم، وتحديد سلوكهم، لكي لا تقع الأجيال القادمة، فيما وقع

فيه هؤلاء. لذلك كانت الإشارة إلى غضب الله عليهم في الأخير، وقد أدانوا أنفسهم وأثبتوا للعالم أجمع عبر العصور أنهم ما هم إلاّ أهل عصيان وتمرّد!!

وليس بعيداً عمّا أشرنا إليه سلفاً، ما يتصف به أسلوب الاستفهام في حوار أنبياء الله تعالى لبني إسرائيل. وذلك ما فعله الخطاب القرآني؛ إذ أخذ الاستفهام فيه بُعده الإنكاري؛ نحو قوله تعالى:﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾(البقرة:139)، ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾(البقرة:140). وكذلك في آل عمران:70-71-99-183. الصافات:125.

وقد تضمن الاستفهام الإنكاري معاني أخرى؛ كالتعجب في قوله تعالى:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(آل عمران:65). والإنكار مع النفي، كما في قوله تعالى:﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾(المائدة:59). والإنكار مع التوبيخ، في قوله تعالى:﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف:140). والإنكار مع التقريع، في قوله تعالى:﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾(الأعراف:150).

ثم يأخذ الاستفهام بعده؛ وغرضه التقريري، كما في قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾(البقرة:246)، وفي قوله أيضاً:﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾(طه:86). لكن لا حياة لمن تنادي. فقد دأب بنو إسرائيل على التمرد والعصيان، ولذلك تبرّأ منهم الأنبياء، وناجوا الله بأن يدرأ عنهم وعن المؤمنين العذاب.

وقد ورد أسلوب الاستفهام بمعنى الاستعطاف، على لسان موسى عليه السلام، هذا الأسلوب المتضمن معنى الدعاء، وذلك في قوله تعالى:﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾(الأعراف:155). أي؛ لا تهلكنا[1]. وفي هذا إشارة إلى أن العقيدة الإسرائيلية، لا تلجأ إلى الله سبحانه وتعالى، حتى في أوقات الشدة؛ لأنها عقلية متمردة طاغية متكبّرة.

وهذا ما يؤكده الاستفهام من خلال حوار بني إسرائيل أنبياءهم؛ نحو قول الحواريين لنبي الله عيسى (عليه السلام):﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾(المائدة: 112). وما تضمنه هذا الاستفهام من نفي المانع، وليس نفي الاستطاعة[2].

وهكذا نرى أن الاستفهام في القرآن الكريم، أدّى معاني إضافية، ألقت على النص ظلالاً نابعة بالحياة، يعيش معها المتلقي بكل أحاسيسه ووجدانه.

---

[1] - السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ص428.

[2] - يوسف عبد الكريم محمود، أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، غرضه وإعرابه، ص41,

*فعل القول المتمثل في النداء: وهو دعوة إلى الاستماع والإنصاف، والاستعداد لما سيلقى من كلام على مسامع المخاطب« والنداء يعني طلب إقبال المخاطب، أو دعوته بحرف نائب مناب الفعل ك "أدعو"، أو "أنادي". وأدواته هي: الهمزة، وأيا، وأي، وهيا، ووا، ويا »[1].

ورد أسلوب النداء في لغة الخطاب القرآني الموجّه لبني إسرائيل، وجاء مبشّراً في أكثر من أربعين موضعاً، واقتصر على أداة النّداء "يا"، التي تشترك بين البعيد والقريب، وبعضهم يخصّها لنداء البعيد. يقول الزمخشري:« هي لنداء البعيد، أو بمنزلته من نائم أو ساهٍ »[2]. وقد ينادى بها القريب إذا كان الخطاب المترتّب على النداء في محلّ الاعتناء بشأن المنادى[3].

ويندرج النداء ضمن الحوار، أو الخطاب القرآني المباشر، الذي تعمد لغته إلى النداء ب"يا أهل الكتاب" في أكثر من عشرة مواضع، وب"يا بني إسرائيل" في أكثر من ستة مواضع، وب"يا قوم" في أكثر من ستة مواضع، وب"يا أيها الذين هادوا" في موضع واحد، وب"يا أيها الذين أوتوا الكتاب" في موضع واحد. واستغنى عن الأداة في أكثر من سبعة مواضع.

أما الطرف المتكلم، أو الباثّ، أو المرسِل، في هذه المواطن جميعها، فهو الله سبحانه وتعالى، أو بنيّة المرسل، سواء أكان موسى (عليه السلام)، أو عيسى (عليه السلام)، أو محمد (صلى الله عليه وسلم). أما الطرف المستقبل، فهو بنو إسرائيل، وهم بدورهم لم يستخدموا سوى جملة واحدة للنداء في القرآن الكريم كله وهي:«يا موسى» دونما إعارة اهتمام لمقام النبوة والرّسالة. ومضمون هذا الخطاب يحمل كل صفات العناد والكِبْر.

ولعل لجوء موسى عليه السلام إلى استخدام أداة النداء "يا" يبيّن الحالة النفسية التي تحمل نوعاً من الاستعطاف والتودّد، لبني إسرائيل لعلّهم يستجيبون فيؤمنون. ففي امتداد الصوت ما ينبئ عن حالة نفسية لأحزانه وآلامه وآماله عليه السلام[4].

جاء الخطاب بالنداء – تذكيراً، وتحذيراً – من الذات العليّة لبني إسرائيل، للتنبيه على عظيم الأمر المدعو له، وعلوّ شأنه، نحو قوله تعالى:﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(البقرة :40)، وقوله أيضاً:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾(النساء:47). وغالباً ما يكون النداء من الله عز وجل لافتاً الانتباه، ومؤكداً لتحقيق مفهوم العبودية الخالصة –في بني إسرائيل– لله وحده. فجزاء النعم هو الطاعة والامتثال لأوامر الله تعالى، ودعوتهم للإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، أمر

---

1 - السكاكي، مفتاح العلوم، ص101.

2 - الزمخشري، المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت،لبنان، ط2، 1323 هـ، ص 309.

3 - الزركشي، محمد، البرهان في علوم القرآن، تح: أبو الفضل المياطي، دار الحديث، القاهرة، 2006م، ص1195

4 - فيود بسيوني عبد الفتاح، علم المعاني. مؤسسة المختار، القاهرة، ط3، 2004م، ص331.

جلل لا يستقيم إسلام المرء دونه[1]. هذا التكرار في لغة الخطاب، يفيد في تركيز المعنى، وتعميق الدلالة، ويزيد في وضوح الغرض والقصد من النّصّ.

والملاحظ أن النّداء من موسى عليه السلام جاء يعجّ بمظاهر التودد والاستعطاف، من خلال التكرار لجملة النداء (يا قوم)، فنلاحظ قوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾(البقرة:54)، وقوله:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(المائدة:20).

ولم يختص موسى عليه السلام بهذا الخطاب، عن غيره من الأنبياء والمصلحين، فلقد ورد هذا الخطاب على لسان عيسى عليه السلام في قوله تعالى:﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾(المائدة:72). وكذا على لسان نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى:﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾(المائدة:59).

لكن ما نلاحظه هو أن أسلوب النداء على لسان موسى عليه السلام، كان أكثر رقة، وتودّداً من غيره من الأنبياء، ذلك أنه منهم. فخطابه بصيغة النداء جاء (يا قوم). أما النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، فكان نداؤه إيّاهم ب"يا أهل الكتاب"، لأن محاججته كانت لليهود والنصارى، كما مرّ في سورة آل عمران التي نزلت في محاججته لوفد من نصارى نجران، وأحبار من يهود المدينة. وبهذا، فإنّ الخطاب من خلال جملة النداء، يحيلنا على واقع حيّ مليء بالمعاني والعبر والعظات.

ولعل النداء الخاص ببني إسرائيل يتضمن معنى الحثّ، فالنداء ب"يا أهل الكتاب"، يذكرهم بسموّ منزلتهم؛ فهم أهل كتاب منزّل من الله سبحانه وتعالى، وكذلك في نسبتهم إلى إسرائيل- وهو يعقوب عليه السلام- تشريف لهم، لو كانوا يعلمون.

ولم يخلُ النداء من معنى الزّجر، كما في نداء موسى عليه السلام في قوله تعالى:﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾(طه:95)، فهو يريد زجر السّامري، وتأنيبه على فعلته التي أقدم عليها في إضلال القوم، وإبعادهم عن جادة الصّواب وغالباً ما يأتي بعد النداء، الأمر والنهي والاستفهام، « وكأنه يُعِدّ النفس، ويُهيّئها لتلقي تلك الرسائل العلمية، ولذا فهي تتقوّى به، لأنّ النداء يوقظها، ويلفت الذهن، وينبّه المشاعر. فإذا ما جاء بعده الأمر،أو النهي،أو الاستفهام،صادف نفساً مهيّأة يقظة، فيقع منها موقع الإصابة، حيث نتلقاه بحسٍّ واعٍ وذهن منتبه »[2].

إن أسلوب النداء، يجعل المخاطَب به أكثر استجابة للأمر أو النهي، أو غيرهما من الأساليب الإنشائية الطلبية[3] التي هي في تعبير (أوستين، أفعال الكلام)، وعند (سيرل؛ أفعال إنجازية مباشرة)، تنتج عنها أعمال في الواقع، وإنجازات.

---

[1] - ينظر:. فارس أحمد أحمد، النداء في اللغة والقرآن، دار الفكر اللبناني،بيروت، لبنان، ط1، 1989م، ص135./ والبقرة:47، و122/ والمائدة:15 - 19/ وطه:80.

[2] - فيود بسيوني عبد الفتاح، علم المعاني،مؤسسة المختار،القاهرة، مصر،ط3، 2004م، ص336.

[3] - فارس أحمد أحمد، النداء في اللغة والقرآن، ص159 - 160.

وإذا تودّد الأنبياء في أسلوبهم تجاه بني إسرائيل، وتلطّفوا فيه، فإنه لم يكن كذلك من بني إسرائيل تجاه أنبيائهم، بل قابلوه بالعناد، والتمرّد، والعصيان. وعليه، فإنّ هذا الأسلوب يعود من جديد ليفضح شخصية بني إسرائيل التي لا علاقة لها بالأدب والكياسة والأخلاق. ويظهر ذلك بارزاً في الكيفية التي يتعامل بها بنو إسرائيل في ندائهم لموسى عليه السلام؛ وهو نبي منهم. قال الله تعالى:﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(البقرة:55)، وقوله أيضاً:﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(البقرة:61)[1].

ولقد نسوا الله سبحانه وتعالى، إذ إنهم لم يلجأوا إليه في السّراء والضّراء، بل كانوا يطلبون ذلك من موسى عليه السلام؛ بأن يدعو ربه لتحقيق هذا الغرض أو ذاك. هذا السلوك يبيّن جهل هؤلاء القوم الذين طمس الله على قلوبهم، فلم تعد تبصر الحقيقة، ناهيك أن تفقهها، أو أن تتذوق طعم الدعاء، لأنها لم تؤمن إيماناً حقيقياً بالحق سبحانه وتعالى. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

أما النداء المتضمن لمعنى الدعاء، فقد ورد على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى:﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(المائدة:25). وفي قوله أيضاً:﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(الأعراف:151). وقال على لسان الثلة المؤمنة من بني إسرائيل: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:250).

ونداء العبد ربّه يستدعي وجود أداة النداء (يا)، لكن هذه الأداة تسقط في الخطاب القرآني، للتعبير عن القرب المتحقق يقيناً بين العبد وخالقه جلّ وعلا. وفي حذف أداة النداء، ما يحمل معنى الرجاء، والاستعطاف، والكشف عن الحالة النفسية والوجدانية العميقة، التي أخذت تكتنف موسى عليه السلام، نتيجة تكذيب قومه له رغم كل المعجزات التي أرسلها الله سبحانه وتعالى إليهم. وكانت إحداها إنقاذهم من ظلم فرعون، وعبورهم البحر، ونجاتهم، وغرق فرعون وجنوده. ثم إنقاذ فرعون بجسده، ليكون آية للأجيال التي ستأتي بعدهم، فتأخذ العبرة، وتستفيد من الدرس.

*خصائص الأفعال الكلامية في الحوار القرآني: الاستفهام الموجه –في الحوار القرآني– من الله تعالى إلى عباده مؤمنين وكفارا. لم يكن استفهاماً حقيقيا، بل تضمن مقاصد وأغراض تداولية أخرى تمثلت في التنبيه، والتهديد، والتوبيخ، والتعجيز، والتذكير...وهو بهذا يخرق بعض قواعد التعاون للتداولية، والتي وردت كمبدأ متضمن لمسلمات نادى بها (غرايس). فقواعد الحوار في القرآن تختلف وتتميز عنها في قواعد الحوار بين البشر.فالكلام قد يخرج عن مقتضى الظاهر ليفيد مقاصد أخرى ضمنية يتطلبها واقع الحال. هذا المضمر، وهو كثير في القرآن، هو من متضمنات القول تارة ومن مستلزماته تارة أخرى، ومن افتراضات مسبقة طورا آخر. وتنبئ عنه السياقات الداخلية والسياقات

---

[1] - أيضاً نجد مثل هذا في الآيات التالية: المائدة: 22 - 24/ والأعراف:138.

الخارجية للحوار أو الخطاب عموما. أو ما يسمى بظروف الخطاب وملابساته. فقول الله تعالى لموسى عليه السلام: "وما تلك بيمينك يا موسى"؟ليس الغرض منه الاستفهام، والسؤال قصد العلم والمعرفة- فالله عليم خبير- وإنما لفت انتباه موسى إلى المعجزة التي بين يديه وتحضيره نفسيا لاستلامها وتقبلها وعدم الخشية منها عندما تنقلب حية تسعى. وقس على هذا أفعالاً كلامية أخرى.

وعندما يكون الخطاب متوجها من العبد إلى ربه، تبطل الأغراض التي عرفناها في البلاغة والعلاقة بين المتكلم والسامع أو بين المرسل والمتلقي، وتخرج الأغراض كلّها إلى غرض ومقصد واحد هو الدعاء والتضرع والمناجاة والشكوى والطلب والتذلل إلى الله سبحانه. فلا أمر ولا نهي ولا تعجب ولا استفهام.

والحوار القرآني أفعاله الكلامية موجهة من الله سبحانه إلى عباده، لا يقبل المرادة أو الانعكاس، فهو خطاب مسوق على وجه الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والتبشير والتحذير، والتبليغ والتذكير، وعلى العباد الامتثال والتطبيق.

وإن حصلت المرادة في حوار الله مع الملائكة مثلا، فهي لغرض تعليمي يسوقه القرآن للبشر ليأخذوا العبرة منه فيحسنوا التدبير في حياتهم، ومن القرآن يستفيدون من قدرة الله وحكمته.

ودورة التخاطب في الحوار، تتألف من المتكلم وهو الله جلّ جلاله والسامع المخاطب وهو عباد الله جميعا دون استثناء. وخطاب الله ليس خطابا افتراضيا قد يغيب فيه المتلقي، بل هو خطاب يقتضي حضور التلقي البدني والروحي معا.

وإذا كانت التداولية تعالج قضايا ومفارقات من قبيل التكلف في حسن التأدب والتخلق، فالحوار القرآني مترفع عن ذلك ومنزّه عن مستوى الحوار البشري. فهو كلام الله الصادق:"ومن أصدق من الله قيلا". والقصد أن الله لم يخلق الخلق لعبث- حاشا لله- وإنما لقصد وغاية. فكلام الله منزّه عن العبث والكذب والنفاق.

وما يتناول في دراسة الحوار القرآني من المنظور التداولي هو بعض المبادئ؛ كالقصدية، ومتضمنات القول ، والاستلزام الحواري، والملاءمة بأغراضها ومقاصدها المستفادة من سياق الكلام. وليس في الحوار والخطاب القرآني ما يردّ أو ينتقد فهو الخطاب الكامل المطلق. "آمنا به كل من عند ربنا".

وفي مبدأ التخلق والكياسة والتأدب، فالذي يجب أن يراعي هذا المبدأ هو العبد المخلوق، وسوء الخلق ينسب إلى المخلوق، وحاشا أن ينسب إلى الخالق جل وعلا. قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : "أدبني ربي فأحسن تأديبي".

وفي الحوار القرآني نلمس مبدأ تداوليا آخر متمثلا في الحجاج، والخطاب القرآني حجاج قائم بذاته، يركز على الاستدلال والبرهان، والاهتمام بالأخلاق. ومثال ذلك، قوله تعالى :﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾(طه: 44) . ما كان اللين في شيء إلاّ زانه، وما كان العنف في شيء إلاّ شانه.

ننتقل إلى الفصل الرابع والأخير من الباب الثاني، لنتعرض إلى المنهج القرآني، في محاورة أهل الكتاب ، والأسس التي يقوم عليها، وما يرمي إليه من مقاصد وأبعاد تداولية علي وجه التحديد...

الفصل الرابع* المنهج القرآني في محاورة أهل الكتاب وغاياته.

المبحث الأول: أسلوب العرض والمواجهة وأغراضه.

المبحث الثاني:الاستدلال وإقامة الحجة بعد البرهان.

المبحث الأول: *أسلوب العرض والمواجهة وأغراضه:

لقد احتوى القرآن الكريم على أفضل الأساليب، وأحكم المناهج، وأقوى الحجج ،في حواره مع أهل الكتاب وغيرهم من المشركين والمنافقين. وقد نزل القرآن الكريم على محمد – صلى الله عليه وسلم – بالحجج البينة والبراهين القاطعة.قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)﴾الصّفّ .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وغيره، عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- عن النبي – صلى الله عليه وسلم- في وصف القرآن:(فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا :﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) ﴾الجن.من قال به صدق، ومن عمل به أجر،ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى طريق مستقيم[1].)[2]. لذا قال أحد كبار الفلاسفة المتكلمين في آخر عمره وهو أبو عبد الله الرازي :(لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا ،ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن الكريم)[3]. وسيكون التركيز على منهج القرآن في محاورة أهل الكتاب على النقاط الآتية:

***الاستفهام الإنكاري**: ورد هذا الأسلوب كثيرا في سياق محاورة أهل الكتاب، وهو أن ينكر عليهم أفعالهم الدنيئة عن طريق الاستفهام، فلا يملكون جوابا لما تحويه هذه الأفعال من فساد، يعرف بالفطرة، ولما تحويه من تناقض ومخالفة لما في كتبهم. ومن ذلك قوله عز وجل:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71)﴾آل عمران.وقال أيضا:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ

---

[1] – الترمذي:ج4، ص245.

[2] – ابن معمر، منحة القريب المجيب في الرد على الصليب، ص12-13.

[3] – ابن تيمية مجموع الفتاوى،ج5، ص11.

آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99)﴾آل عمران.وقوله تعالى مخاطبا لهم بخطاب الغائب ليكون أبلغ في التأثير:﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86)﴾آل عمران. فإذا سمع الكتابي هذه الحوارات بهذه الاستفهامات فإنه لا يجد لها جوابا، وإنه يؤمن إن كان في قلبه ذرة من خير، وإن كان غير ذلك، فإنه تقوم عليه الحجة، ويقع في غاية الحرج، ذلك لأن الكتابي، يقر بوجود هذه الأمور منه. فإنه يكفر بآيات الله،ويلبس الحق بالباطل ويكتم الحق ويصد عن سبيل الله، مع فساد التوجه. وأهل الكتاب لا يستطيعون إنكار ذلك كما لا يستطيعون إنكار علمهم بصفة النبي – صلى الله عليه وسلم– في كتبهم.كما قال تعالى:﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146)﴾البقرة.

وقد تواترت الروايات عن أهل الكتاب في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – تتضمن اعترافهم بصدقه ومعرفتهم أنه هو المبشر به في كتبهم، ولا أدل من أنهم كانوا ينتظرونه، فلما بعث وكفر به من كفر منهم زال انتظارهم. ومن تلك الروايات الدالة على ذلك:

قصة بحيرى الراهب الذي رأى النبي– في رحلته الأولى إلى الشام وكان صبيا– ورأى خاتم النبوة في ظهره فسأل أبا طالب، ما هذا الغلام منك؟ قال : ابني. قال له بحيرى: ما هو ابنك وما ينبغي أن يكون أبوه حيا. ثم أوصاه به وحذره من اليهود[1].

لما خاف النبي – صلى الله عليه وسلم – على نفسه، لما جاءه الوحي وأخبر ورقة بن نوفل– وكان قد تنصر وتعلم النصرانية– قال له(والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى)[2].

ج–قدم إلى النبي– صلى الله عليه وسلم– بمكة عشرون رجلا من نصارى الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه، فدعاهم – صلى الله عليه وسلم–إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره[3].وقد وردت استفهامات في معان أخرى في حوار أهل الكتاب، ومنها:

إنكار الله عز وجل عليهم ادعاءهم أن إبراهيم منهم، وهم يعلمون أنه كان قبلهم وقبل ديانتهم ، قال تعالى:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65)﴾آل عمران.

---

[1] – ابن هشام ، السيرة النبوية، ج1، ص165-167.

[2] – المرجع نفسه،ج1، ص222.

[3] – المرجع السابق،ج2، ص28-29.

إنكار الله عليهم أمرهم الناس بالبر مع عدم فعله، وكانوا من قبل يخبرون الأوس والخزرج بخروج نبي وفضل اتّباعه، فلما خرج من غيرهم كفروا به.قال تعالى:﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)﴾البقرة. إنكار الله عليهم نقمتهم على من آمن بالله وما أنزل على محمد وما أنزل من قبله. قال تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (59)﴾المائدة. والآيات في هذا المضمون كثيرة، ذكرنا ما يفي بالغرض[1] .

* **أسلوب القصص القرآني**: لقد خاطب القرآن الكريم بني إسرائيل وأهل الكتاب عموما بأسلوب القصص، وهو سبيل آخر للإقناع والتأثير، والقصة القرآنية، تأتي لتقيم الحجة، ولأخذ العبرة والدرس، فهي عبارة عن خلاصات لتجارب في هذه الحياة، من خلال ما تقدمه من نتائج نهائية، لصنفين من الناس صنف آمن بالله واستقام، وصنف آخر كفر بالله وغرته الحياة الدنيا. وقد تعرضنا إلى هذه القصص في الفصل المتعلق بالحوار القرآني ونماذج منه، وسردنا بعض العبر والعظات المستخلصة. ونكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى قصة إبراهيم –عليه السلام- الواردة في سورة البقرة والتي وردت بعد قوله تعالى:﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122)﴾البقرة.وورد بعدها قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)﴾البقرة.والآيات طويلة تبتدئ بقوله تعالى:﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)﴾البقرة.إلى قوله:﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)﴾البقرة.وقد ذكر الفخر الرازي سبب ذكر قصة إبراهيم وفائدتها–وهي فائدة تداولية–في محاورة أهل الكتاب وغيرهم بقوله:(والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام شخص تعترف بفضله جميع الطوائف والملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضله مستشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخادمي بيته، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضا مقرين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام أمورا توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول دعوة محمد- صلى الله عليه وسلم- والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه، وبيان ذلك من وجوه:

أ – أنه تعالى لما أمر سيدنا إبراهيم ببعض التكاليف، ووفى بها (عليه السلام)، وخرج عن عهدتها لا جَرَمَ أنه نال النبوة والإمامة، وهذا مما ينبّه اليهود والنصارى والمشركين على أن الخير لا يحصل في الدنيا والآخرة، إلا بترك التمرّد والعناد، والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه.

ب – أنه تعالى حكى عنه أنه طلب الإمامة لأولاده، فقال تعالى:﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾البقرة(124). فدل ذلك على أن منصب الإمامة

[1] – من الآيات التي وردت بهذا الأسلوب.ينظر: البقرة،76-77-87-138-139، النساء:53-54، المائدة:76.

والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين، فهؤلاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك اللّجاج والتعصب للباطل.

ج – أن الحج من خصائص دين محمد- صلى الله عليه وسلم- فحكى الله تعالى ذلك عن إبراهيم، ليكون ذلك كالحجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك.

د – أن القبلة لما حولت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود والنصارى، فبين الله تعالى أن هذا البيت قبلة إبراهيم الذين يعترفون بفضله ووجوب الاقتداء به، فكان ذلك ما يوجب زوال ذلك الغضب عن قلوبهم)[1].

هـ – ومنها أن إبراهيم – عليه السلام- دعا بخروج النبي- صلى الله عليه وسلم - :﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130)﴾البقرة.فلا حجة لهم بترك اتّباعه، والاقتداء به.

و– ومنها بيان الله أن إبراهيم الذين يتشرفون بالانتساب إليه كان على الإسلام والتوحيد كما كانت وصيته لأبنائه:﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)﴾البقرة. يعلق (سيد قطب) على هذه القصة قائلاً:(في ظل البيان التاريخي الحاسم لقصة العهد مع إبراهيم وقصة البيت الحرام كعبة المسلمين، ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين، يناقش ادعاءات أهل الكتاب المعاصرين، ويعرض لحججهم وجدلهم ومُحالهم، فيبدوا هذا ضعيفا شاحبا كما يبدوا فيه العنت والادعاء بلا دليل. كذلك تبدو العقيدة الإسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها إلا المتعنّتون)[2].

وهكذا يتبين الدور الهادف والغرض السامي الرفيع للقصة القرآنية، في محاورة أهل الكتاب، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77)﴾النّمل. وقال تعالى مبينا فوائد القصص القرآني في نهاية قصة يوسف:﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)﴾يوسف 320

* **الوعظ والتذكير**: ويمكن الإشارة هنا في البداية إلى أن القرآن الكريم يتميز عن الخطاب البشري من حيث الوظائف الخطابية، فهو يتجاوز الوظائف الست التي جاء بها "رومان جاكبسون" إلى وظيفة محورية هي أم الوظائف، وتجسد الحكمة الربانية من نزول القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين، ألا وهي "الوظيفة التذكيرية". لذا نجد القران الكريم يعظهم ويذكرهم ليردهم إلى الحق ، ولكي لا يبقى لديهم حجة أو عذر . فتارة يذكرهم بنعم الله عليهم

---

[1] – الرازي الفخر ، التفسير الكبير،ج4،ص33.

[2] – قطب سيد ، في ظلال القرآن، ج1، ص117.

والتي من الواجب أن تقابل بالشكر والإيمان لا بالكفر والجحود ن فيسرد النعم التي أنعم الله على بني إسرائيل – في آيات كثيرة بطول سردها – ابتداء بتفضيلهم على العالمين ، ومرورا بإنجائهم من آل فرعون وإغراقهم، وعفر الله لهم بعد اتخاذ العجل، وإحيائهم بعد موتهم، وتضليل الله لهم الغمام، وإنزال المن والسلوى، وتفجير الأرض اثنتا عشرة عينا .... إلى آخر تلك النعم [1].

وقد ذكر القرآن مثلا على ذلك، وهو قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41)﴾ البقرة .

و يذكرهم تارة أخرى بعاقبة الكفر والعصيان بضرب أمثلة لمن عصى أو كفر منهم ، وكيف كانت عاقبته ؟كقوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66)﴾ البقرة . وكقوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47)﴾ النساء . وكقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59)﴾ البقرة . ويقول تعالى عن بعض بني إسرائيل : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)﴾ البقرة .

وتارة يذكرهم بيوم القيامة وشدة عذاب الله للعُصاة ليكون ذلك رادعا لهم عن عصيانهم وكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم . ومن ذلك قوله تعالى مخاطبا بني إسرائيل : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48)﴾ البقرة . ويقول تعالى في سياق محاورة أهل الكتاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22)﴾ أل عمران . ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174)﴾ البقرة . وقد نزلت هذه الآية في اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عباس:" نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف ، وكعب بن أسد، ومالك بن

[1]-- انظر الآيات في سورة البقرة من ،ص46 — ص 64

الصيف، وحُيَيْ بنُ الأخطب، وأبي ياسر بن الأخطب، كانوا يأخذون من أتباعهم الهداية ، فلما بعث محمد عليه الصلاة والسلام خافوا إن قطاع تلك المنافع فكتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأمر شرائعه" [1] .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحاور أهل الكتاب بهذه الآيات وأمثالها، كما كان السلف الصالح يستخدمون هذا الأسلوب في محاورة أهل الكتاب، ومن ذلك تذكير الباجي لأحد الرهبان بقوله:« وأمر الدنيا وشأنها أنفر وأنزر من أن يغتر بها ذو عقل، أو يسكن إلى غرورها ذو لُبّ »[2].

*التحدّي والمُباهلة : إذا ظهر الحق واستبان، فإن المباهلة من الأساليب النافعة في إظهار الحق وإبطال الباطل. أمّا التحدّي فقد ورد في قوله تعالى :﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)﴾ البقرة. هذه الآية المدنية، خطابٌ لأهل الأرض جميعا بما في ذلك أهل الكتاب، قال ابن القيم الجوزية في بيان دلالتها:(إن حصل لكم ريب في القران، وصدق ما جاء به، وقلتم أنه مفتعل فأتوا ولو بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك ..كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته: أجهد علي بكل مَن تقدر عليه مِن أصحابك وأعوانك وأوليائك، ولا تبق منهم أحدا حتى تستعين به، فهذا لا يقوم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلا إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم، ويقول: لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبدا، فيعدلون معه إلى الحرب والرضا بقتل الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة، لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة، وإيتام الأولاد، وقتل النفوس والإقرار بالعجز عن معارضته)[3].

وأما المباهلة فهي نوع من التحدّي، وقد أمر الله بها في القرآن وبين صفتها، فقال تعالى في سياق حوار أهل الكتاب في عيسى عليه السلام :﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63)﴾ آل عمران . وقد ورد

---

[1]- الرازي الفخر، التفسير الكبير ، ج5 ، ص 25

[2]- الشرقاوي محمد عبد الله، رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي، ص 69

[3]- ابن القيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد ،تح: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر،جدة، السعودية.دط، دت. ج4 ، ص134 –ص135

هذا الأمر الإلهي في الآيات التي نزلت في نصارى نجران لما أتوا النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقد روى ابن إسحاق (أنه لما أراد النبي (صلى الله عليه وسلم) ملاعنة ومباهلة النصارى قالوا له : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه - وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد دعاهم إلى التوحيد وبين لهم حقيقة عيسى عليه السلام وأنه عبد الله –. فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيُهم. يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم – والمقصود به عيسى عليه السلام – ولقد علمتم ما لاعن قومٌ نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وانه للاستئصال منكم إن فعلتم)[1]. وهذه القصة من دلائل نبوته (صلى الله عليه وسلم). قال الرازي:(دلّ هذا الخوف من الاستئصال، على صحة نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) من وجهين :

الأول–أنه عليه الصلاة والسلام، خوّفهم بنزول العذاب عليهم ولو لم يكن واثقا بذلك، لكان ذلك منه سعيا في إظهار كذب نفسه، لأنه بتقرير أن يرغبوا في مباهلته، ثم لا ينزل العذاب، فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر، ومعلوم أن محمد (صلى الله عليه وسلم) كان من أعقل الناس، فلا يليق أن يعمل عملا يُفضي إلى ظهور كذبه، فلما أصر على ذلك علمنا إنما أصر عليه، لكونه واثقا بنزول العذاب عليهم.

الثاني–أن القوم لما تركوا المباهلة، فلولا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته، وإلا لما أحجموا على مباهلته، بل ودفعوا إليه المال الوفير وصرّحوا بتصديقه [2].

وهذه المباهلة قد أمر الله بها ودعا إليها النبي (صلى الله عليه وسلم) ودعا إليها أصحابه ، وهي سنّة إلى يوم الدّين .

وقد عمد القرآن الكريم إلى استخدام أسلوب الاستدلال، لإقامة الحجة والبرهان، على الخصوص من أهل الكتاب، قصد الإقناع والإفحام، ومن ثمة إحداث التأثير على المتلقين، وتغيير ما بأنفسهم وضمائرهم، كي يسهل عليهم تغيير حالهم وواقعهم نحو الأفضل. وذلك ما نعرض إليه في المبحث الموالي...

[1]– ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج2 ، ص 165– ص 166

[2]– الرازي ، التفسير الكبير ، ج8 ، ص82

المبحث الثاني:* أسلوب الاستدلال، وإقامة الحجة والبرهان.

* **الاستدلال عقلا في إبطال دعواهم** : يناقش القران الكريم أهل الكتاب فيما يدّعُونه مناقشة عقلية، ويثبت لهم أنّ بعض ما يدّعونه محالٌ عقلا، أو يلزم منه أمر لم يقع . ومن هذه الادعاءات التي يستدل القرآن على بطلانها ما يلي :

نسبتهم الولد لله ، فيبين الله سبحانه امتناع ذلك عقلا، في قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)﴾ البقرة . ولم يزد الله سبحانه عن تسبيح نفسه، وإخباره بأنه مبدع السماوات والأرض مع كمال قدرته المنافية لاتخاذهم الولد لله، وهذا مما علم بالفطرة .

كما أن الله سبحانه مستغن عن غيره ضرورة ، والمسيح لم يكن كذلك .إذ قال تعالى ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75)﴾ المائدة. .

كما أن نسبة الابن إلى الله يلزم منه أمرا لم يقع فيعلم بطلانه عقلا.كما قال تعالى:﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91)﴾ المؤمنون . والمعنى؛ ليس مع الله من إله ، ولو سُلّم أن معه سبحانه إلهاً، لَلزم من ذلك التّسليم ذهابُ كل إله من الاثنين بما خلق، وعلوُّ أحدهما على الآخر فلا يتم في العالم أمر، ولا يُنفذ فيه حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين فأكثر محال لما يلزم منه من المحال[1].

ومن ذلك قول النصارى: الله ثالث ثلاثة، المخالف للفطرة البشرية والذي يحيله العقل، لذا لم يزد الله عز وجل عن إنكار قولهم مع بيان أن التوحيد هو الأصل كما قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) ﴾المائدة. وقال سبحانه:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (171) ﴾النساء.

---

[1]- الألمعي، مناهج الجدل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،ط2، 1400م،ص75-76.

ومن ذلك وصف اليهود الرب بصفات النقص وهذا مما يحيله العقل فطرة، فلا يحتاج إلا إلى الإنكار. كقوله تعالى:﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (181) ﴾آل عمران. وقوله تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) ﴾المائدة.

ومن ذلك عبادتهم للملائكة والنبيين، وزعم النصارى أن عيسى دعا إلى نفسه، فبين الله استحالة ذلك كما ورد في قوله عز وجل:﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80) ﴾آل عمران. وهكذا يهدم القرآن دعاوى أهل الكتاب بنظرة عقلية تجعل لمن له أدنى عقل أن يتراجع عن قوله الذي يحيله العقل والفطرة.

* **إظهار سوابقهم مع رسلهم:** كان أهل الكتاب يرفضون رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وخشية أن يؤثر موقفهم هذا على البعض بوصفهم أهل الكتاب سابق يطيل القرآن في بيان مخالفتهم لرسلهم وتعنتهم وعنادهم وذلك ليظهر للرأي العام أن هؤلاء الرافضين لرسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) كانوا كذلك مع من سبقه من الرسل، فلا يضر رفضهم، ولا يدل على صحة ما عندهم، يقول الشيخ السعدي تحت عنوان طريقة القرآن في المجادلة مع الأديان الباطلة:"يقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم مالا يستغرب معه لمخالفتهم لرسولهم الخاتم محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي جاء مصدقا لما سبق من الرسالات التي مقصدها جميعا واحد[1].

والآيات التي يحاور القرآن فيها أهل الكتاب مبينا فيها هذا الجانب عديدة جدا منها قوله تعالى:﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ﴾البقرة. وقوله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ﴾البقرة. وقوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) ﴾البقرة. وبعد هذه الآيات وأمثالها في سورة البقرة يقول تعالى:﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)﴾ البقرة . ويقول تعالى :﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ

[1]- السعدي: عبد الرحمن، القواعد الحسان لتفسير القرآن، دار الرشد، الرياض، 1420هـ-1999م، ص43.

ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (153)﴾ النساء. كما يسلى الله نبيه محمدا (صلى الله عليه وسلم) بأن تكذيبهم لدعوته لا يضر الدعوة شيئاً ، فان جميع الرسل كذبوا كما قال سبحانه : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (184) ﴾آل عمران.

* **القرآن يطالب أهل الكتاب بالدليل والبرهان:** إن كثيرا من دعاوى أهل الكتاب تنقصه الحجة والبرهان، فيطالبهم الله عز وجل ببرهان دعواهم، وهم لا يملكون على ما يدعون حجّة ولا برهانا وإنما أماني وأوهام، فتسقط دعواهم من غير رد لها ومن ذلك دعواهم، قال تعالى:﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) ﴾البقرة. ومثل ما حاكاه الله عنهم:﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) ﴾البقرة. قال سيد قطب:" فإبراهيم سابق على التوراة، وسابق على الإنجيل، فكيف إذا يكون يهوديا؟ أو كيف يكون نصرانيا؟ إنها دعوى مخالفة للعقل تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى للتاريخ"[1]. قال ابن القيم:"فهذا مطالبة لهم بتصحيح دعواهم وتردد هذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر، فإن قولهم: "لن تمسنا النار إلا أيام معدودة، خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي فإما أن يكون قولا على الله بلا علم فيكون كذبا، وإما أن يكون مستندا إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر وهذا منتف قطعا، فتعين أن يكون خبرا كاذبا، قائله كاذب على الله"[2].

وهذا النوع من إبطال دعاواهم المجردة من الدّليل واضحٌ كل الوضوح، وقد سلكه علماء الإسلام في حوارهم مع أهل الكتاب، فهذا ابن تيمية يردّ على دعوى النّصراني بأن قرابينهم صحيحة، ويستشهد على ذلك بقول "إشعيا" فيرد ابن تيمية بمطالبته بإثبات: أولا: نبوة إشعيا. ثانيا: صحة كلامه عنه. ثالثا: صحة الترجمة، لأن أولئك الأنبياء لم يتكلموا بالعربية، بل ولا بالرومية، والسريانية واليونانية، وإنما تكلموا بالعبرية. رابعا: إثبات أن هذا القول ينطبق على قرابينهم في هذا الزمان[3]. فلم يحتج عليهم إلا بطلب برهان الدعوى.

* **الاحتجاج ببراهين نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم):** إن المحاور في كل مرة يستدل على كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم بتفصيلاته بدلائل النبوة المختلفة، كما يستدل المحاور بها على بطلان كل ما خالف ما جاء به

---

[1]– قطب، سيد في ظلال القرآن، ج1، ص411.

[2]– ابن القيم: بدائع الفوائد، ج4، ص143

[3]– ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مطبعة المدني، القاهرة، دط، دت،ج2، ص69–71

عليه السلام. يقول ابن تيمية موضحا ذلك:" دلائل النبوة... كلها تدل على صدق النبي، ثم يعلم ما يخبر به النبي من الأمر والنهي والوعد والوعيد، لأنه أخبر عن الله بذلك وهو صادق فيما يخبر به، فهذا طريق صحيح عام. وأما إثبات نبوة الأنبياء بما فعله الله بهم وبأتباعهم من النجاة، والسعادة، والنصرة، وحسن العاقبة، وما جعله لهم من لسان صدق، وما فعله بمكذبيهم ومخالفيهم من الهلاك، والعذاب، وسوءِ العاقبة، وإتباعهم اللعن في الدنيا مع عذاب الآخرة، فهذا يدل مع صدق الأنبياء على الرغبة في اتباعهم، والرهبة من مخالفتهم[1].

لهذا نجد في القرآن الكريم التنبيه على وضوح نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والإشارة إليه بالنور والبرهان كما قال تعالى:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) ﴾المائدة. وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174) ﴾النساء. وقد سلك هذا المسلك كثير من المحاورين المسلمين، فاحتجوا بدلائل النبوة على مسائل تفصيلية كثيرة.

*__الاستدلال بنصوص كتبهم__: ومن مسالك الاستدلال على أهل الكتاب، الاحتجاج عليهم بما يسلمون به من حقائق ذكرت في كتبهم.

وقد احتج القرآن على أهل الكتاب بذلك، فرغبهم بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأخبر عن وجود ذلك في كتبهم كما قال تعالى مادحا من آمن منهم:﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) ﴾الأعراف. كما احتج عليهم بذلك في بعض المسائل الفرعية، كما قال تعالى:﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94) ﴾آل عمران. وقد سلك علماء المسلمين هذا الطريق في محاورة أهل الكتاب من ذلك:

[1]– ابن تيمية، الجواب الصحيح، ج4، ص274.

-احتجاج أبي حامد الغزالي بنصوص من أناجيلهم على بطلان ألوهية عيسى عليه السلام[1].

-استدلال أبي عبيدة الخزرجي عليهم ببعض نصوص الإنجيل المثبتة لنبوة عيسى والمبطلة لألوهيته مثل:" وبعد يومين خرج من هناك ومضى إلى الجليل لأن يسوع نفسه شهد أن ليس لنبي كرامة في وطنه"[2].[3]

- استدلال ابن القيم عليهم بنصوص كتبهم في إثبات نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، كما حاج أحد النصارى بما يسلم به من صفات الكمال لله، فقال ابن القيم له:" إنكم بتكذيبكم محمدا قد شتمتم الله !؟ فعجب من ذلك وقال: مثلك يقول هذا الكلام. قلت له: أسمع الآن تقريره.. إذا قلتم إن محمدا ملك ظالم قهر الناس بسيفه، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثا وعشرين سنة يدعي أنه رسول الله، أرسله الله إلى الخلق كافة، ويقول أمرني الله بكذا، ونهاني عن كذا، وأوحى إليّ كذا، ولم يكن من ذلك شيء، ويقول: إنه أباح لي سَبْي ذراري مَن كذّبني وخالفني ونساءَهم، وغنيمة أموالهم، وقتل رجالهم، ولم يكن من ذلك شيء، وهو يدأب في تغيير الأنبياء، ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم. فلا يخلو إما أن تقولوا: إن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه.

أو تقولوا: إنه خفي عنه ولم يعلم به. فإن قلتم: لم يعلم به، نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من علم ذلك أعلم منه. وإن قلتم بل كان ذلك بعلمه ومشاهدته واطلاعه. فلا يخلو إما أن يكون قادرا على تغييره، والأخذ على يديه، ومنعه من ذلك، أو لا. فإن لم يكن قادرا، نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادرا، وهو مع ذلك يُعزّره، وينصُره، ويؤيده، ويُعْليه، ويُعلي كلِمته، ويجيب دعاءه، ويمكنه من أعدائه، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا يليق نسبته إلى العقلاء، فضلا عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه، وهذا عندكم شهادة زور وكذب. فلما سمع ذلك قال:معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفتر بل هو نبي صادق من اتبعه أفلح وسعد. قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟؟ قال: إنما بعث إلى الأميين الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه. قلت له: غلبت كل الغلب، فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله إلى جميع الخلق، وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل الكتاب، وإذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به. فأمسك ولم يحر جوابا[4].

---

[1]- الغزالي أبو حامد: الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل،تح: روبير شدياق وعبد العزيز عبد الحق حلمي، مجمع البحوث الإسلامية،القاهرة، مصر، دط،1393هـ-1973م ص117.

[2]- يوحنا: ج4، ص43-44.

[3]- الخزرجي: أبي عبيده، بين الإسلام والمسيحية، تحقيق الدكتور محمد شامه، مكتبة وهبة، مصر،دط، دت، ص155.

[4]-الجوزية ابن القيم: هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى،مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، ط1429،1هـ، ص124.

* **الاستدلال بلازم كلامهم:** وذلك أن كثيرا من ادّعاءات أهل الكتاب يلزم منها أمور، لا يقرّونها وقد حاجّهم الله بذلك، حيث كانوا يدّعون أنهم مسلمون، وأنهم متّبِعون لملّة إبراهيم، فأخبر الله أن الحجّ من شعائر إبراهيم عليه السلام وهم معرضون، كما قال تعالى:﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)﴾آل عمران.

ولما نزلت:﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85)﴾آل عمران. قالت اليهود: فنحن مسلمون. فأنزل الله:﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)﴾آل عمران. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم:" إن الله فرض على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا". فقالوا: لم يكتب علينا، وأبَوْا أن يحجوا. لذا قال تعالى:﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾.

وذكر الرازي أن في قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)﴾البقرة، استدلال بلازم كلامهم حيث يقول في عرض شُبَه أهل الكتاب: الشُّبهة الأولى: حَكَى عنهم أنهم قالوا:﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾، ولم يذكروا في تقرير ذلك شُبهة، بل أصرّوا على التّقليد، فأجابهم الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه؛ منها:

أنّه ذكر جوابا إلزاميا، وهو قوله:﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾، وتقرير هذا الجواب؛ أنه إن كان طريق الدين التقليد، فالأولى في ذلك اتّباع ملة إبراهيم، لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف، فإن كان المعول في الدين على التقليد، فكأنه سبحانه قال: إن كان المعول في الدين على الاستدلال والنظر، فقد قدمنا الدلائل، وإن كان المعول على التقليد، فالرجوع إلى دين إبراهيم عليه السلام، وترك اليهودية والنصرانية أولى[1].

* **الاستدلال بتحريف كتبهم:** يحاجج القرآن أهل الكتاب مبينا لهم التحريف الذي لحق بكتبهم بسبب تقولهم على الله وتحريف الكتب، من أجل ثمن قليل، وبسبب قسوة قلوبهم وعصيانهم وعنادهم كما قال تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) ﴾البقرة.

كما أن إثبات تحريف التوراة والإنجيل مادة خصبة لكثير من المحاورين المسلمين، وعلى سبيل المثال:

---

[1]– الرازي، التفسير الكبير، ج4، ص80

ألّف الجويني كتابه: شفاء التعليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل. وساق الأمثلة الكثيرة على اختلاف نسخ التوراة والإنجيل لإثبات تحريفها، ومن ذلك إثباته لاختلاف نسخ التوراة التي بيد اليهود نسخ النصارى، فمما ذكر:(في التوراة التي بيد اليهود: أن آدم عليه السلام حين أتى عليه مائة وثلاثون سنة ولد له شيث. والتي بيد النصارى: أنه لما أتى المائتان وثلاثون سنة ولد له شيث)[1]. ويقول بعد سوق الأمثلة الكثيرة على اختلاف نسخ التوراة: (فانظر إلى قبح هذا الاختلاف وغرابته بين هاتين الطائفتين في أمر ليس من قبيل المظنونات التي تختلف باختلاف مآخذ العلماء الناشئة عن اختلاف مراتب الظنون)[2].

أثبت أحمد ديدات التحريف في مناظراته العديدة وكتبه المختلفة، وسلك هذا المسلك في الاحتجاج على أهل الكتاب، ومن ذلك مناظرته المشهورة مع سوجارت، والتي قال فيها:(وفيما يتعلق بأربعة وعشرين ألف مخطوط، أنت تعرف أخي سوجارت أنه ليس بينهما اثنان متماثلان، وعلماؤك يقولون بأن بين الأربع والعشرين ألفا التي كتبوها، لا توجد اثنتان متشابهتان، إذا كيف لك أن تحكم بأن هذه من عند الله، وأن الأخرى ليست من عند الله من بين الأربع والعشرين ألف نسخة؟!!)[3].

وفي مناظرته مع أنيس شورش[4] ، يقول:(أما الإنجيل فلدينا ثلاثة وسبعون إنجيلا مختلفا عند الكاثوليك، وستة وستون إنجيلا عند البروتستانت، وبينهما أناجيل لا نعرف مصدرها)[5].

***التناقض دليل كذبهم**: إن أهل الكتاب نتيجة لتكذيبهم بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، يقعون في كثير من المتناقضات، والتي يشير إليها القرآن الكريم، مبينا أنه لا استقامة لمنهجهم إلا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (151) ﴾النساء.

---

[1]- الجويني أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، شفاء التعليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التّبديل،تح: أحمد حجازي السقا، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، ط3، 1409هـ-1989م، ص38.

[2]- المرجع نفسه، ص42.

[3]- السقا: أحمد حجازي، المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان بين الشيخ ديدات والقسيس سوجارت، تقديم الشيخ محمد الغزالي، مكتبة زهران، القاهرة، ط1 ،1988م، ص.151

[4]- هو أنيس شورش فلسطيني الأصل وهو من المنصرين الايرلنديين والمناظرة عقدت في بريطانيا عام 1988م، انتهت بانتصار ديدات.

[5]- ديدات: أحمد، بين الإنجيل والقرآن، تر: محمد مختار، مكتبة ديدات، مصر، ط1، (د.ت). ص62.

يقول السموأل: مبينا هذا الجانب في حواره مع اليهود: لا يسع عاقلا أن يكذب نبيا ذا دعوى شائعة، وكلمة صادقة، ويصدق غيره، لأنه لم ير أحدهما، ولا شاهد معجزاته، فإذا اختص أحدهما بالتّصديق والآخر بالتّكذيب، فقد تعين عليه الملام والإزراء عقلا.[1] "إن الطريق إلى معرفة نبوة الأنبياء عليهم السلام ظهور المعجز عليهم، ولما ظهر المعجز على يد محمد (صلى الله عليه وسلم) وجب الاعتراف بنبوته والإيمان برسالته، فإن تخصيص البعض بالقبول وتخصيص البعض بالرد، يوجب المناقضة في الدليل، وأنه ممتنع عقلا..."[2].

*__إبطال دعواهم بإثبات نقيضها:__ عندما دعا النبي صل الله عليه وسلم أهل الكتاب وتلا آيات الله عليهم وأوضح براهينه ودلائله، أخذ أهل الكتاب يتذرعون ببعض الشبه، ويدعون الادعاءات المانعة لهم من الإيمان، فأثبت الله عز وجل نقيض ادعاءاتهم وفضح باطلهم، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91) ﴾البقرة. فقد ادعوا إيمانهم بما أنزل إليهم بأمرين ينقض ادعاءهم:

الأول: أن جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم)مصدقا لما معهم، فمن تمام إيمانهم برسلهم إيمانهم بمحمد (صلى الله عليه وسلم).

الثاني: أنهم قتلوا أنبياءهم وهذا مناقض لدعواهم الإيمان بما أنزل إليهم، إذ إن قتل الرسل غايةٌ في التكذيب.

ومن ذلك قوله تعالى محاورا اليهود:﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (183)﴾آل عمران.

*__الاستدلال عليهم بإظهار التّشهي والتّحكّم للهوى:__ وهذا من أساليب القرآن في محاورة أهل الكتاب حيث يبين أنهم إنما يسيرون وفق أهواهم وشهواتهم، لا مع الدليل ولا مع البرهان، يقول تعالى معاتبا أهل الكتاب:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87)﴾البقرة.

قال ابن القيم، معلقا عل هذه الآية:« فهذا هو الذي تسميه النظار والفقهاء التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل، فإن جاءك مالا تشتهيه دفعته ورددته، وإن كان موافقا لما تهواه وتشتهيه – إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده – قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج مفحم للخصم لا جواب عليه البتة»[3] .

---

[1]– السمؤال ابن يحيى المغربي، إفحام اليهود، دار القلم- دار الشامية، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ-1989م، ص91.

[2]– الرازي، التفسير الكبير، ج4، ص82

[3]– ابن القيم، بدائع الفوائد، ج4، ص144.

كما بين الله عز وجل أن الدافع الحقيقي لكفرهم هو الحسد، لإخفاء الحق عنهم كما قال تعالى:﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)﴾البقرة. إن هذا الحسد دفعهم إلى صد غيرهم عن الحق كما قال تعالى:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) ﴾البقرة.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)﴾(البقرة). أي؛ «إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلِمَ قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم، والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟، قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلاّ مجردَ الأهواء والآراء والتّشهّي»[1].

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد سلك مع أهل الكتاب كل طرق الإقناع والوعظ بل والتحدي، وذلك لبيان الحق لهم وإقامة الحجة عليهم، وصدق الله إذ يقول:﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28)﴾الفتح.

وعلى هذا فالواجب على من أراد محاورة أهل الكتاب أن يدرس طريقة القرآن في الحوار مع أهل الكتاب ليقتدي بها وينطلق منها. كما أن عليه أن يستفيد مما تركه السلف الصالح من هذه الثروة من المحاورات مع أهل الكتاب. فالخطأ كل الخطأ، والضلال كل الضلال، لما نعمى عن هذا الهدي القرآني، ونصدق أكاذيب اليهود والنّصارى في هذا العصر، ونعتقد أنهم ينصفوننا، فنفرّ إليهم، وننبطح تحت أقدامهم. فو الله لن يُذيقونا إلا الذّل والهوان، وصدق العليّ العظيم إذ يقول:﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾(البقرة:120). و"لن" لها ما لها من دلالة، في نفي الحال والاستقبال. فبأي حديث بعد هذا يؤمن العرب والمسلمون؟!!

[1]– ابن كثير أبو الفدى إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار السلام، الرياض، السعودية، ط5، 2001م، ج1، ص125.

* **الخاتمة:** لقد خلص البحث إلى جملة من النتائج التي يمكن سردها كالآتي:

– من الصعوبة بمكان تطبيق المنهج التداولي الغربي تطبيقا حرفيا على النص القرآني. لأن هذا المنهج ذو أساس شكلي كغيره من المناهج الغربية الوافدة، أما ما يميزه عنها فهو استقاؤه ونهله من علوم معرفية عديدة، كما أنه يوفر فسحة للباحث في استخدام ما يحلو له من الآليات والأدوات الإجرائية، التي تمكنه من فتح ما استغلق عليه أثناء القراءة والتحليل.

– اعتماد مبدأ القصدية وأفعال الكلام ومستلزمات القول ومتضمناته، لا يخدش في النص القرآني ولا يمس بقدسيته. وهذه المفاهيم والمصطلحات لها ما يؤصل لها في علوم البلاغة العربية وخاصة في علم المعاني، وكذلك ما يؤصل لها في علمي الفقه والأصول.

– إن المنهج التداولي في منظور البلاغة العربية يختلف عن المنهج التداولي في المنظور الغربي. فالتداول الغربي يطيل في العبارة، ويعطل المعتقد، ويهوّل الفكرة ويعقّدها. بينما التداول في التراث العربي يختصر العبارة، ويشغل المعتقد، ويهوّن الفكرة ويبسطها. كما أن المنهج التداولي الغربي يعالج النصوص والأفكار بقراءة تجزيئية انتقائية، بينما الرؤية التداولية عند علماء العربية وبلاغييها يعالج النصوص والأفكار، بقراءة تكاملية وبطريقة أخلاقية تجمع بين الماديات والروحيات، وبين العاجلة والآجلة.

– أما الحوار القرآني، فهو حوار تربوي بالدرجة الأولى،حوار فكري هادئ هادف، حوار حجاجي يقوم على الدليل والبرهان لإفحام الخصم لا بإقصائه، ولا يسعى إلى استئصاله، بل يدع له فرصة للدفاع عن النفس، ويعطي له الحرية في إثبات صحة دعواه أو الرد عن دعوى غيره، دون جبر أو إكراه. حوار يقوم على نقض أفكار المخالفين والخصوم بأدلة دامغة، بعيدة عن الإلغاء أو القمع أو الإقصاء.

– القرآن الكريم أول كتاب دعا إلى الحوار بين أتباع الديانات، وفتح أمامهم الباب واسعا ليطرقوه.كما رسخ وأصّل لقواعد المناظرة والجدل والحجاج، من أجل الوصول إلى الإقناع والتأثير ثم التغيير.

- القرآن الكريم يعتمد الحجاج أسلوبا للإقناع، إذ يقوم على الدعوى وردها، وينتقد رؤية الخصم والمخالف، دون إكراهه على فكرة معينة، إلا إذا كان هذا الخصم غوغائيا، لا تقوم حجته على سند صحيح ،ولا يؤيده نقل صحيح ولا عقل صريح.

- والقرآن الكريم ظاهره خطاب وباطنه حوار، فهو يجيب عن تساؤلات يطرحها الإنسان على نفسه في الحال والمآل،في الحياة والكون، وفي الممات والغيب. فالقرآن الكريم كتاب الله المقروء، والكون كتاب الله المنظور، وقد تطابق المنظور مع المقروء.

- لقد اهتمت البلاغة العربية القديمة بظاهرة الاستلزام الحواري، وبمتضمنات القول، وأفعال الكلام. وما علم المعاني بأساليبه المتنوعة إلا دليل على سبق العلماء العرب إلى تطبيق هذا المنهج والبحث في مقاصده وأغراضه،في التراث اللغوي والأدبي عامة ، وفي تفسير القرآن الكريم، وعلوم الحديث، وأصول الفقه بصفة خاصة.

- أفعال الكلام في القرآن الكريم أفعال إنجازية تتمثل في الأوامر والنواهي، فهي تحث السامع على الفعل، وعلى الترك أيضا، على وجه الاستعلاء والإلزام.

- يتبين من الخطاب الموجه إلى بني إسرائيل ، أنه خطاب مباشر يمتاز باللين والإشفاق. أما الخطاب الموجه إلى أهل الكتاب فهو خطاب غير مباشر في الغالب، خطاب مبطن بالتهديد والوعيد والتوبيخ.

- يمثل أسلوب النداء في الخطاب القرآني القوة الإنجازية الحرفية الناقلة للفعل الكلامي، سواء أكان من الذات الإلهية إلى المخلوقين، أم كان بين المخلوقين فيما بينهم.

- أسلوب التعريض بالمطلوب في الحوار القرآني، يتناغم معه الغرض التداولي لأفعال الكلام في المفهوم التداولي، وهو أسلوب خطابي غير مباشر، يدل من جهة على فن التأدب والكياسة، ومن جهة أخرى يدل على المبالغة والإمعان في توبيخ السامع المقصود بالخطاب.

- الأسلوب الحواري في القرآن الكريم يقدم التحذير من المفاسد ، قبل الحث على المصالح في الغالب، لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح.

- يبين الحوار القرآني، طريقة انتقال الإنسان من الشك إلى اليقين بمنهج استقرائي، ينتقل فيه المتأمل من الإيمان بالجزء لإلى الإيمان بالكل. وهذا الذي حصل مع نبي الله إبراهيم عليه السلام. كما بين القرآن أن الإنسان هو عمل وسلوك قبل كل شيء، وبذلك حكم القرآن على ابن نبي الله نوح: " إنه عمل غير صالح".

- الأسلوب الحواري القصصي، طريقة في التبيين للمعاني والمقاصد، وهو أسلوب مؤثر لأنه يقوم بالتبليغ عن طريق الصورة التي تنطبع في ذهن السامع أو القارئ فتؤثر فيه تأثيرا قويا، تجعله يستجيب تلقائيا لمضمون الخطاب الموجه إليه بطريق مباشر أو غير مباشر.

- بين لنا الحوار في القرآن خطر نزعة الحسد، التي هي رأس كل المهالك التي تأتي على البنيان الاجتماعي من الأساس. ناهيك عما تحدثه من زعزعة للاستقرار النفسي والطمأنينة في حياة الناس، يكونون عرضة فيها للتمزق والصراع والصدام.

- يبرر الخصوم معارضتهم للحق- دائما – بتبريرات مادية تقوم على الاعتداد بالمال والجاه، ويغيبون العقل والمنطق السليم في النقاش والجدال، لكن في النهاية تكون الغلبة للحق وأهله ولو على قلة أهل الحق عددا وعدة.

- فعل القول "قل"، هو فعل إنجازي، القصد منه إثبات الحجة على الخصم، ودعوة له للتعالي على الباطل،كما يؤكد على المبالغة في ذم الخصوم واستهجان سلوكاتهم والتحذير منها، كما في قوله تعالى:"قل يا أهل الكتاب".

- لقد استخدم القرآن الكريم "من التبعيضية" لكي يستثني طائفة مؤمنة من أهل الكتاب باقية على الحق، وهو أسلوب تربوي يهدف إلى إعلام المؤمن بعدم التعميم في إصداره الأحكام على الغير.

- الإشارة بلفظ "أولئك" في الآيات التي تحدثت عن أهل الكتاب، الغرض منها التنبيه على الاستحقاق للوصف الذي ذكر في حقهم، فما كان قبل إسم الإشارة فهو حجة لهم، وما كان بعده نتيجة لهم، لأن الاستحقاق يأتي بعد العمل وبذل الجهد.

- لقد تعرض القرآن الكريم للصفات السيئة لأهل الكتاب، باستخدام "ضمير الغائب" وهو أسلوب الغرض منه الاحتقار والتقليل من شأن سلوكات بعض أهل الكتاب وذمها في نهاية الأمر، خاصة تلك المتمثلة في الحقد والحسد الدفين للرسول –صلى الله عليه وسلم- ورسالته .

- استخدم القرآن الكريم في خطابه لأهل الكتاب أسلوب الاستفهام، بغرض التقريع، والتنبيه، والتوبيخ، والإفحام، ونفي دعاواهم الباطلة، والتعجب من سلوكاتهم، والإنكار عليهم.

- إن فعل الطلب "قل"، موجه إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم-، والنداء بعبارة "يا أهل الكتاب"، يتضمن معنيين: معنى مدحيّ، لأن الله كرمهم بالأنبياء والكتب. أما المعنى الثاني: فمعنى قدحي، يفيد التعريض والذم، لأنهم

كذبوا برسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- وقد ورد مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، وكان الأولى أن يكونوا هم أول من يؤمن به.

- ذكر القرآن الكريم- في عرضه لصورة الظلم التي تعرض لها بنو إسرائيل على يد فرعون مصر- عبارة "آل فرعون"،والقصد من ذلك، التنبيه إلى أن آل فرعون كانوا عبادا مأمورين، وكانوا لهذا يتجاوزون الحد في تعذيب بني إسرائيل، ويبالغون في ذلك، فكانوا أقل رحمة، وأضيق أنفسا من فرعون نفسه.

- تعرض القرآن الكريم إلى تذكير بني إسرائيل بنعمتي الأمن النفسي والأمن الغذائي، اللتين وفّرتا الراحة والطمأنينة للمجتمع الإسرائيلي. لعلهم يشكرون..

- وعيد الله لبني إسرائيل بالعقاب، جاء بعد أن خانوا الأمانة، ونكثوا العهد، ونقضوا الميثاق، وكذبوا بآيات الله، وتطاولوا على الذات الإلهية، وأفسدوا في الأرض، والله لا يحب الفساد.

- تضمنت أفعال الكلام الواردة في حوار أهل الكتاب أغراضا إنجازية، تمثلت في التوجيه، والتنفيذ على وجه الاستعلاء والالزام. وكانت كلها أفعال قصدية، الهدف منها التأثير والتغيير ،كما خرجت في بعض الأحيان إلى أغراض تداولية أخرى، نتجت عن سياقات مقامية و قرائن أحوال.

- أفعال الكلام في الخطاب القرآني موجهة من الله إلى خلقه، لا تقبل المرادة، أو النقد، فهي مسوقة على وجه الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والتبليغ والتذكير، وعلى المتلقي لهذه الأفعال بالامتثال والتطبيق. كما يقتضي أن يكون المتلقي لها حاضرا منصتا، مراعيا لحسن التأدب والتخلق مع الله الذي يخاطبه.

- أسلوب الحوار في القرآن الكريم، قائم على العرض والمواجهة، والوعظ والتذكير، والتحدي والمباهلة، يغلب عليه الاستفهام الإنكاري، الذي يتضمن التنبيه والتحذير والتوبيخ، كما يقوم على الاستدلال والحجة والبرهان.

وأخيرا، يبقى البحث في القرآن الكريم غضّا طريا لا يقبل الإحاطة، ومعينا لا ينضب، يستقي منه الدارس العبر والعظات، ويستفيد من مقاصده وأغراضه، وإن كان للباحث من جهد، فهو جهد المحاولة، ويعتذر صاحب البحث من القارئ الكريم عن كل خطإ أو سهو وقع منه دون قصد، والله الموفق والهادي إلى السبيل.

* فهرس المصادر والمراجع:

*القرآن الكـــــــــــــــريم. برواية حفص.

1. إبراهيم عبد الله ، الثقافات العربية والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، ، بيروت-لبنان-. ط2، 1420هـ/1999م
2. ابن تيمية تقي الدين أحمد ، مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، 1425هـ/2004م.
3. ابن تيمية تقي الدين أحمد، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، إشراف علي السيد صبح المدني، مطبعة المدني ، القاهرة، مصر .دط، 1962م.
4. ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار الفجر للتراث، القاهرة – مصر، ط1، 2004م.
5. ابن دريد محمد بن الحسين، كتاب الاشتقاق، تح:عبد السلام هارون، دار الجبل، ، بيروت. ط1، 1991م
6. ابن عبد البرّ، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، ، مصر. ط2، 1402هـ
7. ابن فارس أحمد، مقاييس اللغة، ت محمد هارون، دار الجبل، ، بيروت – لبنان . ط2، 1991م
8. ابن كثير أبو الفدى إسماعيل ،تفسير القران العظيم دار السلام، ،الرياض- السعودية. ط2001،5م
9. ابن كثير، البداية والنهاية ، مكتبة الوليد ، طرابلس-لبنان، دط، دت.
10. ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت –لبنان . ، ط1 ، 1300هـ
11. ابن منظور، لسان العرب، مكتبة الخانجي، ، القاهرة مصر. ط2، 1988م
12. ابن هشام محمد محي الدين عبد الحميد ، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ، بيروت- لبنان. دط، دت
13. ابن هشام، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط3، 1410هـ-1990م.
14. أبو زهرة محمد، محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي، القاهرة-مصر، ط3، 1381هـ/1966م.
15. أبو شهبة محمد محمد، المدخل لدراسة القرآن الكريم، دار اللواء، ، السعودية. ط،1407هـ/1987م
16. أرمينيغو فرانسواز ، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوشي، مركز الإنماء القومي، ، الرباط –المغرب-. دط، 1986م
17.
18. الأزهري محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تح:محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ، ط1، 2001م
19. إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية، مطبعة الإعتماد ، ، مصر. ط1، 1929م
20. إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ، ط1، 1914م.
21. الأصفهاني الراغب ، المفردات في غريب القرآن، تح:سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت-لبنان، دط، دت.
22. الأصفهاني الراغب ، معجم مفردات ألفاظ القران ، تح: عدنان داوودي ، دار القلم ، دمشق –الدار الشامية ، بيروت-لبنان. ، ط4، 1430هـ -2009م
23. آل معمر عبد العزيز، منحة القريب المجيب في الرّد على عباد الصليب، ثقيف للنشر والتأليف، الرياض-السعودية، ط3، 1400هـ/1980م.

24. -الحمداني أبو فراس، ديوان أبو فراس الحمداني، شرح: خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط2، 1414هـ/1994م.

25. -الصويان أحمد بن عبد الرحمان ، الحوار: أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، دار الوطن ، ، الرياض -السعودية-. ط1، 1413هـ/1993م

26. ألمسيري عبد الوهاب، من هو اليهودي؟ ، دار الشروق ، القاهرة- مصر ، ط1، 1971م.

27. الألمعي زاهر بن عوض، مناهج الجدل، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، دط، دت.

28. -الهاشمي أحمد،جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تدقيق؛ يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، دط،1424هـ — 2003م .

29. الألوسي محمود بن عبد الله، روح المعاني في القرآن الكريم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية، ، بيروت —لبنان-. ط1، 1415هـ/1995م

30. الأندلسي ابن عطية ، المحرر الوجيز، تح:جماعة من المحققين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ، قطر. ط2، 1428هـ/2007م

31. أوستين جون لانجشو ، نظرية أفعال الكلام العامة، تر : عبد القادر قنيني، دار افريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب . دط ،1991م

32. ايت أحمد مريم ، جدلية الحوار ، قراءة في الخطاب الاسلامي المعاصر تقديم عبد المجيد النجار ، مطبعة النجاح الجديدة ، ، الدار البيضاء- المغرب. ط1، 2011م

33. باحاذق عمر محمد عمر ، أسلوب القران الكريم بين الهداية والاعجاز البياني ، دار المأمون للتراث ، دمشق — بيروت — لبنان. ، ط4، 1994م

34. برنس جيرالد ، المصطلح السردي ، تر: عابد خزندار ، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة — مصر. ط1 ، 2003م

35. البستيّ أبو الفتح علي بن محمد الكاتب، ديوان أبي الفتح البستيّ، تح؛ درية الخطيب- درية الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق. دط،1414هـ- 1989م.

36. بسمة أحمد، تحريف رسالة المسيح عبر التاريخ، أسبابه ونتائجه، دار القلم، دمشق-سوريا، دط، 2000م.

37. بطرس عبد المالك ، قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة المسيحية ،مصر،ط1، 2001م.

38. البغدادي الخازن علاء الدين ، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت، 1399هـ/1979م.

39. البغدادي الخطيب، الفقيه والمتفقه، دار ابن الجوزي، ج2، ، السعودية. ط2، 1421هـ/2010م

40. بلانشيه فيليب ، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ، سوريا. ط1، 2007م

41. بن عاشور الطاهر ، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، دت.

42. بن كلثوم عمرو ، ديوان عمرو بن كلثوم — المعلَّقة، تح؛ إيميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1411هـ- 1991م.

43. بنعبد العالي عبد السلام ، الفلسفة اداة للحوار ، دار توبفال للنشر، الدار البيضاء — المغرب . ط1، 2011م،

44. بوجادي خليفة ، في اللسانيات التداولية ، بيت الحكمة ، ، العلمة –الجزائر . ط1، 2009م
45. البوطي محمد سعيد رمضان ، فقه السيرة النبوية ، دار الفكر ، بيروت – دمشق ، ط11، 1991م.
46. بوكاي موريس ، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، بيروت-لبنان، دط، 1977م.
47. بيومي مهران محمد ، بلاد الشام ، دار المعرفة، الإسكندرية-مصر ، دط ، دت .
48. بيومي مهران محمد ، بنو إسرائيل، دار المعرفة، ، الإسكندرية- مصر. دط، 1999م
49. بيومي مهران محمد ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد الشام، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، ط2.
50. جديد اسكندر ، شخصية المسيح في الإنجيل والقرآن، القدس، ط2، 1995م.
51. الجرجاني الشريف ، التعريفات دار الكتب العلمية ، ، بيروت –لبنان. ط1، 2000م
52. الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، تع: محمد رشيد رضا، دار المعرفة ، ، بيروت – لبنان. دط، 1982م
53. جمال موسى ، تجليات المفاهيم التداولية في التراث العربي ، تفسير الرازي لسورة المؤمنون . جامعة الجزائر ، 2009م.
54. جميل عبد المجيد ، البلاغة والاتصال ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة -مصر . ط1، 2000م
55. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، ، بيروت- لبنان. ط1، 1970م
56. الجوزية ابن القيم ، بدائع الفوائد، مجمع الفقه الإسلامي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، جدة-السعودية، دط، دت.
57. الجوزية ابن القيم ، هداية الحيارى في أجوبة على اليهود والنصارى، مجمع الفقه الإسلامي، جدة-السعودية، ط1، 1429م.
58. الجويني أبو المعالي، شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، تح: أحمد حجازي السقا، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة-مصر، ط3، 1409هـ/1989م.
59. الحاج محمد أحمد، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، دار القلم بيروت، ط1، 1992م.
60. الحاشري فيصل ، فن الحوار ، دار الايمان ، مصر. ط1 ، دت.
61. الحباشة صابر ، الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقزويني ، الدار المتوسطية للنشر ، ، بيروت – لبنان . ط1، 2010م
62. الحباشة صابر ، محاولات في تحليل الخطاب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ، بيروت – لبنان. ط1، 1430هـ- 2009م
63. الحبيب طارق بن علي ، كيف تحاور ؟ مؤسسة الجريسي للتوزيع والاعلام ، ، الرياض – السعودية. ط14، 1426هـ – 1996م
64. حجازي السقا أحمد ، أقانيم النصارى، مكتبة النافذة، القاهرة-مصر، ط1، 2005م.
65. حجازي السقا أحمد: المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان، بين ديدات، وسواجارت، تقديم: محمد الغزالي، مكتبة زهران، القاهرة، مصر،ط 1988م.
66. الحمد محمد بن إبراهيم، أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة، دار ابن خزيمة، ، الرياض-السعودية-. ط1، 1422هـ/2001م
67. حوى سعيد، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ط6، 2016م.
68. الخزرجي أبو عبيدة، بين الإسلام والمسيحية. تح: محمد شامة. مكتبة وهبة. مصر. ط1. 1395هـ-1975م.
69. خلف الله محمد أحمد ، مفاهيم قرانية ، سلسلة عالم المعرفة ، ، الكويت . رقم 89، جوان 1984م

70. خليل ابراهيم محمود، نحو النص ، النظرية والتطبيق ، أمواج للطباعة والنشر والتوزيع عمان –الاردن . ، دط، 2014م،

71. دلاش الجلالي ، مدخل الى اللسانيات التداولية ، تر: محمد يحياتن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ، الجزائر . 1996م

72. ديدات أحمد، بين الإنجيل والقرآن، تر: محمد مختار ، مكتبة ديدات، المختار الإسلامي، مصر، دط، دت.

73. ديماس محمد راشد ، فنون الحوار والإقناع ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، دار ابن حزم ، ، الرياض – السعودية . ط1 ، 1420هـ ، 1999م

74. الدينوري ابن قتيبة ، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، ج1، ، بيروت-لبنان-. دط، 1343هـ/1925م

75. الرازي الفخر ، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار الفكر، دمشق-سوريا، ط1، 1401هـ/1981م.

76. الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، مختار الصحاح، مكتبة لبنان بيروت-لبنان. ،دط، 1986م

77. رجا عرابي ، سفر التاريخ اليهودي، الأوائل للنشر، ، سورية. دط،2004 م

78. رضا محمد رشيد، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1990م.

79. روبول آن ، وموشلار جاك ، التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، تر:سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني ولطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، ، بيروت –لبنان-. ط1، 2003م

80. الزحيلي وهبة، أهل الكتاب، الموسوعة العربية ، دمشق-سورية ، دط، 2014م.

81. الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان، دار الكتاب العربي، ، بيروت-لبنان-. ط1، 1415هـ/1995م

82. الزركشي محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار احياء الكتب العربية، ، بيروت -لبنان-. ط1، 1376هـ/1957م

83. زقوت لافي محمد محمود ، لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل، جامعة النجاح، نابلس-فلسطين، 2010م.

84. الزمخشري جار الله، تفسير الكشاف، دار الكتاب العربي، ، بيروت- لبنان. ط3، 1407هـ

85. الزمخشري محمود بن عمر ، المفصل في علم العربية، دار الجبل، بيروت-لبنان، ط2، 1323هـ.

86. الزمخشري محمود بن عمر، أساس البلاغة، ت محمد باسل عيون السود، منشورات دار الكتب العلمية، ، بيروت. لبنان. ط14019،1هـ-1998م

87. زيادة خليل عبد المجيد ، الحوار والمناظرة في القران ، دار المنار للطباعة والنشر ، ط1، 1986م

88. زيادة معن، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، عدد الأجزاء3. بيروت، دط، دت.

89. السامرائي فاضل صالح ، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمان، عمان-الأردن، دت، دط، 2010م.

90. السحمراني أسعد ، الحوار في الاسلام ، (ادابه وقواعده) ، دار النفائس، ، بيروت- لبنان . ط1 ، 1433هـ 2012م

91. السعدي عبد الرحمن، القواعد الحسان لتفسير القرآن، دار الرشد، الرياض، ط1، 1420هـ/1999م.

92. سعودي نواري أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ، العلمة –الجزائر-. ط1، 2009م

93. السكاكي أبو يعقوب، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط2، 1407هـ/1987م.

94. السموأل بن يحيى المغربي، إفحام اليهود، دار القلم-الدار الشامية، بيروت-لبنان، ط1، 1410هـ/1989م.

95. سوسير ف .د. علم اللغة العام ، تر:يوئيل يوسف عزيز ، دار أفاق عربية ، ، الأعظمية –بغداد . ط3، 1985م

96. السيد محي الدين المشعل، الحوارات الأسرية في القرآن الكريم، دار العصمة، ط1، 2008م.

97. السيوطي جلال الدين ، الروض الأنيق في فضل الصديق، تح: أحمد عامر حيدر، مؤسسة نادر ، ، بيروت. ط1، 1410ه

98. السيوطي جلال الدين صفي الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ، مصر. ط1394ه/1974م

99. شارودو باتريك ، ومانغينو دومينيك ، معجم تحليل الخطاب ، تر: عبد القادر المهيري ، وحمادي صمود ، المركز اللغوي للترجمة ، تونس. دط ، 2008م

100. الشاطبي أبو اسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، دار ابن عفان، ، السعودية. ط1، 1417ه/1997م

101. شاهر الحسن ، علم الدلالة ، السيمانتيكية والبراغماتية في اللغة العربية ، دار الفكر ، ، عمان – الأردن. ط1، 2001م

102. الشبندر غالب حسن، الآخر في القرآن، مركز دراسات فلسفة الدين، ، بغداد. دط2005م.

103. شحرور محمد ، القصص القرآني، قراءة معاصرة، مؤسسة الدراسات الإسلامية المعاصرة، ، بيروت–لبنان–. ط2، 2012م

104. الشرقاوي أحمد محمد، الحوار القراني في ضوء سورة الانعام ، دراسة موضوعية ،كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، جامعة الشارقة ، ، الامارات . دط، 1428ه

105. الشعراوي محمد متولي، تفسير القرآن الكريم، أخبار اليوم قطاع الثقافة، ط1991م.

106. الشعراوي محمد متولي ، مريم المسيح، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة –مصر، دط، دت.

107. الشعراوي محمد متولي، تفسير الشعراوي. الخواطر. مطابع أخبار اليوم، ، مصر. دط،1997م

108. شلبي أحمد ، مقارن الأديان(4) أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1976م.

109. الشنقيطي ، الشيخ محمد الامين ، اداب البحث والمناظرة، مكتبة ابن تيمية ، ، القاهرة – مصر . دط، دت

110. الشنقيطي الأمين ، أضواء البيان، مكتبة ابن تيمية، القاهرة–مصر، دط، 1988م.

111. الشهري عبد الهادي بن ظافر ، استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد ، بيروت– لبنان . ، ط1 ، 2004 م

112. صافي محمود، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، مؤسسة الإيمان، بيروت– لبنان، ط4، 1998م.

113. صحراوي مسعود ، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت – لبنان –.، ط1، 2005م

114. صولة عبد الله ، الحجاج في القران ، جامعة منوبة ، منشورات كلية الآداب ، سلسلة لسانيات ، تونس . دط، 2001م

115. ضيف شوقي ، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق، ، مصر. ط4، 1425ه/2004م

116. الطبري محمد بن جرير، تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3 1420ه– 1999م.

117. طعيمة صابر، التاريخ اليهودي العام، دار الجيل ، بيروت – لبنان. ط3 1991م

118. طنطاوي سيد ، التفسير الوسيط، مطبعة السعادة، القاهرة–مصر، ط3، 1407ه/1978م.

119. الطهطاوي محمد عزة، الميزان في مقارنة الأديان، النصرانية والإسلام، دار القلم، دمشق–سوريا، ط2، 1995م.

120. طومسون طوماس، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تر:صالح علي سوداح، بيسان للنشر، ، بيروت. ط1، 1995م

121. عاشير عبد السلام ، الكفايات التواصلية، اللغة وتقنيات التعبير والتواصل، منشورات:TOP EDITION، الدار العالمية للكتاب، ، الدار البيضاء –المغرب–. ط1، 2007م

122. عبد الرحمان طه ، الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ، بيروت –لبنان-. ط1، 2013م

123. عبد السلام فاتح ، الحوار القصصي ، تقنياته وعلاقته السردية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ، بيروت–لبنان. ط1، 1999م

a. العجالي منصور ، أفعال الكلام ،كيف تنجز الأشياء بالكلمات،

124. العزاوي أبو بكر ، اللغة والحجاج ، دار الأحمدية ، ، الدار البيضاء – المغرب . دط ، 2006 م

125. العسقلاني بن أحمد علي حجر، فتح الباي في شرح صحيح البخاري، دار أبي حيان ، ، مصر. ط1، 1420هـ

126. علوي حافظ اسماعيلي ، الحجاج – مفهومه ومجالاته – ج2 ، الحجاج : مدارس وأعلام. عالم الكتب الحديث إربد – الأردن. ط1، 1431هـ – 2010م

127. علوي حافظ اسماعيلي ، الحجاج، مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، ج1: الحجاج: حدود وتعريفات ،عالم الكتب الحديثة، إربد – الأردن. ، ط1431،1هـ- 2010م

128. عياشي منذر ، مقالات في الأسلوبية، اتحاد الكتاب العرب، ، دمشق–سوريا-. ط1990م

129. الغزالي أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان. دط، دت

130. الغزالي أبو حامد، الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل، تح:روبير شدياق. عبد العزيز عبد الحق حلمي، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة–مصر، دط، 1393هـ/1973م.

131. غطاس الخشبة ، رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية، دار الهلال، القاهرة – مصر، ط1، 1997م.

132. فارس أحمد أحمد، النداء في اللغة والقرآن، دار الفكر اللبناني، لبنان، ط1، 1989م.

133. الفاضلي داود علي، أصول المسيحية كما يصورها القرآن الكريم، مكتبة المعارف، الرباط المغرب، دط، 1393هـ/1973م.

134. فان دايك تون ، علم النص ، مدخل متداخل الاختصاصات ، تر: سعيد حسن بحيري ، ، القاهرة – مصر . ط1، 1421هـ–2001م

135. فضل الله محمد حسين، الحوار في القرآن، قواعده وأساليبه ومعطياته، دار المنصوري للنشر، ، الجزائر. دط، دت.

136. فضل صلاح ، نبرات الخطاب الشعري، مكتبة الأسرة، ، مصر. ط2004م

137. فلوسي مسعود بن موسى، الجدل عند الاصوليين ، مكتبة الرشد، ، السعودية. ط1، 1424هـ–2003م

138. فودة عبد العليم السيد، الاستفهام في القرآن، مؤسسة دار الشعب، القاهرة–مصر، دط، دت.

139. الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ت يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، ، بيروت. دط، 1995م

140. فيود بسيوني عبد الفتاح، علم المعاني، مؤسسة المختار، القاهرة–مصر، ط3، 2004م.

141. القرطبي ، الجامع لأحكام القران ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، ط1، 1427هـ – 2006م .

142. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح:البردولي وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة–مصر، دط،1964م.

143. قصاب عصام، البحث عن الحقيقة الكبرى، دار الفكر، دمشق–سوريا، 1464هـ/1999م.

144. قطب سيد ، في ظلال القران، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط7، 1971.

145. قطب سيد ، في ظلال القرآن، دار الشروق، ، بيروت–لبنان-. ط9، 1400هـ/1980م

146. قطب سيد ،بنو إسرائيل في القرآن والسنة، دار الشروق، ، القاهرة- مصر. ط2، 1997م
147. قطب محمد ، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، القاهرة – مصر، ط9، 1422هـ-2001م.
148. كادة ليلى ، المكون التداولي في النظرية اللسانية، ظاهرة الاستلزام التخاطبي- أنموذجا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علوم اللسان العربي ، إشراف د. بلقاسم دفة. جامعة الحاج لخضر. باتنة- الجزائر. 2015م
149. الكفوي ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني ، الكليات ، تح : عدنان درويش – محمود المصري ، مؤسسة الرسالة ،. بيروت – لبنان . ط2 1419هـ – 1998م
150. كيرزويل أديث، عصر البنيوية، تر:جابر عصفور، دار سعاد الصباح، ، الكويت. ط1، 1993م
151. لوقا إبراهيم، المسيحية في الإسلام، سويسرا، ط5، 1995م.
152. ليتش جيوفري ، مبادئ التداولية ، تر : عبد القادر قنيني ، افريقيا الشرق، الدار البيضاء – المغرب. دط ، 2013 م
153. ليونز جون ، اللغة والمعنى والسياق، تر : عباس صادق الوهاب ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد العراق . ط1، 1987م
154. الماقري الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية ، بيروت – لبنان. دط،2010م
155. مالك بن نبي ، شروط النهضة ، تر: عمر كامل مسقاوي –وعبد الصبور شاهين- دار الفكر ، ، دمشق سوريا. ط10، 2011م
156. مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق،- سورية، ط1، 2011م
157. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر ، دمشق-سوريا. ط15، 2011م،
158. مانغينو دومينيك ، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر. ، ط1، 2005م
159. المباركفوري، الرحيق المختوم، دار السلام للنشر والتوزيع، ، المملكة العربية السعودية. دط، 1428هـ/2007م
160. مبارك محمد ، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ، بيروت –لبنان-. ودار الفارس للنشر، عمان-الأردن-. ط1، 1999م
161. المتوكل أحمد ، اللسانيات الوظيفية ، مدخل نظري ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت لبنان . ، ط2، 2010 م
162. المتوكل أحمد ، الوظائف التداولية في اللغة العربية ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، الدار البضاء – المغرب . ،ط1 ،1405هـ-1985م،
163. المتوكل أحمد ، الوظيفة بين الكلية والنمطية ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، ، الرباط –المغرب. ط1 ، 1424هـ -2003م
164. متوكل أحمد ، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية ، بنية الخطاب من الجملة الى النص ، دار الأمان ،، الرباط- المغرب . دط ، 2001م .مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت – لبنان، ط1، 1431هـ-2010م.
165. محمود يوسف عبد الكريم ، أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، مطبعة الشام، دمشق، ط1، دت.
166. المسدي عبد السلام ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب. ، ط2، 1986م
167. المسيري عبد الوهاب، موسوعة اليهود، واليهودية، والصهيونية. دار الشرق، ، بيروت. ط1، 1999م

168. مطران خليل ، ديوان الخليل نظم خليل مطران، دار الهلال، القاهرة- مصر، ط1949م.

169. مفتاح محمد وبوحسن أحمد ، المفاهيم وأشكال التواصل ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،مطبعة النجاح الجديدة، ، الدار البيضاء – المغرب . ط1 ، 1422هـ –2001م

170. المقريزي تقي الدين، تاريخ اليهود وآثارهم في مصر،تح: عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، ، القاهرة، مصر. دط، 1997م.

171. مكدونيل ديان ، مقدمة في نظرية الحوار، تر:عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، ، مصر. ط1، 2001م

172. ملّا عزيز صالح ، جملية الإشارة النفسية في القرآن الكريم، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، ، دمشق-سوريا- ط1، 2010م

173. المنجد في اللغة والأعلام ، دار الشروق ، بيروت-لبنان. ، ط28، 1986م

174. المودودي أبو الأعلى ، ماهية القاديانية؟ مؤسسة الرسالة، السعودية، ط1، 1984م.

175. الموصلي فتحي بن عبد الله ، فقه الحوار مع المخالف في السنة النبوية ، دار الأثرية، ، عمان – الاردن. ط1، 2007م

176. الهكسوس صلواتي ياسين، الموسوعة العربية الميسرة، مؤسسة التاريخ العربي، ، بيروت- لبنان. ط1، 2001م.

177. الهيتي عبد الستار ،كتاب الامة ، عدد 99، الحوار الذات –والاخر- ، قطر. ، ط1، 2004 م

178. ولد محمد الأمين محمد سالم ، مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) وتطوره في البلاغة المعاصرة ، مقال مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ، الكويت . عدد 28 (يناير –مارس 2000م

179. يقطين سعيد ، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، ، بيروت –لبنان-. ط1، 1997م

180. يقطين سعيد ، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ، الدار البيضاء-المغرب-. ط3، 1997م

181. يول جورج ، التداولية ، تر : قصي العتابي ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ، بيروت – لبنان. ط1 ، 1431هـ – 2010م

*المراجع باللغة الأجنبية:

1. Anscombre J.C, et O.Ducrot ; L´argumentation dans la langue.bruxelles, mardaga, 1983.
2. austin john.l. quand dire, C'est faire. Introduction de Giles lane . Paris. Seuil 1970,. Post face de Françoise Récanati. Titre original : how to do things with words. oxford university Press 1962.
3. David Lyle Jeffery ,people of the book, Christian identity and literary cultur William B.2007.
4. Eluerd Roland ; La pragmatique linguistique. Edi. Fernard, nathan, (université, information, formation), paris, France, 1985.
5. Jean Michel Adam ;linguistique textuelles des genre de discours au texte, Edi Nathan, Paris, France.2001.
6. Latraverse. François. ; la pragmatique (histoire et critique).pierre mardaga, éditeur bruxelles, Belgique, 1987.

7. Maiguineau . Dominique. ; pragmatique pour le discours littéraire. Collection lettres, sep, dunod, paris, France, 1997.
8. Maingueneau Dominique , Les termes clés de la linguistique.éditions du seuil, fevrier, 1996.
9. Mochlar j, et.Auchlin A . Introduction a la linguistique Contemporain .Paris. Armand colin . 1998.
10. Moschlar J et.Reboule A ; Dictionnaire encyclopédique de la pragmatique. Seuil, France, octobre, 1994.
11. Siouffi .G, et.Raemdonck .R ; 100 fiches pour comprendre la linguistique. Bréale, rosny, novembre, 1999.
12. Maingueneau Dominique ; Aborder la linguistique collection "lettre" dirigée par jaques génèrent et edmond blonc, édi . seuil, fevrier, 1996.
13. Mounin George ; Dictionnaire de linguistique quadrige ,puf, edition 1974..
14. searl. jhon R . les actes de langage. Introduction d'oswald original. Paris. Hermann. 1972 ;speech acts. Cambridge university Press 1962.
15. vignaux : George l'argumentation (essai d´une logique déseursive),librairie droz, Genève, Paris, France, 1976.

*فهرس الموضوعات:

*البسملة:

*شكر وعرفان:

*الإهداء:

*مقدمة:

* الباب الأول:التداولية والحوار في القرآن الكريم.

* الفصل الأول: –التداولية مفاهيم نظرية.

المبحث الأول: *–.المفهوم والنشاة.. 03

–مفهوم التداولية.بين اللغة والاصطلاح...03

–المفهوم الاصطلاحي..04

–الإرهاصات الأولى للتداولية.و اهم روادها..... 07

المبحث الثاني: *–**مبادئ التداولية**.و اهدافها...09

*–أفعال الكلام..09

–تصنيفات التداولية.. 09

–الضمنيات او متضمنات القول...11

*–مبدأ التعاون عند غرايس...12

–قواعدالتخلق...14

*–نظرية الملاءمة..14

*-القصدية..17

*-التفاعلية والسياق..18

*-الحجاج..19

-الحجاج عند بيرلمان وتيتيكا......................................20

-الحجاج عند ديكرو وأنسكمبر...................................20

*-مبدأ التخلق والكياسة...22

-تنوع وظيفة قوة الكلام..22

-قواعد فن التأدب والكياسة.......................................23

*-أهداف التداولية...24

المبحث الثالث: *علاقة التداولية.باللسانيات المعرفية....................26

*علاقتها باللسانيات البنيوية...26

*علاقتها بالنحو الوظيفي...27

*علاقتها بعلم الدلالة...28

*علاقتها باللسانيات النفسية...30

*علاقتها باللسانيات الاجتماعية.....................................30

*علاقتها باللسانيات التعليمية.......................................31

*علاقتها باللسانيات النصية وتحليل الخطاب........................31

*برنامج هنسن ودرجات التداولية....................................32

الفصل الثاني: *الحوار القرآني، مفاهيم نظرية.

المبحث الأول: *مفهوم الحوار وأنواعه..................................34

*الحوار بين المفهوم اللغوي والاصطلاحي...34

مفهوم الحوار الاصطلاحي...35

كلمة الحوار في القران الكريم...35

*الجدل ومفهومه اللغوي والاصطلاحي...36

*المراء ومفهومه اللغوي والاصطلاحي...38

*الحجاج والمحاجة..38

*المناظرة.و مفهومها اللغوي..39

*أنواع الحوار..40

-الحوار الداخلي(الحوار مع الذات)...41

-لماذا الحوار مع الذات؟...42

-الحوار الخارجي(الحوار مع الآخر)...44

المبحث الثاني: *الحوار القرآني سماته وأساليبه وقواعده..............45

*سمات الحوار القرآني..45

*أسلوب الحوار في القرآن الكريم...46

*القواعد الموضوعية للحوار في القرآن الكريم....................................46

*قواعد الحوار مع المخالف...48

المبحث الثالث: *شروط نجاح الحوار، ومعيقاته.

*شروط نجاح الحوار...53

*قواعد تداولية مهيكلة للحوار...55

*معيقات الحوار...57

*المعيقات الذاتية...57

*المعيقات الموضوعية..60

الفصل الثالث:*الخطاب القرآني، مفاهيم نظرية.

المبحث الأول*مفهوم الخطاب في المعاجم العربية والقرآن الكريم.........64

-مفهوم الخطاب لغة..64

-مفهوم الخطاب اصطلاحا...65

-الخطاب عند التهانوي..65

- مصطلح الخطاب في القرآن الكريم...66

- مصطلح الخطاب عند المفسرين...66

مصطلح الخطاب عند الأصوليين..67

-مصطلح الخطاب عند النحاة...67

-أوجه الخطاب القرآني..67

-الخطاب القرآني وحضور المتلقي..73

-علاقة الحوار القرآني بالخطاب القرآني...74

-الفرق بين حوار الخالق وحوار المخلوق...75

-مقاصد الحوار في القرآن الكريم.........................76

المبحث الثاني :*الخطاب في المفهوم الغربي.................79

- الخطاب عند ميشال فوكو وباختين.........................79

الفصل الرابع: *أهل الكتاب، مفاهيم نظرية.

***المبحث الأول:مصطلحات ومفاهيم.حول اهل الكتاب..........83**

- مصطلحات ومفاهيم.........................83

-من هم أهل الكتاب؟.........................85

***المبحث الثاني: بنو إسرائيل وأرض الميعاد.........................88**

-بنو إسرائيل.........................88

- بنو إسرائيل في صدر الإسلام.........................93

- شخصية بني إسرائيل في القرآن الكريم.........................94

- موقف اليهود من الرسول (ص) ودعوته.........................98

- رسالة عيسى(عليه السلام) إلى بني إسرائيل.........................102

المبحث الثالث:*موقف الحواريين واليهود من رسالة عيسى(عليه السلام)...103

-من هم الحواريون؟.........................103

-تآمر اليهود على قتل عيسى(عليه السلام) 103

-رفع عيسى عليه السلام.........................105

الباب الثاني: *الحوار القرآني ومحاورة أهل الكتاب، مقاربة تداولية .

الفصل الأول: *نماذج من الحوار القرآني وأبعادها التداولية..............109

المبحث الأول: *حوار الله سبحانه مع مخلوقاته. 109

-حوار الله سبحانه وتعالى مع الملائكة عند خلقه آدم..109

-حوار الله تعالى مع إبليس اللعين..115

-حوار الله تعالى مع نوح عليه السلام...118

-حوار الله تعالى مع إبراهيم عليه السلام...123

-حوار الله تعالى مع موسى عليه السلام..128

-حوار الله تعالى مع عيسى عليه السلام..132

-حوار الله تعالى مع النار...136

-حوار الله تعالى مع السماوات والأرض...138

-حوار الله تعالى مع عبده (صاحب الحمار)..139

المبحث الثاني:حوارات المخلوقين فيما بينهم........................142

-حوار ابني آدم..142

-حوارات الأنبياء:...144

-بين نوح وقومه..145

-بين نوح وابنه..148

-بين هود وعاد...151

-بين صالح وثمود...157
-حوار إبراهيم مع نفسه(ذاته)...160
-مناظرة إبراهيم مع قومه...161
-حوار إبراهيم مع أبيه...167
-مناظرة إبراهيم مع عدوه النمرود...171
-حوار إبراهيم مع ضيفه(الملائكة)...173
-حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل...175
-حوار موسى مع فرعون...177
-حوار السحرة مع فرعون...181
-حوار موسى مع قومه...183
-حوار موسى مع العبد الصالح...184
-حوار لوط مع قومه...189
-حوار شعيب مع قومه...195
-الحوار الأسري في القرآن الكريم...202
-محاورة يعقوب أبنائه...207
-حوار يوسف مع أبيه...208
- حوار المؤامرة والمكيدة...209
حوار التخفيف من الجريمة...210
حوار الحيلة والكذب...210

حوارات ما بعد الجريمة.......................................211

حوار مع العزيز.......................................219

حوار التسامح.......................................219

حوار التذكير بالنعم الإلهية.......................................220

الفصل الثاني: *الحوار القرآني مع أهل الكتاب.

المبحث الأول: القرآن الكريم والفئة المؤمنة من أهل الكتاب.........223

-القرآن الكريم يدعو إلى التواصل مع أهل الكتاب.......................................223

-من أهل الكتاب صادقون.......................................224

-الفئة المؤمنة الخيرة من أهل الكتاب.......................................226

-فرصة أهل الكتاب للتوبة بعد إقامة الحجة.......................................228

-وعد الله لأهل الكتاب ودعوتهم.......................................230

-مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن.......................................232

المبحث الثاني : القرآن الكريم والفئة الكافرة من أهل الكتاب......... 236

- حسد أهل الكتاب للمؤمنين.......................................236

-أهل الكتاب والعمل على ردة المؤمنين.......................................237

-جدال أهل الكتاب وجهلهم.......................................239

-كفر أهل الكتاب بآيات الله وكتمانهم الحق.......................................242

-كفر أهل الكتاب وصدهم المؤمنين عن السبيل.......................................243

-خيرية أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفسوق أهل الكتاب.......................................245

-تعنت الفئة الكافرة وتطاولها على الله سبحانه وعلى أنبيائه عليهم السلام............247

-غلو أهل الكتاب في الدين وتأليههم المسيح ابن مريم..........249

-عدوانية أهل الكتاب للمسلمين..........252

-غلو أهل الكتاب في الدين وعبادتهم الأهواء..........254

-جزاء الكفار من أهل الكتاب والمشركين..........254

الفصل الثالث: *محاورة القرآن بني إسرائيل، وذكر نعم الله عليهم.

المبحث الأول: *نعم الله على بني إسرائيل..........257

*بنو إسرائيل وظلم فرعون..........257

*ابتلاء بني إسرائيل في قدرتهم على الصبر..........258

*تفضيل الله بني إسرائيل على العالمين..........261

*تحقيق الأمن لبني إسرائيل؛ النفسي والغذائي..........263

* نعمة البعث بعد الصّعق في الدنيا..........266

*فضل الله وعفوه عن بني إسرائيل..........268

* إهلاك الله فرعون، وإنجاؤه بني إسرائيل..........269

*وعد الله لهم بدخولهم الأرض المقدسة 269

* العبرة بالقلة المؤمنة لا بالكثرة الفاسقة..........274

المبحث الثاني:*وعيد الله لبني إسرائيل، وعقابهم..........276

* ميثاق بني إسرائيل وتحذير الله لهم..........276

*ميثاق بني إسرائيل في العبادات والمعاملات..278

* بنو إسرائيل وقتلهم النفس وسفكهم الدماء..284

* بنو إسرائيل بين هوى النفس وقتل الأنبياء 287

* مسخ الله المعتدين في السبت 288

* لعنة الله بني إسرائيل لفعلهم المنكر 291

*فساد بني إسرائيل، وعُلوّهم في الأرض.. 292

* بنو إسرائيل واتهامهم عيسى بن مريم عليه السلام بالسحر 296

المبحث الثالث: *أفعال الكلام في حوار أهل الكتاب ومقاصدها وقوتها الإنجازية 299

*فعل القول بصيغة الأمر...299

*فعل القول بصيغة النهي...304

*فعل القول بصيغة الاستفهام...305

*فعل القول بصيغة النداء...309

*الخصائص التداولية لأفعال الكلام في محاورة أهل الكتاب. 312

الفصل الرابع :المنهج القرآني في محاورة أهل الكتاب،وغاياته.

المبحث الأول:أسلوب العرض والمواجهة، وأغراضه.......................315

* أسلوب الاستفهام الإنكاري...315

* أسلوب القصص..317

* أسلوب الوعظ والتذكير..318

*أسلوب التحدي والمباهلة..320

المبحث الثاني: *أسلوب الاستدلال وإقامة الحجة والبرهان................322

*الاستدلال عقلا وإبطال دعواهم 322

*إظهار سوابقهم مع رسلهم 323

*القرآن الكريم يطالب أهل الكتاب بالدليل والبرهان.................................. 324

*الاحتجاج ببراهين محمد صلى الله عليه وسلم 324

*الاستدلال بنصوص كتبهم وبما يسلمون به 325

*الاستدلال بلازم كلامهم 326

*الاستدلال بتحريف كتبهم 327

*التناقض دليل كذبهم 328

*إبطال دعواهم بإثبات نقيضها 329

*الاستدلال عليهم بإظهار تشهيهم وتحكمهم لهواهم 329

***الخاتمة** 331

***فهرس المصادر والمراجع**...335

***فهرس الموضوعات** 344

الملخص:

لا شك أن نجاح الحوار مع أهل الكتاب يتوقف على نجاحه مع الذات، وفي البحث عن السبل الكفيلة لبناء جسور التواصل مع المخالف والاعتراف به والانتقال معه من علاقة الحوار إلى علاقة الجوار. ومن الصّدام إلى التعايش والتشارك والتكامل.

لذلك سعى هذا البحث إلى اعتماد مقاربة تداولية لاكتشاف مدى انسجام المنهج التداولي مع العمل الذي قام به المفسرون في قراءة النص القرآني، وتأويله وفهمه فهما يفيد في معالجة الوقائع التي تنتج من خلال العلاقات الحيواتية المتجددة مع أهل الكتاب في زماننا المعاصر. وكذا استخلاص الأغراض والمقاصد التي هدف إليها الخطاب القرآني في محاورة أهل الكتاب. ومنها اعتماد أسلوب اللين في الحوار معهم، والبعد عن التعصب والعنف، واعتماد الحجة والبرهان. وذلك تماشياً مع سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وقد عمد اﻻلبحث إلى توظيف بعض الآليات الإجرائية التي تساعد على إدراك هذه المقاصد والمعاني والتذكير بها. ومن هذه الآليات، أفعال الكلام، ومتضمنات القول، والقصدية، وبعض العلاقات الحجاجية التي لا يخلو منها هذا الخطاب المعجز في شكله ومضمونه.

الكلمات المفاتيح: التداولية، الخطاب القرآني، الحوار، أفعال الكلام، القرآن الكريم.

Abstract :

there is no doubt that the success of dialogue with the people of the book depends on its success with the self, and in the search for ways to build bridges of communication with them, and move from the dialogue to the neighborhood, from confrontation to coexistence, partnership and integration.

Therefore, this research sought to adopt a pragmatic approach to discover the compatibility of this method with the work done by the ancient interpreters in reading the Qur'anic text. It is useful in dealing with the facts that are produced through the renewed living relations with the people of the book in our modern times.

As well as draw the purposes and purposes that the aim of the Koranic discourse in the dialogue of the people of the book. Including the adoption of softness in dialogue with them, stop intolerance and violence, and adopt argument and proof.

including the adoption of softness in dialogue with them, avoiding intolerance and violence, and the adoption of argument and proof. The research sought to employ some procedural mechanisms that help to realize these objectives and meanings and remind them.

Key words : pragmatic, Qur'anic discourse, dialogue, speech acts, quran.

résumé :

il ne fait aucun doute que le succès du dialogue avec les gens du livre dépend de son succès avec soi, et dans la recherche de moyens de construire des ponts de communication avec l’autre, et de passer du dialogue au coexistence, au partenariat et à l'intégration .Y compris l'adoption de l’indulgence dans le dialogue avec eux, et l’écart de l'intolérance et de la violence, et l'adoption d'arguments et de preuves.

C’est pou cela que cette recherche vise à utiliser une approche pragmatique qui aide à réaliser ces objectifs et ces significations, pour démontrer la cohérence qui existe entre la méthode pragmatique et les anciennes interprétations du saint coran. Et cela pour une meilleur lecture contemporaine, qui nous aidera a comprendre notre réalité vis-à-vis aux nouvelles relations avec les gens du livres en nos jours. Tout en déterminant les buts du dialogue coranique envers eux. et pour élaborer les buts visés par le discours coranique dans le dialogue avec les gens du livre. Parmi ces mécanismes, on note les actes de la parole, les implications de la parole, l'intention du parole.

Par conséquent, cette recherche à adopter une approche pour démontrer la compatibilité de la méthode pragmatique avec la lecture du texte coranique par les anciennes interprétations, et les faits qui se produisent à travers les relations renouvelées envers les gens du livre dans la vie moderne.

Mots clés : pragmatique, discours coranique, dialogue, actes de parole, coran.